جنكيز ايتماتوف

قصص مختارة

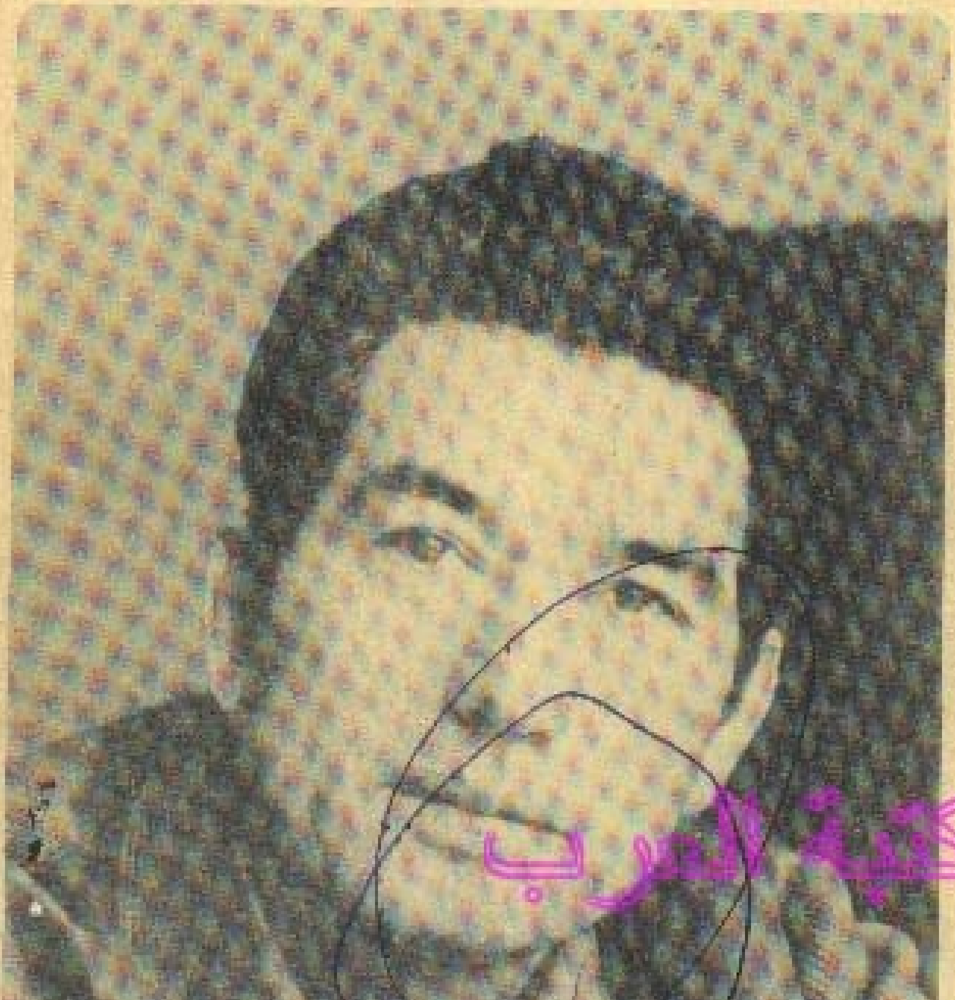

منتديات مكتبة العرب
www.libraray4arab.com/vb

دار التقدم . موسكو

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

التقدم • أعلام الأدبِ السوفييتي

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

جنكيز

ايتماتوف

قصص مختارة

دار التقدم

موسكو

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٧٧

Чингиз Айтматов
Избранное
На арабском языке

مقـــدمة

تمتاز قصص جنكيز ايتماتوف بلغة حرة خاصة ، بحب الى الحركة ، الاندفاع ، الاجتياح . التعرف على ايتماتوف نفسه يجبر من الدقائق الأولى على الاندهاش للتعارض بين أسلوبه الكتابى وتحفظه الغريزى أو المكتسب ، ولكن وبكل الأحوال الطبيعى تماما . بطىء فى حركاته ، بخيل فى كلماته ويجيب على الأسئلة على مهل متفكرا . يوما ما قررت أن أسأله : « كيف تنظر نفســك الى أعمالك ؟ » أجاب : «لا على السواء» سكت وأضاف : « فى كل وقت بطريقة تختلف » .

هذا الجواب ، يبدو كما لو انه يوافق على الأكثر ، ليس بالنسبة للكاتب وحسب ، بل ولقرائه أيضا ، الذين درجوا على العودة الى ما يقرأون . أكثر من هذا ، فكتاب ايتماتوف المفتوح

للمرة الأولى يستطيع ليس فقط اخضاع القارىء لمزاجه ، بل و « يجبر » على تركه جانبا لبعض الوقت للتأمل والتفكر • ان تأثير نثر ايتماتوف العاطفى كبير عادة الى درجة أن الصفحات التراجيدية فى قصة « ما بعد الحكاية » مثلا ، أو « وداعا يا غولسارى » ليس من السهولة قراءتها « دفعة واحدة » كلها •

مرتبطة بوحدة الأسلوب ، بعمومية الأفكار ، تختلف أعمال ايتماتوف بأصدائها العاطفية ، بتركيبها ، بمحتواها ، الى درجة أنها فعلا يفضل ان تقرأ « حسب المزاج » وفى أوقات مختلفة • ولكن لم تترك واحدة منها القارىء لا مباليا •

تقف مؤلفات جنكيز ايتماتوف فى صف انجازات الأدب العالمى المعاصر ، ليس فى هذا شك منذ وقت طويل • كتبه ترجمت الى أكثر من خمسين لغة ، وهذا يعنى ان أكثر من خمسين شعبا تعرفت على حياة القرغيز ، معاصرى الكاتب • ان تحفظ ايتماتوف الداخلى الذى سبق الحديث عنه لا يحدد مطلقا عمق نفاذه الى الحياة • وهناك ملامح ظاهرة بسطوع فى ايتماتوف ــ الانسان • انها قبل كل شىء ، وبشكل حاد خاص كراهيته ورفضه للتبرجز والمراءاة والتعنت ــ موت للشهامة ، للشرف ، للحب ، للتفانى • بينما تكمن فى هذا صفات الانسان الحقيقى المكرسة له أكثر الصفحات الهاما فى قصص ايتماتوف •

ينتمى جنكيز ايتماتوف الى جيل مرت فتوته وشبابه خلال سنوات الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ ــ ١٩٤٥) • ولد ١٩٢٨

فى قرغيزيا ، فى قرية شيكير بوادى تالاس • تستأهل هذه المنطقة من قرغيزيا الحديث عنها لو باختصار شديد •

تالاس ــ واحد من وديان قرغيزيا الجبلية الكبيرة ، واحد من بؤرها الثقافية القديمة • وبالذات مع تالاس تربط التقاليد الشعبية ذكرى مآثر ماناس ، بطل الملحمة الضخمة ، التى توارثتها الاجيال شفاها عبر القرون • حسب الأسطورة الشعبية يوجد فى تالاس قبر ماناس ، ومرقده • ولقد اكتشف العلماء ان المرقد لا علاقة له ببطل الملحمة ، الا ان الاسطورة ظلت تعيش •• وليس وحدها فقط ، بل والعديد من الاساطير ، الحكايات ، القصص ، تروى فى تلك الناحية حيث تقضت طفولة جنكيز ايتماتوف •

يحتفظ الكاتب بذكرى طيبة لجدته أم أبيه التى أجادت واحبت قص الأساطير والحكايات •

« لقد ربت جدتى فى نفسى ، وربما بدون قصد أو عمد، حب لغتى الأم ــ يكتب ايتماتوف فى « ملاحظات عن نفسى » ــ لغتى الحبيبة ! فقط الكلمة الحبيبة ، التى وعيت وفهمت فى الطفولة قادرة على ارواء الروح بالشعر، المولود من تجربة الشعب مفجرا فى الانسان ينابيع الاعتزاز الوطنى ، ممكنا اياه التمتع بتعدد مستويات ومعانى لغة الأجداد • الطفولة هى نواة شخصية المستقبل للانسان • فى الطفولة بالذات تتراكم المعرفة الحقيقية بأصول الكلام ، آنذاك بالذات ينشأ الاحساس بالترابط مع الناس المحيطين ، مع الطبيعة المحيطة ، مع الثقافة الوطنية » •

بالطبع ، ليس كل حفيد يستمع بتلهف الى حكايات وأساطير جدته يصبح فيما بعد فنانا ، ولكن الموهبة الأدبية تتفتح على الأكثر مبكرا ، ومثل هذه القصص توقظ وتطور المخيلة ، تشكل التفكير وعلاقة الشاعر بالواقع • وعلى صفحات أعمال ايتماتوف يمكننا رؤية اثبات واضح لهذا حيث نجد تمثلا عضويا خاصا للروح الشعرية الشعبية ، القريبة من الحياة الشعبية البسيطة •
ومن المهم ان نشير الى ما يلي : من عمل الى آخر يصبح هذا النفاذ فى المواضيع الفولكلورية فى نسيج قصص ايتماتوف أكثر عمقا وتواشجا ، أكثر دقة وتحققا ، وبمهارة خاصة •

ولكن ، وبالطبع ، ليس فقط الأعمال الشعرية الشعبية ساهمت بتشكيل ملامح ايتماتوف الفنية • على هذه العملية المعقدة أظهر تأثيره أيضا الأدب القرغيزى السوفييتى الشاب ، متواجدا لأكثر من خمسين عاما بقليل ، وكما قال الكاتب نفسه أكثر من مرة الأدب الروسى أيضا ـ الكلاسيكى والمعاصر السوفييتى

الا أنه ، ومهما كانت الاسنادات التى يعثر عليها الفنان فى ابداعه جوهرية محسوسة فان القوة الرئيسية التى تحدد محتوى واتجاه أعماله تبقى طبعا واقعه المعاصر بكل مظاهره •

ان موقع ايتماتوف الابداعى والوطنى كان قدتحدد منذ بدء طريقه الأدبى • لعبت فى تثبيته دورها تجربة الكاتب الحياتية• عمل زمن الحرب فى قرية ، سكرتيرا لمجلس سوفييت القرية ، مساهما فى جمع الضرائب مراقبا فى فرقة تراكتورات • يتحدث ايتماتوف عن تلك الأوقات: «اذا كنت قد عرفت الحياة فى طفولتى

من جانبها الشعرى ، المضىء — فانها الآن انتصبت أمامى بجانبها الصارم ، العارى ، الحزين ، البطولى • لقد رأيت شعبى فى حالة أخرى له — فى لحظة الخطر الأقصى يتهدد الوطن ، لحظة التوتر الأكبر فى القوى الروحية والجسدية • كنت مضطرا، ملزما برؤية هذا — عرفت كل عائلة فى القرية ، عرفت كل واحد من هذه العوائل ، عرفت الحياة من مختلف جوانبها ، فى مختلف مظاهرها •

بعد الحرب توجه للدراسة — فى البداية فى مدرسة تربية الدواجن ، ومن بعد فى معهد اقتصاد زراعى ، عمل حتى عام ١٩٥٦ اختصاصيا بتربية الدواجن • لكن الأدب ظل يلح عليه ويشغل باله ، فمارس العمل الصحفى أيضا ، وكذلك الترجمة . أما فى عام ١٩٥٦ حيث انضم الى صفوف الدراسات الأدبية العليا فى موسكو فقد كانت تجمعت لديه تجربة كتابية لا بأس بها •

بعد « جميلة » أصبح كل عمل جديد لايتماتوف حدثا أدبيا ، والقراء راحوا يتدفقون طوعا على كل قصة جديدة له باهتمام شديد ، متفحصينها بنفس الوقت : فمن يمنح الكثير يطلب منه الكثير • وايتماتوف سواء كان يقص عن مشاعر جميلة ودانيار الكبيرة الجامحة المليئة تماما بالاحترام الانسانى بنفس الوقت ، أو كان يقص حول المصير التعس للسائق الياس القاتل حبه بنفسه ، سواء كان يكتب عن الحياة المعقدة المتناقضة لاناس مثل المعلم ديوشين المتواضع الناكر الذات ، أو المخلص

فى نزاهته العميقة صاحب الجواد الأصيل غولسارى تانابای باكاسوف ، يبقى الكاتب جديرا بثقة قرائه وحبهم •

ان نثره لا يحمل طبيعة ارشادية أو وعظية ، لكنه فى الحقيقة يربى فى الانسان الاحساس بالجمال ، يعلم الاحترام والتعاطف مع الناس ، يعلم عدم مسامحة الانانيين والمتعنتين فى أصغر تطاول لهم على الكرامة الانسانية لآخر •

ان ايتماتوف قاصا للعالم عن الشعب القرغيزى استطاع التعبير عن أعمق أعماق الروح الشعبية • ان فن الواقعية ملموس فى كل جوانبه ـ فى محتوياته ، فى رموزه • أبطال ايتماتوف اناس ، يعيشون فى زمن محدد ، وفى مكان جغرافى معلوم ، كل واحد منهم يرتبط بآلاف الخيوط بالماضى ، بالحاضر ، وبالمستقبل ـ لشخصه ولشعبه • ابطاله ـ اناس سوفييت ، يشغلهم ما يشغل جميع الناس فى بلادنا ، أمامهم تنتصب نفس المسائل الانسانية الأخلاقية ، انهم يساهمون فى نفس الأحداث، وهكذا أيضا يتفكرون بمعنى الحياة وغايتهم فيها • نحوهم تتوجه نظرة الفنان ، الذى هو بكل معنى الكلمة ، معاصر لأبطاله • «الكاتب ، بالطبع ، يجب أن يملك من الطبيعة القابلية على التفكير فنيا ، الا أن تشكيل موهبته ، شخصيته ، مرتبط بالوسط الاجتماعى المعين ، بالتجربة الروحية ، وبالتقاليد الثقافية الموجودة فى ذلك الوسط، وبنظامه السياسى القائم وآفاقه المبدئية ـ يتحدث ايتماتوف • ـ بالنسبة لنا هذا الوسط ـ المجتمع السوفييتى ، والنظام الاشتراكى ، والأيديولوجية الشيوعية ••»

عن كل قصة لايتماتوف ، عن محتـواها ، لغتها ، صفاتها الأخرى ، يمكن الحديث طويلا وطويلا • ولكن أمام القـراء ـ كتاب ، يرون بأنفسهم فيه أكثر بكثير مما تعرضه عليهم كلمـة تقديم • ومن الطبيعى ، يرون ما هو أهم ، الشىء الأهم ، لأجل ماذا تنكب الكاتب مهمة الكتابة • انه معبر عنه بقوة ايمـــان كبيرة بكلمات ايتماتوف الموجهة الى بطله الصغير فى قصـته « ما بعد الحكاية » •• « مهما كان بانتظرنا على الأرض فـان الحقيقة ستكون ابدا خالدة ، ما دام الناس يولدون ويموتون » •

لاريسا ليبيديفا

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

المعلم الأول

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

ها أنا أفتح الشباك على مصراعيه ، فينصب فى الغرفة تيار من الهواء الطلق • وأمعن النظـــر فى الغبش المزرق الآخـذ بالنصوع ، بمخططات وأوليات الصـــورة التى بدأتها • وهى مخططات كثيرة • ذلك لأننى اعدت الصورة من جـــديد مرارا وتكرارا • ولكن الحكم على الصورة ككل يبدو سابقا لأوانه• فأنا حتى الآن لم اكتشف ذلك المهم الذى يجيء فجأة فى حتمية ووضوح متنام وترجيع فى الروح لا يسبر ولا يدرك كنهـه مثل هذه الشروقات الصيفية الباكرة • أسير فى الصمت قبيل اطلالة الفجر ، أفكر وأطيل التفكير ، وهذا ما يحدث فى كل مرة ، وفى كل مرة اتيقن من أن صورتى ما تزال مجرد أفكار •

وأنا لا أميل الى أن اتحدث مسبقا وأخبر ولو الأصدقاء المقربين عن صورة لم تتم بعد • لا لأننى غيور جدا على عملى ، بل لمجرد اعتقادى ، بأنه مثلما يصعب الحدس كيف ســـيصبح الطفل الذى ما يزال اليوم فى المهد ، يصعب الحكم على عمـل

فنى لم يكمل ولم ينته رسمه • ولكننى فى هذه المرة أخرج على قاعدتى ، واريد أن أعلن على الملأ وبالأحرى ، ان اشاطر الناس افكارى عن صورة لم يتم رسمها بعد •

وليست هذه نزوة • أنا لا أستطيع أن أفعل غير ذلك لاحساسى بأنى لا أقوى على ذلك وحدى • فالقصة التى تهز روحى ، القصة التى حفزتنى على أن أمسك بالريشة تبدو لى من الضخامة بحيث لا أستطيع أن أستوعبها • أخشى ان لا أنهض بها • أخشى أن أهرق ما فى الكأس • اريد أن يساعدنى الناس ويسدوا لى النصيحة ، أن يقدموا حلا ، أن يقفوا ولو فكريا معى الى جانب منصة الرسم ، أن يقلقوا معى •

فلا تضنوا بحرارة قلوبكم • واقتربوا • وأنا ملزم على أن أقص هذه القصة ••

تقع قريتنا كوركوريو على سفوح هضبة واسعة حيث تتحدر نهيرات جبلية جياشة من مضايق كثيرة • وتحت القرية ينبسط الوادى «جولتايا» (الأصفر) ، السهب الكازاخى الهائل المحدود باطناف « تشيرنيه غورى » (الجبال السوداء) وخط السكة الحديد القاتم اللاحب ، المتوغل خلف الأفق فى الغرب عبر السهل •

وفوق القرية تقف شجرتا حور كبيرتان على رابية • وانى لاذكرهما منذ ذلك الحين كما أذكر نفسى • وانت تراهما قبل

أى شىء آخر مهما تكن الجهة التى تدخل منها القرية • فهما دائما على مرأى مثل فنارين على تل • وفى كل مرة أنزل من القطار ، وأسير عبر السهب الى قريتى أبحث بعينى أولا على شجرتى الحور الحبيبتين دون أن أعرف تفسيرا لذلك ، ربما هى انطباعات سنى الطفولة العزيزة على الانسان على نحو خاص ، أو لعل لذلك علاقة بمهنتى كفنان • وأيا كان طولهما فليس فى امكانك أن تراهما فى الحال من مثل هذه المسافة، ولكنهما بالنسبة لى محسوستان دائما ومرئيتان دائما •

وكم من مرة عدت من الاصقاع البعيدة الى كوركوريو كنت أفكر دائما فى حزن ممض : « هل سأرى شجرتى الحـور التوأمين قريبا ؟ حبذا لو أصل الى القرية سريعا ، وأهرع الى الرابية حيث الشجرتان ثم أطيل الوقوف تحتهما ، واسمع حفيف الأوراق فى تلذذ » •

وفى قريتنا أنواع شتى من الأشجار • ولكن شجرتى الحور هاتين من نوع خاص • ان لهما لغتهما الخاصة ، ولهما ــ عـلى ما يبدو ــ روحا صداحة خاصة • ومتى تأتى اليهما ليلا أو نهارا تجدهما تتمايلان وتتضاربان أغصانا وأوراقا ، وتضطربان دون توقف ، ولكن بطرائق شتى • فتارة يبدو وكأن موجة هادئة تلعق الرمل • وتارة يسرى فى الأغصان مثل نور غير منظور ، مثـل همس عاطفى حار ، وتارة بعد أن تهدأ فجأة وللحظـة تزفران بصخب ودفعة واحدة بكل أوراقهما المستثارة وكأنهما تلتـاعان على شىء • وحين تندفع سحابة ممطرة وريح العاصـــفة تضرب

الأغصان ، مقطعة الأوراق ، تهدر الشجرتان مهتزتين فى مرونة مثل لهب محتدم . فيخيل اليك ان فى هديرهما الشموس نداء متمردا : « لا ! لن تحنينا .. لن تقطعينا ! »

وفيما بعد ، بعد عديد من السنين ، أدركت سر شجرتى الحور . انهما تقفان عاليا على الرابية مكشوفتين للرياح كلها ، تتجاوبان مع أخف نسمة ، وكل ورقة فيهما تلتقط فى رهافة أخف نفثة .

ولكن اكتشاف هذه الحقيقة البسيطة لم يجعلنى يائسا كليا، ولم يحرمنى من ذلك الاحساس الطفولى الذى احفظه حتى الآن، وحتى الآن تبدو لى هاتان الشجرتان على الرابية حيتين وغير عاديتين . وهناك بالقرب منهما خلفت طفولتى مثل قطعة من زجاجة خضراء مسحورة ..

وفى اليوم الأخير من الدراسة قبل بداية العطلة الصيفية كنا ـ نحن الصبيان ـ ننطلق الى هناك لكى ننقض على أعشاش الطيور . وفى كل مرة كنا نرتقى الرابية فى هتاف وصفير كانت الشجرتان العملاقتان تهزان اعطافهما ذات اليمين وذات الشمال وكأنهما تحييانا بظلهما الوارف وحفيف أوراقهما الغزل . أما نحن ، العيارين الحفاة ، فكنا نتسلق الفروع والأغصان وأحدنا يساعد الآخر مثيرين الرعب فى مملكة الطيور . وتندفع أسراب الطيور فوقنا فى زعيق . ولكن ، لا شىء يلوى بنا . كنا نصعد أعلى فاعلى نتبارى أينا أشد جرأة ، وأخف حركة . وفجأة ينداح أمامنا ونحن فى علو شاهق ، فى حالق الطيور ، عالمنا الباهر

عالم الرحابة والنور وكأنما في سحر • وكانت تدهشنا عظمة الأرض ، ونحبس أنفاسنا جامدين وكل منا على غصنه ، وننسى الأعشاش والطيور • وكان الاسطبل الكولخوزى الذى كنا نعتبره أكبر بناية فى الدنيا يلوح من هنا سقيفة متواضعة • ووراء القرية فى الاغبشاش السرابى اختفى السهب المقفر المترامى • فننعم النظر فى ابعاده اليمامية اللون ما وسعنا النظر ، فنرى ارضا واسعة كثيرة لم يدر فى خلدنا من قبل أنها موجودة ، ونرى انهارا لم نرها من قبل • وكانت الأنهار تتلألأ فى الأفق بخيوط فضية ناعمة •• فنفكر ونحن نختفي في الأغصان : أهذه نهاية الدنيا أم هناك فى البعد سماء مثل هذه أيضا ، وسحب سهوب وأنهار كهذه ؟ ونصغى ونحن نختفى فى الأغصان الى صوت الرياح اللاأرضى ، بينما تتهامس الأوراق فى جواب ترحابى عن الأصقاع المغرية المجهولة المخفية وراء الأبعاد اليمامية الألوان •

وكنت أصغى الى حفيف الشجرتين وقلبى يدق رهبة وفرحا، وأحاول مع هذا الحفيف الذى لا ينقطع ان أتصور تلك الأبعاد القصية • شيء واحد لم يخطر ببالى آنذاك : من غرس هاتين الشجرتين ؟ بم حلم وعم تحدث ذلك المجهول وهو يغرس جذور الشجرتين فى الأرض ، وبأى أمل انبتهما هنا على الرابية ؟

ولسبب غير معروف سميت بيننا تلك الرابية التى تقف عليها الشجرتان بـ « مدرسة ديوشين » • وانى لأذكر حين يبحث انسان عن حصان ضائع يقول الشخص لمن يلتقى به : « اسمع!•• ألم تركميتى ؟ » فيرد عليه فى الغالب : « هناك فى الأعلى قرب

مدرسة ديوشين أطلقت الخيول ليلا • اصعد فقد تراه هناك » • وكنا نحن الصغار نكرر مقلدين الكبار ودون تفكير : « هيا يا صغار الى مدرسة ديوشين ، الى شجرتى الحور ، نطارد العصافير » •

وقيل ان مدرسة كانت تقع على هذه الرابية فى زمن ما • ونحن لم نجد لهذه المدرسة أثرا • وفى طفولتى حاولت أكثر من مرة أن أعثر ولو على اطلالها ، فطوفت وبحثت ، ولكن لم أجد شيئا • ثم بدا لى غريبا أن تسمى الرابية الجرداء « مدرسة ديوشين » فسألت الشيوخ ذات مرة من هو ديوشين هذا •فأجاب أحدهم ملوحا بيده باهمال : «من هو ديوشين ؟ انه ينحدر من سلالة اسمها « غنمة عرجاء » • هو ذلك الشخص الذى يعيش حتى الآن هنا • وقد كان ذلك منذ زمن بعيد • وكان ديوشين فى ذلك الوقت كومسوموليا • وكانت على الرابية سقيفة مهجورة لأحد الناس ففتح ديوشين هناك مدرسة، وعلم الأطفال• فهل كانت مدرسة فعلا ؟ انها اسم بلا مسمى • وكان زمانا طريفا • اذ ذاك من يستطيع أن يمسك الحصان من عرفه ، ويضع قدمه فى الركاب يعتبر نفسه سيدا • وكان ديوشين يسلك هذا السلوك • كان يفعل ما يعن له • والآن لا تجد من تلك السقيفة ولا حجر واحد والشىء المفيد الوحيد انّ اسمها بقى ••• »

وكنت قليل المعرفة بديوشين • أتذكر انه كان كهلا مديد القامة شكسا له حاجبان كثيفان حادان • وكان بيته فى الضفة الأخرى من النهر فى شارع الفريق الثانى • وحين كنت فى القرية

لما أزل كان ديوشين يعمل خبيرا فى رى حقول الكولخوز فكان يمضى كل وقته فى الحقول • وكان بين الفينة والفينة يأتى الى شارعنا راكبا شادا الى السرج رفشا كبيرا • وكان حصانه يشبهه على نحو ما : بادى العظام نحيلا ورقيق القدمين • ثم تقدمت السن بديوشين وقيل انه أخذ ينقل البريد • ولكن ذلك قول بالمناسبة • والأمر غير ذلك • والكومسومولى فى ادراكى آنذاك أكثر الفرسان توقدا فى العمل والكلام ، وأنشط أهل القرية ، فهو يخطب فى الاجتماعات ، ويكتب فى الجرائد عن المتبطلين والمبذرين • ولم يكن فى وسعى أن أتصور ان ذلك الرجل الملتحى المتواضع كان كومسوموليا فى يوم من الأيام ، بل كان أيضا — وهذا أغرب الأشياء — يعلم الأطفال ، وهو الضعيف فى القراءة والكتابة • لا • لم يكن ذاك يدخل فى رأسى ! وأقول بصراحة اننى اعتبرت هذه من الحكايات الكثيرة التى تتناقلها القرية • ولكن كل شىء ظهر على العكس ••

فى الخريف الماضى تلقيت من القرية برقية دعانى فيها أهل القرية الى الاحتفال بفتح مدرسة جديدة بناها الكولخوز بوسائله • وفى الحال اعتزمت على السفر ، فلم أستطع أن أقعد فى البيت فى مثل هذا اليوم السار لقريتنا • بل وسافرت فى وقت مبكر بعدة أيام ، وقلت لنفسى : لا تجول والق نظرة ، وارسم تخطيطات لصور جديدة • وظهر انهم كانوا يتوقعون حضور الأكاديمية سليمانوفا من بين المدعوين • وقد قالوا لى أنها ستمكث هنا يوما أو يومين ثم تسافر من هنا الى موسكو •

وكنت أعرف ان هذه المرأة المشهورة الآن قد رحلت عن قريتنا الى المدينة فى الطفولة . وقد تعرفت عليها بعد أن صرت من سكان المدينة . وكانت متقدمة فى السن بدينة اشتعل الشيب فى شعرها الممشط بنعومة . وكانت ابنة قريتنا المشهورة ترأس كرسيا فى الجامعة وتلقى المحاضرات فى الفلسفة ، وتعمل فى الأكاديمية ، وتسافر الى الخارج غالبا . كانت شخصا مشغولا فلم يسعدنى الحظ فى التعرف عليها عن كثب ولكنها كانت ، كلما التقينا ، تبدى اهتماما بحياة قريتنا دائما ، وتقول رأيها فى رسومى دائما ولو كان رأيا مقتضبا . وذات مرة عزمت على أن أقول لها :

ـ جميل منك التيناى سليمانوفنا أن تأتى الى القرية وتتعرفى على أهلها . فهم هناك يعرفونك جميعا . ويفخرون بك . ولكنهم يعرفونك عن طريق السماع أكثر . وقد يقولون بالمناسبة أن عالمتنا المشهورة تتحاشانا فى الظاهر ، وقد نسيت الطريق الى قريتها كوركوريو .

واذا ذاك ابتسمت التيناى سليمانوفنا ابتسامة غير مرحة وقالت :

ـ بالطبع تجب الزيارة . فأنا نفسى قد حلمت طويلا بزيارة كوركوريو فقد انقضى زمن طويل على انقطاعى عنها . حقا انني لا أملك أقارب هناك . ولكن هذا ليس جوهر الأمر . سأذهب بالتأكيد . وحرى بى ان أذهب . حننت الى موطنى .

ووصلت الأكاديمية التيناى سليمانوفا الى القرية قبيل

الوقت الذى يجب فيه أن يبدأ الاجتماع الاحتفالى فى المدرسة. وقد رأى الكولخوزيون سيارتها من الشباك ، فهرع الجميع الى الشارع • ورغبوا جميعا فى مصافحتها ، الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها ، الشيوخ منهم والصغار • ويبدو أن التيناى سليمانوفنا لم تكن تتوقع مثل هذه الحفاوة ، بل وبدا لى أنها مرتبكة • شقت طريقها الى منصة الرياسة على المسرح بصعوبة محيية الناس ويداها على صدرها •

ولعل التيناى سليمانوفنا قد حضرت أكثر من مرة اجتماعات احتفالية ، ولعلها كانت تستقبل دائما فى غبطة وتكريم • ولكنها هنا فى المدرسة الريفية الاعتيادية قد أربكتها حفاوة أبناء قريتها واثارتها كثيرا ، فحاولت أن تحبس دموعها غير المرغوبة •

وبعد انتهاء القسم الرسمى من الاحتفال قلد الأحداث الطلائع الضيفة العزيزة رباطا أحمر ، وقدموا الزهور لها ، وسجلوا اسمها فى أول سطر فى سجل الزيارات للمدرسة الجديدة • ثم بدأت حفلة متنوعات لفرقة الهواة المدرسية • وكانت ممتعة جدا ومرحة • دعا مدير المدرسة بعدها الى بيته ضيوفا ومعلمين وكولخوزيين نشطين •

وهنا لم يسعهم أيضا الا أن يعربوا عن فرحهم بمقدم التيناى سليمانوفنا فاجلسوها اكرم مجلس مزين بالطنافس ، وسعوا فى كل طريقة ممكنة الى أن يعربوا عن احترامهم لها • وكان الجو صاخبا . كشأنه فى مثل هذه المناسبات ، وكان الضيوف يتحدثون فى حيوية ، ويقترحون الانخاب • ولكن فتى يدخل البيت ويقدم

لرب البيت حزمة من البرقيات . وراح الحضور يتناقلون البرقيات من واحد الى الآخر ويقرؤونها : التلامذة القدامى يهنئون أهل قريتهم بفتح المدرسة .

وسأل المدير :

ـ اسمع . هل العجوز ديوشين هو الذى جاء بهذه البرقيات ؟

أجاب الفتى :

ـ نعم . يقول انه كان يهمز حصانه طوال الطريق رغبة منه فى الوصول عند الاجتماع لتقرأ البرقيات على الناس ، فتأخر شيخنا قليلا ووصل مغموما .

ـ ولم هو واقف هناك ! ليترجل من فرسه . أدعه !

وخرج الفتى يدعو ديوشين . ولسبب ما انتفضت التيناى سليمانوفنا الجالسة الى جانبى ، وسألتنى فى غرابة عن أى ديوشين يتحدثون ، وكأنها تذكرت شيئا فجأة .

ـ انه ساعى البريد فى الكولخوز يا التيناى سليمانوفنا . أتعرفين ديوشين العجوز ؟

هزت رأسها فى غموض ، ثم حاولت ان تنهض . ولكن فى تلك اللحظة مر من النافذة رجل على حصان سمعنا وقع حوافره . وعاد الفتى وقال لرب البيت :

ـ لقد دعوته يا أغانى* .. ولكنه انصرف . كان عليه أن

* أغاى : لقب يقال لاحترام الكبار ومعناه الحرفى « الأخ الكبير » .

يوصل الرسائل للآخرين .

فقال أحد الحضور بعدم رضى :

ــ ليوصلها اذن .. لا سبب لابقائه وتأخيره . وسيجلس مع العجائز بعد ذلك .

ــ أوه !.. أنت لا تعرف صاحبنا ديوشـــين . انه رجل الواجب . ما دامت المهمات غير منجزة لا يذهب لأى مكان .

ــ صحيح ، انه رجل غريب الأطوار . خرج بعد الحرب من المستشفى . وكان ذلك فى أوكرانيا . وظل هناك يعيش . ولم يمض بعد رجوعه الا خمس سنوات . وهو يقول : عدت لأموت فى موطنى . انه يعيش طوال حياته وحيدا ..

ــ على كل حال كان عليه أن يأتى الآن الينا .. ولـكن لا بأس ــ وهز رب البيت يده .

ــ يا رفاق ! لقد تعلمنا فى مدرسة ديوشين اذا كان أحدكم يذكر ــ ورفع أحد المحترمين جدا من أهل القرية كأسه ــ ولكنه هو نفسه بالتأكيد لم يكن يعرف كل الحروف ــ وقلص المتحدث عينيه عند ذاك وهز رأسه . وكانت هيئته كلها تفصح عن الدهشة والسـخرية .

ــ حقاً كان ذلك . ــ أجاب بعض الأصوات . وضحك النـاس .

ــ أى كلام هذا ؟ .. لا شىء لم يفعله ديوشين آنذاك . ونحن كنا نعتبره معلما عن جد .

وحين هدأ الضحك تابع الرجل صاحب الكأس المرفوعة :

ـ ولكن الناس الآن كبروا أمام أعيننا . الأكاديمية التيناى مشهورة فى البلاد كلها . وجميعنا تقريبا ذوو تعليم ثانوى . وكثيرون منا حصلوا على تعليم عال . واليوم فتحنا فى قريتنا مدرسة ثانوية جديدة . وهذا وحده دليل على أن الحياة قد تغيرت كثيرا . فتعالوا نشرب يا أبناء قريتنا نخب أن يكون أبناء كوركوريو وبناتها فى المستقبل أناسا متقدمين فى زمانهم !

واصطخب الجميع مرة أخرى ، ورفعوا الكؤوس فى مودة ما عدا التيناى سليمانوفنا . فقد احمرت قلقة من شىء ما ، واكتفت برشفة من كأسها . ولكن الناس كانوا يحتفلون بعيدهم فلم يفطنوا فى أحاديثهم الى حالتها .

نظرت التيناى سليمانوفنا الى الساعة عدة مرات . وحين خرج الضيوف الى الشارع فيما بعد رأيتها واقفة على مبعدة من الجميع قرب ساقية تحدق الى الرابية حيث شجرتا الحور الخريفيتان المحمرتان قليلا تتمايلان مع الريح . كانت الشمس فى الغروب عند الخط الليلقى للسهب النائى الموغل فى الغبش . وكانت ترسل من هناك نورا داكنا ملونة أعلى الشجرتين بحمرة كامدة شجية .

واقتربت من التيناى سليمانوفنا ، وقلت لها :

ـ انهما تلقيان أوراقهما الآن . فلو رأيت هاتين الشجرتين فى الربيع فى فصل التفتح .

ـ أنا أفكر بهذا أيضا ـ قالت التيناى سليمانوفنا متنهدة،

وبعد أن صمتت أضافت وكأنها تخاطب نفسها : ـ نعم •• لكل حي ربيعه وخريفه •

وسرى ظل كئيب استغراقي في وجهها الذابل ذي الغضون العديدة الصغيرة حول عينيها • ونظرت الى الشجرتين نظرة انثوية حزينة • وفجأة رأيت أمامي ، لا الأكاديمية التيناي سليمانوفا ، بل امرأة قيرغيزية اعتيادية للغاية لا حيلة لها في اظهار سرورها أو حزنها • والظاهر ان هذه المرأة العالمة تذكرت الآن عهد صباها الذي ـ كما يقال في أغانينا ـ ليس بوسعك أن تدعوه من أعلى قنة جبل • ويبدو أنها أرادت أن تقول شيئا وهي تنظر الى الشجرتين ، ولكن ، لعلها غيرت رأيها بعد ذلك ، وارتدت نظارتها التي كانت تمسكها بيدها •

ـ يبدو ان قطار موسكو يمر هنا في الساعة الحادية عشرة ؟ ••

ـ نعم في الحادية عشرة ليلا •

ـ يعني على أن أتهيأ •

ـ ولم بهذه الفجاءة يا التيناي سليمانوفنا ؟ لقد وعدت بأن تمكثي هنا عدة أيام • لن يدعك الناس •

ـ لا • عندي مهام مستعجلة • ينبغي ان اذهب حالا •

ومهما حاول أهل القرية اقناعها ، ومهما عبروا عن تكدرهم ظلت التيناي سليمانوفنا متصلبة •

وفي ذلك الوقت بدأ الظلام يخيم • وصحبها أهل القرية الحزان الى السيارة آخذين منها عهدا بالمجيء مرة أخرى لقضاء

أسبوع أو أكثر وجلست فى السيارة أيضا لمرافقة التيناى سليمانوفنا الى المحطة .

لم استعجلت التيناى سليمانوفنا بغتة ؟ وبدا لى تكدير أهل القرية ، على الأخص فى يوم كهذا ، تصرفا لا روية فيه. وفى الطريق هممت أكثر من مرة بسؤالها عن ذلك ، ولكننى لم أجرأ لا لأننى خفت أن أبدو بلا لياقة ، بل لأننى أدركت أنها لن تقول لى شيئا . وظلت التيناى سليمانوفنا صامتة طوال الطريق تغرق فى التفكير بشىء .

ومع ذلك سألتها فى المحطة :

ــ لعلك يالتيناى سليمانوفنا قد تضايقت من شىء . ربما كدرناك ؟

ــ أى كلام هذا ؟ لا يجوز لك أن تظن هذا الظن ! .. ممن يمكن أن أتكدر ؟ .. ربما من نفسى . نعم ، أغلب الظن انى استطيع تكدير نفسى بنفسى .

وعلى هذه الصورة غادرت التيناى سليمانوفنا . وعدت أنا الى المدينة . وبعد عدة أيام تسلمت منها رسالة دون توقع . وبعد أن ذكرت أنها ستتأخر فى موسكو أكثر مما قدرت كتبت تقول :

« رغم أن لى أمورا مهمة ومستعجلة كثيرة فقد عزمت على وضعها جانبا ، وكتابة هذه الرسالة اليك .. واذا بدا لك ما أكتبه هنا طريفا أرجو منك رجاء صادقا ان تفكر فى أن يستخدم هذا ليكشف للناس كل ما أحدثك به . واحسب ان ذلك ضرورى

ليس لأهل قريتنا فقط ، بل للجميع ولا سيما للشبان • وقد توصلت الى هذا الاعتقاد بعد تفكير طويل • ان هذا اعترافى للناس • وعلى ان أوفى بواجبى • وكلما كثر الناس الذين يعرفون ذلك قل عذابى بتبكيت الضمير • ولا تخشى أن تضعنى فى موضع حرج • ولا تخف شيئا •• »

وظللت أياما عديدة متأثرا برسالتها ولم أجد أحسن من أن أقص كل هذا باسم التيناى سليمانوفنا نفسها •

كان ذلك عام ١٩٢٤ • نعم فى ذلك العام بالضبط ••

فى ذلك الحين كانت فى موقع كولخوزنا الحالى قرية صغيرة يقطنها قومٌ فقراء من « الجاتاكتشبيين » ، وكنت آنذاك فى الرابعة عشر أعيش فى أسرة أخ أبى المتوفى • وكانت أمى متوفاة أيضا •

وفى الخريف عقيب انتقال الذين أوسروا الى الجبال ليقضوا هناك الشتاء قدم الى قريتنا فتى غريب يرتدى معطف جندى • وقد علق فى ذاكرتى معطفه لأنه كان من الجوخ الأسود لسبب لا أدريه • وكان ظهور رجل فى معطف رسمى حدثا حقيقيا بالنسبة لقريتنا النائية عن الطرق والمنزوية عند سفح الجبال •

وقد شاع أولا أنه كان آمرا فى الجيش ، ولهذا سيكون رئيسا فى القرية • ثم تبين أنه لم يكن أى آمر ، بل ابن ذلك الرجل المسمى تاشتانبيك الذى رحل من القرية الى السكة

الحديد ابان المجاعة قبل سنين عديدة • وانقطع خبره على هذا النحو • وقد بعث ابنه ديوشين الى القرية ليفتح مدرسة فيهـا ويعلم الأولاد •

وفى ذلك الوقت كانت كلمات « مدرسة » و « دراسة » جديدة ، والناس لم يفهموها جيدا • فمنهم من صدق بالاشاعات ومنهم من اعتبر هذا كله خزعبلات العجوز • وربمـا كـان من الممكن أن ينسوا المدرسة على العموم لو لم يدع الناس الى اجتماع بعد وقت قريب • وقد تذمر عمى طويلا قائلا : « أى اجتماع هذا ؟ دائما ينتزعون الناس من أعمـالهم بسبب كل التوافه » ولكنه أسرج فرسه فيما بعد ، وذهب الى الاجتماع راكبا فرسه ، كما ينبغى لكل رجل يحترم نفسـه • وخرجت أنا فى أثره مع جيراننا من الصبيان •

وحين صعدنا الرابية لاهثى الأنفاس حيث تعقد الاجتماعات عادة كان الفتى ذو المعطف الأسود والوجه الشاحب يخطب أمام جمع من الناس ما بين راجل وراكب • ولم نستطع أن نسمع كلامه فاقتربنا ولكن عجوزا فى معطف فرائى ممزق أسرع فى مقاطعته وكأنما أفاق الى نفسه •

فقال العجوز متلجلجا من سرعة كلامه :

ـ اسمع يا بنى ! •• فى الماضى كان الأولاد يتعلمون عنـد الملا • وقد كنا نعرف أباك : كان فقيرا مثلنا • فقل لنا رحمة بنا : متى استطعت أن تصبح ملا ؟

أجاب ديوشين مسرعا :

ـ أنا لست ملا يا صاحبى • أنا كومســـومولى ، والآن سيعلم الأولاد مدرس لا ملا • وقد تعلمت أنا القراءة والكتابة فى الجيش ، ولم أكن أعرف قبل ذلك الا القليل • أنا ملا من هذا النـوع •

ـ ولكن ذلك أمر طيب •

ـ شاطر ! •• ترددت صيحات الاستحسان •

ـ هكذا اذن • لقد أرسلنى الكومسومول لأعلم أولادكم• ولابد لنا من مأوى لذلك • وأنا أفكر ببناء مدرسة بمساعدتكم طبعا فى هذا الاسطبل القديم على الرابية • ماذا تقولون عن ذلك يا أهل قريتى ؟

وارتبك الناس وكأنهم يحاولون أن يدركوا ما وراء كلمات هذا القادم ؟ وبدد الصمت ساتيمكول المجادل وقد كنى بذلك للجاجته • فقد أصغى طويلا الى الحديث مرتفقا حنو السرج باصقا من بين أسنانه بين حين وآخر •

قال ساتيمكول مقلصا احدى عينيه ، وكأنما يحدد هدفا:

ـ اسمع يافتى • الأفضل ان تقـــول لنا ما حاجتنا الى المدرســة ؟

ـ ما هذه الـ « ما حاجتنا » ؟ ـ سأل ديوشين فى حيرة •

صحيح ! ما حاجتنا الى المدرسة ! ـ صاح أحدهم •

وفى الحال اضطرب الجميع وضوضؤوا •

ـ نحن نعيش منذ الأزل بعملنا الفلاحى ، والمعول يطعمنا• وسيعيش أطفالنا على هذا النحـــو • فما حاجتهم الى التعلم ؟

القراءة والكتابة يحتاج اليهما الرؤساء • أما نحن فأناس بسطاء • فلا تغرر بنـــا •

وهدأت الأصوات •

ـ يعنى أنكم تعارضون تعليم ابنائكم ؟ ـ سأل ديوشين المصعوق مثبتا بصره فى وجوه الناس المحيطين به •

ـ وماذا او عارضنا ؟ تجبرنا بالقوة ؟ ولى ذلك الزمن • ونحن الآن شعب حر نعيش كما نريد •

غمر الشحوب وجه ديوشين • وفك أزرار معطفــه بأصابع مرتجفة وأخرج من جيب قميصه العسكرى ورقة قد طويت اربعا ونشرها فى عجالة ورفعها فوق رأسه :

ـ يعنى انكم تعارضون هذه الورقة التى تتحدث عن تعليم الأولاد والتى ختمت بختم السلطة السوفييتية ؟ من اعطـاكم الأرض والماء ، ومن أعطاكم الحرية ؟ من يعارض قوانين السلطة السوفييتية ؟ من ؟ أجب !

وقد صرخ بكلمة « أجب » بقوة رنانة غاضبة نفــذت كالرصاصة فى دفء الصمت الخريفى ، وكالرصاصة رجعت صدى قصيرا بين الصخور • ولم يفه أحد بكلمة • وصمت النـــاس مطرقين برؤوسهم •

وقال ديوشين بصوت خافت :

ـ نحن قوم فقراء • وكنا طوال حياتنا مداسين مهانين • عشنا فى ظلام • والآن تريد السلطة السوفييتية أن نرى النور،

وان نتعلم القـراءة والـكتابة • ومن أجل ذلك ينبغى تعليم الأولاد ••

وصمت ديوشين ينتظر • واذ ذاك تمتم الرجل ذو المعطف الفرائى الممزق والذى سأله كيف أصـبح ملا ، تمتم بلهجـة المصالح :

ـ حسنا • علم • فاذا كنت راغبا فأى شأن لنا ••

ـ ولكننى أرجوكم أن تعينونى • علينا أن نصلح اسـطبل البك الموجود على الرابية ، كما يجب بناء جسر عبر النهـر والمدرسة بحاجة الى حطب ••

ـ على مهلك يا فارس • أنت حرك جدا ـ قاطع ساتيمكول اللجوج ديوشين • وبعد أن بصق من خلال أسنانه عاد يقلص احدى عينيه وكأنما يحدد هدفا :

ـ ها أنت تصرخ فى القرية كلها : « سأفتح مدرسة ! » ولكن أنظر الى نفسك : لا معطف فرائيا عليك ولا فرس تحتك، ولا قطعة أرض محروثة فى الحقل ولو بحجم راحة اليد ، ولا داجنة واحدة فى الفناء ! فكيف تفكر ان تعيس يا عزيزى ؟ هل ستسرق قطعان الآخرين ؟

ـ سأعيش بطريقة ما • سأتسلم مرتبا •

ـ هذا ما كان عليك أن تقول فورا ـ واعتدل ساتيمكول على سرجه راضيا عن نفسه جدا متخذا هيئة الظافر ـ الآن وضح كل شىء • قم بامورك بنفسك يا فارس ، ومن مرتبـك

علم الأولاد • ففى الخزانة مال كاف • واتركنا وشأننا • فان لنا والحمد لله ، أمورا كثيرة ••

وبهذه الكلمات استدار ساتيمكول بحصانه ، وعـاد الى البيت • وتبعه آخرون • وظل ديوشين واقفا وورقته فى يده • ولم يعرف المسكين الى أين يتجه الآن ••

وقد أشفقت على ديوشين • ورحت أنظر اليه مثبتة فيه بصرى حتى صاح بى عمى ، وقد مر بى :

ــ ماذا تفعلين هنا ، أيتها الشعثاء فاغرة الفم ؟ اركضى الى البيت ــ فانطلقت لألحق الأولاد ــ ايه • تعودوا على حضـور الاجتمـاعات !

وفى اليوم التالى حين خرجنا نحن الصبايا الى النهر لنحمل الماء التقينا بديوشين عند النهر • وقد عبره خوضا الى الجهـة الأخرى يحمل فى يديه رفشا ومعولا وفأسا ، ودلوا قديما •

ومنذ ذلك اليوم كان شخص ديوشـين الوحيد بمعطفه الأسود يتسلق كل صباح فى الدرب الى الرابية حيث الاسطبل المهجور • ولا يهبط الى القرية الا فى ساعة متأخرة من المسـاء• وغالبا ما كنا نراه يحمل حزمة كبيرة من العشب الجاف أو القش على ظهره ، وحين يراه الناس من بعيد يقفـون على ركابهم واضعين أكفهم فوق أعينهم ويتحدثون فى دهشة :

ــ أهذا هو المعلم ديوشين يحمل حزمة ؟

ــ هو بنفسـه •

ـ يا له من مسكين • الظاهر ان عمل المعلم ليس بالأمر الهين أيضا •

ـ وماذا كنت تظن ؟ أنظر كم يحمل على نفسه • لا يقل عن خادمة البك •

ـ اذا سمعت كلامه لما تصورته بهذا الشكل !

ـ نعم • لأن له ورقة فيها ختم • وكل القوة فيها •

وذات مرة بينما كنا عائدات باشوال مليئة بالزبالة الجافة التى كانت تستعمل كوقود وكنا نجمعها عادة عند سفح الجبل فوق القرية ، انعطفنا نحو المدرسة : فمن الطريف أن نرى ماذا يعمل المعلم هناك • كانت السقيفة القديمة الطينية اسطبلا للبك من قبل • وفى الشتاء كانت تحفظ هنا الأمهار التى تلد ، والطقس ردىء • وبعد مجىء السلطة السوفييتية رحل البك الى مكان غير معلوم ، وبقى الاسطبل على حاله • ولم يأت أحد الى هنا ، فنما حوله القرطب والأشواك • والآن كانت هذه الأعشاب مجتثة من عروقها ، ومكومة فى جانب ، والحوش منظفا ، والجدران المتداعية التى اتلفتها الأمطار قد ملطت ، والباب الموارب المشقق المتأرجح دائما على مفصلة واحدة بدا مصلحا ومثبتا فى مكانه •

وحين وضعنا بأشوالنا على الأرض لنستريح قليلا خرج ديوشين من الباب وقد لطخ بالطين تماما • ولما رآنا أخذته الدهشة ثم ابتسم فى ترحيب ماسحا العرق من وجهه •

ـ من أين انتن يا صبايا ؟

جلسنا على الأرض قرب الأشوال وتبادلنا النظــرات فى ارتباك • وفهم ديوشين أننا صمتنا خفرا فغمز متشجعا :

ــ الأشوال أكبر منكن • جميل منكن يا صبايا أن تأتين الى هنا ، فانكن ستتعلمن هنا • ويمكن القول بأن مدرســـتكن قد أكملت تقريبا • لقد فرغت الآن من صنع موقد ما فى الركن، بل وبرزت مدخنة فوق السقف • انظرن ! والآن بقى اعــداد الوقود للشتاء، ولكن لا بأس ، فهناك أعشاب جافة كثيرة حولنا• ثم نفرش على الأرض كمية كبيرة من القش ، ونبدأ الدراســة فكيف ؟ هل تردن أن تتعلمن ، وتأتين الى المدرسة ؟

كنت أكبر صديقاتى سنا فعزمت على اجابته قائلة :

ــ اذا سمحت عمتى أتيت •

ــ ولكن لماذا لا تسمح ؟ ستسمح بالطبع • ما اسمك ؟

ــ التيناى ــ أجبته حاجبة بكفى ركبتى التى بدت من خلال ثقب فى حاشية الثوب •

ــ التيناى اسم لطيف • وأنت نفسك ، أغلب الظن ، لطيفة• ها ؟ وابتسم ابتسامة لطيفة تدفأ لها قلبى • ــ حسنا يا التيناى واجلبى معك الأولاد الآخرين • حسنا ؟

ــ حسنا ، يا عمى •

ــ ســمينى بالمعلم • هل تردن رؤية المدرســة ؟ ادخلن ولا تتهيبن •

ــ لا • نحن ذاهبات • علينا أن نعود الى البيت ••

ــ قلنا فى استحياء •

ـ لا بأس • اهرعن البيت • وانظرن بعد ذلك متى ترجعن للدراسة • أما أنا فذاهب مرة أخرى للبحث عن عشب جاف قبل أن يخيم الظلام •

وبعد أن تناول الحبل والمنجل خرج الى الحقل • ونهضنا نحن وألقينا الأشوال على ظهورنا ، وخطونا نحو القرية • وفجأة طرأت على رأسى فكرة غير متوقعة • صرخت بصويحباتى :

ـ مكانكن يا صبيات ، هيا نبقى الروث الجاف فى المدرسة، وسيكون وقود للشتاء أكثر •

ـ ونعود الى البيت خاويات الوفاض ؟ يا لك من ذكية !

ـ بل نعود ونجمع مرة أخرى •

ـ ولكن سيكون الوقت متأخرا ويقرعنا أهلنا •

وأسرعت الصبيات الى البيت دون أن ينتظرننى •

وحتى الآن ليس فى وسعى أن أفهم ما الذى حملنى فى ذلك اليوم على أن أقدم على هذا الأمر • فهل تكدرت من صويحباتى لأنهن لم يفعلن ما قلت لهن فقررت أن أفعل ذلك بنفسى ، أم لأن ارادتى ورغباتى منذ السن المبكرة كانت قد طويت تحت صرخات وصفعات الغلاظ من الناس فاردت فجأة أن أشكر بطريقة ما رجلا ، لا أعرف فى الواقع ، على ابتسامته التى ادفأت قلبى ، وعلى ثقته غير الكبيرة بى ، على كلماته القليلة الطيبة • وأنا أعرف جيدا ومتأكدة من أن مصيرى الحقيقى وجميع حياتى بكل أفراحها واتراحها قد بدأت فى ذلك اليوم بالذات ، من شوال الزبالة الجافة ذاته • وأنا أقول ذلك لأننى

فى ذلك اليوم ذاته ، ولأول مرة فى حياتى كلها عزمت ، دون اطالة تفكير وخوف من عقاب ، على أن أفعل ما رأيته لازما • وحين عافتنى صويحباتى عدت الى مدرسة ديوشـــين راكضة وأفرغت الزكيبة عند الباب ، وركضت بأقصى ما فى قدمى من قوة عبر منخفضات السفح وخنادقه لاجمع الروث الجاف •

ركضت دون أن أفكر بالوجهة التى أقصدها وكأن ذلك من فرط قواى ، وقلبى يخفق فى صدرى فى بهجة وكأننى أتيت مأثرة جليلة • وكأن الشمس عرفت سبب سعادتى • نعم ، أنا موقنة بأنها عرفت السر فى ركضى هذا بخفة وطلاقة • لأننى قمت بأمر جميل صـــغير •

كانت الشمس قد تحدرت نحو التلال، ولكنها بدت لى بطيئة لا تحتجب تريد أن تمعن النظر فى • وقد زينت سبيلى : فانطلت الأرض الخريفية القاتمة تحت قدمى بألوان حمراء ووردية ليلقية• ومر مثل لهب الق فى جوانب عناقيد القصب الجاف ولمعت الشمس كالنار على الأزرار المفضضة لسترتى العديدة الرقع • وظللت أجرى الى الأمام وأتلذذ فكريا مخاطبة الأرض والســـماء والريح : «أنظرن الى ! انظرن ما أعظم فخرى ! سأدرس ، سأذهب الى المدرسة وأجلب صويحباتى !•• »

ولست أدرى كم سرت على هذا المنوال • ولكننى أقف فجأة : على أن أجمع روثا جافا • ويا للغرابة ! كم من القطعـــان كانت ترعى هنا طوال الصيف • وكم من الروث كان هنا دائما: فى كل خطوة • أما الآن فكأن الأرض قد ابتلعته • أو ربما اننى

لم أبحث عنه ؟ تنقلت من مكان الى مكان ، وكلما أوغلت قلت رؤيتى له • وحينذاك فكرت أننى لا أستطيع أن أجمع قبل حلول الظلام شوالا كاملا • فخفت وتنقلت من مكان الى آخر فى أدغال القصب فاستعجلت • وجمعت على نحو ما نصف شوال • وفى ذلك الوقت زالت شمس الغروب ، وخيمت عتمة سريعة فى المنخفضات •

لم يحدث قط أن بقيت لوحدى فى الحقل الى هذه الساعة المتأخرة • لقد خيم جنح الليل الأسود على التلال المقفرة الصامتة• ألقيت الشوال على كتفى وأنا لا أعى نفسى من الخوف ، واندفعت مهرولة الى القرية • كنت فى هلع بل ولعلنى صرخت أيضا ، وبكيت • ولكن ما أمسكنى عن ذاك ، رغم ما فيه من غرابة ، هو تفكيرى غير الواعى بما سيقوله المعلم ديوشين لو رآنى معدومة القوى هكذا • فلممت شتات نفسى متمالكة اياها ، وامنع نفسى من أن التفت مرة أخرى وكأن المعلم يراقبنى حقا من جانب •

ركضت الى بيتى مقطعة الأنفاس عرقة مغبرة • وعبرت العتبة لاهثة • كانت عمتى جالسة قرب النار فنهضت للقائى متوعدة • وكانت امرأة غليظة حاقدة •

ــ أين كنت طائفة ؟ ــ تقدمت نحوى ، ولم يسعفنى الوقت لأقول كلمة واحدة قبل أن تخطف الشوال منى وتلقيه جانبا ــ هذا كل ما جمعته فى اليوم كله ؟

وبدا أن صويحباتى قد هذرن لها بكل ما حدث ••

ــ يا لك من مخلوقة وقحة ! ما الذى دفعك الى المدرسة؟

لماذا لم تموتي في تلك المدرسة ! ـ وأمسكت عمتي أذني ، وراحت تضربني على رأسي ـ يتيمة وسخة ! ابن الذئب لن يكون كلبا أبدا ، أولاد الناس يجلبون كل شيء الى البيت ، وهي تحمل كل شيء من البيت . سأريك المدرسة ! تجرئي على الاقتراب منها ، وسأكسر رجليك . وستذكرين المدرسة ..

وصمت ، وحاولت أن لا أصرخ . ولكنني فيما بعد حين أخذت اراعي النار في الموقد بكيت خلسة ، ودون صوت ، ممسدة شعر قطتنا الرمادية بلطف . وكانت قطتنا تعرف دائما حين أبكي ، وتقفز على ركبتي . وبكيت لا من ضربات عمتي ، لا ، فقد تعودت على ذلك ، بل بكيت لأنني أدركت أن عمتي لن تسمح لي بالذهاب الى المدرسة بتاتا ..

وبعد يومين من ذلك الحادث نبحت الكلاب في الصباح الباكر في قريتنا بقلق وقد سمعت أصواتا عالية . وقد تبين أن ديوشين كان ينتقل من بيت الى بيت ويجمع الأولاد للمدرسة . وفي ذلك الحين لم تكن في القرية شوارع . بل كانت أكواخنا الرمادية المعتمة تتناثر في القرية دون نظام . فكان كل امرىء يستقر أينما يريد . وكان ديوشين يتنقل من بيت الى بيت ومعه رهط صاخب من الأولاد .

وكان بيتنا يقع في أقصى القرية . كنت أنا وعمتي ساعتئذ نقشر الدخن في مدك خشبي ، وكان عمي يخرج الحنطة المخزونة في حفرة قرب السقيفة ، وقد استعد ليأخذ الحنطة الى السوق . ونحن ندك بمدكتين ثقيلتين ، بالدور ، مثل عمل الحدادة . ومع

ذلك فقد استطعت أن أسارق النظر لأرى هل المعلم بعيد • وقد خشيت أن لا يصل الى حوشنا • ورغم أننى عرفت أن عمتى لن تسمح لى بالذهاب الى المدرسة فقد وددت مع ذلك أن يأتى ديوشين الى هنا ليرى على الأقل أين أعيش • وقد توسلت الى المعلم مع نفسى لكى لا يعود دون أن يصل الينا •

ـ مرحبا يا سيدة ، كان الله فى عونك ، وان لم يكن يساعدك كنا نحن نساعدك جميعا • أنظرى ما أكثر عديدنا ! ـ حيا ديوشين عمتى مازحا ، وهو يقود خلفه تلامذة المستقبل •

فتمتمت بشىء جوابا ، أما عمى فلم يتكلف حتى برفع رأسه من الحفرة •

ولم يربك ذلك ديوشين ، بل قعد بهدوء على خشبة كانت موجودة فى وسط الباحة ، وأخرج من جيبه قلم رصاص وورقة•

ـ اليوم سنبدأ الدراسة فى المدرسة • كم عمر ابنتكما ؟

ولم تجب عمتى بشىء ، بل دكت المدكة بعنف • والظاهر أنها عزمت على أن تعتصم بالصمت • وانكمشت على نفسى : ما الذى سيحدث الآن ؟ ونظر الى ديوشين وابتسم ، وشعرت بدفء فى قلبى كما شعرت فى تلك المرة •

سألنى :

ـ التيناى ! •• كم عمرك ؟

لم أجرأ على الاجابة •

ردت عمتى فى غيظ :

ـ ولم تريد أن تعرف ؟ هل أنت محقق ؟ ان الدراسة

ليست شأنها • لا يتعلم الذين لا أهل لهم مثلها بل حتى الذين لهم آباء وأمهات • ها أنت قد جمعت قطيعا ، فسقه الى المدرسة، فما من عمل لك هنا •

فنهض ديوشـين بسرعة •

ـ فكرى بما تقولين ! فهل هى مذنبة لأنها يتيمة ؟ أم هناك قانون يقضى بأن لا يتعلم اليتـامى ؟

ـ لا شأن لى بقوانينك •• ولى قوانينى الخاصة • فـلا تعلمنى ! ••

ـ قوانيننا واحدة • فاذا انت بغير حاجة الى هذه الفتاة ، فنحن بحاجة اليها ، السلطة السوفييتية بحاجة اليها • فاذا وقفت ضـدنا علمنـاك !

تخوصرت العمة بتحد وقالت :

ـ من أين جاءت لك هذه الرئاسة ؟ من الذى يتصرف بها حسب رأيك ؟ أنا التى أطعمها وآويها أم أنت ابن المتشرد ، وأنت نفسـك أفاق !

ومن يعرف الام كان ينتهى هذا لو لم يخرج فى تلك اللحظة عمى من الحفرة عاريا حتى خصره • فقد نفد صبره حين تدخلت زوجته بما لا يعنيها ناسية ان فى البيت بعلا ، ورب بيت • وقد ضربها دون شفقة على ما بدر منها • والظاهر أن الغيظ قد فار فى نفسه هذه المرة أيضا •

ـ اية يا امرأة ! ـ صاح وهو يطلع من الحفرة ـ من أى زمان أصبحت أنت الرئيسة فى البيت ، من أى زمان أصبحت

الآمرة ؟ خفضى من هذرك وأكثرى من عملك • أما أنت يا ابن تاشتانبك ، فخذ الفتاة ولك أن تعلمها أو تحرقها •• واخرج من هنا •

ــ هاه ! ستطوف فى المدارس ، ومن للبيت وشؤونه ؟ أنا وحدى ؟ ــ أعولت العمة ، ولكن زوجها أسكتها •

ــ قلت وكفى !

وحتى للشر جانب خير • وهكذا قدر لى أن أذهب الى المدرسة لأول مرة •

ومنذ ذلك اليوم كان ديوشين يجمعنا من بيوتنا كل صباح •

وحين دخلنا المدرسة لأول مرة أجلسنا المعلم على القش المفروش على الأرض ، وأعطى كل واحد منا دفترا وقلما ولوحة خشبية •

ــ ضعوا اللوحة على ركبكم لتكتبوا بصورة مريحة ــ قال ديوشين شارحا •

ثم أشار الى صورة رجل روسى ملصقة على الجدار وقال :

ــ هذا لينين !

وظللت أتذكر تلك الصورة طوال حياتى • ولم يحدث ان وقعت عليها عيناى مرة أخرى بعد ذلك • وقد سميتها بينى وبين نفسى بـ « الديوشينية » • كان لينين يرتدى فى تلك الصورة سترة عسكرية فضفاضة قليلا ضامر الوجه غير حليق • وقد علقت يده الجريحة فى شداد • ومن تحت قبعة مسرحة الى مؤخرة الرأس أطلت عينان ذكيتان بهدوء كأن نظرتهما الناعمة الدافئة

تقول لنا : « آه لو عرفتم يا أولاد أى مستقبل باهر ينتظركم ! » • وقد بدا لى فى تلك اللحظة الهادئة انه هو كان يفكر فى مستقبلى فى حقيقة الأمر •

وكل شيء يدل على أن ديوشين يحتفظ منذ زمن بعيد بهذه الصورة المطبوعة على ورقة بسيطة من ورق الاعلانات • فقد كانت مطوية ، وحوافيها مهلهلة • ولكن حيطان المدرسة الأربعة لم تكن عليها غير هذه الصورة •

قال ديوشين :

ـ سأعلمكم ، يا أولاد ، القراءة والحساب ، واريكم كيف تكتب الحروف والأرقام • سأعلمكم كل ما أعرفه أنا •••

وبالتأكيد علمنا كل ما كان يعرف هو نفسه • وكان له فى ذلك صبر مدهش • كان ينحنى فوق كل تلميذ ، ويريه كيف ينبغى ان يمسك بالقلم ، ثم راح يشرح لنا بحماس الكلمات غير المفهومة •

انى لأفكر فى ذلك الآن والعجب يأخذنى : كيف استطاع ذلك الشاب القليل المعرفة بالقراءة والكتابة ، والذى كان يتهجى الكلمات بصعوبة والذى لم يكن فى حيازته أى كتاب دراسى ، حتى كتاب الالفباء العادى ، أن يتقحم هذا الأمر العظيم حقا • ويا للصعوبة تعليم أطفال كان أجدادهم وأجداد أجدادهم حتى سابع ظهر أميين • وبالطبع لم يكن لديوشين أدنى فكرة عن المنهج وطريقة التدريس • وأغلب الظن انه لم يتصور أن مثـل هذه الأشياء موجودة •

علمنا ديوشين على النحو الذى كان يجيده ، بالصورة التى كان يستطيعها ، وحسب ما رآه ضروريا لنا فيما يسمى بالالهام • واننى مؤمنة بأن حماسته الصميمة التى قام بعمله بها لم تذهب هباء •

وأتى بمأثرة دون أن يعلم • نعم لقد كانت مأثرة • لأننا ، نحن الأطفال القرغيزيين الذين لم نخرج قط خارج حدود قريتنا ، قد فتح لنا فجأة فى تلك الأيام فى المدرسة ـ اذا أمكن اطلاق هذا الاسم على ذلك الكوخ الطينى ذى الخصاص الكبيرة التى كان من الممكن دائما رؤية قمم الجبال الثلجية منها ـ عالما جديدا لم نسمع به ولم نره من قبل •

وفى ذلك الحين بالضبط عرفنا ان موسكو المدينة التى يعيش فيها لينين أكبر بمرات كثيرة من مدينة أوليبتا ، وحتى من طشقند ، وان فى العالم بحارا كبيرة واسعة كوادى تالاس ، وان فى تلك البحار تمخر بواخر ضخمة كالجبال وعرفنا ان الكيروسين الذى يجلب من السوق يستخرج من تحت الأرض• وآمنا فى يقين حتى فى ذلك الحين بان الشعب ، حين يبدأ بالعيش أغنى حالا ، سينقل مدرستنا الى بيت أبيض كبير ذى نوافذ واسعة يجلس فيها التلامذة وراء طاولات •

وبعد ان فرغنا من الألف باء ، وقبل أن نعرف كتابة «ماما» و « بابا » خططنا على الورق اسم « لينين » • وكان قاموسنا السياسى مكونا من كلمات مثل «بك» و «اجير» و «سوفييتات» ووعدنا ديوشين بتعليمنا بعد عام كتابة كلمة « ثورة » •

وحين كنا نسمع ديوشين كنا نحارب فكريا فى الجبهات معه ضد البيض • وكان يتحدث عن لينين بعاطفة فياضة ، وكأنما رآه بعينيه • والكثير مما قال ، كما أدركته الآن ، كان من الأساطير التى حاكها الشعب حول الزعيم العظيم ولكننا ــ نحن تلامذة ديوشين ــ كنا نتصور كل ذلك حقيقة تماما مثل لون الحليب أبيض •

وذات مرة سألنا دون فكرة مبيتة :

ــ يا معلم ! •• هل صافحت لينين بيدك ؟

حينذاك هز المعلم رأسه فى أسى :

ــ لا يا أولاد • لم أر لينين قط •

وتنهد فى شعور بالذنب ــ فقد كان فى حيرة أمامنا •

وفى نهاية كل شهر كان ديوشين يذهب الى المنطقة لشئونه• وكان يذهب ماشيا ، ويعود بعد يومين أو ثلاثة •

وكنا نحن عن صدق فى تلك الأيام • فلو كان لى أخ لما انتظرته بنفاد صبر ، على ما أحسب ، مثلما كنت أنتظر عودة ديوشين • وكنت بين الحين والآخر أذهب وراء البيت خفية لكيلا ترانى عمتى وأطيل النظر فى السهب الى الطريق : متى يظهر المعلم ذو الحقيبة الظهرية ، متى أرى ابتسامته التى تدفىء قلبى، متى أسمع كلامه الذى يحمل المعرفة •

كنت كبرى تلامذة ديوشين • ولعل ذلك هو السبب فى أننى تعلمت أحسن من الآخرين • ولو بدا لى ذلك ليس هو وحده السبب • كانت كل كلمة من كلمات المعلم ، كل حرف يكتبه

مقدسا فى نفسى. ولم يكن فى العالم شىء أهم عندى من استيعاب ما يعلم ديوشين . وقد اعتنيت بالدفتر الذى اعطانيه فكنت أخط الحروف برأس المنجل على الأرض ، وأكتب بالفحم على سياج طينى ، وبعود صغير على الثلج ، وعلى تراب الطريق . ولم يكن هناك بالنسبة لى شخص فى الدنيا أعلم وأذكى من ديوشين .

وكان الشتاء على الأبواب .

وقبل سقوط الثلوج الأولى كنا نخوض فى ذهابنا الى المدرسة نهيرا صخريا يصخب تحت الرابية . ثم أصبح الذهاب لا يطاق ، فان الماء الزمهريرى كان يلذع الأقدام . وكان أكثرنا تعذيبا الأطفال الصغار حتى كانت دموعهم تنهمر من عيونهم . واذ ذاك أخذ ديوشين يحملهم على ذراعيه ، ويعبر بهم النهير . فكان يحمل واحدا على ظهره ، وآخر فى ذراعه . وهكذا ينقل جميع التلامذة بالتوالى .

والآن حين أتذكر ذلك لم أصدق ان ذلك وقع فعلا . ولكن الناس آنذاك ، اما لجهلهم أو لبلاهتهم ، ضحكوا من ديوشين ، على الأخص الأغنياء الذين كانوا يقضون الشتاء فى الجبال ، ولا يأتون الى هنا الا للطاحونة . فكم من مرة حين كانوا يسيرون جنبا عند المخاضة ويمرون بنا فى عمراتهم الحمراء من فراء الثعلب، ومعاطفهم الثمينة من فراء الخروف راكبين الخيول المطهمة النافرة يتفرسون مليا بديوشين ، وينفجر أحدهم ضاحكا لاكزا جاره :

ــ انظر ! يحمل واحدا على ظهره ، وآخر على يديه .

وحينذاك يضيف الآخر حاثا جواده الناخر :

ـ أوه • غاصت بى الأرض • لم أعرف من قبل ان هذا يصلح لأن أتخذه زوجة ثانية !

وكانوا يبتعدون مقهقهين ناثرين علينا رشـاش الماء ونثار الوحل من حوافر خيولهم •

وكم كنت أود آنذاك ان الحق بهؤلاء التافهين ، وأمسك ألجمة افراسهم وأصرخ فى وجوههم الهازئة : « لا تتجاسروا على معلمنا بهذا القول • انكم تافهون قذرون ! » •

ولكن من كان يسمع صوت فتاة ضعيفة ؟ فلم يكن أمامى غير ان ابتلع دموع الاهانة المريرة • أما ديوشين فكأنه لم يلاحظ الاهانة ، وكأنه لم يسمع شيئا كهذا • ويبتكر ، فى العادة ، مزحة فكهة ويجعلنا نضحك وننسى كل شىء •

ومهما يسعى ديوشين لم يفلح فى الحصول على خشب ليقيم قنطرة عبر النهير • وذات مرة عند عودتنا من المدرسة بعد أن عبرنا الأطفال بقيت مع ديوشين عند الشاطىء واعتزمنا على أن نبنى معبرا من الحجارة وجذوع العشب لكيلا تطأ الأقدام الماء بعد الآن •

ولو احتكمنا الى العدالة لكان على أهل قريتنا أن يجمعوا ويلقوا سوية عبر التيار رافدتين أو ثلاثا من الروافد الخشبية ، وفى الحال يتهأ جسر لعبور التلامذة • ولكن الناس فى واقع الحال لجهالتهم فى تلك الأيام لم يعيروا أهمية للتدريس • وكانوا يعدون ديوشين فى أحسن الأحوال شخصا غريب الأطوار منشغلا بالأطفال ، لأنه لا يملك عملا آخر يقوم به • فاذا راق له الأمر

فليعلم ، وان لم يرق فليفرق الجميع الى بيوتهم • وكان الناس يركبون الخيول ، ولا حاجة لهم الى معابر • ولكن كان ينبغى على أهلنا بالطبع أن يساءلوا أنفسهم : لم يعلم هذا الشاب الذى لا يقل شأنا عن أحد ، ولا كان أقل ذكاء من الآخرين ، لم يعلم هذا الشاب أولادهم متحملا المصـاعب والحرمانات ، متعرضا للاستهزاء والاهانة ، وبهذا العناد الغريب ، وهذا الاصرار غير الانسانى ؟

وفى اليوم الذى أخذنا نضع فيه الأحجار عبر التيار كان الثلج ما يزال على الأرض ، وكان الماء شديد البرودة حتى لتتقطع منه الأنفاس • ولا يمكن أن أتصور كم تحمل ديوشين ــ كان يعمل حافى القدمين ودون مهلة يلتقط فيها أنفاسه • ومشيت أنا بصعوبة على القاع الذى بدا لى وكأنه مفروش بالجمر المتوقد • وبينا أنا فى وسط النهر داهمنى تشنج فى سمانتى قدمى جعلنى أطوى جذعى ولم أستطع أن أصرخ وأرفع هامتى، وبدأت أسقط ببطء فى الماء • وألقى ديوشين الحجارة ، وقفز نحوى ، وأمسكنى من يديه ، وركض معى الى الشاطىء وأجلسنى على معطفه • وكان مرة يفرك قدمى المزرقتين الخدرتين ، ومرة يضغط على يدى المتصلبتين بين كفيه ، ومرة يرفعهما الى فمه ويدفئهما بأنفاسه •

وتمتم ديوشين :

ــ لا حاجة يا التينناى • اجلسى هنا وتدفئى • وأنا سأدبر الأمر •

وحين تم المعبر فى آخر الأمر لبس ديوشين حذاءه الطويل ، ونظر الى مكفهرة متثلجة فابتسم وقال :

ــ كيف ؟ هل تدفأت أيتها المساعدة ؟ البسى المعطف ، هكذا

ــ وبعد أن صمت برهة سأل : ــ هل أنت يا التيناى التى وضعت حزمة روث جاف فى المدرسة تلك المرة ؟

أجبت :

ــ نعم .

ابتسم من طرفى فمه ابتسامة لا تكاد تبين وكأنه كان يقول لنفسه : « هذا ما ظننته » .

أذكر اننى شعرت فى تلك اللحظة بنار تلهب وجنتى ، يعنى أن المعلم عرف ولم ينس ما قد يبدو حادثا تافها . وكنت سعيدة، كنت فى السماء السابعة .وأدرك ديوشين سرورى .

وقال وهو ينظر الى فى حنان :

ــ أنت لامعة الذهن يا ساقيتى . وقابلياتك جيدة ... آه لو استطعت أن أرسلك الى المدينة الكبيرة لأصبحت شخصية ما أروعهـــا !

واتجه ديوشين باندفاع الى الشاطىء .

والآن أتخيله واقفا أمام عينى ، كما كان واقفا آنذاك قرب النهر الصاخب الصخرى ملقيا يديه وراء رأســـه ، ناظرا بعينيه اللامعتين المتطلعتين بعيدا الى السحائب البيض التى تســـوقها الريح فوق الجبال .

بم كان يفكر آنذاك ؟ ربما أرسلنى فى أحلامه حقا الى

المدينة الكبيرة أتعلم ؟ وفكرت آنا فى تلك اللحظة وأنا ملتفة فى معطف ديوشين : « لو كان المعلم أخى ، لو كان فى امكانى أن أتعلق فى رقبته وأعانقه بقوة ، وأهمس فى أذنه ، وأنا أغمض عينى ، بأعذب الكلمات فى الدنيا . يا الهى .. اجعله أخى ! »

لعلنا جميعا كنا نحب معلمنا آنذاك لانسانيته ، لأفكاره الطيبة ، لأحلامه عن مستقبلنا . ورغم أننا كنا أطفالا الا اننى أعتقد بأننا كنا نفهم ذلك آنذاك . فأى شىء آخر كان يدفعنا كل يوم الى الذهاب بعيدا ، ونصعد الرابية الشديدة الانحدار والريح تقطع أنفاسنا، والثلج يشد اقدامنا؟ كنا نخرج الى المدرسة برغبتنا، ما من واحد منا سيق اليها سوقا ، وحمل على أن يتثلج فى تلك السقيفة الباردة حيث تتجمد الأنفاس ويتبدى الثلج الأبيض على الوجوه والأيدى والثياب . وكنا فقط نسمح لأنفسنا التدفؤ قرب الموقد بالتتالى بينما يبقى الآخرون فى أماكنهم يستمعون لديوشين .

وفى يوم من تلك الأيام الزمهريرية ، فى أواخر كانون الثانى كما أتذكر الآن ، جمعنا ديوشين مطوفا بالبيوت كلها ، وقادنا ، كما هى العادة ، الى المدرسة . سار صامتا صارما وحاجباه يقطبان مثل جناحى نسر ذهبى . وكان وجهه يبدو وكأنما قد من حديد أسود مسقى . هيئة لم نر معلمنا عليها قط . ونظرنا اليه . وصمتنا نحن أيضا : وشعرنا بشىء ليس على ما يرام .

وحين صادفنا فى الطريق أكوام ثلج كبيرة كانت من عادة ديوشين أن يشق الطريق أمامنا ، وأنا خلفه ، والآخرون ورائى .

وفى هذه المرة تقدم ديوشين عند سفح الرابية حيث تجمع فى الليل ثلج كثير • وأحيانا حين تنظر الى انسان من ورائه تعرف على الفور حالته النفسية • وهكذا كان واضحا آنذاك ان معلمنا يعانى غما • سار مطأطىء الرأس يجرجر قدميه بصعوبة • وأنا حتى الآن أتذكر تناوب الاسود والأبيض الرهيب أمام عينى : كنا نصعد الرابية واحدا وراء الآخر ـ كان ظهر ديوشين محدودبا تحت المعطف العسكرى الأسود • وفى الأعلى على المنحدر فوقه تحدودب الأكوام الثلجية البيضاء مثل سنامات البعير ، والريح تصنع دوارات فوقها ، وفى الأعلى من ذلك فى السماء البيضاء الكدرة تلوح سحابة وحيدة سوداء •

وحين وصلنا لم يشرع ديوشين فى تدفئة الموقد • بل أمرنا قائلا :

ـ انهضوا ! ـ ونهضنا فقال : ـ اخلعوا قبعاتكم •

فحسرنا عن رؤوسنا طائعين ، وخلع هو الآخر قبعته العسكرية • ولم نفهم سبب ذلك • حينئذ قال المعلم بصوت مزكوم متقطع :

ـ مات لينين • الناس فى جميع أنحاء العالم يقفون الآن فى حداد • فقفوا أنتم فى أماكنكم جامدين ، وانظروا الى هنا ، الى الصورة • ولتتذكروا هذا اليوم •

وساد الصمت مدرستنا ، وكأنما غطتها طبقة من الثلج • وكان يسمع صفير الريح فى الشقوق ، وتساقط الثلج على القش فى حفيف •

في تلك الساعة حين صمتت المدن التى لا تهدأ ، وهدأت المصانع التى تهز الأرض ، وجمدت القطارات الهادرة فى خطوطها، وغرق العالم كله فى حداد ، فى تلك الساعة الشجية وقفنا ، نحن الجزيئة الصغيرة ، جزيئة الشعب ، فى مهابة واحتباس أنفاس وقفة الحداد مع معلمنا فى تلك السقيفة المتجمدة غير المعروفة لأحد والمسماة مدرسة • وودعنا نينين معتبرين أنفسنا فى أعماق أفئدتنا أقرب الناس اليه ، وأكثر الجميع شجوا عليه • وكان لينيننا بسترته الحربية الفضفاضة قليلا ، ويده فى شداد يطل علينا من الحائط ، كما كان سابقا ، ويحدثنا أيضا بنظرته الصافية النقية: « آه لو عرفتم يا أولاد أى مستقبل باهر ينتظركم ! » • وبدا لى فى تلك اللحظة الصامتة أنه يفكر بمستقبلى حقا •

ثم مسح ديوشين عينيه بكمه وقال :

ـ سأذهب اليوم الى مركز المنطقة • سأذهب وأدخل الحزب وأعود بعد ثلاثة أيام •••

وأنا دائما أتصور هذه الأيام الثلاثة أقسى كل أيام الشتاء التى اضطررت أن أتحملها • فكأن قوى طبيعية جبارة حاولت أن تحتل على الأرض مكان انسان عظيم راحل عن عالمنا • كانت الريح تصفر فى الوادى دون أن تهدأ ، وتدوم العواصف الثلجية، ويرن الزمهرير كالحديد •• ولم تخلد قوى الطبيعة الى الراحة فكانت تلوب وتضرب على الأرض نائحة •••

وهدأت قريتنا • صمتت تحت الجبال التى عتمتها السحب الواطئة • ومن المداخن المغطاة بالثلوج تصاعدت أعمدة دخان

رقيقة ، فان الناس لم يغادروا بيوتهم • وبالاضافة الى ذلك قست الذئاب فجأة وأستشرت ، فكانت تظهر نهارا فى الطرقات ، وفى الليل تطوف على مقربة من القرية ، وتعوى حتى الفجر عواء جائعا يمزق القلب •

وخفت أنا على معلمنا لسبب لا أعرفه : كيف ستكون حاله هناك فى مثل هذا البرد وهو بلا معطف فرائى ، وبمعطف عسكرى لا غير ! ولما جاء اليوم الذى يجب أن يعود ديوشين فيه كنت مستطارة اللب تماما والظاهر ان قلبى استشعر شيئا غير مريح • وكنت بين الحين والآخر أخرج من البيت راكضة ، أنظر فى السهب المقفر المغطى بالثلج : ألم يظهر المعلم بعد فى الطريق ؟ ولكن لم يكن من أحد •

« أين أنت يا معلمنا ؟ أتوسل اليك أن لا تتأخر أكثر ، عد بسرعة • فنحن فى انتظارك • فهل تسمعنى يا معلم ؟ نحن فى انتظارك ! » •

ولكن السهب لم يرد على ندائى الصامت ، وبكيت دون ارادتى •

وضجرت عمتى من رواحى ومجيئى •

ــ ألا تعطين اليوم راحة للباب ؟ الزمى مكانك ، واهتمى بالغزل • لقد ثلجت الأطفال • حاولى أن تخرجى ثانية ! ــ هزت على أصبعها متوعدة ولم تسمح لى بالخروج من البيت •

وحل المساء وأنا لا أعرف هل عاد المعلم أم لا • فلم أستقر بمكان ، مرة أفكر بأن ديوشين فى القرية ، اذ لم يحدث قط ان

تأخر عن اليوم الموعود ، ومرة يبدو لى فجأة أنه قد مرض ، فهو يسير ببطء ، وان العاصفة الثلجية تهب فضل الطريق فى السهب ليلا . واستعصى العمل على فلم يتقدم ولم تطعنى يداى ، وكان الغزل ينقطع بين الحين والآخر . وأغاظ العمة ذلك .

ـ ما الذى جرى لك اليوم ؟ يداك من خشب أم ماذا ؟

ـ وكانت تزداد ضراوة ناظرة الى شزرا . ثم عيل صبرها ـ أوه. الموت لا ينال منك ! الأحسن أن تذهبى الى العجوز سايكال وأن أعطيها شوالها .

وكدت أقفز من الفرح . فان ديوشين كان يعيش عند العجوز سايكال بالضبط . والعجوزان سايكال وكارتانباى من ذوى قرباى الابعدين من جهة امى . ومن قبل كنت أتردد عليهما غالبا، بل وكنت أبيت عندهما أحيانا . فهل تذكرت عمتى هذا أم الله قد لقنها . ولكنها ألقت الى الشوال وأضافت :

ـ لقد ضايقتنى اليوم كثيرا ، مثل نخالة فى سنة المجاعة. اذهبى واذا سمح لك العجوزان فاقضى ليلتك هناك . اغـربى عن عينى ..

وهرولت الى الفناء . كانت الريح تعربد كالمجنون : شهقت ثم اندفعت فجأة ولطمت وجهى المتلهب بحفنات من الثلج الواخز. ضغطت الشوال تحت ابطى ، واندفعت أجرى الى الطرف الآخر من القرية خلال آثار حوافر الخيل الواضحة العريضة ، وفى رأسى تسيطر فكرة واحدة فقط : هل عاد المعلم أم لم يعد ؟

ووصلت ولم أجده . وقد فزعت سايكال حين جمدت على

العتبة لا أكاد أسحب أنفاسى •

ــ ماذا بك ؟ لم تركضين هكذا ؟ أى مصيبة وقعت ؟

ــ لا شيء •• جلبت اليك الشوال • هل يمكن أن أبيت عندكم اليوم ؟

ــ ابقى يا صغيرتى • آه منك يا شريرة أرعبتنى • لم لم تأت منذ الخريف ؟ اجلسى قرب النار ، تدفئى •

ــ أما انت يا عجوز فضعى اللحم فى القدر واستضيفى البنت • سيأتى ديوشين أيضا ــ قال كارتانباى الذى كان جالسا قرب الشباك يرتق حذاء لباديا قديما ــ كان ينبغى أن يعود منذ زمن • ولكن لا بأس سيأتى عند حلول الظلام • ان مهرتنا سريعة فى عدوها الى البيت •

وتسلل الليل الى الشباك دون أن يلاحظ • وكأن قلبى كان فى يقظة • كان يتجمد مقشعرا حين تنبح الكلاب ، أو تتردد أصوات الناس • ولكن ديوشين لم يظهر • واللطيف ان سايكال ملأت الوقت بالأحاديث •

وهكذا انتظرناه من ساعة الى أخرى • وتعب كارتانباى عند منتصف الليل •

ــ افرشى الفراش يا عجوز • لن يأتى اليوم • فالوقت متأخر • والرؤساء عندهم شئون كثيرة ، وربما أخروه • والا لكان فى البيت منذ زمن طويل •

وراح العجوز يستعد للنوم •

وفرشا لى فى الركن خلف الموقد • ولكننى لم أستطع

النوم • كان العجوز يسعل طوال الوقت ، ويتقلب ويهمس بالصلوات ليلا ، ثم تمتم قلقا :

ـ كيف حال مهرتي هناك ؟ ليس في ميسور المرء أن تطلب قطعة برسيم • أما الشوفان فلن ينال بالفلوس •

وسرعان ما غفا كارتانباي ، ولكن الريح أزعجتني : صفرت في السقف ، وهزت حوافي السقف وخمشت الزجاج • وكان يسمع دوي الريح وهي تضرب على الجدران •

ولم تهدئني كلمات العجوز • وبدا لي أن المعلم سيعود • فكرت به متصورة اياه في الطريق وسط الثلوج المقفرة • ولا أعرف كم غفوت ، ولكن شيئا ما حملني فجأة على أن أرفع رأسي من الوسادة • فقد رن فوق الأرض عواء أخن كطلق الحبلى ، وجمد في الهواء • ذئب ! ليس واحدا بل ذئابا كثيرة تعاوت من جهات عدة ، واقتربت سريعا ، واختلط عواؤها في عواء واحد موصول اجتاح السهب مع صوت الريح تارة يبتعد، وأخرى يدنو ، وثالثة يبدو وكأنه قريب جدا ، عند طرف القرية •

وهمست العجوز :

ـ انها تدعو العاصفة •

وصمت العجوز مصغيا ، ثم قفز من الفراش •

ـ لا يا عجوز ، ان في الأمر سرا • انهم يطاردون أحدا • هل هم يحاصرون شخصا أو فرسا • اسمعي ؟ لينقذ الله ديوشين• انه لا يخاف شيئا ، ساذج ـ تحرك كارتانباي بانفعال باحثا في

الظلمة عن معطفه الفرائى ــ اشعلى الضوء • اشعليه يا عجوز • أسرعى بحق الله •

وقفزنا مرتجفين من الخوف • وخلال الوقت الذى قضته سايكال فى ايجاد المصباح واشعاله صمت عواء الذئاب الضارى فجأة وكأنما اختفت بسحر •

ــ لحقوا به ، الملعونون ! ــ صاح كارتانباى واختطف العكازة واندفع الى الباب ، ولكن الكلاب نبحت فى تلك اللحظة وركض شخص تحت الشباك يصر الثلج تحت نعليه ، وطرق الباب بعنف وعجلة •

واندفعت الى حجرة دفقة من الريح الثلجية • وحين انقشعت رأينا ديوشين عبر العتبة مترنحا ممتقع الوجه مقطوع الأنفاس • واتكأ على الحائط ولهث قائلا :

ــ البندقية !

ولكن ، كأننا لم نفهمه ، فقد غام رأسى • ولم أسمع غير نديب العجوزين •

ــ الخروف الأسود فداء • والخروف الأبيض فداء ! فليحفظك باوبيدن المقدس • هل أنت هذا ؟

كرر ديوشين :

ــ البندقية ، أعطونى البندقبة !

ــ لا بندقية • الى أين ذاهب ؟

وتعلق العجوزان فى كتفى ديوشين •

ــ أعطونى عصا !

ولكن العجوزين راحا يتضرعان :

ـ لن تخرج الى أى مكان • لن تخرج ما دمنا أحياء• ومن الخير ان تقتلنا فى مكاننا •

وشعرت فجأة بوهن غريب فى كل بدنى ، واستلقيت فى فراشى صامتة •

ـ لم يتسن لى الوقت • لحقوا بى قرب البيت ـ قال ديوشين فى ضجة متقطع الأنفاس وألقى السوط فى الركن ـ وأصاب التعب الفرس فى الطريق • ثم طاردتنا الذئاب • وعدت الفرس الى القرية ، وسقطت هنا مثل حزمة قش • فهجمت عليها الذئاب •

ـ الله معها ، مع الفرس • والمهم أنك ما زلت حيا • فلو لم تسقط الفرس لما تركتك الذئاب • الحمد لباوبيدن الحافظ على هذه النهاية • والآن اخلع ملابسك ، واجلس قرب النار • تعال ، لأخلع لك حذاءك ـ اضطرب كارتانباى ـ أما أنت يا عجوز فسخنى ما عندك من طعام ••

وجلسا عند النار •• واذ ذاك تنفس كارتانباى الصعداء•

ـ حسنا ، ما فات مات • ولكن لم تأخرت الى هذا الوقت ؟

ـ طال اجتماع لجنة الحزب للمنطقة يا كاراكه • لقد انضممت الى الحزب •

ـ هذا حسن • ولكن كان عليك أن تسافر فى صباح

اليوم التالى . فلا أحد على ما أعتقـــد قد طردك الى الطريق بأخمص بندقية .

أجاب ديوشـــين :

وعدت الأطفال بالعودة اليوم . سنبدأ الدراسة من صباح الغد .

ــ آه يا غرير ! ــ بل وقفز كارتانباى فى مـــكانه وهز رأسه فى حنق ــ اصغى الى ، يا عجوز : أترين أنه وعد الأطفال بأن يعود ! ولكن ماذا لو لم تبق على قيد الحياة ؟ ولكن هل يفكر رأسك بما تقول ؟

ــ هذا واجبى ، عملى يا كاراكه .لنتحدث عن شيء آخر: فى العادة كنت أخرج ماشيا ، أما فى هذه المرة فقـــد أغرانى الشيطان لأطلب فرسك ، وأقدمها فريسة للذئاب ..

ــ هذا ليس جوهر الأمر . فلتذهب الى جهنم . انها كديشة ولتكن فداء لك ــ قال كارتانباى غاضبا ــ قضيت عمرى بـــلا فرس والآن لن أموت بدونها واذا استقرت السلطة السوفييتية ستتيسر حالى . وستكون عندى فرس ..

ــ نعم ما تقول ــ قالت سايكال بصوت ملأته العبرات

ــ ستتيسر حالنا .. خذ يا ولدى ، وكل ما دام الطعـــام حـــارا .

وصمتوا . وبعد دقيقة قال كارتانباى فى تفكير وهـــو يحرك رماد الموقد :

ــ أنظر اليك يا ديوشين فأراك بالأحرى ذكيا لا أحمـــق

ولا أستطيع أن أفهم أبدا : لأجل أى شيء أنت تتعذب بهـذه المدرسة ، مع الأطفال الذين لا يدركون شيئا ؟ أم أنت لا تجد لنفسك عملا آخر ؟ ولكن يمكن أن تعمل راعيا عند أحد من الناس وستكون فى دفء وشبع ..

ـ أدرك أنك يا كاراكه ترجو لى خيرا . ولكن ، اذا أخذ أولئك الصغار العقول يقولون فيما بعد ما تقوله الآن: لم هذه المدرسة، وما حاجاتنا الى الدراسة، فان قضايا السلطة السوفييتية لن تحل زمانا طويلا. وأنت تريد لها أن تستقر وتعيش. ولهذا فان المدرسة بالنسبة الى ليست عبثا يا كاراكه . فـلو استطعت أن أعلم الأطفال بصورة أحسن لكان هذا منتهى حلمى. وقد قال لينين ..

ـ بهذه المناسبة ـ قاطع كارتانباى ديوشين ، وصمت قليلا ثم قال : ـ ها أنت تفرى مهجتك اسى . ولكنك لن تعيد لينين الى الحياة بدموعك . فآه لو كانت فى الدنيا مثل هذه القوة ! أم أنت تظن أن الآخرين لا يحزنون ولا يأسون .. أنظر فى حناياى تجد قلبا يشرق بدخان مر . ولا أعرف فى الحق هـل هذا يتفق مع أفكارك السياسية. ولكن رغم أن لينين كان شخصا له مذهب خاص فأنا أصلى له خمس مرات فى اليوم . ثم أقول لنفسى مرة أخرى يا ديوشين مهما بكينا عليه فلا طائل من ذلك. وأنظر الى الأمر من وجهة نظرى كعجوز على هذا النحو : لينين مخلد فى الشعب نفسه يا ديوشين ، وسينتقل بالدم من الآباء الى الأبناء ..

ـ شكرا على كلماتك يا كاراكه . شكرا . فأنت على صواب فيما تفكر . لقد غادرنا . أما نحن فنقيس الحياة على منوال لينين ..

وتسمعت الى حديثهما وكأنني أعود الى نفسي من بعيد رويدا رويدا . وفي البدء كان كل شيء كالحلم ، وقد ظللت وقتا طويلا دون أن أستطيع حمل نفسي على التصديق بأن ديوشين عاد حيا سالما . ثم تدفق في روحي الطليقة فرح لا حد له ، عارم مثل سيل ربيعي ، وبكيت بشدة وأنا غريقة هذا السيل الحار . ولعل أحدا من الناس لم يفرح قط مثل فرحي. في تلك اللحظة لم أشعر بوجود شيء : لا بهذا الكوخ ، ولا بالليل العاصف ، ولا بقطيع الذئاب تمزق فرس كارتانباي الوحيدة في طرف القرية . لا شيء . بل أحسست بسعادة غير اعتيادية لا متناهية . ولا حد لها كالنور تغمر قلبي وفكري وكياني كله . وغطيت رأسي وكممت فمي حتى لا يسمعني أحد . الا أن ديوشين سأل :

ـ من الذي يبكي وراء الموقد ؟

فقالت سايكال :

ـ هذه التيناي كانت مرتعبة منذ وقت قصير . وها هي تبكي .

ـ التيناي ؟ .. من أين هي ؟ ـ قفز ديوشين من مكانه وركع عند رأسي ومس كتفي : ـ ماذا بك يا التيناي ؟ .. لماذا تبكين ؟

وانقلبت نحو الجدار ، ورحت أبكى أشد من ذى قبل .

ـ ماذا بك يا عزيزتى ؟ .. مم تخافين ؟ أمعقول هـذا ؟.. وأنت كبيرة . أوه .. انظرى الى ...

احتضنت ديوشين بقوة ، ودفنت فى كتفه وجهى المبلل الحار ورحت أجهش دون أن أتمالك نفسى . لقد كنت فرحة وكأننى فى حمى فرحا لم أقو على كبحه .

ـ انخلع قلبها من موضعه على أية حال ـ قال كارتانباى فى قلق بل ونهض من البساط اللبادى ـ أوه يا عجوز ، اهمسى بالدعاء ... تحـركى ...

واضطرب الجميع فجأة . وهمست سايكال بالدعاء ناثرة على وجهى الماء البارد مرة والحار مرة أخرى فياضة بالبخـار ، باكية معى هى الأخرى .

آه لو عرفوا ان « قلبى انخلع من موضعه » سـعادة عظمى لا أقوى على التحدث عنها ، ولعلى لا أملك القدرة على التحـدث عنها .

وجلس ديوشين قربى يمسد بيده الباردة جبينى الحـار حتى هدأت ونمت .

وانتقل الشتاء الى ما وراء الجبال . وجاء الربيع يسوق قطعانه الزرق . ومن السهول الذائبة المنتفخة تعالت تيـارات الهواء الدافئة الى الجبال حاملة معهـا عطر الأرض الربيعى ، ورائحة الحليب الطازج وتداعت أكوام الثلج ، وذاب الجليـد

فى الجبال ، وتكونت الجداول وتشابكت فى طريقها مكونة أنهارا صاخبة محطمة كل شيء فى سبيلها مالئة الأخاديد المغسولة بالضجيج .

ولعل هذا الربيع كان أول ربيع صباى . وعلى أية حال بدا لى أجمل الفصول الربيعية الماضية . ومن الرابية التى تقع عليها مدرستنا افتح عينى لعالم الربيع الجميل . وكأن الأرض بسطت يديها ونزلت من الجبال واندفعت لا تلوى على شيء فى أرجاء السهب الوضاءة المتلألئة مترعة بالشمس والسديم الخفيف الشفاف . وهناك فى الطرف الآخر من الدنيا كانت تتوامض بحيرات زرق ذائبة الجليد ، وتصهل خيول ، وتطير طيور الغرانيق فى السماء حاملة على أجنحتها غمائم بيضا . فمن أين جاءت طيور الغرانيق وأين ملأت القلوب بهذه الأصوات المتهفة الزاعقة ؟

ومع قدوم الربيع عشنا أكثر مرحا . ابتكرنا لعبا ، وضحكنا دونما سبب ، وركضنا طوال الطريق من المدرسة الى القرية بعد انتهاء الدروس ، وتصايحنا بأصوات عالية . ولم يرق هذا للعمة فكانت لا تفوت فرصة لتقريعى :

ـ لم تنطين وتمرحين يا مجنونة . ولا تهتمين أبدا بأنك عزباء حتى الآن . مثيلاتك عند الطيبين من الناس تزوجن منذ زمان ، زدن أفراد البيت . أما أنت ... فقد وجدت لهوا فى الذهاب الى المدرسة ... ولكن انتظرى وسأهدئك .

والحق يقال انني لم آخذ تهديدات عمتي مأخذ الجد ، فليس هذا بجديد علي . اذ كانت تقرعني طوال حياتي . أما أن تقول انني ظللت عزباء ، فهذا ليس عدلا على الاطلاق اذ أنا لم أشب عن الطوق الا في هذا الربيع .

ضحك ديوشين وقال :

ـ انت ما تزالين صبية منفوشة الشعر بل وبرشاء ايضا .

ولم يكدرني كلامه قط . وبالطبع فكرت بيني وبين نفسي أنني شعثاء ، ولكنني لست برشاء تماما . وحين أكبر وأصير عروسا حقيقية ، فهل سأكون هكذا ؟ ولترني عمتي اذ ذاك أي فتاة جميلة سأكون . ويقول ديوشين أن عيني لامعتان كنجمتين ووجهي صبوح .

وذات مرة كنت قادمة من المدرسة عدوا فرأيت في فناء بيتنا حصانين غريبين يدل سرجاهما ولجامهما على أن صاحبهما قادمان من الجبال . وقد حدث قبل هذا أنهما كانا يعرجان علينا في عودتهما من السوق أو في طريقهما الى الطاحونة .

وطعنتني وأنا بعد على العتبة ضحكة عمتي غير الطبيعية :

« وأنت يا ابن الأخت لا تحزن ، لن تصبح فقيرا . فأنت حين تتسلم الحمامة بالمقابل ستذكرني بالكلمة الطيبة . ها .. ها .. ها ! » وسمعت أصواتا مؤيدة مقهقهة في الرد عليها . وحين ظهرت عند الباب صمت الجميع على الفور . كان رجل جسيم أحمر الوجه يجلس عند المفرش المنشور على البساط اللبادي كالصنم .

وقد نظر الى شزرا من تحت قبعته المصـــنوعة من فراء الثعلب والمسترخية على جبهة عرقة ، وسعل ثم خفض عينيه •

ــ هل عدت يا بنيتى ! ادخلى يا عزيزتى ــ قالت عمتى مكشرة فى ملاطفة •

وكان عمى يجلس على طرف البساط مع شخص آخر لا أعرفه أيضا وكانا يلعبان الورق ، ويشربان الفودكا ، ويأكلان لحم الخروف المسلوق • وكان كلاهما مخمورا • وكان رأساهما يتدليان على نحو غريب حين يلقيان الورق •

وانسلت قطتنا الرمادية نحو المفرش ، ولكن الأحمر الوجه نقرها على رأسها بانامله حتى صرخت فى وحشية ونطت جانبا ثم اختفت فى زاوية • فما أشد وجعها ! وراودتنى الرغبة فى أن أخرج ، ولكن لم أعرف كيف أفعل ذلك، وفى هذه اللحظة أسعفتنى عمتى بقولها :

ــ فى القدر طعام يا بنيتى ، فكلى قبل أن يبرد •

وخرجت • ولكن تصرف عمتى كدرنى جـــدا واضطربت نفسى • ورأيتنى أسارق السمع دون ارادة منى •

وبعد ساعتين تقريبا امتطى القادمان فرسيهما ، وذهبا الى الجبال • وبدأت عمتى على الفور ترشقنى بالشتائم المعتادة • ونفس عنى وقلت لنفسى : يعنى ان ملاطفتهـا كـانت من تأثير الخمـــرة •

وبعد ذلك بقليل جاءت الينا العجوز سايكال ، وكنت فى الفناء ولكن سمعت ما قالته :

ــ ماذا تفعلين ! ستهلكينها !

وتجادلت عمتي وسايكال بحرارة مقاطعة احداهما الأخرى، ثم خرجت العجوز من البيت متأججة غضبا • وألقت على نظرة غاضبة ولكنها مشفقة ، وانصرفت في صمت • وجن جنوني • لم نظرت الى هذه النظرة ، وبأى شيء لم أرضها ؟

وفي اليوم التالي لاحظت في المدرسة على الفور أن ديوشين مكتئب يفكر بشيء ما ، رغم أنه يحاول أن يخفي ذلك عنا • كما لاحظت أنه يتحاشى النظر الى جهتي • وبعد انتهاء الدروس حين خرجنا من المدرسة جماعة ناداني ديوشين :

ــ قفي يا التيناى ــ وتقدم المعلم نحوى وتفرس في عيني واضعا يده على كتفي ــ لا تذهبي الى البيت • هل فهمت مقصودى يا التيناى ؟

صعقت رعبا • فالآن فقط أدركت ما تنوى أن تفعله بي عمتي •

قال ديوشين :

ــ سأكون مسئولا عنك • ستعيشين معنا • فلا تغيبي عني بعيدا •

ولعل وجهي قد أربد ، فقد رفع ديوشين ذقني ، ونظر في عيني وابتسم كما كان يبتسم دائما • وقال ضاحكا :

ــ ولكن لا تخافي يا التيناى • فطالما سأكون معك لا تخافي شيئا • ادرسي ، وترددي على المدرسة كما كنت من قبل ، ولا

تفكرى فى أى شىء •• أنا أعرف أنك هيابة •• نعم ، بهـــذه المناسبة ، كنت قد عزمت منذ وقت طويل على أن أخبرك •

والظاهر أنه تذكر شيئا مضحكا ، فانخرط يضحك ثانية :

ـ أتذكرين يوما استيقظ فيه كاراكه مبكرا واختفى الى حيث لا ندرى • ثم رأيته يعود ليوصل ••• احزرى من ؟ ليوصل الدجالة ، العجوز جايناك • ولما سألت : ـ لم ؟ أجاب : دعهـا تسحر • والا فسينخلع قلب التيناى من موضعه • قلت : اطردوها من الحوش • فستأخذ مقابل سـحرها خروفا واحـــدا والا لما استطعنا التخلص منها • ولسنا أغنياء على هذه الدرجة • نحن لا نستطيع أن نهدى فرسا ، فقد أعطيناه للذئاب •• وكنت نائمة• وصرفتها لتذهب وشأنها • أما كراكه فقد ظل أسبوعا كاملا بعد ذلك لا يحادثنى • كان متكدرا • يقول : لقد أزعلتنى أنا العجوز• وعلى أية حال هما عجوزان طيبان بشكل نادر • حسنا ، لنذهب الآن الى البيت • هيا ياالتيناى •••

ومهما حاولت أن أسيطر على نفسى لكيلا أوذى المعلم دون داع لم تزايلنى الأفكار المرعبة • فان عمتى كانت تستطيع أن تأتى الى هنا فى أى ساعة وتنتزعنى بالقوة • وهناك سيفعلون بى ما يشاؤون ، ولا أحد فى القرية يصدهم عن ذلك • وهكذا قضيت الليلة ساهرة مترقبة المصائب •

وفهم ديوشين حالتى بالطبع • وفى اليوم التالى جاء بغرستين الى المدرسة ربما ليصرفنى عن أفكارى الكئيبة • وبعد انتهـاء

الدروس أمسكني من يدى ، وانتحى بى جانبا • وقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة :

ــ الآن سنقوم ، أنا وأنت يا التيناى ، بعمل • ها قد جلبت لك غرستي حور • وسنغرسهما معا • وحين تكبران ويشتد عوداهما تكونين أنت قد كبرت أيضا ، وصرت انسانا طيبا • فان لك نفسا كريمة ، وعقلا متطلعا • ونفسى تحدثنى دائما بأنك ستكونين عالمة كبيرة • أنا مؤمن بذلك • وسترين بنفسك • ان هذا مصيرك • وأنت الآن يافعة ، عسلوج، كهاتين الغرستين• فلننبتهما يا التيناى بأيدينا • ولتكن سعادتك فى التعلم يا نجمتى الساطعة •••

وكانت الغرستان بطول قامتى، غضتين ذوات جذعين مزرقين من أغراس الحور • وحين غرسناهما على مسافة غير كبيرة من المدرسة ، هبت نسمة من السفح فاهتزت وريقاتها الصغيرة جدا لأول مرة وكأنما نفثت فيها الحياة • اهتزت الوريقات ، وترنحت شجيرتا الحور ، وتمايلت •••

ــ أنظرى ، ما أروعهما ــ قال ديوشين باسما متراجعا الى الوراء ــ والآن نشق ساقية من هناك ، من عين الماء تلك • وسترين بعد ذلك أية شجرتى حور جميلتين ستكونان ! •• ستقفان هنا، على الرابية جنبا الى جنب مثل شقيقين• وستكونان دائما على مرأى • وسيسر الناس الطيبون بهما • وستكون الحياة غير هذه الحياة يا التيناى • الأيام الرائعة فى المستقبل •••

والآن لا أستطيع أن أجد الكلمات لاعبر ، ولو بمقدار ما

عن تأثرى بنبل ديوشين . ساعتئذ وقفت أنظر اليه لا غير . أنظر وكأنى أرى لأول مرة ما فى وجهه من حسن وضاء ، وما فى عينيه من رقة وطيبة ، وكأننى لم أعرف من قبل كم قويتـــان وماهرتان يداه فى العمل ، وكم صافية ونقية ابتسامته المدفئـة للقلب . ومثل موجة حارة سرى فى صدرى شعور جديد لا عهد لى به من عالم لا أعرفه . وفى طوية نفسى فزعت الى ديوشين لأقول له : « شكرا لك يا معلمى على أنك مولود هكذا ... أريد أن أعانقك وأقبلك ! » ولكنى لم اجرأ ، وخجلت من أن أنطق بهذه الكلمات وربما كان ينبغى ذلك ...

ولكن ، حين كنا نقف على الرابية تحت السماء الصـافية وسط المنحدرات الربيعية المخضوضرة كان يحلم كل واحد منا بحلمه الخاص . وفى تلك الساعة كنت أنسى تماما الخطر المسلط على . ولم أفكر فيما ينتظرنى فى غد ، ولم أفكر لم لم تبحث عنى عمتى . وهذا هو اليوم الثانى لغيابى . ألعلهم نسونى ، أم لعلهم عزموا على أن يتركونى وشأنى ؟ ولكن ديوشين فـكر بذلك كما يظهـر .

ـ لا تتألمى كثيرا يا التيناى . سنجد مخرجا ـ قال ذلك بينما كنا عائدين الى القرية ـ سأذهب بعد غد الى مركز المنطقة. وسأتحدث هناك عنك . فقد أفلح فى أن أجعلهم يرسلونك الى المدينة للدراسة . هل تريدين الذهاب ؟

أجبت :

ـ مثلما تقول أفعل .

ورغم أننى لم أتصور أى شيء ستكون هذه المدينة الا أن كلمات ديوشين بدت لى وافية لأحلم بحياة المدينة • وكنت تارة أفزع من الغربة التى تنتظرنى فى أنحاء غريبة ، وتارة أعتزم على الذهاب • وبكلمة واحدة ان المدينة لم تغب عن ذهنى الآن•

وفى اليوم التالى فكرت بذلك أيضا وأنا فى المدرسة • كيف وعند من سأعيش فى المدينة• فلو آوانى أحد من الناس فسأكسر الحطب وأجلب الماء ، وأغسل ، وسأفعل كل ما يامروننى به • فكرت على هذا النحو وأنا جالسة فى الفصل • وجفلت من المباغتة اذ تردد من خلف جدران مدرستنا المتداعية وقع حوافر خيل • تردد بغتة • واندفعت الخيل بسرعة حتى كأنها توشك على أن تدوس على مدرستنا • وأرهفنا الأسماع جميعا جامدى الأوصال •

وقال ديوشين بسرعة :

ـ لا تنذهلوا • واشتغلوا فيما بين أيديكم •

ولكن الباب انفتح بضجة فى تلك اللحظة ، ورأينا عمتى على العتبة • وقفت وعلى وجهها تكشيرة خبيثة متحدية • وتقدم ديوشين نحو الباب :

ـ أى شأن لك هنا ؟

ـ شأن لا يعنيك • سأوصل الفتاة الملعونة الى زوجها • هيه يا متشردة ـ واندفعت عمتى نحوى • ولكن ديوشين وقف فى طريقها •

ـ هنا تلميذات فقط •• لم يحن بعد زواج واحدة منهن ـ قال ديوشين فى ثبات وهدوء •

ـ سنرى هذا بعد ذلك • يا رجال ! امسكوها ، جروا الكلبة •

وأومأت العمة الى أحد الفرسان • وكان نفس الشخص ذو الوجه الأحمر والقبعة من فراء الثعلب • وترجل بعده رجلان وفى أيديهما أعواد ثقيلة •

ولم يتحرك المعلم من موضعه :

ـ كيف لك أيها الكلب السائب أن تتصرف ببنات الآخرين وكأنهن زوجاتك ؟ •• هيا • تنح عن طريقى •

وتقدم ذو الوجه الأحمر كالدب نحو ديوشين •

ـ ليس لك الحق فى الدخول الى هنا • هذه مدرسة ـ قال ديوشين ذلك وهو يمسك باطار الباب بقوة •

صاحت عمتى :

ـ لقد قلت لك • خطبها منذ زمن • انك أغويت الكلبة بلا مقابل •

وهدر ذو الوجه الأحمر ملوحا بالسوط :

ـ لا تهمنى مدرستك !

الا أن ديوشين سبقه ، ركله على بطنه بقدمه ركلة قوية فصرخ هذا وسقط • وفى تلك اللحظة هجم الرجلان اللذان كانا يحملان الأعواد على المعلم وارتمى الأولاد نحوى فى صياح وبكاء • وتطايرت الباب من الضربات قطعا قطعا ، وألقيت نفسى

نحو المتصارعين جارة معى الأطفال الصغار المتشبثين بى •

ــ اتركا المعلم ! لا تضرباه ! ها أنا • خذانى لا تضربا المعلم !

التفت ديوشين • وكان ديوشين مسربلا بالدماء ، مخيفا ومربدا • رفع السبورة من الأرض ولوح بها صائحا :

ــ اركضوا يا أطفال ، اركضوا الى القــــرية • اهربى يا التيناى ! ــ وشهق فى صراخه •

كسروا يده فكان يسندها الى صدره ويتراجع • أما الآخران فراحا يضربانه ويجــأران عليــه كثــورين هائجين لا يقيه منهما شىء •

ــ اضربا ••• اضرباه اضربا على رأسه ، اقتلاه فى مكانه !

واندفعت نحوى عمتى المهتاجة مع ذى الوجه الأحمر • ولفا حول عنقى بضفيرتى وجرانى الى الفناء • واندفعت أنا بكل قوتى • وللحظة واحدة رأيت الأطفال الذين جمدوا فى أماكنهم يصرخون ، وديوشين قرب الحائط الذى تلطخ بالدم الداكن •

ــ يا معــــلم !

ولكن ديوشين لم يستطع أن يعيننى فى شىء • كان لا يزال يستند على قدميه مترنحا مثل ســـــكران تحت ضربات جلاوزة وحاول أن يرفع رأسه المتدلى • الا أنهم ظلوا يضربونه ويوسعونه ضربا • فألقونى أرضا ، وأوثقوا يدى • وأثناء ذلك كان ديوشين يتمرغ على الأرض •

ـــ معـــلم !

ألا أنهم كموا فمى ، وألقونى على السرج •

وكان ذو الوجه الأحمر على صهوة الفرس فحصرنى بين يدى وصدره وقفز اللذان ضربا ديوشين ضربا مبرحا على سرجيهما وركضت عمتى بمحاذاتنا تضرب رأسى •

ـــ وقعت أخيرا • وقعت ! ها أنا أشيعك • ومعلمك لاقى نهـــايته •••

ولكنها لم تكن النهاية ، من الوراء انبعثت فجـــأة صرخة قانطـــة :

اتوكوها ! التيناى!

وبصعوبة رفعت رأسى المتدلى من الحصان ونظرت • كان ديوشين يجرى ورائنا ، مدمى مضروبا ضربا مميتا يحمل بيده حجارة ، وخلفه تلاميذ صفنا كله يبكون ويتصارخون •

ـــ قفـــوا ، يا وحوش ، قفـــوا ! اتركوها ! اتركوها ! التيناى ! ـــ صرخ وهو يلحق بنا •

وتوقف القساة ، وأحاط الرجلان بديوشين وهما عـــلى فرسيهما وأمسك ديوشين كمه بأســـنانه لكى لا تعيقه اليـــد المكسورة وصوب الحجارة ، ولكنها أخطأت الهدف • وحينذاك أوقعه الرجلان فى بركة بضربتين من الأعواد وغامت الدنيا أمام عينى ، ولم أر غير التلاميذ يهرعون الى المعلم ، ويقفون بالقرب منه مرتعبين •

ولا أذكر كيف وأين أوصلونى وأفقت لأجـــد نفسى فى

« كوخ » • ومن القبة المفتوحة لاحت نجوم أوائل الليل هادئة لا يرعبها شيء • وسمعت فى مكان قريب خرير نهر ، وأصوات رعاة الليل يحرسون قطعان الغنم • والى جانب الموقـد الهامد جلست امرأة عجوز عبوسة ذابلة مثل أرومة جذع • وكان وجهها داكنا كالأرض • وحولت رأسى الى الجهة الأخرى •

آه لو استطعت ان أقتلها بنظراتى !

وأوعز ذو الوجه الأحمر :

ـ انهضيها يا سوداء •

وتقدمت المرأة السوداء منى ، وهزت كتفى بيدها الجاسية الخشـنة •

ـ هدئى ضرتك • واشرحى لها الأمر • واذا لن تفهم لابأس سيكون الحديث معها قصيرا •

وخرج من « الكوخ » • ولم تتحرك المرأة السوداء من مكانها ، ولم تنطق بكلمة • ألعلها كانت خرساء ؟ وكانت عيناها المنطفئتان الشبيهتان بالرماد البارد تنظران بلا تعبير • هناك كلاب تضرب منذ صغرها • وأشرار الناس يضربونها على رؤوسها بأى شيء وقعوا عليه ، وبالتدريج تتعود هذه الكلاب على ذلك • ولكن فى نظرتها يستقر خواء حالك فارغ يبث القشعريرة فيك • وقد نظرت فى عينى السوداء الميتتين فخيل الى اننى أنا الأخرى بلا حياة واننى فى اللحد • وكنت مهيأة لأن أصدق بذلك لولا خرير النهر • كان الماء يجرى من مسقطه فى رشاش وهدير ••• كان طليقا ••• يا عمتى • يا سوداء الروح ! عليك اللعنة الى أبد الآبدين ! ••

وشرفت بدموعى ودمى ! •• وفى تلك الليلة بعد خمسة عشر عاما من ولادتى أصبحت امرأة ••• وكنت أصغر من أولاد ذلك المغتصب •••

وفى الليلة الثـالثة عزمت على الهـروب مهمـا يكن الأمر • فلأضع فى الطريق ، وليلحق بى المطاردون ، ولكننى سأكافح حتى آخر رمق مثلما فعل معلمى ديوشين •

وتوجست طريقى بلا ضجة فى الظلمة نحو المخرج، وتلمست الباب • وكان مشدودا بأنشوطة شعر شدا محكما • وكان من المستحيل فك عقد الحبل المشدودة بطريقة ماكرة والظلام حالك • حينذاك حاولت أن أرفع قليلا هيكل « الكوخ » لأنسل بطريقة ما ومع ذلك مهما جاهدت لم أظفر بطائل : فقد كان « الكوخ » من الخارج مشدودا أيضا فى الأرض باناشيط •

لم يبق الا أن أجد شيئا حادا وأقطع حبال الباب • وأخذت أتلمس فيما حولى ، ولكن لم أجد غير وتد خشبى صغير • ومن قنوطى رحت أحفر به الأرض تحت « الكوخ » • كان المسعى بالطبع ميئوسا منه ، ولكننى لم أدرك ذلك • فقد استحوذت على رأسى فكرة واحدة لا تقاوم ـــ الافلات من هنا أو الموت • فقط أن لا أسمع لهاثه ، وشخيره الثقيل ، فقط أن لا أظل هنا ، واذا مت فلأمت طليقة ، فى عراك ، فقط أن لا أرضخ •

« تكول » ـــ تعنى الزوجة الثانية • آه ما أشد مقتى لهذه الكلمة • من ابتكرها فى الأزمنة العصيبة ؟ أى شىء أكثر اهانة من حال الزوجة الثانية المكرهة المستعبدة روحا وجسدا ! انبعثن

يا تعيسات من القبور • استيقظى يا أشباح النســــوة الهالكات المحتقرات المجردات من الكرامة الانسانية ! انهضن يا معذبات ، وليتبدد ظلام تلك الأزمان الحالك ! أنا أتحدث هذا ، أنا الأخيرة منكن المتخطية هذا المصير !

ولم أعرف فى تلك الليلة أنه سيقدر لى أن أتفوه بهــذه الكلمات • وكنت أحك الأرض تحت « الكوخ » بعناد وعنف• وكانت التربة صخرية لم تطاوع • حفرت بأظافرى وأدميت أصابعى• وحين صار فى الامكان مد اليد تحت « الكوخ » كان الفجر قد طلع • ونبحت الكلاب واستيقظ الجيران • ومرقت خيــول فى كركبة لتروى ، ومرت أغنام تثغو فى نعاس • ثم أقبل شخص نحو « الكوخ » ، وفك الأناشيط المشدودة من الخارج ، وأخذ يرفع الغطاء اللبادى • وكانت المرأة السوداء الصموت •

يعنى أن القرية تتهيأ للنقل • وهنا تذكرت أننى قد سمعت أمس شائعات حول أنهم يريدون أن يتركوا هذا المكان منذ الصباح ، وينتقلون فى البدء الى مضرب جديد قرب الممر ، ومن ثم الى قلب الجبل خلف الممر ليقضوا الصيف كله • واشتد غمى • فان الهروب من هناك أصعب مائة مرة •

وظللت جالسة فى مكانى قرب الحفرة لا أريم • فما الذى أخفيه ولم ••• ومع ذلك رأت السوداء الأرض محفورة تحت « الكوخ » ، ولم تقل شيئا ، ومضت تقوم بعملها صامتة • وكانت تتصرف على العموم وكأنما لا يعنيها شيء ، وكأن ما من شيء فى الحياة يستثير فى نفسها أية مشاعر • بل ولم توقظ زوجها ، ولم

تجرأ على أن تطلب مساعدته لها فى الاستعداد للرحيل • كان يشخر كالدب تحت الأغطية والمعاطف الفرائية •

وطويت جميع الأبسطة ، وصار « الكوخ » منزوع الاسدال وجلست فيه وكأننى جالسة فى قفص ، ورأيت ، غير بعيد ، اناسا وراء النهر يحملون على الثيران والخيول • ثم رأيت ثلاثة فرسان يقبلون عليهم من جانب وبعد أن تحدثوا معهم اتجهوا صوبنا • وفى البدء ظننت أنهم يجمعون الناس للرحيل ، ثم تمعنت النظر وذهلت • كان ذلك ديوشين والآخران يرتديان قبعتى الميليشيا ، وعلى ياقتى معطفيهما شارات حمراء •

ظللت بين الحياة والموت دون أن أقدر حتى على الصياح • تملكنى الفرح ــ فان معلمى حى ــ وفى الوقت ذاته كان فراغ فى روحى • أنا الهالكة الموسومة بالعار •

كان رأس ديوشين مضمدا ، ويده معلقة فى شداد ••• وقفز من الحصان ، وكسر الباب بضربة من رجله ، ودخل الخيمة، وحسر الغطاء عن الرجل ذى الوجه الأحمر •

وصاح فى جهامة :

ــ انهض !

فرفع هذا رأسه وفرك عينيه ، وهم بأن يثب على ديوشين الا أنه تراخى فى الحال ، اذ رأى رجلى الميليشيا يصوبان عليه مسدسيهما • وأمسكه ديوشين من تلابيبه ، وهزه ، وقرب رأسه اليه بحدة •

ـ خنزير !ـ همس من شفتين مبيضتين ـ الآن اذهب الى المكان اللائق بك ! اذهب !

وسار هذا مذعنا الا أن ديوشين هزه من كتفه مرة أخـرى محدقا بعينيه • وقال بصوت متقطع :

ـ تظن أنك قد دستها كما تدوس العشب ، قتلتها ؟ هراء • ولى زمانك ، وجاء الآن زمانها • وعلى هذا نهايتك ! ••

وسمحوا لذى الوجه الأحمر بارتداء حذائه ، وشدوا يديه وأجلسوه على الحصان • وسار أحد رجلى الميليشيا أمام الحصان ممسكا بيده لجامه بينما سار الآخر خلفه • وركبت حصـان ديوشين • وسار هو الى جانبى •

وحين سرنا ارتفع من خلفنا صراخ وحشى لا انســانى • كانت المرأة السوداء تعدو خلفنا • عدت كالمجنون نحو زوجها ، وأطاحت قبعته الفرائية بحجارة • وصرخت بصوت يمزق القلب•

ـ هذا جزاء دمى الذى شربته يا قاتل ، وأيامى الســود يا قاتل ! لن أدعك حيا !

أغلب الظن أنها لم ترفع رأسها أربعين عاما • والآن انفجر كل ما تراكم فى روحها ، كل ما نخر حياتها كنبات الشيح المر • وتردد صدى صرخاتها المدوية فى صخور المضيق الجبلى • ركضت مرة فى هذا الجانب ، وأخرى فى ذاك ترشق زوجها المطأطىء جنبا بالروث والحجارة ، وكتل التراب ، وكل ما وقع تحت متنـاول يدها تصرخ باللعنات :

ـ ليت تربة جدباء صـــارت حيث وطئت رجلك • ليت

عظامك تضال فى العراء لينقر عينيك الغراب • يا رب لا ترنى وجهه مرة أخرى • أغرب عن عينى • اغرب يا هولة • اغرب ، اغرب — ثم صمتت ، ثم اندفعت جانبا صارخة وكأنها هاربة من شعرها الذى طايرته الريح •

وجاء الجيران فى هذه اللحظة ، وراحوا يطاردونها على خيــولهم •

وطن رأسى وكأننى أفقت من نوم كابوس • وكنت أمتطى الحصان مكسورة النفس مذلولة • وكان ديوشين يسير الى الأمام قليلا ممسكا اللجام بيده • وصــمت منكسا بشــدة رأسه المضمد •

وانقضى وقت غير وجيز قبل أن تترك المضــيق المشئوم وراءنا • وكان رجلا الميليشيا يتقدماننا بمسافة بعيدة • أوقف ديوشين الفرس ونظر الى لأول مرة بعينين مرهقتين :

— التيناى ! لم أقدر على أن أحميك • فاعذرينى — قال ذلك ثم أمسك بيدى وضغطها على خده — ولكن حتى لو غفرت لى فلن أغفر لنفسى هذا أبدا •••

رحت أجهش ، وانحنيت على عرف الحصــان ، ووقف ديوشين بالقرب منى صامتا يمسد شعرى وينتظر انتهاء نوبة بكائى

— اهدئى يا التيناى • ولنذهب — قال آخر الأمر — اصغى لما أنا قائل لك • منذ يومين كنت فى مركز المنطقة • ستذهبين للدراسة الى المدينة • هل تسمعين ؟

وحين توقفنا عند النهير المصوت الوضاء قال ديوشين :

ـ انزلى من الفرس يا التيناى واغتسلى ـ واخرج من جيبه قطعة صابون صغيرة ـ خذى يا التيناى ولا تبخلى بها • تريدين أن أذهب جانبا أرعى الحصان • واخلعى أنت ملابسك واستحمى فى النهير وأنسى كل ما وقع ، ولا تذكريه أبدا • استحمى يا التيناى ، وسيخفف عنك • موافقة ؟

هززت رأسى • وحين انتبذ ديوشين مكانا قصيا نضوت ملابسى ودخلت الماء بحـذر • وكان الحصى الأبيض والأزرق والأخضر والأحمر ينظر الى من القاع • ومر التيـار الأزرق السريع المصـوت عند أنامل قدمى • اغترفت غرفات من الماء وسكبتها على صدرى • وجرت خطوط الماء الباردة على جسمى، ورأيتنى أضحك ، على غير ارادة منى ، لأول مرة منذ أيام • وما أطيب الضحك ! ومرة بعد أخرى رحت أسكب الماء على جسمى ، ثم ألقيت نفسى فى قلب التيار • فحملنى سير الماء بقوة الى الجرف • ونهضت وألقيت نفسى مرة أخرى فى التيار الصاخب المرذذ •

ـ أحمل أيها الماء معك كل وضر ودنس هذه الأيام ! اجعلنى نقية مثلك أيها الماء ! ـ همست أنا بذلك وابتسمت لشىء لا أعرفه •

لم لا تظل آثار أقـدام النـاس الى الأبد على الأماكن التذكارية الحبيبة اليهم ؟ ولو وجدت الآن ذلك الدرب الذى عدت فيه مع ديوشين من الجبال لعفرت وجهى بالأرض وقبلت آثار أقدام المعلم • فان هذا الدرب أعز طريق عندى • مبارك

هو ذلك اليوم ، وذلك الدرب ، وذلك الطريق الذى عدت به الى الحياة ، الى ايمان جديد بنفسى ، الى آمال جديدة والى النور ••• وحمدا لتلك الشمس ، حمدا لأرض تلك الأزمان•••

وبعد يومين أخذنى ديوشين الى المحطة •

لم أرد أن أبقى فى القرية بعد كل الذى حدث • كان ينبغى بدء الحياة الجديدة فى مكان جديد • كما ان الناس وجدوا قرارى صائبا • وودعتنى سايكال وكاراكه • وقد ضجا وبكيا كطفلين وأثقلانى بالصرر والأمتعة • وجاء لتوديعى جيران آخرون بل وحتى اللجلوج ساتيمكول اذ قال :

ــ الله معك يا بنيتى • طريق ميمون • لا تتهيبى والتزمى وصية المعلم ديوشين • ولا تضيعى • ومهما قالوا فقد أصبحنا ندرك على نحو ما •

وهرول تلامذة من مدرستنا طويلا وراء العربة ، ولوحوا ايديهم •••

سافرت مع بعض الصبية الذين كانوا يرسلونهم أيضا الى دار الأطفال فى طشقند • وكانت بانتظارنا فى المحطة امرأة روسية ترتدى سترة جلدية •

وكم من مرة فيما بعد مررت بهذه المحطة الجبلية الصغيرة المظللة بأشجار الحور • يبدو لى ان نصف قلبى قد تركته هناك الى الأبد •

كان فى الضوء المترجرج الليلقى للمساء الربيعى شىء كئيب شجى وكأن الأغباش نفسه عرف فراقنا • جاهد ديوشين

ان لا يظهر تألمه ومضاضة نفسه ، ولكنني عرفت حاله ، لأن نفس الألم ألهب حلقومي بغصة حارة • حدق ديوشين في عيني عميقا ويده تمسد شعري ووجهي وحتى أزرار فستاني • وقال :

ـ لو كان الأمر متوقفا على يا التيناي لما سمحت لك بالابتعاد عني خطوة واحدة • ولكن ليس لي الحق في تعويقك• ينبغي عليك أن تتعلمي وأنا لست على قدر كبير من المعرفة • فسافري وسيكون ذلك أفضل ••• ولعلك تصبحين معلمة حقيقية ، واذ ذاك ستتذكرين مدرستنا ، وربما ستضحكين لها • ليكن ذلك ••• ليكن •••

وصفرت القاطرة على بعد وتردد الصدى في المضيق الذي تقع عليه المحطة • وظهرت أنوار القطار • وماج الناس على المحطة •

ـ ها أنت راحلة الآن ـ قال ديوشين بصوت مرتعش ضاغطا على يدي ـ أرجو لك السعادة يا التيناي والمهم ان تتعلمي ، تعلمي •••

ولم أستطع أن أرد بأي جواب • فقد خنقتني العبرات •

ـ لا تبكي يا التيناي ـ مسح ديوشين عيني • ثم تذكر فجأة :

ـ وشجرتا الحور اللتان غرسناهما معا سأتعهدهما بنفسي• وحين تعودين انسانا كبيرا تجدين كيف نمتا جميلتين •

جاء القطار حينئذ • وتوقفت العربات بضوضاء وجلبة •

ـ فلنتوادع اذن ـ وحضنني ديوشين وقبلني على جبيني

بقوة ــ أرجو لك الصحة والسفر الميمون • وداعا يا عزيزتي••• لا تخافي وكوني جريئة •

قفزت على الدرجة • والتفت عبر كتفي • لن أنسى أبدا ديوشين واقفا تلك الوقفة ، ويده على شداد ينظر الى بعينين غائمتين ، ثم توجه نحوي وكأنه أراد أن يمسني ، وفي تلك اللحظة تحرك القطار وصاح هو :

ــ وداعا يا التيناى وداعا يا نورى !

ــ وداعا يا معلم ! وداعا معلمي العزيز !

وعدا ديوشين الى جانب العربة • ثم تأخر • وبعد ذلك اندفع فجأة وصاح :

ــ التيناى !

صاح وكأنه نسى أن يقول لى شيئا مهما جدا وقد تذكره، رغم أنه كان يعرف ان الأوان قد فات ••• وما زالت تلك الصيحة ترن في أذني حتى الآن ، الصيحة الصادرة من صميم القلب ، من أعماق الروح •••

مر القطار في نفق ، وخرج قدما مزيدا سرعته ، عابرا بي وادي السهب الكازاخي الى حياة جديدة ، الى كفاح جديد ، الى عمــل جديد •••

وداعا يا معلمي ، وداعا يا مدرستي الأولى ، وداعا أيتها الطفولة ، وداعا يا حبي الأول الذي لم أبح به لأحد •••

نعم • تعلمت في مدينة كبيرة حلم بها ديوشين ، في مدارس كبيرة لها نوافذ عريضة حدثني هو عنها • ثم أكملت كلية العمال

فأرسلونى الى موسكو ـ الى معهد الماركسية اللينينية .

كم من صعوبة تجرعتها فى سنى دراستى الطويلة ، كم من مرة أصابنى يأس . يبدو لى : لا ، أنا لا أملك حكمة العلم. وفى كل مرة فى أشد اللحظات عسرا أحسب نفسى فى امتحان فكرى أمام معلمى الأول فلا يسعنى أن أتراجع . والذى يناله الآخرون فى الحال حصلت أنا عليه بشق النفس لأنه كان على ان أبدأ كل شىء من الألف باء .

وحينما كنت أدرس فى كلية العمال كتبت رسالة الى المعلم بحت له فيها بحبى وبأننى أنتظره . ولم يجب هو . وبهذا انقطعت رسائلنا . وأظن انه تخلى عنى وعن سعادته لأنه لم يرد ان يعيق دراستى . ولعله كان على حق ... أو ربما كانت هناك أسباب أخرى ؟ كم عانيت وقلبت فكرى فى ذلك الحين ...

وناقشت اطروحتى الأولى فى موسكو . وكانت بالنسبة لى فوزا كبيرا جديا . ولم أستطع زيارة القرية طوال تلك الأعوام ثم بدأت الحرب . وفى أواخر الخريف عند الجلاء عن موسكو الى فرونزه نزلت من القطار فى تلك المحطة التى ودعنى فيها معلمى . ومن حسن حظى اننى عثرت على عربة فى الحال وتوجهت الى السوفخوز عبر قريتنا .

ايه يا مسقط رأسى . تعين على أن أزورك فى زمن الحرب العصيب علينا . ومهما كانت فرحتى بك ، وأنا أنظر الى الأراضى المستصلحة ـ فقد نمت قرى جديدة ، وحرثت حقول جديدة

كثيرة ، وأنشئت طرق وجسور جديدة ــ كانت الحرب تكدر هذا اللقاء .

واضطربت وأنا أقترب من القرية . أمعنت النظر من بعيد الى الشوارع الجديدة غير المعروفة لى ، والى البيوت الجديدة والحدائق ، ثم نظرت الى تلك الرابية التى كانت تقع عليها مدرستنا، وتقطعت أنفاسى ــ هناك على الرابية تقف شجرتا حور كبيرتان متلاصقتان كانتا تتمايلان فى الريح . ولأول مرة ناديت الانسان الذى كنت أسميه طوال حياتى بالمعلم ، ناديته باسمه . همست :

ــ ديوشين ! شكرا لك يا ديوشين على كل ما صنعته لى . انك لم تنس ، يعنى فكرت ... فما أشبه هذا بك !

ولما رأى صبى سائق العربة الدموع فى وجهى ارتعب :

ــ ماذا جرى لك ؟

ــ لا بأس معى . هل تعرف أحدا من الكولخوز ؟

ــ أعرف بالطبع ، كلهم أصحابى .

ــ وديوشين هل تعرفه ؟ هذا الذى كان معلما .

ــ ديوشين ؟ ذهب الى الجيش . لقد أوصلته بنفسى من الكولخوز فى هذه العربة الى اللجنة العسكرية .

وعند مدخل القرية رجوت سائق العربة أن يتوقف ، ونزلت من العربة . نزلت وأطلت التفكير ، قائلة لنفسى : لأذهب الآن وأطوف فى البيوت فى هذا الزمن العصيب ، وأفتش عن المعارف وأسألهم هل تذكروننى ، أنا ابنة قريتكم . ولكننى لم

أقدم على ذلك . فان ديوشين فى الجيش . ثم انني حلفت على أن لا أذهب أبدا الى هناك حيث تعيش عمتى وعمى . وقد تغفر للناس أشياء كثيرة ، ولكن لا غفران لتلك الجريمة على ما أظن. كما لم أرد أن يعرفا انني وصلت الى القرية . وتحولت عن الطريق واتجهت نحو شجرتى الحور ، الى الرابية .

ايه يا شجرتى الحور ! كم من الأحداث والسنين مرت منذ أن كنتما شجرتين غضتين ذواتى جذعين مزرقين . سلاما يا صديقى سلاما يا عزيزتى ، سلاما أيتها الشقيقتان . تقبلا انحنائى الأرضى .

ها قد تحقق كل ما حلم به الرجل الذى غرسكما وتنبأ به. وجاء الزمن الموعود . سوى أن العدو باغت وطننا ، ومرة أخرى رحل ذلك الرجل يحمل سلاحه ليدافع عن أحلامه .

لم انتما تدندنان فى حزن ، وبم تدمدمان ، وعم تتأسيان ؟ أم انتما تشكوان من أن الشتاء يدنو ، والرياح الباردة تقطع أوراقكما ؟ أم ان ألم الشعب وأساه يطنان فى جذعيكما ؟

نعم سيأتى الشتاء مرة أخرى ، وستأتى صبارات القرس وعواصف الثلج القاسية . ولكن سيأتى الربيع أيضا ...

وقفت طويلا أصغى لحفيف أوراق الخريف . وكانت الساقية عند قدمى الشجرتين قد نظفت حديثا : فما تزال على الأرض آثار معول عميقة طرية . كان الماء الزاهى النقى فى الساقية الملأى يكاد يترقرق ، وعلى سطحه تتهادى أوراق الحور الصفراء .

ايه أيها المعلم ! لعلك كنت هنا فى آخر دقيقة لك ... هذه آثار معولك .. فعد بنصر سريع ، عد حيا سالما . أما انتما أيتها الشجرتان فصليا له .

ومن الرابية كان بوسعى ان أرى السطح المطلى لمدرسة جديدة . أما مدرستنا فلم يكن لها من أثر .

ثم انحدرت الى الطريق ، وصادفت عربة فى طريقى ، وعدت الى المحطة .

كانت الحرب وتحقق النصر . وكم من سعادة مرة كانت من نصيب الشعب : هرع الأولاد الى المدرسة يحملون حقائب الميدان التى كان آباؤهم يستخدمونها . وعادت الأيدى الرجولية الى العمل ، وذرفت أرامل الجنود كل ما فى مآقيهن ، ثم صمتن قانعات بترملهن . وانتظر بعض الناس طويلا عودة أعزائهم . فليس الجميع قد عادوا رأسا الى البيت .

ولم أعرف ماذا حدث لديوشين . كان أهل قريتى القادمون الى المدينة يقولون انه مفقود . وقد تلقى مجلس القرية ورقة بذلك .

وقالوا مفترضين :

— ربما قتل . مضى زمن ، وما من خبر أو اشاعة عنه .

وكنت أقول لنفسى بين الحين والآخر : « ان معلمى لن

يعود • وهكذا لم نلتق منذ ذلك اليوم المشهود يوم توادعنا في المحطة » •

وحين كنت استرجع الماضى لم يخطر على ذهنى مدى ما تراكم فى روحى من أذى •

فى أواخر خريف عام ١٩٤٦ سافرت الى جامعة تومسك فى مهمة علمية •

سرت أول مرة فى سيبيريا • كانت كالحة كئيبة فى ذلك الوقت قبيل حلول الشتاء • كانت الغابات العريقة تمر من خلف النوافذ مثل حائط قاتم • وفى الأدغال تتراءى سقوف القرى السوداء يتصاعد الدخان الأبيض من مداخنها • وغطى أول الثلج الحقول الباردة ، وكانت الغربان العابسة تطير فوقها • وكانت السماء قاتمة دائما •

ولكنى شعرت بمرح وأنا فى القطار • كان أحد جيرانى فى المقصورة جنديا فى الجبهة سابقا وهو يسير على عكازتين وقد أضحكنا بحكاياته المسلية والنوادر المستقاة من الحياة العسكرية • وأذهلتنى مخيلته التى لا تنضب • وكنت تشعر دائما بأن وراء بساطتها والضحكة التى بدت وديعة حقيقة فعلية• وقد أحبه جميع من فى العربة • ثم ان قطارنا توقف برهة عند مزلقان صغير بعد نوفوسيبرسك ووقفت قرب الشباك ، ونظرت اليه ضاحكة من آخر نكتة قالها جارى •

وتحرك القطار ، مزيدا سرعته : ومر من وراء الشباك مبنى المحطة الصغير المنفرد • وعند اندماج الخطوط تنحيت عن

الشباك ، ثم التصقت ثانية بالزجاج • وكان ديوشين هناك ! كان واقفا عند الملف الاسطوانى يحمل فى يده علم الاشارة • ولا أعرف ماذا حصل لى •

ــ قفوا ! ــ صحت أنا فى العربة كلها ، واندفعت نحو المدخل دون أن أدرى ماذا أفعل • ولكن بصرى وقع على فرملة الطوارىء على مقربة ، فقطعت مشدها بقوة •

فرمل القطار بقوة ، فتراطمت العربات ، ورجع القطار بقوة الى الوراء ، وتساقطت الأمتعة من الرفوف فى ضجيج ، وتدحرجت الأوانى ، وتصايح الأطفال والنساء • وصاح شخص بصوت غريب :

ــ وقع شخص تحت القطار !

كنت واقفة على الدرجات ، وقفزت دون أن أرى أرضا تحتى وكأننى أتردى فى جب لا قاع له • ثم اندفعت دون أن أرى شيئا ولا أعى شيئا الى الملف الاسطوانى للمزلقان ، الى ديوشين • والى الخلف علت صفارات ملازمى القطار • وقفز المسافرون من العربات ، وجروا ورائى •

عدوت بنفس واحد بمحاذاة العربات وجرى ديوشين للقياى •

ــ ديوشين ، يا معلم ! ــ هتفت مندفعة نحوه •

وتوقف المكلف بالملف الاسطوانى ينظر الى دون أن يفهم • وكان هو ، ديوشين ، بوجهه وعينيه ، الا انه قد كبر قليلا وصار له شارب لم يكن له من قبل •

ـ ماذا بك يا أخت ؟ ماذا جرى ؟ ـ سأل فى حنان باللغة الكازاخية ـ لعلك قد أخطأت التقدير • أنا عامل الملف جانكازين، ويسموننى بينو •

ـ بينو ؟

ولا أدرى كيف وفقت فى زم فمى كيلا أصرخ من الغم ، من الألم ، من الخجل • ما الـذى فعلت ! غطيت وجهى بكفى وأطرقت برأسى • لم لم تنشـق الأرض تحت قـدمى ؟ كـان على أن أعتذر لعامل الملف ، وأطلب العذر من المسـافرين • ولكننى وقفت وصمت كالحجارة الا ان الذين ركضـوا من المسافرين صمتوا أيضا لسبب لا أدريه • وانتظرت أن يرفعوا الآن أصواتهم على ويعذلوننى • الا أنهم ظلوا صامتين ، وفى ذلك الصمت الرهيب قالت امرأة وفى صوتها دموع :

ـ مسكينة ، حسبته زوجها أو أخاها فتبين أنها كانت على خطأ •

وتحرك الناس •

وقال أحدهم بصوت أجش :

ـ ما أكثر أحداث الحياة !

ـ كل شىء يحدث ، وأى شىء لم نعانه فى الحرب • وأى شىء لم يتحقق ولم يذرف عليه دمع ـ أجاب صـوت نسائى متقطع •

رفع عامل الملف يدى عن وجهى وقال :

ـ تعالى أوصلك الى العربة ، الجو بارد •

وأمسكني من يدى ، وأمسك ضابط بيدى الأخرى قائلا :

ـــ تعالى يا مواطنة ، نحن نفهم كل شيء .

وتفرق الناس ، وشيعوني وكأنهم يشيعون جنازة . سرنا ببطء في المقدمة ، ووراءنا سائر الناس . كما صمت الذين قابلونا من المسافرين ، وانضموا الى الجمع . ووضع أحد الناس منديلا فوق كتفي . وحجل جارى فى المقصورة على عكازتين بجانبي ، وكان يسبقنا قليلا ناظرا الى وجهي . ولسبب ما سار هذا الرجل المرح المداعب الطيب الشجاع خالعا طاقيته وكان يبكي كما يبدو . وبكيت أنا أيضا . وفي هذا الموكب بمحاذاة العربات وفى الريح الصافرة الطانة فى أسلاك التلفون خيل الى أننى أسمع لحنا جنائزيا : « لا ، لن أراه أبدا » .

وقرب العربة أوقفنا مسئول القطار ، وقد صرخ بشيء مهددا اياى بأصبعه ، متحدثا عن المسئولية القضائية ، وعن الغرامة . ولكننى لم أجب بشيء . كنت غير مكترثة لشيء . ومد الى المحضر ، وطلب منى أن أوقع . ولكن لم تكن لدى القوة الكافية لأن أمسك بالقلم .

عندئذ اختطف جارى الورقة منه ، وتقدم منه على عكازتيه وصاح في وجهه :

ـــ اتركها وشأنها . سأوقع أنا . فأنا الذى قطع مشند فرملة الطوارىء . وأنا مسئول !

وانطلق القطار المتأخر فى الأرض السيبيرية ، فى المنطقة الروسية منذ القدم . وغنى قيثار جارى فى نغم حزين فى الليل .

ومثل أغنية الأرامل الروسيات الكئيبة حملت فى قلبى الصدى الشجى لالتقائى بالحرب التى انتهت .

ومرت سنون ، وتصرم الماضى ، ودعا المستقبل ، كما هو دائما ، بتبعاته الصغيرة والكبيرة . وتزوجت فى وقت متأخر بعض الشىء . لكننى التقيت برجل طيب . وصارت لنا عائلة وأولاد ، وها نحن نعيش فى مودة . وأنا الآن أحمل لقب دكتوراه فى العلوم الفلسفية . وغالبا ما يتعين على أن أسافر . وقد زرت أقطارا كثيرة ... ولكن لم أزر القرية مرة أخرى . وكانت لذلك أسباب بالطبع ، وأسباب كثيرة . ولكن لا أنوى تبرير نفسى. فان قطعى للاتصال بأهل قريتى شىء سىء وغير معذور . ولكن هكذا صار مصيرى . وأنا لم أنس الماضى . لا ، فليس فى وسعى أن أنساه ، بل انفصلت عنه على نحو ما .

توجد فى الجبال ينابيع : ويحدث ان تشق طرق جديدة ، وينسى الدرب اليها ، وأكثر فأكثر يقل وصول القادمين اليها لشرب الماء ، وبالتدريج يبدأ النعناع والعليق بالنمو عليها . ثم تتعذر ملاحظتها من جانب . ويندر ان يتذكر أحد من الناس هذه الينابيع فيعرج عليها من الطرق الرئيســية فى يوم قائظ ليطفىء غلته . ويأتى رجل ويبحث عن ذلك المكان المهمل ويزيح النبت ، ويتأوه ، يذهله هدوء وعمق هذا الماء البارد الصافى على نحو غير اعتيادى ، والذى لم يكدر صفوه أحد منذ زمان. ويرى فى هذا النبع نفسه والشمس والسماء والجبال ... ويفكر ذلك الرجل من الاثم أن لا يعرف مثل هذا المكان ، وان عليه

آن يخبر رفاقه به . يفكر بذلك ثم ينساه حتى المرة الثانية .

وهذا ما يحصل فى الحياة أحيانا . ولكن فى ذلك حقيقة الحيـاة ...

وقد تذكرت هذه اليناـبيع قبل وقت وجيز بعد زيارتى للقرية .

انك بالطبع قد استغربت حينذاك من رحيلى المفاجىء من كوركوريو . أكان من الجائز حقا أن أخبر الناس هناك بكل ما حدثتك به الآن ؟ لا . كنت مرتبكة مضطربة ، وخجلة . كنت خجلة من نفسى . ولهذا قررت العودة فى الحال . فقد أدركت أنى لا أستطيع أن ألتقى بديوشين ، لا أستطيع أن أنظر فى عينيه . كان على ان أهدىء روعى ، وأصنف أفكارى ، وأفكر فى الطريق بكل ما أردت أن أقوله لا لأهل قريتنا فقط ، بل ولكثير من الناس الآخرين .

وشعرت بذنب أيضا لأننى لم أكن الشخص الذى يجب أن يحاط بكل حفاوة ممكنة ، ويجلس فى مكان الشرف أثناء افتتاح المدرسة الجديدة . فان هذا الحق يملكه معلمنا الأول دون أى شخص آخر ، يملكه أول شيوعى فى قريتنا ، العجـوز ديوشين . والذى حدث عكس هذا . جلسنا نحن وراء موائد الوليمة ، وكان ذلك الرجل الطيب يسرع لتوزيع البريد ، يسرع ليوصـل عند افتتاح المدرسة برقيـات التهنئة من متخرجيها السابقين .

والظاهر ان ذلك ليس مصادفة صرفا . فقد لاحظت ذلك

أكثر من مرة • ولهذا أطرح هذا السؤال : متى فقدنا القدرة على احترام الشخص البسيط بصورة حقيقية مثلما احترمه لينين ؟ والحمد لله اننا نتحدث الآن عن مثل هذه الأشياء دون مراءاة ورياء • وجميل جداً أننا فى ذلك اقتربنا من لينين أكثر •

والشبان لا يعرفون أى معلم كان ديوشين فى زمانه • وكثيرون من الجيل القديم قد ماتوا • وقتل غير قليل من تلامذة ديوشين فى الحرب • كانوا محاربين سوفييتيين حقيقيين • وكان لزاماً على أن أحدث الشباب عن معلمى ديوشين • وكل انسان لو كان فى موضعى هذا ملزم على أن يفعل ذلك • ولكننى لم أزر القرية ، ولم أعرف أى شىء عن ديوشين ، ومع مرور الزمن تحولت صورته بالنسبة لى وكأنها ذخيرة ثمينة فى صمت المتحف •

وسآتى مرة أخرى الى معلمى وأقدم له الامتحان • وأرجوه الصفح •

أريد بعد عودتى من موسكو أن أسافر الى كوركوريو وأقترح على الناس هناك أن يسموا المدرسة الداخلية الجديدة « بمدرسة ديوشين » • نعم باسم هذا الكولخوزى البسيط ، وساعى البريد الآن • وآمل أن تؤيدنى أنت ـ كواحد من أهل القرية ـ فى اقتراحى وأنا أرجوك فى هذا •

والساعة الآن فى موسكو الثانية ليلا • وأنا واقفة فى شرفة الفندق • أنظر الى اتساع أنوار موسكو وأفكر كيف

سأصل الى القرية ، وألتقى بالمعلم ، وأقبل لحيته الشائبة ...

ها أنا أفتح الشباك على مصراعيه ، فينصب فى الغرفة تيار من الهـواء الطلق . وأمعن النظـر فى الغبش المزرق الآخذ بالنصـوع ، بمخططات وأوليات الصـورة التى بدأتها . وهى مخططات كثيرة . ذلك لأننى أعدت الصورة من جديد مرارا وتكرارا . ولكن الحكم على الصورة ككل يبدو سابقا لأوانه . فأنا حتى الآن لم أكتشف الشىء المهم .. وأسير فى الصمت قبيل اطلالة الفجر ، وأفكر وأطيل التفكير . وهذا ما يحدث فى كل مرة ، وفى كل مرة أتيقن من أن صورتى قد أخذت تتكون لا غير .

ولكننى أريد على أية حال أن أتحدث لكم بعملى الذى لم أتم رسمه الآن . أريد أن أتشاور . وبالطبع انكم تحدسون بأن صورتى ستكون عن المعلم الأول فى قريتنا ، الشيوعى الأول العجوز ديوشين .

ولكننى حتى الآن لا أتصور هل سـأقدر على أن أعبر بالألوان عن تلك الحياة المعقدة ، المزدحمة بالنضال ، وعن هذه المصائر المختلفة والعاطفة الانسانية . ما العمل لكيلا تهرق هذه الكأس ، لكى أوصلها لكم يا معاصرى ؟ ما العمل لكى لا أكتفى بأن أوصـل فـكرتى لكم فقط ، بل لكى تكون من ابداعنا المشترك نحن ؟

لا أستطيع الا أن أرسم هذه الصورة . ولكن كم من تقليب للرأى وكم من خوف استبد بى . وفى أحيان أخرى يبدو

لى أننى لن أوفق الى شىء • وحين ذاك أقول لنفسى : لم وضع القدر الريشة فى يدى اذن ؟ أية حياة شهيدة معذبة ! وفى أحيان ثالثة أشعر بأننى من الجبروت بحيث أستطيع تحريك الجبال • وحين ذلك أقول لنفسى : انظر ، وادرس واختر • ارسم شجرتى ديوشين والتيناى ، شجرتى الحور تينك اللتين أتاحتا لك فى الطفولة كثيرا من اللحظات البهيجة رغم انك لم تعرف تاريخهما • ارسم طفلا حافى القدمين ملوح البشرة ، صعد عاليا وجلس على غصن الشجرة ينظر بعينين مدلهتين الى المدى غير المرئى •

أو ارسم صورة وسمها « المعلم الأول » • يمكن أن تصور ديوشين حين كان ينقل الأطفال على ذراعيه عبر النهير ، وقد مر به على افراس مطهمة نافرة أناس بله هازئون به عليهم عمرات من فراء الثعالب •••

أو أرسم ديوشين وهو يودع التيناى عند ذهابها الى المدينة فانت تذكر كيف صاح فى آخر مرة • أرسم مثل هذه الصورة لكى تتجاوب فى قلب كل انسان مثلما تسمع التيناى صيحة ديوشين حتى الآن •

هكذا أحدث نفسى • وكثيرا ما أحدث نفسى بأشياء • ولكن لست دائما أوفق بشىء ••• وأنا حتى الآن لا أعرف أى صورة سأرسم • ولكننى أعرف مقابل ذلك شيئا واحدا : اننى سأبحث •

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

وداعا ياغولسارى !

كتبت « ليتراتورنايا غازيتا » (« الجريدة الأدبية ») عن قصة « وداعا يا غولسارى ! » تقول :

« ... ان آيتماتوف لقادر على تحويل « نثر الحياة » الى لآلىء الشعر ... »

موسكو ــ حزيران ١٩٦٦

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

١

كانت عربة قديمة تقطع الطريق ، يجرها حصان هرم ، وقد استقلها رجل هرم أيضا وكان الحصان الرهوان الأصفر اللون غولساري حصانا مسنا ، مسنا جدا ...

كانت الطريق تصعد الى الهضبة على نحو مضجر فى طوله. وبين التلال الرمادية المقفرة شتاء كانت تدور باستمرار ريح ثلجية ، أما فى الصيف فنار القيظ كنار الجحيم .

ولقد كان هذا الارتقاء بالنسبة الى تاناباى عقوبة مريرة دائما فلم يكن يحب السفر البطىء ، ولم يكن يطيقه قط . وفى شبابه ، حين كان يتعين عليه غالبا السفر الى المركز المنطقى، فانه كان كل مرة يطلق حصانه ، فى درب الأياب ، رماحة الى الجبل. ما كان يشفق عليه ، بل كان يسوطه بسوطه . أما اذا كان يرتحل مع رفاق الطريق فى عربة نقل طويلة ، تلك المشدودة الى ثيران، فانه كان يثب منها أثناء السير ، ويأخذ صامتا ثيابه ، ويمضى ماشيا . وكان يمضى سريعا ، كما فى الهجوم ، ولا يقف الا بعد

أن يرتقى الهضبة • فهناك حيث يتخاطف الهواء بفمه يظل ينتظر الجماعة الزاحفة فى الأسفل • وكان قلبه يخفق بضراوة من هذا المشى السريع ويظل يخزه فى صدره • ولكن ، ولو كان الأمر كذلك ، الا انه يظل أفضل من جرجرة الثيران البطيئة •

وقد كان تشورو الراحل يحب أن يمزح من غرابة فعل صديقه ، فكان يبادره بالقول :

— هل تريد أن تعرف ، ياتاناباى ، لماذا لا يحالفك التوفيق ؟ انه بسبب قلة صبرك • أقسم على ذلك • فأنت دائما تريد كل شىء بسرعة وتظل تستعجل الأمور أبدا • كأن لسان حالك يقول: أعطنى الثورة العــالمية على الفور ! أجل ، ولن أتكلم عن الثورة، انك لا تقدر على تحمل حتى هذا الطريق العادى ، والصعود من قرية الكساندروفكا • ان كل الناس كالناس ، يرتحلون بهدوء، الاك فأنت تقفز ، وتعدو عدوا الى الجبل لكأن الذئاب تطاردك • حسنا ، ولكن ماذا تربح بهذا ؟ لا شىء • فالأمر يظل سواء ، فان عليك أن تجلس هناك ، فوق ، لتنتظر الآخرين • وأعلم ، انه حتى فى الثورة العــالمية لا تستطيعن الوثوب لوحدك ، فانك ستظل تنتظر ريثما يلحق بك الآخرون •

بيد أن ذلك كان منذ زمن طويل ، طويل جدا •

وفى هذه المرة لم يلاحظ تاناباى كيف تجاوز هو المرتفع من قرية الكساندروفكا • فلقد اعتاد ، على ذلك كما يبدو ، مع مرور الزمن • لقد ارتحل لا بسرعة ولا ببطء • ارتحل كيفما اتفق • والآن يمضى فى الطريق لوحده دائما • فان أولئك الذين

كان يمضى معهم فى هذه الطريق ، زمرة ضاجة ، فى الثلاثينيات، لن تجد هم الآن • فمنهم من استشهد فى الحرب ، ومنهم من توفى ، ومنهم من هو قعيد البيت يقضى بقية عمره • أما الشبيبة فانها ترتحل فى السيارات • وبالطبع لن توافق على الارتحال معه على فرس هزيل بائس •

كانت العجلات تقرع فى هذه الأرض القديمة • وستظل تطرق طويلا • فأمام العين كان يضطجع السهب ، أما هناك ، وراء القناة ، فسيكون عليه الارتحال قدرا لا يستهان به عبر التلال السفحية •

لقد بدأ منذ زمن طويل يلاحظ أن الحصان بدأ يأفل قوى، بدأ يضعف • ولكنه ، وهو المهموم بأفكاره المريرة ، لم يقلق تماما • فهل هى يا ترى ، مصيبة كبيرة أن يتعب الحصان فى الطريق ؟ لقد وقع أسوأ من هذا قبلا ، وتدبر الأمر • وفى هذه المرة سيتدبره ، فسينقله الحصان على نحو ما ، وسيبلغ غايته •••

أجل ، وأنى له أن يعرف أن حصانه الرهوان العجوز ، غولسارى* ، الذى يلقب هكذا بسبب لونه الأصفر الفاتح غير الاعتيادى ، انما قد اجتاز مرتفع الكساندروفكا للمرة الأخيرة ، وانه الآن انما يحمله للفراسخ الأخيرة • أنى كان له أن يعرف ان رأس الحصان كان قد داخ كما لو أنه كان مخدرا ، وان فى نظرته المعتكرة كانت الأرض تسبح فى دورات ملونة ، وتتمايل من جانب الى جانب ، ماسة السماء تارة فى هذا الطرف وطورا

---

* غولسارى ـ زهرة صفراء • ورد الحب •

فى ذاك ، بحيث ان الطريق كان يسقط ، أمام غولسارى ، بين الفينة والفينة فى فراغ معتم ، فكان يتراءى للحصان أن أمامه، الى حيث كان يتابع طريقه وحيث كان ينبغى أن تكون الجبال . كان ثمة يعوم ضباب أو دخان مائل لونه الى الأحمر .

وكان قلب الحصان المرهق منذ زمن طويل يؤلمه من الداخل باستمرار وصار التنفس فى الرقبية يصعب أيضا . وجعل الثفر، وقد مال الى جانب ، يخز فى الخصر ، أما من الجانب الأيسر وتحت الرقبية فان شيئا ما كان يخز الكتف بحدة . ولعل ذلك كان حسكة أو نهاية مسـمار كان قد نتأ من البطانة اللبادية للرقبية . وكان الجرح الفاغر فاه منذ زمن طويل فى الجزء الكنب من الكتف قد شرع يؤلمه بشكل لا يطاق . وتثاقلت القدمان أكثر فأكثر ، كما لو انه كان يخطو فى حقل موحل ، محروث حرثا .

غير ان الحصان الهرم ظل يمشى ، مجهدا نفسه ، أما الشيخ تاناباى فكان قلما يستحثه بهز الاعنة ، فقد كان منشغلا كلية بأفكاره طيلة الوقت . لقد كان لديه ما يفكر فيه .

قرعت العجلات فى الطريق القديمة. وكان غولسارى لايزال ماضيا فى مشيته الرهوة الاعتيادية ، خببا قصيرا على ذات الايقاع الخاص ، الذى لم يحد عنه ولا مرة منذ ذلك الوقت ، حين نهض لأول مرة على قدميه وطفق يعدو غير واثق ، فى المرج وراء أمه، التى كانت فرسا عرفاء ضخمة .

كان غولسارى حصانا رهوانا منذ ولادته . وقد وقع له

فى حياته ، جراء رهوه الذائع الصيت كثير من أيام البؤس وأيام النعيم . وفى سابق الأيام لم يخطر ببال أحد ربطه باعنة عربة النقل ، والا لكان ذلك كفرا وتجديفا . ولكن ، كما يقال، اذا أحاقت المصيبة بالحصان ، فانه سيشرب الماء حتى ولو كان ملجوما ، أما اذا أحاقت المصيبة بالفتى ، فانه حتى فى جزمتيه الطويلتين سيمضى الى الماء .

كل هذا كان وقتا من الأوقات ، وقد تخلف بعيدا فى أغوار الماضى . والآن مضى الحصان الرهوان نحو غايته الأخيرة ببقيا قواه . ولم يقع له ولا مرة ان يسير بذلك البطء نحو النهاية كما لم يقترب قط منها بمثل هذه السرعة . فطيلة الوقت كان هذا الحد الأخير على مبعدة خطوة واحدة منه ليس الا .

وصرت العجلات فى الطريق القديمة .

لقد أثار الاحساس بعدم ثبات الأرض تحت الحوافر ، أثار على نحو مشوش ، فى ذاكرة الحصان الآخذة فى الانطفاء ذكرى تلك الأيام الصيفية ، وذلك المرج الخضل المتموج فى الجبال ، وذلك العالم العجيب والخارق ، الذى كانت الشمس فيه تصهل وتقفز وتتواثب فى الجبال ، ولكنه ، هو الغبى ، انطلق فى اثر الشمس عبر المرج ، عبر النهر ، عبر الشجيرات ، ريثما لحقه حصان القطيع الضخم باذنيه الملتصقتين بسعار وحنق ، فرده على عقبيه . وتراءى له، آنذاك، ان القطعان انما كانت تسير وأقدامها مرفوعة الى فوق ، كما لو كانت فى أعماق بحيرة ، أما أمه ، الفرس العرفاء الضخمة ، فقد استحالت غيمة حليبية دافئة .

وكان يحب تلك اللحظة ، حين تتحول الأم فجأة الى غيمة ناخرة بلطف . لقد أصبحت ضروعها قوية ، مشدودة ، وحلوة ، وكان الحليب يرغى فى الشفاه ، فكان يشرق فيه من فرط غزارته وحلاوته . كان يحب الوقوف ، هكذا ، دافنا وجهه فى بطن أمه العرفاء الضخمة . يا له من حليب ! لذيذ ومسكر ! ان العالم كله ـ الشمس والأرض ، والأم قد امتزجت جميعا فى جرعة الحليب . وكان يمكنه بعد أن يرتوى أن يرتشف جرعة ، ثم جرعة أخرى وأخرى ...

وأسفاه ، ان ذلك لم يتطاول الا زمنا قصيرا ، بالغ القصر . وسرعان ما تغير كل شيء . فالشمس فى السماء ما عادت تصهل أو تثب فى الجبال ، انما كانت تطلع فى الشرق ، وتنحدر سريعا دون توقف الى الغرب ، وكفت القطعان عن السير بأقدام مرفوعة الى فوق أو كما يقال رأسا على عقب ، فتحت قوائمها كان المرج الذى داسته الحوافر طويلا قد اقتم لونه وجعل يبقبق، أما الأحجار فى المضاحل فكانت تطقطق وتتفتت . أما الفرس العرفاء الضخمة فقد تجلت أما صارمة ، فقد عضته على نحو مؤلم فى حارك عنقه ، حين بالغ فى اضجارها . ولم يعد الحليب يكفيه . فتعين عليه أن يقضم العشب . وابتدأت ، هكذا ، تلك الحياة التى امتدت سنين عددا ، والتى حانت نهايتها الآن .

ولم يعد الحصان الرهوان ، طيلة كل حياته هذه ، الى ذلك الصيف الرائع الذى ولى الى الأبد . كان يمضى تحت السرج، ملوحا بقدميه فى الطرق المختلفة، تحت راكبيه المختلفين،

أما الطرق فلم يك لها نهـاية • وليس الا الآن ، حين تحولت الشمس من جديد من مكانها ، ومادت الأرض تحت الأقدام ، وحين أظلمت الدنيا فى عينيه ليس الا فى هذا الوقت بالضبط خطر له من جديد ذلك الصيف الذى لم يره منذ وقت غاية فى الطول • وها هى تلك الجبال ، وذلك المرج الندى ، وتلك القطعان ، وتلك الفرس الكبيرة تمثل الآن أمام عينيه فى تألق غريب متموج • وجعل يحرك قدميه ، مستميتا ، وهو متوتر ، مشدود بكليته ، من أجل أن يوغل ، منفلتا من تحت طاقمه ، وواثبا متحررا من الرقبية وعريش العربة ، ان يوغل فى هذا العالم السحيق ، الماضى ، الذى يتفتح له فجأة • لكن الرؤية الخادعة كانت تتنحى فى كل مرة وتتقهقر ، وكان ذلك معذبا ممضا • كانت الأم تلوح له وتستدعيه كما فى الطفولة ، بصهيلها الخافت ، وكانت القطعان تمرق مسرعة ، كما فى الطفولة ، ضاربة اياه بجنوبها وذيولها ، أما هو فلم تكفه القوة لدحر عتمة العاصفة الثلجية الوامضة ــ فقد كانت هذه قد اشتعلت أقوى فأقوى ، فكانت تلفحه بذيولها القاسية ، وترميه بالثلج فى عينيه ومنخريه، فكان يرتجف من البرد وهو يسبح فى العرق الحار اللاهب ، وما لبث ذلك العالم البعيد الذى لا يطال ان غرق دون ضوضاء، واختفى فى العواصف الثلجية • ها هى الجبال تختفى ، وها قد اختفى المرج والنهر ، وها هى القطعان تهرب عدوا ، وليس الا على نحو معتكر مبقع مرق أمام عينيه ظل الأم ، ظل الفرس العرفاء الكبيرة • فلم تكن تريد أن تتركه • وها هى تدعوه • فصهل

بكل ما أوتى من قوة ، منتحبا ، الا انه لم يسمع صوته • واختفى كل شيء ، واختنقت العاصفة الثلجية أيضا • وكفت العجلات عن القرع • وكف الجرح تحت الرقبية عن الايلام •

وتوقف الرهوان ، متمايلا من جانب الى جانب • وكان يؤلم عينيه النظر • ودوى دوى غريب لا حد له فى رأسه •

فرمى تاناباى السوط على مقدمة العربة ، وهبط بخرق منها ، وسوى ساقيه الخدرتين وقومهما ، ثم تقدم مضطربا الى الحصان •

ـ ايه ، يالك من سيء ! ـ عذل حصانه بهدوء ، وهو يتطلع اليه •

ووقف ذاك ، وكاد يتخلص من الرقبية اذ حرر منها رأسا ضخما يستند الى رقبة طويلة نحيلة • كانت أضلاعه تصعد وتهبط أعلى وأسفل على نحو متوتر ، رافعة جنبين هزيلين ، رخوين • وقد كان لفترة ما أصفر اللون فاتحا ، ذهبيا ، أما الآن فهو بنى من العرق والوسخ • وكانت تيارات العرق الرمادية تهبط فى أشرطة صغيرة من العصعص البارز الى البطن ، على القوائم والحوافر •

ـ لكأنى لم أستحثك • ـ بدأ تاناباى يتذمر ويدمدم • وخفف من توثيق حـزام السرج ، وحل حبل الرقبية ، وفك اللجام • وكان اللجام قد تندى بلعاب حار لزج • فمسح تاناباى بردن معطفه خطم الحصان ورقبته • وانقذف بعدئذ الى العربة يجمع منها بقايا العلف ، والتقط ما ملأ نصف حضنه ، ورماه عند

قدمي الحصان • بيد ان هذا لم يلق بالا الى العلف ، وكانت تأخذ بمجامعه رعدة خفيفة •

وحمل تانابای بیده الى الحصان شيئا من العلف •

ــ هاك ، خذ ، كل ، ولكن ماذا دهاك !

كانت شفتا الحصان قد تحركتا بعض الشيء ولكنهما ، على أي حال ، لم تستطيعا التهام العلف • وتطلع تانابای اليه مباشرة في عينيه واقتم في الحال • ففي عيني الحصان الغائرتين عميقا، نصف المفتوحتين ، ذات الجفون المتغضنة المنسولة ، لم ير هو شيئا • لقد انطفئتا وكانتا فارغتين كشباكي بيت مهجور •

وأجال تانابای طرفه ذاهلا في ما يحيطه : في البعيد كانت الجبال ، وفي الجوار سهب أجرد وما من أحد في الطريق • ففي مثل هذا الوقت يندر المارة هنا •

ووقف الحصان الهرم والرجل الهرم وحيدين في الطريق البري •

كان ذلك في نهاية شباط • وكان الثلج قد زال عن السهول ولم يبق الا في الوديان والمنخفضات القصبية حيث كان الثلج قد ظل مكوما بشكل أعمدة فقرية حيوانية في مرابض الشتاء الخفية • وكانت الريح تأتي برائحة الثلج الراقد الخفيفة ، وعلى العموم كانت الأرض لا تزال متجلدة بشكل ما ، مزرقة ، هامدة دونما حياة • وكان السهب الحجري في نهاية الشتاء مقفرا ومضجرا • ومن مجرد مظهره شعر تانابای برجفة اقشعر منها بدنه •

وتفحص ، وهو يرفع لحية شعثاء رمادية ، تفحص طويلا، وهو يلقى نظرة من تحت ردنه الناصل اللون الى الغرب . كانت الشمس معلقة بين الغيوم فى الأفق . وقد تسرب فى الأفق غروب داخن غير ألق . ما كان شيء ينذر بالطقس السيء ، ولكن مع ذلك كان الجو باردا ومريعا .

« لو كنت قد عرفت الى م يؤول الأمر ، لكان أفضل لى أن لا أرتحل — تأوه تاناباى آسفا ، — أما الآن فلا الى هنا ولا الى هناك ، قف وسط هذه البرية المقفرة . عبثا أرهق الحصان » .

أجل ، لعله كان ينبغى عليه أن يسافر صباح الغد . ففى النهار يمكن أن يلتقى بمار ما لو حدث حادث فى الطريق . أما هو فقد ارتحل بعد الظهر . أو ذا ممكن فى مثل هذا الوقت ؟

وارتقى تاناباى اليفاع من أجل أن يلقى نظرة : بلكى يلمع فى البعيد سيارة رائحة أو غادية . ولكن لا فى هذا الاتجاه ولا فى ذلك لم يسمع ولم ير شيئا . فقفل راجعا الى العربة .

« عبثا ارتحلت » ، — أخذ تاناباى يفكر من جديد ، لائما نفسه ، ليس فى المرة الأولى ، بسبب هذا الاستعجال الأبدى . وحنق مما حدث ليس على نفسه فحسب ، بل وعلى كل ما سبب له الاستعجال بالارتحال من بيت ابنه . بالطبع كان ينبغى عليه أن يبات ليلته ، وان يمنح الحصان فرصة راحة .. أما هو .. !

ولوح تاناباى بيده غاضبا يائسا . « كلا ، ما كنت لأبقى

فى أيما حالة • لكنت ذهبت من عندهم ماشيا ! ـ طفق يتبرر أمام نفسه ، ـ أو ممكن حقا التكلم بهذا الشــكل مع والد الزوج ؟ آيا من كنت ـ أظل أبا • آية كنة هذه التى تقول : ايه، لأى شيء كان يلزمك أن تنتسب الى الحزب ، مادمت تقضى حياتك كلها فى الرعى ، وها هم يطردونك عند شيخوختك ••• والابن طيب بدوره ! انه صامت ، ولا يجرؤ أن يرفع عينيه • ستقول له زوجته : تبرأ من أبيك ، وسيتبرأ • انه ضعيف الارادة ، ومع ذلك يريد الرئاسة • أواه ، ماجدوى الكلام ! انه جيل آخر هذا الجيل ، قوم آخرون » •

وصار تاناباى يشعر بالضيق من الحرارة ، ففك ياقة قميصه، وطفق يمشى حول العربة ، وهو يتنفس بعسر ، ناسيا أمر حصانه، والطريق، والليل الذى سيحل وشيكا• ولم يستطع أن يهدأ بحال• لقد ضبط نفسه هناك ، فى بيت ابنه ، واعتبر اهانة لكرامته الشجار مع كنته • لكنه انفجر فجأة ولو استطاع لكان قــد قذف بوجهها الآن بكل ما قد فكر فيه بمرارة فى الطــريق ، ولكان قد قال لها : « لست أنت من قبلنى فى الحزب ولا أنت من طردنى منه• انك لك أن تعرفى ، أيتها الكنة، ما وقع آنذاك• بالطبع الآن ممكن الحكم بسهولة • فالآن كل متعــلم ، وكل يعرف ويفهم كل شيء ويحظى بالاحترام والتكريم • أما منا فقد تطلبوا الكثير ، أجل وكيف تطلبوه • كنا مسئولين عن الأب والأم ، عن الخل والخصم ، عن أنفسنا ، وحتى عن أفعال كلبة الجار ، عن كل شيء كنا مسئولين • أما كونهم فصلونى ، فهذا

أمر لا يعنيك . ان هــذا الأمر هو مصيبتى ، أيتهــا الكنة . فلا تمســيها ! » .

« — لا تمسيها! — استطرد يعيد جهارا، وهو يقرع بخطواته عند العربة . — لا تمسيها ! — أكد هو الشيء ذاته . وكــان أشد ما يغيظه ويذله أنه ما كان يعرف ، فيما يبدو ، ماذا عليــه أن يقول ، ما خلا هاتين الكلمتين « لا تمسيها ! »

كان لا يزال يمشي ويمشى حول العربة ريثما صحا عــلى نفسه ليتذكر أن عليه أن يقوم بصنع شيء ما ، عوضا عن البقاء هنا بالذاتّ طوال الليل .

أما غولسارى فكان واقفا مربوطا بعنان العربة وهو لا يزال على حالته تلك ، دون حراك ، غير مبال بشيء، منقوس الظهر لاما أقدامه ، كان يبدو كما لو أنه قد تخشب .

— ماذا دهاك ؟ — وثب اليه تاناباى فسمع فى التو أنينه الهادىء الممدود . — أغفوت ؟ أو تشعر بسوء أيها الشــيخ ؟ أحالك سيئة ؟ — لمس بعجالة أذنى الرهوان الباردتين ، ودس يده فى عفرته . هناك كانت برودة أيضا ونداوة . لكن كــان أشد ما أرعبه كونه لم يتحسس بالثقل الاعتيادى للعفرة . «لقد شخت تماما ، وها قد تناثرت عفرتك ، وخفت حتى لكأنهــا زغابة . كلنا نشيخ ولكلنا ذات النهاية » . — كان يفكر بمرارة وعلى مضض . ونهض بتردد ، دون أن يعرف ما العمل . فلو ترك الحصان والعربة ، ومضى ماشيا ، فانه كان سيستطيع قبيل منتصف الليل بلوغ مأواه ، وأدراك بيته الصغير فى الشعب.

ثمة كان هو يعيش فى قاعدة للرعى مع زوجته ، فى جيرة مع ناظر كولخوز الأسماك القاطن على مبعدة كيلومتر ونصف ، أعلى منه ، على النهر . وفى الصيف كان على تاناباى أن يعنى بالحش ، أما فى الشتاء فعليه أن يعنى بالأكداس ، من أجل أن لا يسرق الرعاة العلف أو يبذروه قبل وقته .

وفى أحد أيام الخريف المنصرم جاء تاناباى الى الدائرة فى جملة قضايا ، وقال له الرئيس الجديد ، وهو مهندس زراعى شاب من القادمين الى هنا .

ــ امض ، أيها الشيخ الحكيم ، الى اسطبل الخيل ، لقد اخترنا لك حصانا آخر . حقا انه عجوز بعض الشيء ، لكنه بالنسبة الى عملك مناسب .

ــ أى حصان هذا ؟ ــ نصب تاناباى أذنيه ــ أو فرس هزيل مرة أخرى ؟

ــ هناك سيرونك اياه . أشقر بشكل ما انما عليك أن تعرف ، انك قد امتطيته ، كما يقولون ، وقتا من الأوقات .

وتوجه تاناباى الى الاسطبل ، وحين رأى الحصان الرهوان فى الفناء ، انقبض قلبه على نحو مؤلم : « ها أننا نلتقى ، اذن من جديد ! » ــ قال هو فى سره وهو يحاور الحصان المنهك الكليل . ولم تسعفه قواه للرفض . فأخذ الحصان معه .

وفى البيت تعرفت الزوجة بالكاد على الحصان .

ــ تاناباى ، أو حقا هذا هو غولسارى ذاك ذاته ؟ ــ قالت دهشة .

ــ هو ، هو ذاته ، وأى عجب فى ذلك ، ـــ تمتم تاناباى، جاهدا أن لا ينظر ناحية زوجته .

ما كان الأمر يستحق ولا يدعو لأن يتوسعا فى تـداول الذكريات المتعلقة بالحصان . كان ثمة لتاناباى اثم فى شبابه. ولأجل أن يتجنب المجرى غير المرغوب للحديث بادر بالقـول بصوت رن ببعض الخشونة :

ــ حسنا ، لماذا تقفين ، سخنى لنا أكلا . اننى جـائع كالكلب .

ــ أجل ، ها أنى أتطلع وأفكر ، ــ أجابت ــ ماذا تعنى الشيخوخة . لو لم تقل لى أنت أن هذا هو غولسارى ذاته لما كنت قد عرفته .

ــ ما وجه العجب هنا ! أتتصورين أننا نبدو فى حـال أفضل ؟ كلا ، لكل شىء وقته .

ــ وها انى أكلمك عن هذا بالذات . ــ وهزت رأسـها متألمة ثم ضحكت بطيبة قلب وهى تقـول :

ــ لعلك ستعاود الارتحال على حصانك ليلا ؟ سـأسمح لك .

ــ كلا ! ــ لوح بيده مستاء وادار ظهره الى زوجته . كان ينبغى أن يجيب على المزحة بمزحة ولكنـــه لكى يدارى ارتباكه انسل مندسا تحت سقف العنبر كى يجمع علفا . وانشغل هناك طويلا . كان قد تصور أنها نست ذلك الأمر ، ولـكن ها قد تبين العكس .

وتصاعد الدخان من المدخنة ، حيث كانت الزوجة قد سخنت طعاما للعشاء ما تبقى من الغداء البارد ، ولكنه كان لا يزال منشغلا بالعلف ، الى أن هتفت تقول :

ــ انزل ، والا فان الأكل سيبرد ثانية •

ولم تتحدث المزيد عن الماضى ، ولكن علام الحديث ؟••

وعنى تاناباى بالحصان طوال الخريف والشتاء ، فكان يعلفه النخالة الدافئة ، وشرائح الشوندر • فلقد كانت أسنان غولسارى فى النزع الأخير ، ولم يتبق منها الا جذاميرها • وبدا كما لو انه قد استطاع ، أخيرا أن يشفى الحصان ويمنحه القوة والحيل • وها قد حدثت هذه المصيبة ! فكيف ينبغى تدبير الأمر معه الآن ؟

كلا ، لم تك لديه القوة التى تسعفه لأن يترك الحصان فى عرض الطريق •

ــ ثم ماذا ، ياغولسارى ، أو سنظل على هذا المنوال ؟ ــ دفع تاناباى الحصان بيده ، فبدأ يترنح ، وراوح فى مكانه •ــ هنا انتظر ، سأرجع فى الحال •

ورفع بعصا السوط ، من جوف العربة ، كيسا فارغا كان قد حمل به البطاطا للكنة • وتناول من هناك صرة • وكانت زوجته قد خبزت له خبزا للطريق ، ولكنه نسى ذلك ، فقد كان فى شغل شاغل عن الأكل •

وكسر تاناباى نصف رغيف ، وفتته قطعا صغيرة فى طرف ثوبه، وحمل الفتات الى الحصان • فتنشق غولسارى رائحة الخبز

بضجيج ، لكنه لم يستطع الأكل بحال • فجعل تاناباى يطعمه من راحة يده • ودفع له فى فمه بعضا من القطع ، فجعل الحصان يلوكها •

ــ كل ، كل ، لعلنا سنصل بشكل ما ، ها ؟ قالها تاناباى جذلا ــ رويدا رويدا ، وعلى مهل ، قد نصل ، ها ؟ أما هناك فليست ثمة ما يخيف ويرعب ، فسنرعاك أنا والعجوز سوية وسنشفيك ، ــ ردد كلامه • وعلى يديه المرتجفتين سال اللعاب من شفتى الحصان ، أما هو فقد سر اذا صار اللعاب أدفأ فأدفأ •

ثم قبض على أعنة الحصان •

ــ هلم بنا ! لا داعى للوقوف ! هلم ! ــ أمره هو بحزم •

فانفصل الحصان من مكانه ، وصرت العربة ، وقرعت العجلات الأض على نحو بطىء • ومضيا وئيدا ــ الرجل الشيخ والحصان الهرم •

« ضعفت تماما يا هذا ، ــ طفق تاناباى يفكر فى الحصان، وهو ينقل خطاه على حافة الطريق • ــ كم لك من العمر يا غولسارى ؟ عشرون عاما ، وقد يكون أكثر • لعله أكثر •••»

٢

كانا قد التقيا للمرة الأولى عقب الحرب •

لقد كان الجندى الأول تاناباى باكاسوف فى الغرب وفى الشرق كذلك ، وقد تسرح بعد استسلام جيش كوانتون •

وبالجملة مكث تانابای فی سلك الجندية ستا من السنين • ولم يحدث له سوء ، فالله ستر ، وليس الا مرة واحدة رض وهو فی قافلة عربات ، ومرة أخرى جرح بشظية فی صدره ، ورقد شهرين فی المستشفى العسكرى ، وبعد ذلك التحق من جديد بوحدته •

وحين كان راجعا الى البيت ، فان بائعات المحطات أطلقن عليه لقب الشيخ ، ولكن كان هذا يحمل معنى المزاح أكثر من أى شيء آخر • ولذا فان تانابای لم يغتظ تماما من ذلك فالحق أنه لم يعد شابا ، ولكن لم يصبح بعد شيخا بالمقابل ، كل ما فی الأمر أنه يبدو من حيث مظهره كبير السن ، لقد اسمر ما فيه الكفاية لفترة الحرب ، ونشب الشيب فی شاربيه ، الا أنه روحا وجسدا كان لا يزال قويا ، متينا • وبعد عام انجبت زوجته بنتا ، فأخرى بعد ذلك • وقد تزوجتا ، وأصبحتا مطفلتين وغالبا ما كانتا يغشيانه صيفا • كان زوج كبراهما سائقا • فكان هذا يحشر الجميع فی جوف سيارته وينطلق بهم الى الجبال ، نحو نسيبيه المسنين • كلا ، ما كان ثمة ما يسوؤهما فی تصرفات بنتيهما أو صهريهما ، أما الابن فشأنه شأن آخر •••

بعد النصر عندما كان فی طريق العودة ، بدا آنذاك كما لو أن الحياة الحقيقية قد ابتدأت الآن على التو • كان الفؤاد مغتبطا تماما • وفی المحطات الكبيرة كان قطارهم يستقبل ويودع من قبل جوقات موسيقية تعزف بالآلات النحاسية • وفی البيت كانت زوجته تنتظره ، وقد دخل الابن عامه الثامن ، وكان يتهيأ

للدخول الى المدرسة . عندما كان فى الطريق راوده شعور، كما لو أنه قد ولد من جديد فى هذا الكون ، وكما لو أن كل شيء مما كان قبل هذا لم يك له أى شأن بتاتا . كان بوده أن ينسى كل شيء ، وبوده أن يفكر بالمستقبل فقط . وتصور المستقبل واضحا بسيطا : ينبغى العيش ، وتنشئة الأطفال ، وتدبير أمور المعيشة ، وبناء بيت ، وباختصار ينبغى أن يعيش . أما الآن فلن يحول دون ذلك أى عائق ، ذلك أن الماضى كله كان قد قدم ضمانة لكى يمكن الآن ، وبعد كل شيء ، بدء تلك الحياة الحقيقية ، التى نشدوها طيلة هذا الوقت والتى من أجلها انتصروا واستشهدوا فى الحرب . لكنه اتضح أن تاناباى كان مستعجلا ، مستعجلا جدا . فقد كان يجب على المرء أن يعمل سنوات وسنوات لضمان المستقبل .

وفى البداية عمل تاناباى طراقا فى ورشة حدادة . فقد كان له ، وقتا من الأوقات ، حذق خاص فى ذلك ، فكان ينقض بشراهة على السندان ، من الصباح حتى المساء منهالا بضربات عنيفة متلاحقة بشكل كان الحداد معه لا يلحق الا بالكاد ليدور تحت المطرقة قطعة الحديد المتوهجة . بل هو لا يزال حتى الآن يسمع أحيانا الطرق الرتيب المتواصل وذلك الدوى فى ورشة الحدادة ، الذى كان يغطى على كافة الازعاجات والهموم . فآنذاك لم يكن يكفى لا الخبز ، ولا الملابس ، وكانت النساء يمشين فى قالوشات بأقدام عارية ولم يكن الأطفال يعرفون طعم السكر ، وغص الكولخوز حتى الهامة بالديون ، وجمدت

حساباته فى البنك ، أما هو ، تانابای ، فكان يتخلص من كل هذا بالمطرقة • كان يهوى بالمطرقة بكل قوته ، فكان السندان يدوى ، وكان رذاذ الشرر الأزرق يتطاير • « أوغ ـ خا ، أوغ ـ خا ـ كان يزفر ، رافعا المطرقة وهاويا بها، وهو لا ينى يفكر: سيسوى كل شىء ، فالأمر الأساسى ـ اننا انتصرنا ، انتصرنا • » وتردد المطرقة « انتصرنا •• نا •• نا •• نا ! » ولـم يـكن هـو لوحده على هذه الحـال ، ففى تلك الأيام عاش الجمبع بريح النصر وأحلامه ، كما يعاش بالخبز •

أما بعدئذ فقد أصبح تانابای من رعاة القطعان ، وارتحل الى الجبال • أقنعه بذلك تشورو • كان تشورو المرحـوم هذا رئيسا للكولخوز ، وظل كذلك طوال الحرب • فبسبب قلبه المريض لم يؤخذ فى الجندية • وفيما يبدو أنه كان قعيد البيت، الا أنه مع ذلك شاخ ما فيه الكفاية • وقد لاحظ تانابای ذلك فور رجـوعه •

كان من المستبعد حقا أن يكون انسان آخر قد استطاع اقناع تانابای باستبدال عمله فى ورشة الحدادة برعى القطعان• بيد أن تشورو هذا كان صديقه القديم الحميم • وفى وقت من الأوقات بدآ سوية ، كعضوين فى منظمة الكومسومول ، الدعاية من أجل انشاء الكولخوز ، وسوية نزعا ملكية الكولاك • وقد سعى تانابای بالذات وعلى نحو خاص ليتم ذلك • فكان لا يرحم أحد ممن أدرجت أسماؤهم فى سجل من ينبغى نزع ملكيتهم•••

قدم تشورو اليه الى ورشة الحدادة ، وأقنعـه بضرورة

الانتقال وبدا أنه كان جد مسرور بذلك .

ــ ولكنى خشيت أن تكون قد التصقت بالمطرقة ، ولن تنفصل عنها ــ قال له مبتسما .

كان تشورو مريضا ، نحيلا، قد استطالت رقبته، وانتشرت الغضون على كلتا وجنتيه . وكان الوقت لا زال دافئا ، ولكن تشورو حتى فى الصيف كان يمضى فى صديريه الذى لا يتغير.

جلسا القرفصاء ، عند قناة الرى ، غير بعيد من ورشة الحدادة ، وتجاذبا أطراف الحديث . وتذكر تاناباى كيف كان تشورو فى شبابه . ففى تلك الفترة كان هو أثقف واحد فى القرية ، وكان شابا متميزا . وقد احترمه الناس لطبعه الهادىء الطيب . أما تاناباى فلم تعجبه طيبته . وكان فى الاجتماعات ينهد فيعذل تشورو على تسامحه ولينه اللذين لا يصح السكوت عنهما فى الصراع الطبقى مع العدو . ووجه تاناباى هذا النقد على نحو فعال كما يقدم النقد على صفحات الجرائد . بل كان يعيد فعلا كل ما سمعه فى القراءات الجهرية ، يعيده مستظهرا اياه . وأحيانا كان يرتعب هو ذاته من كلماته التى يتفوه بها . ولكن فى الحقيقة كان ذلك يتم على أفضل شكل .

ــ أتدرى ، لقد كنت أمس الأول فى الجبال ــ انشأ تشورو يحكى ، ــ وسألنى الشيوخ الطاعنون فى السن ، هل رجع كافة الجنود ؟ قلت لهم : أجل ، الجميع ، جميع من بقى قيد الحياة . « ومتى سينخرطون فى العمل ؟ » وأجيب : انهم يعملون ــ بعض فى الحقول ، وبعض فى أعمال البناء ، وبعض

آخر في مكان آخر . « ونحن أيضا نعرف هذا . ولكن من سيرعى القطعان ؟ أينتظرون ، ريثما نموت ولم يتبق لنا الا القليل لنعيشه » . ولقد صرت أشعر بالخجل . هل تسمع الى أى قصد يصلون بالحديث ويوغلون به ؟ لقد أرسلنا هؤلاء الشيوخ، في زمن الحرب ، الى الجبال ، رعاة للقطعان . وهم هنـــاك منذ ذلك الوقت . أنت تعرف أحسن من غيرك ان هذا العمــل ليس بعمل الطاعنين فى السن . فطيلة الوقت ينبغى أن تكون على صهوة الحصان ، دون هدوء أو راحة ، لا ليلا ولا نهارا وفى ليالى الشتاء فالأمر أصعب كثيرا ! هل تتذكر دير بيشباى الذى تجمد وهو على السرج ؟ على أن هؤلاء الشـيوخ هم الذين روضوا الخيول ـ فقد كانت الخيول لازمة للجيش . جرب فى سنيك السبعين أن يحملك جواد جموح الى الجبال وفى السهوب فسوف لن يبقى منك شيء الا ركام عظامك ! شكرا لهم لمجرد وقوفهم هناك واصطبارهم ! أما جنود الجبهة قد عادوا منهـــا متكبرين ويزعمون أنهم رأوا ألوان المدنية خارج الحـدود ، وليس بودهم بعد هذا أن يرعوا القطعان ويقولون أنهم لايريدون قضاء الوقت فى الجبال . هكذا تجرى الأمور . ولكل هذا ساعدنا ، يا تاناباى ، فانك ان مضيت لهذا العمل ، فننا سنجبر الآخرين أيضا ليحذوا حذوك .

ـ حسنا ، يا تشورو ، سأحاول أن أكلم امرأتى ـ أجابه تاناباى . أما هو نفسه فكان يفكر : « لقد عركتنا حياة رهيبة وذقنا حلوها ومرها ، أما أنت ، يا تشورو ، فلا زلت كما كنت.

وستقع فى داهية جراء طيبتك هذه • ولعل ذلك سيؤدى الى خير على نحو ما • لقد رأينا كل شىء فى الحرب ، وعلينا جميعا أن نكون أطيب وأنبل • ولعل هذا هو آكد شىء فى الحياة ؟»

وعلى هذا افترقا ، ومضى تانابای الى عمله فى ورشة الحدادة • أما تشورو فقد هتف به فجأة :

ــ استأن ، ياتانابای ! ــ واقترب منه راكبا على حصانه، وانحنى اليه وهو على قربوس السرج ، متطلعا اليه فى وجهه ــ أنت لن تزعل منى بحال ؟ ــ سأله بصوت منخفض ــ هل تدرى اننى لا أجدن الوقت بأيما صورة • لقد كان بودى نجلس • وأن نتحدث من صميم القلب ، كما كنا نفعل فى الماضى • كم من السنين لم نتلاق ! لقد تصورت أنه ما ان تنتهى الحرب حتى تخف المشاغل ولكن الهموم لم تتناقص • وأحيانا لا تغمض لى عين لأنه تنثال فى الذهن شتى الأفكار : كيف العمل من أجل النهوض باقتصاد التعاونية وكيف يمكن اطعام الناس وتنفيذ مختلف الخطط • والناس ما عادوا نفس الناس الذين عرفناهم• انهم يريدون أن يعيشوا على نحو أفضل •

ولم يقيض لهم ، والحال هذى أن يتكاشفا مكاشفة حميمة اذ لم يجدا وقتا للجلوس منفردين • وكان الوقت قد تصرم ، وفيما بعد لم تسنح الفرصة لمقابلتهما •

وعند ذاك ، أى حين بدأ تانابای العمل راعيا لقطعان الخيل فى الجبال رأى لأول مرة فى قطيع الراعى ترغوى الطاعن فى

السن ، ذلك المهر الأشقر الذي كان عمره آنذاك عاما ونصف العـام •

ـ ماذا ستترك فى ارثك أيها الشيخ الحكيم ؟ أن قطيعك ليس فى الحالة الجيدة جدا ! أليس كذلك ؟ ـ قرص تاناباى راعى القطعان العجوز بهذه الكلمات ، حين انهيا عد الخيـول وخرجا بها من الزريبة •

كان ترغوى هذا شيخا هزيلا ، قصير القامة مثل صبى ، دون شعرة واحدة فى وجهه ذى التجـاعيد • وكانت قبعته الفضفاضة الشعثاء من صوف الغنم ، تغطى رأسه كما لو أنهـا فطر • ومثل هؤلاء المسـنون عادة نشطاء ، مشاكسـون وصاخبـون •

لكن ترغوى لم يغتبط •

ـ وفى الواقع فالقطيع هو القطيع ، ـ أجاب دون استياء• ـ ليس ثمة ما يستحق التباهى على نحو خاص • عندما ستسوق القطيع ـ سترى الأمر بنفسك •

ـ أجل ، سأفعل ذلك ، أيها الأب ، فلم أكن أعنى شيئا عندما قلت ذلك ، ـ قالها تاناباى بلهجة مصالحة •

ـ يوجد حصان واحد !ـ ودفع ترغوى عن عينيه قبعته المنسدلة على جبهته ، وهو ينهض نصف نهوض على الركاب، مشيرا بمقبض السوط ، ـ هو ذلك المهر الأشقر ، الذى يرعى فى الناحية اليمنى • انه سيصبح حصانا ممتازا •

ـ ذلك هو ـ هو المستدير كالكرة ؟ ـ انه صغير القـد

بعض الشيء كما يبدو من مظهره ، وحقوه قصير .

ـ انه متأخر النمو . حالما يكبر يصبح رائعا .

ـ ولكن ماذا فيه ؟ بأى خصلة يمتاز ؟

ـ انه رهوان منذ ولادته .

ـ ثم ماذا ؟

ـ قلما صادفت مثله . وضريب هذا كان يثمن أعظم التثمين في السنين السالفة . وكان البعض يضـــاربون حتى الموت في المسابقات من أجل الحصول على مثل هذا الحصان .

ـ حسنا ، دعنا نرى ! ـ استطرد تاناباى .

وهمزا فرسيهما ، مندفعين الى طرف القطيع ، وفصلا المهر الأشقرعن القطيع وساقاه أمامهما . وكان المهر مستعدا لأن يركض شيئا . لقد نفض ناصيته بجذل ونخر وانطلق على الفور من مكانه كما لو أنه قد شد بنابض ، وانطلق فى رهو سريع نشيط ، راسما نصف دورة كبيرة ليعود بعد ذلك الى القطيع . فهتف تاناباى مسحورا ، وقد شغف بركضه :

ـ أوه ! انظر كيف يجرى ! أنظر !

ـ ماذا تصورت ، اذن ! ـ علق الراعى العجوز بتحد .

وأسرعا خببا فى أثر المهر الرهوان وهتفا ، مثل طفـــلين صغيرين فى مسابقات ركض الخيول . وكان صوتاهما قد بلغـــا مسامع المهر . فجعل يزيد باستمرار من سرعة عدوه ، من دون توتر تقريبا ، دون كبوة واحدة ، مضى بتناسق وانسجام كمـــا لو أنه يحلق تحليقا .

ولزمهما أن يطلقا فرسيهما فى رمح سريع ، ولكن ذلك المهر واصل المضى بنفس ايقاع عدوه ذاك •

ــ أو لا ترى ، ياتاناباى ! ــ صاح ترغوى أثناء الجرى ، ملوحا بقبعته ، ــ انه مرهف ، حاد السمع ، مثل سكين فى اليد، أنظر كيف يتجاوب مع الهتاف ! آيت آيت ، ايت ــ آ ــ أى !

وحين رجع المهر الأشقر أخيرا الى القطيع ، فانهما تركاه يرتاح • لكنهما لم يستطيعا فترة طويلة أن يهــــدآ ، ويهدئآ فرسيهما الهائجتين •

ــ طيب ، شكرا لك ، يا ترغوى ، لقــد ربيت حصــانا أصيلا • حتى لقد اغتبط قلبى اغتباطا •

ــ انه حصان ممتاز ، ــ وافق الرجل المسن ، ــ فقط احذر ، ــ واكتسى وجهه سيماء الجد فجأة ، وهو يهرش رأسه ــ لا تحسده • ولا تثرثر قبل الأوان • فعلى الحصان الرهوان، كما على الفتاة الجميلة ، يتهافت صيادون كثيرون • ومصير الفتاة كالتالى : ان تقع فى أيد طيبة ــ تبدأ تزهر ، وتقر العين بها ، وأن تقع فى أيد سيئة ، فانك ستعانى الأمرين وأنت تنظر اليها • ولا يجدى هنا شىء • وهكذا هو الأمر مع الحصان الجيد • فمن اليسير القضاء عليه • ومن الممكن أن يكبو فيموت فى العدو•

ــ لا تقلق ، أيها الشيخ الجليل ، اننى أيضا أستطيع أن ألم هذا الأمر ، لست بالغــر •

ــ تلك هى المسألة ، أما كنيته فهى غولسارى ، تذكــر هــذا !

ــ غولســاری ؟

ــ أجل ، فان حفيدتی قد أتت لزيارتی فی العام الماضی ، وهی التی دعته بهذا الاسم . لقد أحبته . آنذاك كان هو مهرا حوليا . تذكر : غولساری .

وظهر أن الشيخ ترغوی كان رجلا كثير الكلام . فقد ظل طوال الليل يوزع وصاياه وملاحظاته . وقد استمع تانابای اليه مصطبرا .

ومضى فی توديع ترغوی وزوجته مســافة حوالی سبعة فراسخ من المرتع . وتبقت الخيمة من الشعر فارغة ، وهــو الذی كان عليه أن يؤوی فيها نفسه وعائلته . وفی خيمـــة أخری كان سيعيش مساعده . ولكنهم لحد الآن لم يختاروا له مساعدا . وهكذا فقد ظل لوحده فی الوقت الحاضر . وفی الوداع ذكره ترغوی من جديد :

ــ لا تمس الأشقر فی الوقت الحاضر . ولا تستودعه أحدا . روضــه أنت بنفسك فی الربيع . وكن حذرا . حــين يتقبل السرج لا تركض به كثيرا . اذا حثثته كثيرا سيغير رهــوته فيفسد عدوه . وحاذر ان لا يكتظ من شرب الماء منفعلا ، فی الأيام الأولى . فان سقط الماء فی قدميه ، فان التهاب الجلد سيظهر فی الأطراف . ومتى ما روضته أرنی اياه ، ان كان العمر سيمتد بی حتى آنذاك ...

ارتحل ترغوی مع عجوزه ، تاركا لتانابای قطيع الخيول ، والخيمة والجبــال ، وقائدا معه بعير حمله عفشه ومتاعه ...

آه ، لو عرف غولسارى كم من الأحاديث دارت حـوله وكم ستدور ، والى أى غاية سيؤدى كل هذا ! ..

كان يمضى فى القطيع حرا كما كان الأمر فى السـابق. وحوله كانت ذات الأشياء : ذات الجبـال ، وذات الأعشاب والأنهار . وليس الا عوضا عن الشيخ السابق صار يسوق القطيع سيد آخر — فى معطف رمادى وفى قبعـة ذات طرفين تغطى الأذنين . كان صوت السيد الجديد مصحوبا ببحة ، ولكنه كان مدويا ومتسلطا . وسرعان ما تعوده القطيع . فليعـد فى كافة الأنحاء ، ان أعجبه ذلك .

ثم هطل الثلج . هطل غالبا ورقد طويلا . فكانت الخيول تجرف الثلج بحوافرها لتبلغ العشب . وأسود وجه الراعى ، أما يداه فقد تجسأتا بسبب الريح . وها هو الآن يسـير فى جزمتين طويلتين من اللبد ، متدثرا بفروة كبيرة قصد الدفء . وقد نما شعر غولسارى طويلا ، ومع ذلك فلازال يشعر بالبرد، وخصوصا أثناء الليل . وفى الليالى الصقيعة كان القطيع يتألب جمهورا كثيفا فى موقع هادىء محمى من الريح ويغطيه الندى المثلج على وقفته تلك حتى شروق الشمس . فكان الراعى يدور حوله على حصانه ، ويصفق بقفازاته ، ويفرك ويدعك وجهه . وكان يختفى أحيانا ويظهر من جديده وكان الأفضل بالنسـبة للقطيع حين لا يغيب ولو لمدة مؤقتة . وحـين كان يصرخ أو يتنحنح من الصقيع — كان القطيع يرفع الرؤوس ، ويرهف السمع منصبا الآذان ، ولكن هنا بالذات ، وحين يقتنع القطيع

أن الراعى بجانبه . يبدأ القطيع يغفو تحت حفيف وصفير الريح الليلية • ومنذ ذلك الشتاء رسخ صـــوت تانابای فی ذاكرة غولساری ، طوال حياته •

وذات مرة هبت عاصفة ثلجية ليلا فى الجبال • فسقط الثلج وأخذ يتكدس فى العفرات ، أثقل الذيول ، وصفع العيون ورشها • فعم الاضطراب والقلق فى صفوف القطيع • فتلاصقت الخيول بعض ببعض ، وجعلت ترتجف • وصـــارت الأفراس المسنة تشخر بانزعاج ، دافعة المهار الى وسط القطيع • وازاحت غولساری دافعة اياه الى الطرف الأقصى ، ولم يستطع هـــذا بحال التوغل وسط كومة الخيول • فصار يرفس ويركل ، دافعا الخيول الأخرى ليشق لنفسه طريقا ، فوجد نفسه معزولا تماما فى أحد الجوانب ، وهنا بالذات تلقى جزاءه من حصان القطيع الضخم • وكان هذا قد جاب طويلا فى الجوار وحول القطيع المحتشد، وحرث الثلج بحوافره القوية ، وألقى القطيـــع فى كومة واحدة• وأحيانا كان ينقذف الى مكان ما فى أحد الجوانب حانيا رأسه بشكل تهديدى توعدى وضاما أذنيه ، ويضيع فى الظلمة ، فلم يكن يسمع الا شخيره ، ويعود من جديد ، راكضا الى الخيول وملؤه الحنق والغضب • وحين لحظ هو غولساری الشارد فى جانب ، انقض عليه بصدره ، واستدار ، ليركله فى جنبه بقوة رهيبة بحافرى قدميه الخلفيتين • وكان هذا على درجة من الايلام بحيث أن غولساری كاد يختنق • وهوى شیء ما فی جوفه ، ومن شدة الضربة زعق وبالكاد تمالك نفسه واقفا • ولم

يحاول بعد ذلك أن يتصرف على هواه • ووقف مسالما ، متسمرا في جانب القطيع ، وجنبه يئن من الألم ، والاستياء والحنق يعصفان به بسبب الحصان الشرس • وهدأت الأفراس ، وهنا ما لبث أن سمع عواءا مزعجا مطيلا • انه لم يسمع قط عواء الذئب واستشعر كيف تجمد كل شيء في نفسه ، في لحظة ، وتخثر • وارتجف القطيع ، وتوتر ، مرهفا السمع • وسكن كل شيء • ولكن هذا السكون كان مرعبا • وكان الثلج لا يزال يهطل ، ملتصقا بحفيف على خطم غولساري المرفوع • أين الراعي ؟ لقد كان لازما جدا في هذه الدقيقة • لو سمع صوته على الأقل ، وتنشقت الرائحة الداخنة لفروته • لكنه ليس موجودا • فأشاح غولساري بعينيه الى جانب ، وتخشب من فرط رعبه • وكما لو أن شبحا ما خطف من جانبه ، وانبطح في الظلمة على الثلج • فانتكص غولساري بحدة ، وجفل القطيع في الحال مندفعا ، وانفصل من مكانه واثبا • انطلقت الخيول تصهل وتزعق بضراوة فاقدة الرشد ، واندفعت ، مجنونة ، كالتيار الجارف ، في حلكة الظلام الدامس • ولم تك تلك القوة التي كانت تستطيع ايقافها • وانقذفت الخيول الى أمام بكل ما أوتيت من قوة ، تجذب الواحدة الأخرى ، وانقضت كجلمود صخر حطه السيل من عل • وانطلق غولساري ، دون أن يفهم شيئا ، انطلق في رمح لاهب ضار • وفجأة دوى طلق ثم سمع آخر • وسمعت الخيول في عدوها صراخ راعيها المسعور • كان الصراخ يسمع في مكان ما من أحد الجوانب ، وما عتم أن لاقى القطيع ليقطع عليه

9—9004

الطريق ، دون أن يكف ثم صار يسمع من الأمام • وقد أدركت الخيول الآن هذا الصوت الذى لا يهدأ ولا ينقطع ، وفهمته ، فانقادت وراءه • آجل ، لقد كان راعيها معها • كان يجرى أمامها بمنتهى السرعة ، مخاطرا بالوقوع ، فى أيما لحظة ، فى شعب أو هوة جبلية • كان قد صرخ بقوى منهارة ، ثم جعل يبح ، ولكنه واصل الصراخ بكل صورة : « كايت ، كايت ، كايتا ــ آ ــ آيت ! » وطفقت الخيول تعدو فى أثره ، منقذة من الخطر الذى أحاق بها والرعب الذى لاحقها •

وقبيل الفجر ساق تاناباى القطيع الى المكان القديم • ونيس الا هنا استكنت الخيول ووقفت • وكان البخار قد انعقد فوق القطيع سحابة كثيفة ، وكانت جنوب الخيول ترتفع وتنخفض ، وهى لا تزال ترتجف من الهلع الذى عانته • فصارت تلتهم الثلج بنهم • والتهم تاناباى الثلج أيضا • كان قد جلس القرفصاء وانشأ يدس فى فمه حفنات من الكتل الصغيرة الباردة البيضاء • ثم قعد طويلا ، دون حراك ، عاطفا بوجهه على راحتيه • وكان الثلج ما برح يهطل • فكان يموع فور وقوعه على ظهور الخيل الحارة ، ويسيل قطرات عكرة صفراء •

وكرت الأيام وذاب الثلج ، واخضر العشب ، وتعاظم نمو جسم غولسارى سريعا • كان القطيع قد نصل لونه ، وابتدأ يتلامع بشعر جديد • وكأنه لم يكن نقص فى العلف أبدا • لم

تكن الخيل تتذكر ذلك ، وليس سوى الانسان كان يتذكره • كان يتذكر القر والزمهرير ، وليالى سطو الذئاب ، وكيف كان يتجمد فى السرج ، وكيف كان يعض شفتيه ، من أجل أن لا يبكى ، مدفئا بنار الشعاليل أطرافه المتجمدة • تذكر الغطاء الجليدى الربيعى ، والأرض المقيدة بالجرب الرصاصى • تذكر كيف نفقت آنذاك الخيول الضعيفة فى القطيع ، وكيف جاء الى دائرة الكولخوز، هابطا من الجبال ، ووقع ، دون أن يرفع طرفه، محضرا بجائحة البهائم ، وكيف صار يصرخ ويدق بجمع يده طاولة الرئيس :

ــ لاتنظر الى بهذا الشكل ! لست بالفاشى أمامك ! أين العنبر للقطعان ، أين العلف ، أين الشوفان ، أين الملح ؟ بالريح وحده نعيش ! أو هكذا أوصينا أن ندبر أمورنا الاقتصادية ؟ ألا ترى . بأية أسمال أمشى أنا ! أنظر الى مساكننا، تعال لترى كيف نعيش ! اننا حتى من الخبز لا نشبع ! • وحتى فى الجبهة كان الحال أفضل بمائة مرة مما نحن عليه الآن • أما أنت فتنظر الى ، بعد ذلك كله ، كما لو انى أنا الذى خنق هذه الخيول وأجهز عليها !

وتذكر الصمت الرهيب الذى جابهه به الرئيس ، ووجهه المربد • وتذكر كيف أحس بالخجل من كلماته تلك وكيف بدأ يعتذر :

ــ طيب ، سامحنى ، اصفح عنى ، لقد انفعلت • ــ كان يخرج هذه الكلمات متلجلجا •

ـ على العكس انك من ينبغى عليه مسامحتى ـ قال له تشورو .

وأحس بالمزيد من الخجل ، حين دعى الرئيس أمينة المخزن، وأمرها :

ـ أعطيه خمسة كيلو غرامات من الطحين .

ـ ولكن ماذا لدار الحضانة ؟

ـ أية دور حضانة ؟ انك دائما تخلطين . نفذى الأمر ـ أمر تشورو بحدة .

وكاد تانابای أن يرفض رفضا باتا ، فما دام الحليب سيتدفق فسيكون شراب الكوميس جاهزا، ولكنه اذ نظر ناحية الرئيس واذ حدس خداعه المر ، أجبر نفسه على الصمت . وبعد ذلك كان في كل مرة يتشيط بالشعرية المصنوعة من هذا الطحين . فكان يرمى بالملعقة جانبا :

ـ ماذا ، أتريدين احراقى ؟

ـ ولكن انتظر حتى يبرد فانك لست بالصغير ، ـ كانت تجيبه امرأته بهدوء .

تذكر ذلك ، تذكر كل شيء ...

ولكن ها قد حل نوار . جعلت الأحصنة تحمحم ، متهارشة متقاتلة فيما بينها ، طاردة الأفراس الصغيرة من أحصنة القطعان الأخرى. وانقذف الرعاة مستميتين ، طاردين الأحصنة المشاكسة وتسابوا فيما بينهم، وأحيانا تناوشوا بالأيدى، ولوحوا بالسياط . وكان غولساری فی شغل شاغل عن هذا . فالشمس

كانت تشرق متناوبة مع هطول الأمطار ، ونتـــأ العشب تحت الحوافر • واخضرت المروج أكثر فأكثر ، فيما ظلت تطل عليها من فوق ثلوج ناصعة البياض اتخذت مستقرها على قمم الجبال • وابتدأ المهر الرهوان الأشقر يعيش زهرة شبابه فى ذلك الربيع• لقد تحول من مهر له عام ونصف فحسب، أزغب، مستدير، الى حصان قوى رشيق • وقد استطال قوامه فاقدا الملامح الناعمة، واتخذ شكلا مثلثا ــ صدرا واسعا ومؤخرة ضيقة • وأصبح الرأس عنده الآن كما عند الحصان الرهوان الحقيقى ، نحيفا ، محدودب الأنف ، بعينين اتخذتا محجريهما على سعة كافيـــة فيما بينها، وشفتين ملمومتين جاسيتين • ولكن هذا لم يهمه قط • كانت تتملكه رغبة واحدة، رغبة تطلبت راعيه الكثير من الانشغال• تلك كانت الرغبة فى الركض • فكان ينطـــلق ، جاذبا وراءه أقرانه ، ينطلق بينهم مثل مذنب أصفر • وكانت تدفعه ، دون كلل ، قوة لا تنضب للجرى نحو الجبال ، ونحو منحـدراتها وسفوحها ، وعلى طول الشاطئ الحجرى ، وفى الدروب البالغة الضيق والحدة ، وفى الوديان والوهاد • وحتى فى هدأة الليل البهيم حين كان يغفو تحت النجوم ، كان يرى فى المنام كيف كانت الأرض تفر تحته ، وكيف كانت الريح تصفر فى عفرته وأذنيه ، وكيف كانت تلغط حوافره لكأنها تقرع أجراسا •

وكان موقفه من راعيه كموقفه من أى واحد آخر ليست له معه علاقة• فلا هو يحبه، ولا هو بالمستشعر ايما سخط عليه، ذلك لأن هذا لم يتدخل فى شؤونه • اللهم الا اذا انهد يشتم الخيول حين

توغل هذه فى الابتعاد . وأحيانا لزم الراعى فى مناسبات أخرى، أن يمشق كفل الحصان الاشقر بالسوط الانشوطى مرة أو مرتين فكانت تأخذ بمجامع بدن غولسارى قشعريرة ورجفة عند هذا ، لكن ذلك كان فى أكثره بسبب عدم التوقع أكثر مما كان من الضرب ذاته ، فكان يزيد بسبب ذلك من سرعة جريه . وكلما شدد من ركضه ، وهو يعود الى القطيع ، كلما أزداد اعجاب راعيه به ، وهو يجرى فى أثره مائلا عليه يستحثه بسوطه ذاك . وكان غولسارى يسمع من ورائه هتافات الاستحسان ، كما كان يسمع كيف كان ذاك يبدأ الغناء ، وهو على صهوة حصانه ، وفى مثل هذه اللحظات كان هو يحب راعيه ، يحب العدو على ايقاع أغانيه . وقد عرف ، فيما بعد ، هذه الأغانى على نحو جيد، وكانت أغانى مختلفة ، منها المرحة ومنها الحزينة ، منها الطويلة ومنها القصيرة ، وكان لبعضها كلمات فيما لم يكن لبعضها الآخر . وأحب هو ، أيضا ، حين كان الراعى يطعم القطيع الملح. فكان هذا يضع كتل الملح للحس فى معالف خشبية طويلة قائمة على أوتاد صغيرة ، فكان القطيع بأسره ينقض عليه انقضاضا . وكان فى ذلك متعة كبيرة . ولكنه وقع فى الشراك بسبب هذا الملح .

ففى ذات مرة قرع الراعى فى سطل فارغ ، وجعل يدعو الخيول «بو ، بو ، بو !» فهرعت الخيول ، وخرت أمام المعالف. ولحس غولسارى الملح ، واقفا بين الخيول الأخرى ، ولم يقلق البتة ، حين صار الراعى يوالى مع مساعده مداورة القطيع

والسوط الانشوطي بايديهما • ان ذلك لم يعنه • وبهذا السوط الانشوطي كانا يلتقفان ويقتنصان خيول الركوب ، والأفراس الحلوبة ، وأفراسا أخرى ، الاه فقط • فلقد كان حرا على هواه، وفجأة تزحلقت أنشوطة وبراء على رأسه وتعلقت برقبته • لم يفهم غولساري فيم المسألة وفيم السر ، فالانشوطة لم ترعبه بعد، وظل يواصل لحس الملح • وكانت الأفراس الأخرى تحرن ، وتشب على أعقابها ، حين ترمى عليها الانشوطة ، أما غولساري فلم يتحرك قيد شعرة • لكن ها هو يشتهي الماء ويود أن يمضي الى النهر ليشرب • فاندفع من مكانه • لكن الانشوطة ضاقت على الرقبـــة وأوقفته • مثل هـــذا لم يقع له أبدا • فانتكص غولساري ، وبدأ يشخر وينغط ، ووسع عينيه ؛ ثم شب على عقبيه • وكانت الخيول قد انفضت من حوله راكضة متفرقة ، وتكشف هو لوحده مع الناس ، الذين كانوا يمسكون به على وهق أشعر • كان صاحبه واقفا في الأمام ، ووراءه الراعي الثاني ، وفي الحال جعل أطفال الراعيين يدورون في مكانهم حوله ، وكانوا قد ظهروا هنا منذ زمن قصير ، وقد اضجروه بما فيه الكفاية بجريهم السريع اللاانتهاء له حول القطيع •

وهيمن الرعب على الحصان • فشب مرة أخرى ، وأخرى، وأخرى • كانت الشمس تلوح مرة بعد أخرى في عينيه على نحو مضجر مزعج ، منشالة في دوائر حارة ، وجعلت الجبـــال ، والأرض ، والناس تهوى ، منتكسة على ظهورها ، وما عتم ان

أغلق العينين برهة فراغ أسود ، مرعب ، ما لبث الحصان آن انهد يدقه بقائمتيه الأماميتين .

ولكن مهما دق وخفق بأطرافه ، فان الانشوطة كانت تضيق عليه أشد فأشد ، فانقذف الحصان لاهثا ، مختنقا ، لا بعيدا عن الناس بل نحوهم بالذات . فتنحى الناس جانبا ، وخفت وطأة الانشوطة لحظة ما . وما هى الا لحظة حتى جذبهما جرا على الأرض ، جراء سرعته البالغة فى الحركة . فصرخت النساء ، وأبعدت الأطفال الى المساكن . وعلى كل حال وفق الراعيان لأن ينهضا ، ومن جديد صارت الانشوطة تشد على رقبة غولسارى . وفى هذه المرة كانت من الشدة بحيث استحال التنفس وتعسر . وتوقف ، خائرا ، وهو ينوء من دوخان الرأس والاختناق .

وأنشأ راعيه يقترب اليه من جانبه مخففا الوهق فى يديه . ورآه غولسارى بعين واحدة . كان الراعى قد اقترب منه بملابس ممزقة ، وخدوش وتسلخات فى وجهه . لكن عينى الراعى نظرتا دون حقد . كان يتنفس بعسر ، وما لبث آن جعل يكلمه ، متمطقا بشفتين مشجوجتين ، بوهن ، كأنه يهمس :

ـــ تك ، تك ، غولسارى ، لا تخف ، قف ، قف !

ووراءه، اقترب مساعده منه بحذر، دون أن يخفف الوهق. وبلغ الراعى أخيرا بيده ، بلغ الحصان ، ومسد رأسه ، وما لبث ان رمى بكلمة الى مساعده باقتضاب ، دون أن يلتفت اليه :

ـــ اللجام !

وناوله هذا اللجام .

ـ قف ، يا غولسارى ، قف أيها الشاطر . ـ كان يحاور راعيه . ورمى على رأسه باللجام ، وهو يغطى عينى الحصان الرهوان براحته .

والآن ما عليه الا أن يلجمه ويسرجه .

وحين رمى باللجام على رأسه ، بدأ غولسارى يشخر ، وحاول الافلات والانطلاق بعيدا . لكن راعيه وفق لأن يقبض على شفته العليا .

ـ أعطنى المشد ! ـ صاح هو فى مساعده ، فخف هذا اليه ، ووضع بسرعة على شفته مشدا من السيور وجعل يدورها بعصا .

وبرك الحصان من الألم على قدميه الخلفيتين ولم يعد يقاوم . وكانت الألجمة الحديدية الباردة قد بدأت تدوى على الأسنان وما لبثت ان غرزت فى زاويتى الفم . وعلى الظهر رموا شيئا ما ، وشدوا ، وجعلوا يضغطون الصدر بالسيور على دفعات ، وهكذا كان يترنح ويتمايل من جانب الى جانب . لكن هذا ما كان يعنى شيئا . فعلى الشفة كان قد جثم ألم شديد جدا لا يطاق . وزلقت عيناه على جبهته من فرط ما ألم به من وجع . ولم يكن ممكنا لا التحرك ، ولا الزفير . وحتى هو لم يلاحظ كيف ومتى استوى عليه راعيه ، ولم يفق ويصح على نفسه الا بعد أن نزعوا المشد من الشفة .

ووقف دقيقة وأخرى ، دون أن يتميز شيئا ، مشدودا

بكليته ومتثاقلا ، ثم مال بطرفه ، ناظرا عبر الكتف ، ورأى فجأة على ظهره انسانا • ومن فرط رعبه انقذف بعيدا ، لكن الألجمة خرقت الفم ، أما قدما الانسان الذى امتطاه فقد لزتاه لزا ، متشبثتين بقوة ، فى جنبيه • فشب الحصـــان ، وبدأ يصهل مستاءا بضراوة ، وبدأ يندفع جيئة وذهوبا ، وهو يرفع بقوة مؤخرته ، متوترا تماما ، من أجل أن ينفض عن نفسه كل ما خنقه، وانطلق الى جانب ، لكن الوهق الذى كان يمسك بنهايته تحت الركاب انسان آخر ، على حصان آخر ، لم يفلته • وآنذاك جعل يركض فى دورة ، جعل يركض متوقعا ان تنفرط الدائرة، وان ينطلق بعيدا الى حيث يمتد نظره وتقوده عيناه • ومهما كان الأمر فان الدائرة لم تنفك ، وكان لا يزال يركض ويركض فى دورات • وكان هذا بالذات ما يريده الراعيان • وكان سيده يضربه بالسوط ويلزه بكعبى حـذائه • ومع ذلك فقد أفلح الحصان فى اطراح سيده مرتين • لكن هذا كان ينهض فى كل مرة ليثب من جديد الى صهوته •

وقد تطاول هذا أمدا طويلا ، جد طويل • كان الرأس يدوخ ، والأرض تدور حوله ، والمساكن تدور ، والخيول المتناثرة بعيدا تدور ، والجبـــال تدور ، بل وحتى الغيوم فى الســـماء تدور • وتعب بعد ذلك وجعل يخطو وئيدا • فقد اشتهى جدا ان يشرب الماء •

لكنهم لم يسمحوا له بذلك • وعند المساء ، وضعوه ، دون أن ينزعوا السرج عنه ، انما خففوا التوثيق فقط ، ووضعوه فى

المربط افترة طويلة • كانت مقاود الاعنة ملفوفة على قربوس السرج ، الأمر الذى ترتب بسببه أن يحتفظ بالرأس مرفوعا ، وبالطبع فهو لم يستطع الرقود على الأرض فى مثل هذا الوضع • وكان الركابان مرفوعين الى فوق وملفوفين على قربوس السرج أيضا • وهكذا ظل واقفا طوال الليل • وقف مسالما ، وقد أيأسه وأوهن عزمه كل هذا العناء الذى لا يصدق ، والذى كان عليه أن يعانيه • وكانت الألجمة فى الفم لا تزال تعوقه ، فان أتفه حركة منها كانت تسبب ألما حارقا ، ولم يكن مسرا طعم الحديد • وكان اللجام قد مزق زاويتى الفم المتورمتين • كما كانت توجعه تحت جنبه الأمكنة التى برتها الأحزمة • وكان ظهره تحت حلس السرج يؤلمه جدا • واشتهى الشرب بضراوة • كان يستمع الى ضجيج النهر ، فاستحوذ عليه عطش حاد • كانت القطعان ترعى هناك ، وراء النهر ، كما هو الحال دائما • وقد ترامى اليه وطء حوافر خيول كثيرة ، وصهيل الأفراس ، وهتاف رعاة القطعان فى الليل • كان الناس قد استكنوا عند الشعاليل يستريحون بجانب مساكنهم • وكان الصبيان يتحرشون بالكلاب ، بل وكانوا يقلدون نباحها • أما هو المسكين فقد لبث واقفا ، وكان الجميع فى شغل شاغل عنه ، لا يهمهم أمره •

بزغ القمر بعدئذ • فانقشعت الظلمة جزئيا عن الجبال التى ابتدأت تتأرجح ، منورة بالقمر الأصفر • وازداد تألق النجوم ، وتعاظم اقترابها من الأرض • وفيما كان هو يقف هادئا مسالما ، مشدودا الى محل واحد • الا ان فرسا ما كانت تبحث عنه •

أجل ، فلقد سمع صهيل الفرس الكميت الصغيرة ، هى نفسها التى نشأ معها والتى كان معها باستمرار ودونما افتراق .

وكانت لها غرة فى جبين خطمها . كانت تحب العـدو معه . وقد صارت الأحصنة تطاردها بمغازلاتها ، ولكنها لم تستسلم لأحد ، وكانت تفر معه بعيدا عنها . لقد كانت قاصرة ، كما انه هو لم يكن قد بلغ بعد ذلك العمر ، الذى يجعل ممكنا له اقتراف ما كانت تحاول عمله الأحصنة الأخرى .

وها هى تصهل فى مكان ما قريب تماما . أجل، كانت هذه هى بعينها ، فقد كان يعرف صوتها تماما . وأراد أن يجيبها ، ولكنه خاف أن يفغر فاه المجهد ، الوارم . فقد كان هذا مؤلما على نحو رهيب . وأخيرا وجدته هى نفسها . فعدت اليه بخطى ناشطة سريعة، متألقة تحت ضوء القمر بنجمتها البيضاء فى جبينها . وكان ذيلها وأطرافها مبللة رطبة . لقد أتته عبر النهر ، حاملة رائحة الماء الباردة . فدفعته بخطمها ، وجعلت تتشمم ، ملتصقة به بشفاه ملمومة ، دفئة . ونخرت بلطف ، وهى تدعوه للذهاب معا . ولكنه لم يستطع التحرك من مكانه . فوضعت ، بعدئذ رأسها على رقبته وجعلت تهرش عفرته بأسنانها . وكان عليه هو بدوره أن يجيبها بالمثل فينيخ رأسـه على رقبتها ليحك عفرتها أيضا . بيد أنه لم يستطع مبادلتها هذه المداعبة . اذ لم يكن فى حال تؤهله للحركة . كان يشتهى شرب الماء . اواه ، لو كانت تستطيع سقيه الماء ! وحين قفلت راجعة نظر اليها فى اثرها الى أن ذاب ظلها فى العتمة المسائية وراء النهر . أتت ورجعت اذن .

وأحسرتاه ، ففاضت الدموع من عينيه • جرت دموعه قطرات كبيرة على خطمه وتساقطت عند قدميه دونما ضجة • لقد بكى الحصان لأول مرة في حياته •

وفي الصباح الباكر جاءه سيده • وأجال طرفه حوله وفيما يحيط به ، فلحظ الجبال الربيعية وتمطى ، وتأوه مبتسما من ألم في عظامه ومفاصله •

ــ أوه ، غولساري ، لقد سحبتني وأتعبتني بما فيه الكفاية • ماذا بك ؟ أبردت ؟ أنظر كيف أصبحت أنت ! حسن المظهر جدا •

وأنشأ يربت على رقبة الحصان ، وجعل يقول له شيئا ما طيبا ، مضحكا • انى كان لغولساري ان يعرف ماذا كان يقول له الانسان ، وبم يحدثه ؟ لكن تاناباى قال :

ــ حسنا ، لا تزعل مني أيها الصديق • لن تظل الى الأبد دونما عمل • ستتعود ، وستعود المياه الى مجاريها • أما كونك قد شبعت عذابا فهذا أمر لا يمكن تجاوزه وتخطيه • فالحياة ، يا أيها الأخ ، هي ذلك الشيء الذي يعلمنا كل شيء وكل حيلة• ولقاء ذلك لن تركع ، فيما بعد ، ولن تكبو وتعثر بكل حجر في الطريق• هل أمض بك الجوع، ماذا ؟ أتريد الشرب ؟ اعرف•••

واقتاد الحصان الى النهر • فك الاعنة ، ونزع اللجام بحذر من الفم الجريح • فانقض غولساري وهو يرتجف على الماء ، وانكب يشرب بحيث باتت عيناه تؤلمانه من برد الماء • آه ، كم كان لذيذا طعم الماء ، وكم كان هو ممتنا من الانسان لقاء ذلك !

هكذا تم الأمر اذن . وسرعان ما صار لا يستشعر أيما تضايق تقريبا من السرج لكثرة ما تعود عليه وألفه . بل صار يؤانس فى نفسه الجذل والنشاط اذ يحمل فارسه . وكان هذا يقلل من جموحه ، فلا يعطيه الفرصة للعدو السريع . أما هو فكان يتقحم منطلقا أبدا الى أمام ، راسما ، على نحو واضح متميز ، أثرا دقيقا لزهوة الفنان ، فى الطرقات والدروب . لقد تعلم السير تحت السرج بذلك الشكل السريع ، المتناسق ، المنتظم ، بحيث ان الناس كانوا يفغرون الأفواه من التعجب والاعجاب :

ــ ضع عليه سطلا مليئا بالماء ــ ولن يريق قطرة واحدة !

أما الراعى القديم ، ترغوى الطاعن فى السن ، فقد قال لتاناباى :

ــ شكرا لك ، لقد روضته جيدا . وسترى ، الآن كيف سيرتفع ويعلو نجم حصانك الرهوان !

٣

كانت عجلات العربة العتيقة تصر ببطء فى الطريق البرى . وبين آونة وأخرى كان الصرير يكف وينقطع . كان الرهوان يتوقف ، وقد خارت قواه . واذ ذاك كان يسمع فى غمرة الصمت الأبدى الوشيك الحلول ، كيف كانت تتردد داوية فى الاذنين دقات القلب : توم ــ توب ، توم ــ توب ، توم ــ توب ...

وكان الشيخ تاناباى ينتظر ريثما يستريح الحصان ويستجمع أنفاسه ، ثم يعاود من جديد لجمه :

ـ فلنمض ، يا غولسارى ، هلم بنا ، أنظر ، سيحل المساء وشيكا •

وعلى هذا المنوال جرا نفسيهما ساعة ونصف الساعة ، حتى توقف الحصان نهائيا • انه لم يستطع أن يسحب العربة أكثر من هذا الحد • وتململ تاناباى من جديد وتحرك ، وجعل يجرى حول العربة :

ـ ماذا دهاك يا غولسارى ، ماذا ؟ سيحل الليل وشيكا !

غير أن الحصان لم يكن يفهمه • كان واقفا فى عدته ، يهز برأسه ، الذى حمله عبئا لا يطيقه ، أصبح يترنح ويتمايل على أقدامه من جانب الى جانب • أما فى الاذنين فقد ظل خفق القلب يواصل دقاته : توم ـ توب ، توم ـ توب •

ـ حسنا ، سامحنى ، ـ طفق تاناباى يتحدث • ـ كان على ان أحزر أمرك فى الحال • فلتذهب الى سقر هذه العربة ، وهذا الطقم ، أواه ، لو استطعت فقط أن أقتادك حيا الى البيت •

وألقى بفروته على الأرض ، وأنشأ يفك الحصان من العربة • أطلقه من العريش ، وسحب الرقبية خطفا عبر الرأس ، ورمى بالطقم كله الى العربة •

ـ ها قد انتهى كل شىء ، ـ قال هو مرتديا فروته وجعل يجيل بصره فى الحصان الرهوان الذى حل عن العربة • كان الحصان واقفا وسط السهب المظلم البارد ، مثل شبح ، دونما طقم ، دونما رقبية ، وبرأس تجاوز الحد فى ضخامته • ـ يا الهى ،

الى أى شىء تحولت يا غولسارى؟ — همس تاناباى • — لو بعث وراك الآن ترغوى لقفل راجعا لتوه الى قبره •

وجعل يقتاد الرهوان بالمقاود ، ومن جديد انطلقا وئيدا فى الطريق • انسان هرم وحصان هرم • لقد تبقت العـربة الملقاة المهجورة وراءهما ، اما أمام ، فى الغرب ، فقد خيمت فى الطريق ظلمة بنفسجية قاتمة • كان الليل ينثال دونما ضجيج فى السهب، مغطيا الجبال بردائه الفضفاض ، مجترفا الأفق تماما •

ومضى تاناباى وجعل يتذكر كل شىء يتعلق بالحصان الرهوان فى السنين العجاف الطوال ، وأنشأ يتـأمل النـاس بسـخرية مريرة : « كلنا على هذى الحال • يتذكر أحدنا الآخر عند نهاية الحياة فقط ، وحين يمرض المرء بشدة أو يموت ، آنذاك يصبح واضحا لنا جميعا من فقدنا ، وأيا كان هو ، وبأى شىء يتمجد، وأى أمور أنجز • ولكن ما القول فى المخلوق غير الناطق ! ترى من لم يحمله غولسارى ؟ من لم يرتحل عليه ؟ ولكن ما دام قد شاخ ، فهاهم جميعا ينسونه • انه يمضى الآن ، ويجرجر بالكاد قدميه • ولكن أى جواد كان ! ••• »

وتذكر من جديد أمورا شتى ، وعجب كيف انه لم يعاود منذ زمن طويل أفكاره عن الماضى • لقد بعث الآن حيا لديه كل شىء مما كان وقتا من الأوقات • وها قد تجلى يقينا ان لا شىء يختفى دونما أثر • ومن قبل كان لا يفكر فى الماضى الا قليلا ، أو بالأحرى لم يسوغ لنفسه ان يفكر بالماضى ، أما الآن ، وبعد المحادثة مع الابن والكنة ، وفى غمرة جولانه فى الطريق فى

الليل مع حصانه المحتضر الذي يقتاده خلفه ، الآن جعل يتطلع بألم وحزن الى السنين التي عاشها ، ومثلت هذه كلها حية أمام باصريه •

هكذا مضى هو موسوقا بأفكاره ، أما الرهوان فكان يجر بقدميه في المؤخرة ، وهو يشدد طيلة الوقت أكثر فأكثر من جذب المقاود • وحين خدرت يد الشيخ ، رمى هو بالمقاود على كتف آخر، ومن جديد جر بالحصان وراءه • وصعب عليه ذلك بعدئذ، فسمح للحصان بأن يستريح • ونزع ، بعد ان تأمل قليلا ، اللجام من رأس الحصان •

— امض الى الأمام ، امض كيفما استطعت ، سأكون أنا وراءك ، لن أرميك ولن أهجرك — قال هو — طيب ، امض ، امض رويدا •

والآن مضى الحصان في الأمام ، وتاناباي وراءه ، وقد رمى باللجام عبر كتفه • انه لن يرمي اللجام قط • وحين كان غولساري يتوقف ، كان تاناباي يرقبه ريثما يلتقط أنفاسه ويستجمع قواه، ومن جديد كانا يمضيان في الطريق • حصان هرم وانسان هرم •

وابتسم تاناباي بأسى ، متذكرا ، كيف ان في هذه الطريق بالذات جرى ، في وقته غولساري فكان يثير الغبار وراءه كالذيل • وكان الرعاة يقولون ، اذ ذاك ، انه قياسا على هذا الغبار كانوا يتعرفون على عدو الرهوان من بعد فراسخ كثيرة • وكان الغبار من تحت حوافره يخط في السهب أثرا أبيض جاريا، وفي الطقس الخالي من الريح كان هذا الأثر يعلو على الطريق

ويخيم مثل دخان طائرة نفاثة . كان الراعى يقف فى مثل هـذه الدقائق ، حاجبا عينيه براحة يده ويقول فى سره : « انه هو قد أتانا ، غولسارى ! » وكان يفكر بحسد فى ذلك الانسان السعيد الذى كان يطير عليه ، والريح تسفع وجهه . انه لشرف كبير للقرغيزى حين يعدو تحته مثل هذا الحصان الشهير .

كم من رؤساء الكولخوز التقى بهم غولسـارى وذهبوا ولكنه ظل باقيا ، لقد كانوا مختلفين ـ منهم أذكياء وحمقى ، شرفاء وغير شرفاء ، ولكنهم كلهم دونما استثناء ارتحلوا عليه منذ اليوم الأول حتى اليوم الأخير لرئاستهم . « ترى أين هم الآن ؟ أيتذكرون الآن غولسارى ، الذى كان يحملهم من الصباح حتى المساء ؟ » ـ طفق يفكر تاناباى .

وبلغا ، أخيرا ، الجسر عبر الوادى . وهنا توقفا مرة أخرى . هنا أخذ الحصان يثنى أطرافه ، من أجل أن يضطجع على الأرض ، ولكن تاناباى لم يستطع أن يسمح بهذا : والا فلن تستطيع أن تنهضه بأيما قوة ، بعد ذلك .

ـ انهض ، انهض ـ صار يصرخ فيه ، ويضرب فى رأسه باللجام . ـ وواصـل الصراخ منزعجا من نفسـه لأنه ضرب الحصان ـ ماذا بك ، أفلا تفهم ؟ أو تريد أن تموت ؟ لن أسمح لك ! انهض ، انهض ، انهض ! ـ كان يجذب الحصـان من عفرته .

وقوم غولسارى أطرافه بصعوبة ، وأن بثقل . وبالرغم من ان الجو كان مظلمـا ، الا ان تاناباى لم يجرؤ أن ينظر الى

الحصان فى عينيه • وربت عليه ، ولمسه وجسه ، ثم وضع أذنه على جنبه الأيسر ليستمع الى ضربات قلبه • وهناك فى صدر الحصان ، كان القلب يطرطش لاهثا بسرعة مثل عجلة الطاحون فى أعشاب الماء • وقف على هذه الحال بجانب الحصان طويلا، محدودبا ، الى ان نغزته خاصرته • ثم انتصب فى وقفته ، هازا رأسه ، وتنهد ، وقرر انه ربما تلزمه المخـاطرة — وذلك بان ينحرف من الطريق وراء الجسر الى الممر الضيق الذى يمتد على طول الوادى • كان هذا الممر يمضى فى الجبال ، وبسلوكه كان يمكن بلوغ البيت على نحو أسرع • حقا ، فى الليـل ، من المحتمل اضـاعة الطـريق ، ولكن تاناباى كانْ يؤمل على نفسه وخبرته ، فقد كان يعرف هذه الأماكن من قديم ، كل ما يحتاجه أن يصمد الحصان •

وفيما كان الشيخ يفكر فى ذلك ، كانت قد ومضت فى البعيد المصابيح الأمامية لسيارة مارة فى الطريق • عوم الضوء فجأة طالعا من الظلمة فى كرتين متألقتين صارتا تقتربان حثيثا ، تجسان أمامهما الطريق باشـعة طويلة مترجحة • وكان تاناباى والحصان واقفين عند الجسر • وبالطبع ، فالسيارة لم تستطع مساعدتهما بحال ، ولكن تاناباى مع ذلك صار ينتظرها • كان ينتظر مجرد الانتظار ، دونما وعى أو تقدير • « أخيرا ، ولو واحدة » — كان يفكر مسرورا أنه قد ظهر أناس فى الطريق • وطعنته المصابيح الأمامية لسـيارة نقل فى عينيه بحزمة ضوئية قوية فغطاهما بيده •

كان شخصان جالسين فى قمرة سيارة ينظران باندهاش الى الرجل الشيخ عند الجسر ، والى الفرس الهزيلة الواقفة بجنبه دون سرج ، دون لجام ، كما لو أنها لم تكن فرسا وانما كلبا طائفا وراء الانسان • وفى لحظة ما كان تيار مستقيم من الضوء قد أنار الشيخ والحصان لدرجة البياض ، فتحولا فجأة الى شبحين هزيلين •

ــ غريب ، لماذا هو هنا فى منتصف الليل ؟ ــ قال الفتى الطويل النحيف المرتدى قبعة تغطى أذنيه، والقاعد بجنب السائق •

ــ هذا هو ، وتلك عربته هناك ، ــ أوضح السائق موقفا سيارته • ــ ماذا ، أيها الشيخ ؟ ــ صرخ هو مطلعا رأسه من القمرة • ــ أو أنت الذى رمى العربة فى الطريق ؟

ــ أجل ، أنا • ــ أجاب تاناباى •

ــ تلك هى المسألة • ننظر ، واذا بعربة ملقاة فى عرض الطريق • ولا أحد حولها • أردنا أن نأخذ عدة الحصان ، لكنها هى الأخرى لا تصلح لشىء •

وصمت تاناباى •

وترجل السائق ، وخطا بعض خطوات ، وهو يلهث على الشيخ برائحة الفودكا الحادة ، وشرع يبول فى ناحية ما فى الطريق •

ــ ولكن ما الذى حصل ؟ ــ سأل هو ملتفتا الى الشيخ •

ــ لم يستطع الحصـــان المضى أكثر ، فقد اعتل ، وهو عجوز •

ــ أم ــ م • والى أين الآن بالذات ؟

ــ الى البيت • الى قرية « ساريغوسكايا » •

ــ تيو ــ صفر السائق ، ــ يعنى الى الجبال ؟ ليس فى طريقنا • والا لحشرناك فى جوف السيارة ، وبهذا الشكل ، لكنت قد رميتك عند السوفخوز ، ومن هناك تسافر غدا •

ــ شكرا • لكن الحصان معى •

ــ أهذه الجيفة ؟ فلترمه الى الكلاب ، اطرحه هناك فى الوادى ، وتحل المسألة ، ستنقره الغربان • سنساعدك اذا أردت •

ــ اذن واصل طريقك ، ــ قالها الشيخ من بين أسنانه مكتئبا •

ــ حسنا ، لك ماتريد ! ــ ضحك السائق ، وصفق الباب، كما لو كان يخاطب قمرته ، ــ لقد خرف الشيخ !

وتحركت السيارة ، حاملة معها تيارا معتكرا من الضوء • وصر الجسر بتثاقل فوق الوادى ، وقد أنير بضوء المصابيح الخلفية ، الضوء الأحمر القاتم •••

ــ لم تضحك من الرجل ؟ وكيف اذا حصل لك مثل هذا !؟ ــ قالها الفتى ذو القبعة التى تغطى أذنيه ، والجالس فى القمرة حذاء السائق •

ــ هراء ••• ــ أجابه السائق ، وهو يتثاءب ، وقد أدار المقود ، ــ لقد وقعت معى شتى الوقائع • وكان الحق معى ، تصور لا يستطيع أن يفارق الفرس الهزيلة ! مخلفات الماضى !

الآن ، يا أخى ، حل التكنيك فى كل مكان • فى كل مكان • تجد التكنيك • وحتى فى الحرب • حقا ، لقد حانت النهاية لمثل هؤلاء الشيوخ وهاته الأفراس المسنة !

ــ أى وحش أنت ! ــ قال الفتى •

ــ لأبصقن على كل شىء • ــ أجاب ذلك •

وبعد ان اختفت السيارة ، وخيم الظلام ثانية فى الجوار ، واعتادت العينان الظلمة من جديد ، كان تاناباى قد شرع يحث الحصان الرهوان :

ــ طيب ، فلنمض تشو ، تشو ! امض !

ووراء الجسر حرف الحصان من الطريق اللاحب الى الممر الضيق • والآن مضيا يتحركان ببطء فى الممر الذى بالكاد كان يلاحظ فوق الوادى وكان القمر قد طلع لتوه من وراء الجبال • وكانت النجوم تنتظر طلوعه ، وهى تأتلق شاحبة فى السماء البـــاردة •

٤

وفى ذلك العام ، حين كان غولسارى قد روض ودرب ، كانت القطعان قد سيقت من مراعيها الخريفية فى وقت متأخر • استطال الخريف أكثر من المعتاد ، ولكن الشتاء كان خفيف الوقع ، فكان الثلج يهطل غالبا ، ولكن دون أن يرقد طويلا • وكان العلف كافيا • أما فى الربيع فقد هبطت القطعان ثانية ، الى التلال السفحية ، وما ان اخضر السهب حتى انتقلت الى أسفل •

ولعل ذلك كان أفضل الأوقات عند تاناباى بعد الحرب. كان حصان الشيخوخة الأشهب قد انتظره وراء المضيق الجبلى، بالرغم من قـــربه ، والى ذلك الوقت كان تاناباى يرتحل على الحصان الرهوان الأشقر الفتى . ولو وقع بيده ذاك الحصان بعد بضع سنين ، لكان من غير المرجح أن يتمتع بمثـــل تلك السعادة ، وبتلك الاثارة الجريئة ، التى كان يمنحها اياه امتطاء غولسارى والارتحال عليه . أجل ، ان تاناباى ما كان يمانع أحيانا من أن يختال فخورا أمام الناس . وانى له أن لا يختال ويتباهى، وهو يمتطى صهوة رهوان عداء ! وكان غولسارى يعرف هذا جيدا . وخصوصا حين كان تاناباى يرتحل الى القرية عبر الحقول، حين كان يلتقى النســـاء الماضيات زرافات الى العمل . فكان يستوى فى السرج ، وهو لا يزال بعيدا عنهن ، ويقوم من جلسته ومن نفسه . وقد أفعم توترا ، وكانت اثارته هذه تعدى الحصان أيضا . فكان غولسارى يرفع ذيله باستواء مع ظهره تقريبا . وكانت عفرته تنبسط بصفير فى الريح . كان يحوم ناخرا بعض الشيء ، طائرا يحمل فارسه بخفة ورشاقة . كانت النساء فى المناديل البيض والحمر يتنحين عن الدرب ، متنـــاثرات فى أطرافه . غاطسات حتى الركب فى القمح الأخضر . وها هن يتوقفن مسحورات ، ليستدرن دفعة واحدة ، متألقـــات بوجوده مشرقة وابتسامات وأسنان بيضاء .

ــ ايه أيها الراعى ، على مهلك !

وفى أثره يندلع الضحك والكلمات العاذلة الساخرة :

ــ اسمع ، ستقع يوما ما ، وسنمسك بتلابيبك !

وكان يحدث ان يصطدنه فى الحقيقة ، قاطعات الطريق عليه ، تمسك الواحدة بيدى الأخرى • أى وقائع كانت تحدث هنا ! فالنساء يحببن العبث • كن يأخذن تاناباى ملقيات به من السرج ، ويقهقهن ، ويزعقن ، مختطفات السوط من يديه :

ــ اعترف ، متى ستأتينا بشراب الكوميس ؟

ــ اننا هنا فى الحقل من الصباح حتى المساء ، أما أنت فتتنزه وتتقلب على الحصان الرهوان !

ــ حسنا ، من الذى يعوقكن ؟ تفضلن للعمل فى رعى القطعان ! شيء واحد أوصين بعولكن كى يبحثوا لأنفسهم عن نساء أخريات • وستتجمدن أنتن من الزمهرير مثل قطرات الماء المتجمدة •

ــ هكذا اذن ! ــ وكن يقبلن من جديد على مضايقته •

ولم يسمح تاناباى ، ولا مرة ، لأحد بأن يمتطى الرهوان• وحتى تلك المرأة ، التى كان يتغير مزاجه فور التقائه بها مرغما الرهوان على السير وئيدا ، حتى هذه المرأة لم تمتط حصانه ولا مرة واحدة • ولعلها لم تكن تتمنى ذلك •

وفى ذلك العام انتخب تاناباى فى لجنة مراقبة الكولخوز• فكان يرتحل غالبا الى القرية • وفى كل مرة تقريبا كان يلتقى بتلك المرأة • وكثيرا ما كان يخرج من الهيئة الادارية حانقا ساخطا • وكان غولسارى يتحسس ذلك حين ينظر الى عينيه ، ويستشعر ذلك من صوته ومن حركات يديه • ولكن حين كان

يلاقيها ، كان يرق ويلطف دائما .

ـ حسنا ، خفف الخطو ، الى أين تطير ! ـ كان يهمس له ، مهدئا من جرى الحصان اللاهب ، وما أن يحاذى المرأة حتى يبدأ السير متثاقلا .

كان يتحدثان عن شيء ما بخفوت ، والا فانهما يصمتان . وكان غولساري يحس كيف كان العبء ينزاح من قلب صاحبه، وكيف يدفأ صوته ، وترق يداه . ولذلك فانه كان يحبه ويرتاح اليه ، حين كانا يقصدان هذه المرأة .

أنى للحصان أن يعرف أن الناس كانوا يعيشون بعسر فى الكولخوز ، وانهم كانوا لا يصيبون شيئا من أيام العمل ، وأن عضو لجنة المراقبة تاناباى باكاسوف كان يستفهم فى الهيئة الادارية ، ويستقصى الأمر : كيف كان يقع ذلك ، ومتى ستبدأ ، فى النهاية ، شروط تلك الحياة التى يمكن أن يعطى معها للدولة شيء ما كما يصيب الناس شيئا آخر بحيث لا يعملون مجانا .

وفى العام الماضى كان الموسم سيئا وكان هناك جفاف وعوز فى العلف ، أما فى العام الحالى فقد تجاوزوا الحد المقرر فى تسليم الحاصل والماشية ، مشتغلين مكان الآخرين ، من أجل أن لا توصم المنطقة بالوصمة الرديئة ، ولكن ما الذى سيكون فى المستقبل ، وعلى أى شيء يعتمد الكولخوزيون ـ فهذا أمر غير معلوم . كان الوقت يتصرم ، وصار الناس ينسون الحرب وأهوالها وشدائدها ، ولكنهم استمروا يعيشون كما فى السابق بما كانوا يجمعون من الحواكير ، وبما كانوا يتفننون فى خطفه

من الحقول الكيولخوزية • ولم تكن نقود فى الكولخوز : كان كل شىء يعطى للدولة على حساب الكولخوزيين وبخسارتهم — الحبوب ، والحليب ، واللحم • وفى الصيف كانت تربية المواشى تغتنى وتتوسع ، ولكن فى الشتاء كان كل شىء يذهب أدراج الريح ، فكانت الماشية تنفق من البرد والجوع • فكان ينبغى أن يسرع ببناء الحظائر المسقفة وزرائب البقر ، وقواعد العلف ، ولكن لم يكن ثمة ما تؤخذ منه مواد ، كما لم يعدهم أحد باعطائهم ذلك • أما السكن فلأى شىء استحال فى زمن الحرب ؟ وحيدون أولئك الذين دبروا أمر سكناهم ، انهم أولئك الذين كانوا يكثرون من السعى الى الأسواق بالبطاطا والماشية • ومثل هؤلاء أصبحوا قوة ، وهم قد وجدوا لأنفسهم مواد البناء فى مكان ما •

— كلا ، لا ينبغى أن يكون الأمر كذلك ، أيها الرفاق ، ثمة امر ما هنا ليس كما يرام ، يلوح لى أن مشكلة كبيرة ألمت بنا ، — كان يقول تاناباى ، — كلا ، لا أصدق أنّ الأمر ينبغى أن يكون على هذا الشكل • أما نحن قد نسينا كيف العمل ، أو انكم تسيئون قيادتنا •

— كيف ليس هكذا ؟ أى شىء غير صحيح ؟ — كان المحاسب يدفع له الأوراق • — انظر الخطط ••• هذا الوارد وهذا الصادر ، هذا رصيد الدين ، وهذا القرض ، وذاك هو الرصيد الباقى • لا أرباح ، خسارات فقط • ماذا تريد أكثر ؟

ميز أولا ، قبل أن تتكلم • أو أنت وحدك شيوعى ، ونحن أعداء الشعب ، نعم ؟

وكان آخرون يلجون الحديث ، بادئين نقاشا ، وضجيجا، فكان تاناباى يجلس ، ضاغطا بيديه على رأسه ، ويتأمل بيأس فيما يحدث هنا • كان يتعذب من أجل الكولخوز ليس فقط لأنه كان يعمل فيه ــ فقد كانت هناك أسباب أخرى ، أسباب خاصة • وكان للبعض حسابات قديمة مع تاناباى • وكان يعرف انهم الآن انما يضحكون منه فى الخفاء ، وعندما يرونه ينظرون بتحد فى وجهه : ولكن كيف تجرى الأمور ؟ ربما ستنزع الملكية مرة أخرى ؟ شىء واحد واضح ان الطلب منا الآن غير كبير ، اننا نقول لك : مد رجليك على قدر غطائك ! أوه ، لماذا لم تصب فى الجبهة ! •••

وكان يجيبهم بنظرة تقول : انتظروا ، أيها الأوغاد ، سيان سيكون الأمر على طريقتنا وكما نريد ! ولكن هؤلاء الناس ليسوا غرباء : انهم ذووه • وكان أخوه من أبيه قولوباى ــ وقد أصبح طاعنا فى السن الآن ، كان قد قضى سبع سنين فى سيبيريا • وقد حذا الابناء حذو أبيهم ، فكانوا يكرهون تاناباى بضراوة • ولكن لأى شىء يحبونه ؟ ولعل أولادهم سيظلون يكرهون سلالة تاناباى • ولهم فى ذلك أسبابهم • ان تلك القضية قديمة ، ولكن الاساءة تعيش طويلا عند الناس • أو كان ينبغى حقا السلوك بذلك الشكل مع قولوباى ؟ أفلم يكن هذا فلاحا متوسط الحال ليس الا ؟ ولكن القرابة موجودة • كان قولوباى ابنا من الزوجة

الكبرى ، أما هو فمن الصغرى ، ولكن عند القرغيز يعد هؤلاء الاخوة الأشقاء . اذن هو حتى على القرابة اعتدى ، أوه ، ما أكثر ما كانت الأحاديث آنذاك . والآن بالطبع يمكن الحكم بطرق مختلفة . أما آنذاك ؟ أو ليس من أجل الكولخوز أقدم هو على ذلك ؟ ولكن أكان ذلك ضروريا حقا ؟ بالأمس لم يكن ليشك فى ذلك ، أما بعد الحرب فقد جعل يفكر أحيانا خلاف ذلك. أفلم يزد هو بذلك أعداءه وأعداء الكولخوز ؟

ـ حسنا ولماذا تقعد ياتاناباى صامتا ، اصح ! ـ كانوا يعيدونه الى الحديث . ومن جديد كانت تتكرر الأمور ذاتها : ينبغى فى الشتاء نقل الدمان الى الحقل ، وجمعه فى الأحواش . وما دامت لا توجد عجلات ، اذن يلزم شراء خشب الدردار ، وقطع الحديد للاطارات ، ولكن بأية نقود ، وهل يعطوننا قروضا، ولكن لقاء أى شىء؟ ان البنك لا يثق بمجرد الكلمات. والسواقى العتيقة ينبغى اصلاحها ، وحفر سواق جديدة ، والعمل كبير وصعب . والقوم لا يمضون فى الشتاء للعمل ، فالأرض متجمدة ولا يمكن نقرها . أما فى الربيع فلن تلحق لتتم كل شىء : البذار، ولادة الماشية ، قلع الأعشاب المضرة وبعد ذلك الخش أيضا ... ولكن كيف سيكون الأمر مع تربية الأغنام ؟ أين حظائر الولادة؟ وفى مزرعة الحليب ليس الحال بأفضل . لقد نخر السقف وتآكل والعلف لا يكفى ، والحالبات لا يردن العمل . انهن يعملن من الصباح الى المساء ، ولكن ماذا يتسلمن ؟ ولكن كم من المشاغل والهموم والنواقص الأخرى ؟ ان الحال كانت مرعبة أحيانا .

ومع ذلك فقد استعاد القوم هممهم ، وجعلوا يناقشون من جديد هذه القضايا في الاجتماعات الحزبية ، في الهيئة الادارية للكولخوز . وكان الرئيس هو تشورو الذي لم يقدره تاناباى حق تقديره ، الا فيما بعد . فلقد تجلى ان الانتقاد كان أسهل . وكان تاناباى مسئولا عن قطيع الخيل ، أما تشورو فعن الجميع وعن كل شيء في الكولخوز . أجل ، كان تشورو رجلا قويا . وحين بدا ان كل شيء قد انهـار ، وحين أمسى القـوم يدقون الطاولة مهددين اياه في المركز المنطقي ، حين كانوا ينددون به في الكولخوز ، حينذاك لم تهن عزيمة تشورو ولم تخر . ولو كان تاناباى في مكانه لكان اما جن أو انتحر . أما تشورو فكان قد حافظ على المزرعة التعاونية ، وصمد حتى استنزف قواه والى أن تدهور قلبه تماما ، ثم عمل عامين منظما حزبيا . كان تشورو يحسن الاقناع ، ويتقن فن المحادثة مع الناس . فكان يحصل غالبا ان تاناباى بعد الاستماع اليه ينقلب مؤمنا من جديد ان كل شيء سيحل وستسوى الأمور فتصبح بذلك الشكل الذي حلم به في البداية . وليس الا مرة واحدة فقط تزعزعت ثقتـه في تشورو ، وحتى في هذه المرة كان هو نفسه صاحب القسط الأكبر في الذنب ...

ما كان الحصان الرهوان يعرف ما الذي جرى في روح تاناباى ، حينما خرج هذا من الهيئة الادارية بنظرة حانقة مغتاظة، وقد زوى ما بين حاجبيه ، وحين ارتقى صهوته بفظاظة وجذب الاعنة بحدة . لكنه استشعر ان صاحبه في حال بالغة السوء .

وبالرغم من ان تاناباى لم يضربه قط ، الا ان الحصان فى مثل هذه اللحظات كان يخشى صاحبه ويتهيبه • وما ان رأى فى الطريق تلك المرأة ، حتى فهم الحصان ان الأمر سيهون الآن وسيخف على صـاحبه ، وانه سيلطف ويرق ، وانه سـيمهل وهو يتكلم بخفوت معهـا ، أما يداها فسـتعبثان عبثـا رقيقـا بعفرته . وستربتان على رقبته • ولم يكن لأحد من الناس مثل هاتين اليدين المداعبتين • كانت هاتان اليدان خارقتين ، لدنتين، وحساستين مثل شفتى تلك الفرس الكميت الصغيرة ذات النجمة فى جبينها • ولم تكن عند أحد فى الدنيا عينان مثل تينك اللتين عند هذه المرأة • وكان تاناباى يتحدث معها ، منحنيا على السرج، وكانت هى أما تبتسم وأما تتجهم ، هازة برأسها ، غير موافقة على شىء ما ، وكانت عيناها تتلونان بالنور والظل ، مثل أحجار فى قاع نهر جبلى صغير فى ليلة مقمرة • وحين تودعه كانت تلتفت وتهز برأسها مرة أخرى •

كان تاناباى يرتحل بعد هذا متأملا • وكان يرخى الأعنة ويطلقها بحرية ، فكان الحصان الرهوان يمضى حسبما يريد • كان يخب خببا قصيرا فى الطريق وكأن صاحبه لم يكن فى السرج • وكأن كلا منهما ، هو وصاحبه ، كانا على هواهما • وكانت الأغنية تطلع على هواها • فكان تاناباى يغنى بخفوت ، ومن دون وضوح فى الكلمات ، وعلى الايقاع المتناسق الرتيب لوطء حوافر الرهوان، كان يغنى عن عذابات الناس الذين غادروا هذه الدنيا منذ زمان • أما الرهوان فكان يتولى دربا معروفا

لديه ويحمله الى السهب ، وراء النهر ، والى قطعان الخيل ...

كان غولسارى يحب حلول هذا المزاج عند صاحبه ، وكان يحب بطريقته الخاصة هذه المرأة . كان يعرف قوامها ، ومشيتها، وكان يحس بشمه الحاد ، رائحة ما غريبة ، سحرية ، رائحة عشب غير معروف لديه ، كانت تنبعث منها . كانت تلك رائحة القرنفل . فقد كانت تتحلى بعقد من أزهار القرنفل .

ــ أو لاحظت كيف يحبك هو ، يا بوبوجان ! ــ كان يقول لها تاناباى ــ ولكن داعبيه ، داعبيه مرة أخرى . انظرى كيف نشر أذنيه . تماما كما لو انه عجل . غير انه ليس من حياة فى القطعان بسببه الآن. أعطه الحرية فقط. فانه يقضم مع الأحصنة، مثل كلب ولهذا السبب اننى أحتفظ به بعيدا ، تحت السرج ، فانى أخشى أن تشوهه الأحصنة . فانه لا زال هشا ، طرىء العود .

ــ أجل انه بالذات يحب ، ــ أجابت ، منشغلة بأمر من أمورها .

ــ تريدين القول ان آخرين لا يحبون .

ــ أنا لست بصدد ذلك . لقد استنفدنا حبنا . انى لأشفق عليك .

ــ ولكن علام ؟

ــ انت لست ذلك الانسان الذى يتحمل مثل هذه الأمور، فسيكون الأمر عليك عسيرا فيما بعد .

ــ وعليك ؟

ـ مايصيبنى ؟ أنا أرملة ، زوجة جندى ، أما انت ...

ـ أما أنا فعضو لجنة المراقبة . ها اننى أقابلك لاستفسر منك بعض الحقائق . ـ قالها تانابای محاولا المزاح .

ـ أراك صرت تكثر من الاستفسار عن الحقائق . احذر!

ـ حسنا ، ولكن ما ذنبى ؟ أنا أمضى وأنت تمضين .

ـ أنا أمضى فى طريقى . حسنا ، وداعا . ليس لـدى وقت !

ـ ولكن اسمعى ، بوبوجان !

ـ حسنا ماذا ؟ لا داعى ، يا تانابای . علام كل هذا ؟ انك انسان ذكى . ان حالى حتى من دونك لا تطاق .

ـ ماذا ، أفأنا عدوك ؟

ـ أنت عدو نفسك .

ـ كيف لى أن أفهم هذا ؟

ـ كما تريد .

ومضت ، أما تانابای فقد ارتحل فى شوارع القرية كما لو انه قصد مكانا ما فى شغل ، وانعطف الى الطاحونة أو الى المدرسة وبعد أن قام بدورة ، رجـع كى يمتع نظره ، ولو من بعيد ، كيف كانت ستطلع هى من بيت حماتها ، حيث أودعت ابنتها وقت العمل ، وكيف ستذهب الى بيتها ، فى طرف القرية ، وهى تقود ابنتها بيدها . وكان كل شىء فى هذه المرأة عزيزا عليه : كيف كانت تمضى جاهدة الا تنظر صوبه ، ووجهها مبيض

فى شالها القاتم اللون ، وبنيتها ، وكليبها الذى كان يركض بجنبهمـــا •

وأخيرا اختفت هى فى فناء بيتها ، واستمر هو فى ارتحاله، وهو يصور لنفسه كيف ستفتح قفل باب البيت الخالى ، وتطرح جانبا معطفها الرث المضرب بالقطن ، وتسعى فى الفستان وحده من أجل الماء ، وكيف ستوقد النار فى الموقد ، وتغسل وتطعم ابنتها ، وتلتقى بقرتها فى القطيع ، وكيف ستنام فى الليل وحدها فى البيت المظلم الخالى من نأمة صوت ، وكيف ستروح تقنع نفسها وإياه ، انه لا ينبغى لهما أن يتحابا ، وانه هو انسان معيل، وأن العشق فى مثل عمره أمر مضحك ، وأن لكل شىء وقته، وأن زوجته امرأة طيبة ، وانها لا تستحق منه أن يجرى وراء امرأة أخرى •

وتغير حال تاناباى ومزاجه من مثل هذه الأفكار • « اذن، ان هذا ليس مقدرا لى » ـــ طفق يفكر ، وانخرط يغنى أغانى قديمة ، وهو ينظر الى الأفق الداخن وراء النهر ، ناسيا كل شىء فى الكون ، ناسيا أموره ، والكولخوز ، والحذاء والملابس للأطفال ، والأصدقاء والخصـــوم ، وأخاه من أبيه قولوباى ، الذى لا يتحدث معه سنين عددا ، ناسيا الحرب ، التى قد ولت تماما لكنها تعود فى أحلامه ، واذ ذاك يسيل عرق بارد على جسمه ، وبكلمة ، ناسيا كل شىء مما عاشه • ولم يلاحظ ان الحصان قد اجتاز النهر فى مكان العبور خوضا واستمر فى طريقه بعد طلوعه على الضفة المقابلة • وليس الا آنذاك فقط ،

حين كان الحصان قد زاد من جريه ، وقد أحس قربه من القطيع، ليس الا آنذاك عاد الى وعيه .

ـ تر ـ ر ، غولســاری ، الى أين تجرى أنت هكذا !

ـ تذكر تاناباى فجأة ، وهو يجذب الاعنة .

٥

ومع ذلك فبغض النظر عن كل شيء ، كان ذلك الوقت رائعا سواء بالنسبة له أو بالنسبة الى الرهوان . ان مجد الحصان العداء مثل مجد لاعب كرة القدم . ففتى الأمس ، المطارد الكرة فى المنفسحات خلف الدور يصبح فجأة لاعبا محبوبا فى كل مكان ، وموضع أحاديث العارفين وموضع اعجاب الجماهير . وكلما أوغل الزمان فى الجريان ، كلما تعاظم مجده ، ما دام يحرز الانتصارات ويكسب الهدف تلو الهدف . وبعد ذلك يخرج هو تدريجيا من الميدان وينسى تماما . وأول من ينساه هم أولئك الذين كانوا أصخب الجميع اعجابا به . محل لاعب الكرة الكبير يحل لاعب آخر . ومثل هذا طريق مجد الحصان العداء . انه يشتهر ما دام لا يقهر فى المباريات . ولعل الفرق الوحيد هو أن لا أحد يحسد الحصان . فالخيول لا تعرف الحسد ، أما الناس ، ولله الحمد ، لم يتعلموا بعد حسد الخيول وبالرغم من انه طرق الحسد غير مدركة كما يقال ، فأنها لشهيرة تلك الوقائع التى تحكم فيها الشر فى الانسان ، فكان الحاسدون يدقون مسمارا فى حافر الحصان . ايه ، انت أيها الحســد

الأسود ! ولكن ما علينا من هذا !

ولقد تحققت نبوءة تورغوى • ففى ذلك الربيع ارتفع عاليا نجم الحصان الرهوان • فقد عرفه الجميع الكبير والصغير « غولسارى ! » ، « حصان تاناباى » ، « زينة القرية » •••

وكان الصبيان الشعث ، الذين لم يستطيعوا بعد نطق حرف الراء ، كانوا يجرون فى الشارع المترب ، محاكين جرى الحصان ، وفى أثناء الجرى كانوا يصرخون « أنا ••• غولســـالى ••• كلا ، أنا غولســـالى ••• ماما ، قــولى اننى غولســـالى ••• تشو ، الى الأمام ، آى ـــ ى ـــ ى ••• أنا غولسالى » •••

لقد عرف الحصان الرهوان فى سباق الخيل الكبير الأول له ماذا يعنى المجد وأى قوة يمتلك • وكان ذلك فى أول أيار •

ابتدأت الألعاب ، بعد انتهاء الاجتماع فى المرج الكبير عند النهر ، وقدم عدد غفير من الناس من كافة الانحاء ماشين وراكبين من الســوفخوز المجـاور ، من الجبـال ، وحتى من كازاخستان • وقدم الكازاخيون أحصنتهم للسباق •

وقيل انه لم يكن مثل هذا العيد الكبير بعد الحرب •

كان الرهوان قد استشعر منذ الصباح حين كان تاناباى قد أسرجه بعناية كبيرة متفحصا أحزمة السرج ومثابت الركب ، كان قد استشعر من تألق عينيه وارتجاف يديه اقتراب شىء ما غير طبيعى • أجل ، كان صاحبه بادى الانفعال •

ـــ احذر ، يا غولسارى ، لا تخيب آمالى ، ـــ همس فى أذنه ، وهو يمشط عفرته وغرته ـــ لا ينبغى عليك أن تصم

نفسك بالعار ، أتسمع ! ليس لنا الحق فى ذلك ، أتسمع !

وأحس بانتظار شيء ما غير اعتيادى فى الهواء ذاته ، المقلق بأصوات الناس وجلبتهم ولغطهم • وأسرج الرعاة أحصنتهم فى المرابض المجاورة • وكان الصبيان على الأفراس ينطلقون فى الجوار بالصراخ • ثم قدم رعاة القطعان مرتحلين ، وتحرك الجميع معا الى النهر •

كان غولسارى مصعوقا بهذا التكدس للناس والأفراس فى المرج • كانت جلبة وضوضاء تدوى فوق النهر ، والمرج واليفوع على طول الأرض التى تغمرها مياه الفيضان • وزاغت الأنظار من مرأى المناديل والفساتين الزاهية الألوان ، والأعلام الحمر ، والعمائم النسوية البيض • وكانت الأحصنة فى أفضل عدتها • ودوت الركب ، وقعقعت الأعنة والشنوف الفضية فى صدورها •

ودبكت الأحصنة تحت فرسانها ، مرتصة فى صفوف ، دبكت بنفاد صبر ، محاولة الانطلاق ، وحفرت الأرض بحوافرها • وفى حلقة تخطر الشيوخ ، ناظرو الألعاب •

وأحس غولسارى كيف كان يتعاظم فيه التوتر على نحو مطرد ، واستشعر كيف كان يفيض قوة بكامل كيانه • وتراءى له ان روحا ناريا ملتهبا استقر فيه ، ولكى يتخلص منه ، كان يلزمه أن يسارع بالانطلاق فى الحلقة والعدو بعيدا •

وما ان أعطى النظار اشارة الانطلاق فى الحلقة وأرخى تانابای العنان ، حتى كان الرهوان قد اندفع به نحو الوسط ، وبدأ يدور به ، دون ان يعرف بعد ، الى أين ينطلق • ودوى

هتاف في الصفوف : « غولساري ! غولساري ! ••• »

وتقدم كل الراغبين في المشاركة في سباق الخيل • وتجمع خمسون شخصا من الفرسان •

ــ اسألوا البركة عند النــاس ! ــ أعلن رئيس ناظرى الألعاب بمهــابة •

كان الفرسان حليقو الرؤوس بالعصائب المشدودة وثيقا على الجبين ، كانوا يتحركون على طول الصفوف ، مرفوعى الأيدى براحات مبسوطة ، ومن كل حدب وصوب دوى صوت واحــد « أمين ! » وارتفعت مئات الأيدى الى الجباه ، ثم زلقت راحات الأيدى على الوجوه ، مثل تيارات مائية جارية •

وبعد ذلك كان الفرسان قد انطلقوا يخبون الى نقطــة الانطلاق ، والتى كانت فى الحقل ، على مبعــــدة تسعة كيلو مترات من هنا •

وفى ذات الوقت ابتدأت الألعاب فى حلقة ــ صراع المشاة والفرسان ، انتزاع الفرسان من السروج ، رفــــع عملة نقد من الأرض أثناء الجرى ، ومباريات أخرى • كان كل هذا ليس الا فاتحة ، أما الأمر الرئيسى فيبتدىء هناك ، الى حيث انطــلق الفرسان يعدون •

التهب غولسارى فى الطريق ، ولم يفهم ، لماذا كان صاحبه يعوقه • وتخطرت حوله واحتدمت أحصنة أخرى • فحنق الرهوان وجعل يرتجف من نفاد صبره وبسبب كثرة الخيول ورغبتها فى الجرى • واصطف الجميع صفا واحدا عند نقطة الانطلاق ، رأسا

الى رأس • ورمح الناظر أمام الجبهة من طرفها الى طرفها ، وكان يرفع منديلا أبيض • وتسمر الجميع مثارين ، متأهبين • وها هى تلويحة بمنديل • فانطلقت الأحصنة ، وسوية مع الجميع ، انطلق غولسارى الى الأمام ، وقد استحوذت عليه حميا لاهبة ، وارتجت الأرض تحت وطأة حوافر الخيل كقرع الطبول ، وانعقدت سحب الغبار • كانت الخيول قد انبطحت فى رمح سريع مسعور ، يستحثها صراخ الفرسان وزعيقهم • وليس الا غولسارى وحده، الذى لم يتقن الرمح السريع ، كان يعدو رهوا • وكان فى ذلك ضعفه وقوته معا •

مضت الخيول كلها ، فى البداية كومة مزدحمة متراصة ، ولكن خلال بضع دقائق ابتدأت تنبسط منفصلة بعضا عن بعض• ولم ير غولسارى هذا • شيء واحد ــ رآه ــ هو أن الخيول العداءة السريعة قد تخطته وأصبحت أمامه فى الطريق • وساطته فى بوزه الحصى الساخنة وقطع الطين الجاف والتربة المتطايرة من تحت الحوافر وحواليه كانت الأحصنة تعدو ، والفرسان يزعقون ، والكرابيج تصفر والغبار يتصاعد • وانعقد الغبار سحابة طارت فوق الأرض • وفاحت بقوة رائحة العرق ، ورائحة حجر الصوان ورائحة نبات الشيح المدعوس بالحوافر •

واستمر الحال على هذا المنوال حتى منتصف الطريق • كانت حوالى عشرة أحصنة لا تزال تجرى بسرعة لم يستطع الرهوان اللحاق بها • وهدأ الضجيج على جانبى الطريق ، وتقهقرت الى وراء ضوضاء الافراس المتأخرة ، ولكن حقيقة أن أفراسا أخرى

قد احتلت مكان الطليعة ، وكون أن الأعنة لم تعطه الحرية المطلقة التى يريد ، كل هذا أثار غيظ الرهوان • واقتمت الدنيا فى عينيه من الحنق والريح ، وعامت الطريق بسرعة تحت قدميه، وقد تدحرجت الشمس لملاقاته ، وهوت ككرة نارية من السماء • وتفصد العرق الحار فى كل جسمه ، وكلما ازداد تعرق الرهوان، كلما خف الأمر عليه وتعاظم نشاطه فى الجرى •

وها قد حانت تلك اللحظة ، حين جعلت الخيول العداءة تتعب وتتدهور تدريجيا فى العدو ، فيما كان الرهوان فى ذروة قواة • « تشو ، غولسارى ، تشو ! » ـ سمع صوت صاحبه، وازدادت سرعة تدحرج الشمس لملاقاته • ومضت واحدا بعد آخر وجوه الفرسان المشوهة بالغضب ، والتى أدرك غولسارى خيولهم وخلفها بعيدا وراءه ، ومضت السياط المتطايرة بسرعة خارقة فى الهواء ، وبرقت متلامعة أبواز الخيول المكشرة الساخرة • واختفت فجأة سلطة اللجام والأعنة • لم يبق لغولسارى لا سرج ولافارس ـ شىء واحد تملكه واحتدم فيه ، انه روح الركض النارية اللاهبة •

ومع ذلك ففى الأمام مضى ، جنبا الى جنب ، حصانان من أحصنة السباق العداءة ، هما الرمادى القاتم والأمغر • فكلاهما انطلقا بمنتهى السرعة ، دون أن يسبق أحدهما الآخر ، يحدوهما صراخ فارسيهما ويستحثهما سوطاهما • كانا حصانين قويين • وقد طاردهما غولسارى طويلا ، وها هو يسبقهما أخيرا فى ارتقاء المرتفع • كان قد وثب على أكمة كما لو أنه كان يثب على قمة

موجة كبيرة ، وفي لحظة ما بدا كأنه يرتفع في تحليقه ، خفيفا ، عديم الوزن . وضاقت أنفاسه في صدره ، ورشته أشعة الشمس في عينيه على نحو أكثر ألقا ، ومضى ينحدر سريعا في الطريق ، ولكن سرعان ماسمع وراءه وقع حوافر تطارده . فان ذينك الاثنين : الرمادي القاتم والأمغر ، قررا الأخذ بالثأر . وقد اقتربا من كلا الجانبين متلاصقين تقريبا ، ولم يتأخر الواحد عن الآخر ولا خطوة .

وهكذا انطلقوا ثلاثتهم ينهبون الأرض ، وقد اصطفت رؤوسهم معا ، انطلقوا ملتحمين في حركة واحدة . وبدا لغولساري أنهم الآن لا يجرون البتة ، وانما تسمروا وتجمدوا في حال عجيب من الصمت والجمود . بل كان يمكن تمييز هيئة عيون جاريه ، وخطميهما الممدودين بتوتر ، والألجمة والمقاود وقد قبضت عليها الأسنان بأحكام . وكان الحصان الرمادي القاتم ينظر بضراوة وعناد ، أما الأمغر فقد كان مضطربا ، وكانت نظراته تتزجلق ، غير واثقة ، في الجانبين . وكان هو بالذات أول من بدأ التقهقر . في البدء اختفت نظرته الآثمة ، الضالة ، ثم عام الى الوراء بوزه بمنخريه المنتفختين ، ولم يعد موجودا ، فقد اختفى . أما الحصان الرمادي القاتم فقد تخلف طويلا وعلى نحو معذب ، ممض ، كان يتهاوى ببطء في السباق ، وصارت نظرته تشبه الزجاج من فرط حقده العاجز . وهكذا مضى هو غير راغب في الاعتراف بالهزيمة .

وبدا ، بعد أن تقهقر منافساه ، بدا كما لو أن الأمر قد

سهل وخف عبؤه . أما أمام العين فكانت الأشعة المنعكسة من النهر تنفضض ، وكان المرج يخضر ، كما كان يسمع الهدير البعيد لأصوات بشرية . فلقد تبين أن أكثر الهواة تحمسا قد كمنوا يتربصون فى الطريق . وكانوا يجرون جانبا وهم يهللون بهتافات الاستحسان والتشجيع وألوان الزعيق . وهنا استشعر الحصان الرهوان الضعف فجأة فقد فعلت المسافة البعيدة فعلها . ولم يعرف غولسارى ماذا كان يجرى خلفه ، ولم يدر : ألحقوا أم لم يلحقوا به . شيء واحد ، انه لم يعد فى وسعه الجرى ، فقد خارت قواه.

ولكن هناك ، فى الأمام ، كان حشد كبير من الناس يضج ويتماوج ، وها قد انطلق الحشد ، جماعتين فرسانا ومشاة ، للقاء المتسابقين ، وصارت الصرخات أشد وأقوى . وسمع هو فجأة على نحو واضح ، متميز الهتافات : « غولسارى ، غولسارى ! » فاندفع الرهوان ، وقد أفعم جوفه بألوان الصراخ والزعيق والهتاف هذه ، كما لو أفعم بالهواء ، اندفع الى الأمام طائرا بقوة جديدة ، آه أيها الناس ، أيها الناس ! ما الذى لا يستطيعونه !

ومع الضجيج الذى لا ينقطع وصرخات الفرح والتهلل التى لا تكف ، كان غولسارى قد اجتاز ممرا داويا بين صفوف المستقبلين ، وقام بدورة فى المرج ، مخففا من سرعة جريه .

لكن ذلك لم يكن كل شيء . فالآن ، لا هو ولا صاحبه لم يعودوا ملك نفسيهما . فحين استراح الرهوان قليلا وهدأ ، كان القوم قد ابتعدوا قليلا ملتفين حلقة حول الظافر . ومن جديد دوت الهتافات : «غولسارى، غولسارى، غولسارى! » ولكن معها

دوى اسم صاحبه : « تاناباى ، تاناباى ، تاناباى ! »

ومن جديد صنع النس معجزة ما مع الرهوان • فها هو ينطلق الى الحلبة ، ابيا ومندفعا ، برأس مرفوع عاليا ، وعينين متوقدتين • لقد مضى غولسارى ، ثملا من ريح المجد ، مضى يمشى متباهيا ، متبخترا ، ومتراقصا وساعيا الى عدو جديد • لقد عرف تمام المعرفة أنه جميل ، وجبار ، ومشهور •

وطاف تاناباى حول الناس ومر بهم جميعا ، وهو يرفع يدى الظافر مبسوطتين ، ومن جديد ضج ، من كل حدب وصوب صوت التيريك الوحيد « آمين ! » ومن جديد ارتفعت مئات الأيدى الى الجباه ، وأمر بالراحات على الوجوه ، مثل تيارات ماء جارية •

ولحظ الحصان هنا فجأة ، وبين وجوه كثيرة امرأة يعرفها • لقد تعرف عليها فى الحال ، حين أسدلت راحتيها ، بالرغم من أنها فى هذه المرة لم تكن فى شالها القاتم اللون ، وانما فى منديل أبيض • كانت واقفة فى الصف الأول من الحشد سعيدة وجذلة ، وكانت تنظر اليهما ، دون أن تحول عينيها عنهما ، تنظر بعينين مشرقتين ، مثل حجرين فى شلال مشمس • فتاق اليها غولسارى كعادته ، لكى يقف بجنبها ، ومن أجل أن يحدثها صاحبه ، ولأجل أن تحك له هى عفرته ، بيديها الرائعتين ، اللدنتين ، الساحرتين مثل شفتى تلك المهرة الكميت ذات النجمة فى جبينها • لكن تاناباى لسبب ما لم يحول المقود تجاهها وانما أخذ به الى طرف آخر ، فكان الرهوان يدور باستمرار ويريد أن ينطلق اليها ،

غير فاهم نية صاحبه • ترى أفلم يلاحظ صاحبه ، أن هناك تقف تلك المرأة التى كان يجب عليه بالتأكيد التحدث معها ؟ ••

أما اليوم الثانى ، أعنى ثانى أيار ، فقد كان أيضا يوم غولسارى • وفى هذه المرة ، وعند منتصف النهار ، لعبوا لعبة « خطف العنز » — فى رقعة من الأرض خاصة فى السهب • وهذه اللعبة هى شكل خاص من لعب كرة القدم على ظهور الخيل ، والذى تحل محل الكرة فيه جثة عنز بلا رأس • فالعنز مناسب فى هذه اللعبة لأنه يملك شعرا طويلا ، ومتينا ، ويمكن اختطافه من على ظهور الخيل بجذبه من قدمه أو جلده •

ومن جديد امتلأ السهب بالصيحات القديمة ، ومن جديد هدرت الأرض بصوت كقرع الطبول • وكان هواة سباق وألعاب الخيل قد تجمعوا تيارا ضاجا بالزعيق والهتاف حوم حول اللاعبين• ومرة أخرى كان البطل هنا هو غولسارى • وفى هذه المرة صار فى الحال ، وقد أحيط بضياء المجد ، أقوى مساهم فى اللعبة • وعلى كل حال ، فان تاناباى احتفظ به وادخره الى النهاية الى لعبة « ألمان — بايغا » ، حين يعطى السماح للمناوشة الحرة: وهنا ، فمن هو ماهر وسريع الحركة ، فانه هو الذى سيلتقف العنز الى قريته • كان الجميع ينتظرون « ألمان — بايغا » ، ذلك لأنها هى ذروة المباريات ، ولأن فيها بالذات يملك كل فارس الحق فى المشاركة • وكان كل يريد تجريب حظه •

وفى ذلك الوقت كانت شمس نوار قد حطت بتثاقل على الطرف الكازاخى البعيد • وكانت مثل مح البيض ، الثخين والمحدب • فكان يمكن التطلع اليها ، دون تضييق العينين •

وكان القرغيز والكازاخ يلعبون حتى غاية المساء ، متدلين من السروج ، ملتقطين فى الجرى جثة العنز ، مختطفينها الواحد من الآخر ، متألبين جمهورا ضاجا ، ليتدفقوا من جديد بصراخهم فى ميدان اللعبة •

وليس الا حينما مرقت فى السهب الظلال الطويلة ، الملونة كان الشيوخ قد سمحوا ، أخيرا ، باجراء لعبة « ألمان ـ بايغا » • كان العنز قد رمى فى الحلقة • وانطلق الهتاف « ألمان ! ••• »

انقذف الفرسان من كافة الجوانب والأطراف ، واحتشدوا محاولين اختطاف جثة العنز من الأرض • لكن القيام بذلك وسط الزحام ليس بالأمر السهل على أية حال • فكانت الخيول تدور مبهوتة ، وتعاضت ، وكشرت عن أسنانها • وقد أضنى هذا غونساری ايما اضناء ، كان بوده أن ينطلق الى الفضاء الرحب، على أن تانابای لم يستطع بعد أن يحتاز العنز • وفجأة دوى صوت حاد : « أمسكه ، لقد أخذه الكازاخ ! » ومن دورات الخيول أفلت شاب كازاخى فى قميص ممزق على حصان بنى فاتح ، متوحش • وانقذف بعيدا وهو يجر تحت قدمه ، تحت الركاب جثة العنز •

ـ أمسكوه ! امسك هذا البنى الفاتح ! ـ بدأ الجميع الصراخ ، مندفعين فى المطاردة ، ـ أسرع ، يا تانابای ، فانك

الوحيد الذى يستطيع اللحاق به !

كان الكازاخى على الحصان البنى الفاتح قد انطلق توا بالعنز المتدلى تحت الركاب ، الى هناك ، حيث تضرجت الشمس الغاربة . وبدا كما لو أنه بعد فترة قصيرة سيصل طائرا الى هذه الشمس الملتهبة ليتلاشى هناك دخانا أحمر .

لم يفهم غولسارى لماذا يمسك به تاناباى ويصده . ولكن هذا كان يعرف أنه يلزم منح الفارس الكازاخى فرصة الأفلات من مجموع الفرسان الذين يطاردونه ، والمضى أبعد من حشد مواطنيه الذين كانوا قد أسرعوا اليه لمساعدته . فما ان يطوقوا الحصان البنى الفاتح بطوق ، حتى لا يستطيع أى وبأيما قوة اختطاف الغنيمة المفلتة ، المستلبة . وليس الا فى القتال الفردى كان يمكن التأميل على نجاح ما .

وبعد أن انتظر تاناباى تصرم الوقت اللازم ، أطلق الحصان بكل قوته . وانبطح غولسارى طائرا على الأرض الهاربة تحت الشمس ، وسرعان ما تقهقر وطء السنابك والأصوات الى الخلف ، وجعلت ضجتها تبتعد تماما ، فيما كانت تقصر المسافة الى الحصان البنى الفاتح. وكان ذلك ماضيا ينوء بعبء ثقيل ، فكان اللحاق به ليس بالأمر الصعب . ووجه تاناباى الرهوان الى الجانب الأيمن من الحصان البنى الفاتح . وكانت جثة العنز معلقة ، تضغطها قدم الفارس على جانب الحصان الأيمن . وها هما يتحاذيان ، فانحنى تاناباى من على السرج، لكى يختطف العنز من قائمته وينقله الى جانبه . لكن الكازاخى

نقل الغنيمة بمهـارة من الجـانب الأيمن الى الأيسر • أما الحصانان فما برحا ينهبان الأرض قاصـدين ناحية الشمس مباشرة • والآن صار يلزم تانابای التقهقر قليلا من أجل أن يلحق بالكازاخى من جديد وفى هذه المرة من ناحيته اليسرى • وكان صعبا أن يجعل الرهوان أن يتأخر عن الحصان البنى الفاتح ولكن مع ذلك وفق تانابای فى القيام بهـذه المناورة ، ومن جديد أفلح الكازاخى فى القميص الممزق ، فى أن ينقل العنز الى الجانب الآخر •

ــ شاطر ! ــ هتف تانابای بحمية •

أما الحصانان فكانا لا يزالات منطلقين صوب الشمس •

ولم يكن ثمة مبرر للمضى فى المخـاطرة • فلز تانابای رهوانه لصق الحصان البنى الفاتح تقريبا ، وهوى بصـدره على قربوس سرج جاره • وحاول ذلك الابتعاد ، لكن تانابای لم يفلته • وكانت مرونة الرهوان وسرعة حركته قد سمحتا له بالاضطجاع تقريبا على رقبة الحصان البنى الفاتح • وهكذا بلغ هو جثة العنز وجعل يجذبها جذبا الى ناحيته • وكان أسهل عليه العمل من الناحية اليمنى ، والى ذلك فان كلتا يديه كانتا حرتين • وها هو قد وفق لجذب حوالى نصف العنـز الى ناحيتـه •

ــ تماسـك الآن ، أيهـا الأخ الكازاخى ! ــ هتف فيه تانابای •

ـ تماسك الآن ، أيها الأخ الكازاخى ! ـ هتف فيه الآخر •

وابتدأ الصراع فى العدو السريع • وها هما وقد اشتبكا مثل نسرين يصطرعان على غنيمة واحدة ، وجعلا يصرخان بأشد الصراخ ، وبح صوتاهما وزأرا مثل الوحوش ، وقد أراد كل منهما القاء الرعب فى قلب الآخر ، وتشابكت أيديهما ، وتفصد الدم من تحت الأظافر • أما الحصانان ، وقد توحدا بالاشتباك الفردى لفارسيهما ، فقد انطلقا ينهبان الأرض فى حقد ، مستعجلين ادراك الشمس المتضرجة •

بورك الأجداد الذين خلفوا لنا ألعاب الرجال المقدامين هذه !

كانت جثة العنز الآن بينهما ، وقد أمسك كلاهما بها الى الأسفل فى وضع معلق بين الحصانين الرامحين • واقتربت الخاتمة • كانا يشدان العنز كل الى ناحيته ، صامتين ، كازين الأسنان ، موترين كل قواهما ، وحاول كل أن يضغط بها تحت قدمه ، من أجل أن ينفصل فيما بعد ، ويمضى بها جانبا • وكان الكازاخى قويا • كانت يداه ضخمتين ، قويتين ، والى ذلك فقد كان أفتى بكثير من تاناباى • لكن التجربة أمر كبير • وها هو تاناباى قد حرر قدمه اليمنى من الركاب ، على دون توقع ، وركزها متكئا على جنب الحصان البنى الفاتح • وكان وهو يجتذب العنز الى صوبه ، كان يدفع ، فى ذات الوقت ، حصان غريمه بقدمه ، وما لبثت أصابع يد الكازاخى ان انفرجت ببطء •

ـ بالك ! ـ أفلح المهزوم فى تحذيره •

ومن الدفعة الحادة كاد تانابای يطير من السرج ، ولكنه تماسك مع ذلك • وند الهتاف المتهلل بالفوز من صدره • وانطلق الى أمام ، وقد استدار برهوانه بقوة ، وهو يضغط تحت الركاب بالغنيمة التى اغتنمها فى مبارزة شريفة • أما لملاقاته فقد طار حشد من الفرسان الهاتفين :

ـ غولسارى ! غولسارى أخذها !

وانقذف الكازاخ جماعة كبيرة لقطع الطريق عليه •

ـ ايبای ، صده ، أمسك تانابای !

والآن فالقضية الأساسية انما كانت هى تجنب قاطعى الطريق والسعى لكى يحيطه الفرسان من سكان قريته بستار حاجز •

واستدار تانابای بالرهوان بحدة ، من جديد ، منطلقا الى جانب، بعيدا عن قاطعى الطريق عليه • «شكرا لك، يا غولسارى، شكرا لك ياحبيبى ، أيها الذكى ! » ـ كان هو يشكر رهوانه فى سره، حين كان هذا يزوغ، ملتقطا أبسط انحراف فى حركة جسمه، يزوغ من المطاردة ، مرتميا الى هذا الجانب أو ذاك •

تملص الرهوان ، وهو يكاد يلتصق بالأرض . طالعا من دورة حادة ، ومضى فى خط مستقيم • وهنا اقترب منه ذووه، والتحقوا به مصطفين على كلا جانبيه ، وحموه من مؤخرته ، ومضوا جميعا كومة ملتحمة مولين الأدبار • وعلى كل حال فان المطاردين انعطفوا من جديد الى قطع الطريق عليه • وكان يتعين عليه ، ثانية ، الاستدارة للهروب من جديد • ومثل

أسراب الطيور السريعة الطيران ، التى تنقلب أثناء الطيران من جنح الى جنح ، كان قد انقذف فى السهب الفارون ومطاردوهم من حشود الفرسان • وفى الهواء تصاعد الغبار متضفرا ، ودوت الأصوات المتنافرة ، ووقع أحدهم مع حصانه ، وطار آخر عبر رأس حصانه ، وصار آخر ثالث يعرج لاحقا بحصانه ، ولكن الجميع بقضهم وقضيضهم كانوا مأخوذين بحماس المباراة وحميتها • وفى اللعب لا يسأل أحد عن شىء • فعند المخاطرة والجسارة أم واحدة •••

كانت الشمس تتطلع الى الأرض من طرف واحد فحسب• وقد بدأ الغسق ينشر جناحيه ، أما لعبة « ألمان – بايغا » فكانت لا تزال تدور فى زرقة برد المساء ، وهى تهز الأرض هزا بسنابك الخيول • ولم يعد أحد يصرخ ، ولم يعد أحد يطارد آخر ، ولكن الجميع واصلوا الجرى منجذبين بحميا الحركة ، مسحورين بها • كانت الحشود فى جبهة السباق تترنح مثل موجة قاتمة من يفاع الى يفاع على هدى من سلطة الايقاع وموسيقى الجرى • أو ليس من جراء هذا كانت وجوه الفرسان صموتة مستغرقة ، أو ليس هذا بالذات هو الذى أولد الأصوات الهـادرة لآلة « الدمبرا » * الكازاخية ولآلة « الكوموز » القرغيزية ! ••

* « الدمبرا » و « الكوموز » آلتان موسيقيتان

وها هم قد اقتربوا من النهر . وكان هذا يتألق بفتور وراء الخمائل المظلمة . ولم يتبق الا القليل . فوراء النهر كانت نهاية اللعب . فهناك القرية . وكان تاناباى ومن أحاط به كانوا كلهم قد وثبوا كومة متراصة . وكان غولسارى يعدو ، فى وسط الأحصنة كسفينة رئيسية ، تحت الحماية .

ولكن ها هو قد تعب ، تعب جدا ــ فقد كان ذلك اليوم بالغ الصعوبة . وقد أنهكت قوى الرهوان . فكان فارسان يعدوان على جانبيه ، كانا يجذبانه من لجامه وقد يدفعان به دون أن يسمحا له بالوقوع . أما الآخرون فقد غطوا تاناباى من المؤخرة وعلى كلا جانبيه على الميمنة وعلى الميسرة . أما هو فقد رقد بصدره متكئا على جثة العنز ، المرمية أمام السرج . وكان رأس تاناباى يترنح ، وهو بالكاد يتماسك على صهوة الرهوان . ولو لم يكن الفرسان بجنبه ، لما كان لا هو نفسه ولا حصانه فى حال تسمح بالتحرك الى أمام . هكذا ، كما يبدو ، كانوا يعدون من قبل بالغنائم ، وهكذا ، على الأرجح ، كانوا ينقذون من الأسر القائد الشجاع الجريح ...

ها هو النهر ، ها هو المرج ، وها هى المخاضة الواسعة المفروش قاعها بالحصباء . ولا زالت مرئية فى الظلمة .

ارتمى الفرسان من الطريق الى النهر . وصار النهر من جراء ذلك يغلي ويلغط مزبدا . وخلال سحابات رذاذ الماء المتطاير وطقطقة النعال التى تصم الآذان عبر الفرسان بالرهوان الى الضفة الأخرى . انتهى كل شيء ! انه النصر !

وانتزع أحد المواطنين جثة العنز من سرج تاناباى وعدا بها الى القرية •
وبقى الكازاخ فى الجانب الآخـر •
ــ شكرا لكم على اللعب ! ــ هتف فيهم القرغيز •
ــ لكم العافية ، وليحالفكم التوفيق ! سنلتقى فى الخريف! ــ أجاب أولئـك واسـتداروا بخيـولهم الى الوراء ، وقفلوا راجعين •

اقتم الجو جدا • كان تاناباى ، اذ ذاك ، قد حل ضـيفا مدعوا ، أما الرهوان فقد وقف سوية مع الأفراس الأخرى فى فناء الدار فى المربط • لم يتعب غولسارى ولا مرة مثل هـذا التعب ، ربما كان ذلك معـادلا لما عاناه فى اليوم الأول من ترويضه • ولكن آنذاك كان هو كعود رفيع هش بالمقارنة مع ما أصبح عليه الآن • وفى البيت كان الحديث قد انعقد عنه •
ــ فلنشرب ، ياتاناباى ، نخب غولسارى : لو لم يكن هو ، لما تيسر لنا احراز النصر اليوم •
ــ أجل ، كم كان قويا هذا الحصان ، البنى الفاتح كأنه أسد • وفارسه الفتى كان قويا أيضا • انه سيحقق الكثير من البطولات عندهم •
ــ هذا صحيح • ولكن لا زال ماثلا أمام عينى كيف كان غولسارى يزوغ من قاطعى الطريق عليه ، انه ينطرح تماما على

الأرض كأنه العشب . وانه ليأسر روح المرء ، وهو يراه في هذه الحال .

ـ أجل فقد كان ينبغي للفرسان في سالف الأزمان أن يشنوا غاراتهم على مثل هذا الحصان . انه ليس حصانا ، انما هو وثاب اسطوري .

ـ تانابای ، متى ستسمح له بالمضى الى الافراس ؟

ـ انه منـذ الآن يطـاردهن ، ولكنى أرى أن الوقت مازال مبكرا لاطلاقه اليهن . ففي الربيع القادم سيكون الوقت مناسبا تماما . وفي هذا الخريف سأدعه يرعى ما يشاء ، كي ينمـو بدنه ويقـوى ...

كان الناس الثملون قد جلسوا طويلا ، يتجاذبون أطراف الحديث ويحكون بالتفصيل عن مسابقة « ألمان ـ بايغا » وعن مميزات الرهوان وسر قوته ، أما هو فكان واقفا في الفناء ، يقضم لجام الحديد ، فيما كان عرقه يجف . كان عليه أن يقف جائعا حتى الفجر . ولكن الجوع لم يضـايقه . انما كانت أمور أخرى تضايقه ، فكتفاه كانتا تؤلمانه ، وقد كلت أقدامه حتى لم يعد يشعر بوجودها من فرط ما أصـابها من تعب ونصـب ، واحترقت حوافره من الحرارة ، أما رأسه فكان لا يزال يضج بدوى المسابقة المرهقة . كانت لاتزال تتخاطف أمام أنظاره صور المطاردة ، وألوان الصراخ . فكان ينتفض ، بين آونة وأخرى ، ويشخر ، وينصب أذنيه . كان بوده أن يهوى في العشب ،

ويروح نفسه ، ويجول بين الأفراس فى المرتع • لكن صاحبه كان قد تأخر •

وعلى أية حال ، فسرعان ما خرج صاحبه ، وهو يترنح بعض الشيء ، فى الظلمة • كانت تفوح منه رائحة ما حادة ، حارقة • وكان هذا يحدث له نادرا • وسينصرم عام ، وسيكون على الرهوان أن يلتقى بانسان آخر ، تفوح هذه الرائحة منه أبدا • وسيمقت هذا الانسان وهذه الرائحة المقرفة •

اقترب تاناباى من الرهوان ، وجعـل يربت على حارك عنقه ، ثم دس يده صوب الحلس :

ــ أبردت شـيئا ؟ تعبت ؟ أنا أيضا تعبت تعبا ممضا • أما أنت فلا تزور منى ، أجل شربت قليلا ، انما على شرفك • انه عيد • ومع ذلك فهذا قليل • اننى أعرف طاقتى ، فلتعرف أنت هذا • حتى فى الجبهة كنت معتدلا • دع عنك هذا ، لا تزور ! فلنمض الآن الى القطيع ، ونسترح •••

وشد صاحبه أحزمة السرج ، وتحدث مع أناس آخرين ، كانوا قـد خرجوا من البيت ، وارتقى الجميع ظهور خيولهم ، وافترقوا كل الى جهته •

وارتحل تاناباى فى شوارع القرية النائمة • كان الهدوء يسود الجوار ، ويستحوذ على كل ماهو حوله • وكانت النوافذ مظلمة • وقد ترامى الى سمعه صدى واهن لهدير تراكتور فى الحقل • وكان القمر قد أطل واقفا فوق الجبال ، وفى الحدائق ابيضت شجرات التفـاح المزهرة ، وفى مكان ما انخرط بلبل

يصدح • ولسبب ما كان هو واحدا فى القرية كلها • لقد شدا، مستمعا الى نفسه ، وصـــمت ، ثم ما لبث أن أقبل من جديد يزقزق ويصفر •

وأوقف تاناباى حصانه برهة •

ـ أى جمـــال ! ـ قال هو بصـــوت جهير ـ ويا للهدوء الساحر ! ليس الا البلبل يترنم • أتفهم يا غولسارى ؟ كيف لك ان تفهم ؟ ان أفكارك فى القطيع ، أما أنا •••

ومرا بورشـــة الحدادة ، ومن هنا كان يلزم الرحيل فى الشارع الأقصى الى النهر ، أما من هناك ـ فالى القطعان • ولكن صاحبه لسبب ما جر به الى الجـانب الآخر • لقد ارتحل فى الشارع الوسطى ، وفى نهايته توقف جنب ذلك الحوش ، حيث كانت تقطن تلك المرأة • وهرع كلب صغير ، كان غالبا ما يركض مع البنية ، هرع ينبح وما لبث ان صمت وهو يحرك ذنبه • وصمت صاحب غولسارى على صهوته ، فقد كان يفكر فى شيء ، ثم تنهد ، ومس المقود بتردد •

ومضى الرهوان أبعد • وانعطف تاناباى به أسفل الى النهر، وحثه بعد ان خرجا الى الطريق • وكان بود غولسارى نفسه أن يسرع فى السير ليبلغ المرتع • ومضيا عبر المرج • ها هو النهر ، وطبعت الحداوى آثارها على الشاطيء •

كان الماء باردا ومجلجلا • وفجأة فى وسط المخاضة ، جذب صاحبه الاعنة بحدة ، واستدار بقوة الى الوراء • وهز غولسارى رأسه مفكرا ، ان صاحبه انما قد أخطأ ليس الا •

فلا ينبغى عليهما الرجوع الى الخلف • ثم كم يمكن للانسان أن يرتحل ؟ ولكن صاحبه ساطه ، كجواب ، بسوط فى جنبه• ولم يكن غولسارى يحب أن يضرب • وخضع ، قاضما اللجام بانزعاج ، لنزوة صاحبه على مضض ورجع الى الوراء • ومن جديد مضيا عبر المرج • من جديد فى الطريق ، من جديد الى ذلك الفناء •

وعند البيت أخذ صاحبه يتململ ثانية فى السرج ، وصار يجذب شكيمته تارة الى هنا ، وطورا الى هناك ، فلا تفهم ماذا يريد بالذات • وتوقفا عند البوابة • وعلى أية حال فلم تكن ثمة بوابة • اذ لم يتبق منها سوى أوتاد متقلقلة ، منحرفة الى جانب• ومرة أخرى هرع الكلب ، ونبح وصمت ، وهو يحرك ذنبه • وكان الهدوء والظلام يعمان البيت •

وترجل تاناباى من السرج ، ومضى فى الفناء ، وهو يقود الحصان الرهوان بمقاوده ، وما ان اقترب من الشباك حتى نقر بأصبعه على الزجاج •

ــ من هناك ؟ ــ دوى صوت من الداخل •

ــ هذا هو أنا ، بوبوجان ، افتحى • هل تسمعينى ، أنا !

واشتعل فى البيت مصباح ، أنار الشبابيك بفتور وعلى نحو كاب •

ــ ماذا بك ؟ من أى مكان جئت فى هذا الوقت المتأخر ؟

ــ ظهرت بوبوجان فى الباب • كانت فى فستانها الأبيض بياقة مفتوحة الأزرار • وكان شعرها الفاحم قد تناثر على كتفيها •

وكان بدنها يفوح بعبق دافىء ، وبتلك الرائحة السحرية لعشب غير معروف •

ـ سامحيني ، ـ قالها تانابای بصوت خفيض ، ـ من مسابقة « ألمان ـ بايغا » وصلنا متأخرين • وقد تعبت تماما • أما الحصان فقد أنهك غاية الانهاك • ينبغي أخذه للاستراحة ، ولكن المسافة بعيدة الى القطيع • أنت نفسك تعرفين ذلك •

وصمتت بوبوجان برهة •

والتهبت عيناها وانطفأتا ، مثل أحجار في قاع مورد منار بضوء القمر • كان الرهوان ينتظر أن تأتي وتربت على رقبته ، ولكنها لم تفعل ذلك •

ـ برد ، ـ ارتعدت كتفا بوبوجان ـ حسنا ، ولماذا تقف؟ تعال ، مادام الأمر كذلك • يا لك من ماكر ، لقد اخترعت شيئا ! ـ ضحكت هي بهدوء ـ لقد تعذبت تماما أنا نفسي . فيما كنت تجول هنا بحصانك • لكأنك صبي •

ـ سأجيء الآن • سأربط الحصان •

ـ اربطه هناك في الركن عند السياج •

لم ترتجف يدا صاحبه قط ، كما ارتجفتا مثل هذه المرة • كان مستعجلا ، وهو ينزع اللجام ، وانشغل طويلا بحزامي السرج • وخفف من وثاق الحزام أما الآخر فقد سهاه على حاله •

ومضى سوية معها ، وسرعان ما انطفأ النور في النوافذ •

لم يتعود الحصان الرهوان الوقوف في فناء دار لا يعرفه •

وكان القمر ينور بكامل قوته • ورأى غولساري ، وهو

يرفع طرفه فوق السياج رأى الجبال فى الليل شامخة فى العلاء، وهى تسبح فى ألق حليبى مزرق • وجعل يستمع ، وقد أرهف أذنيه تماما • كان الماء يخر فى الساقية • وفى البعيد كان ذات التراكتور لا يزال يهدر فى الحقل ، كما كان ذات البلبل الوحيد يصدح فى الحدائق •

ومن أغصان شجرة التفاح المجاورة كانت تتهاوى البتلات البيضاء ، فكانت تقع دون ضجيج على رأس الحصان وعفرته •

وكان الليل قد بدأ يرفع جناحيه • كان الرهوان واقفا يراوح قدميه . وهو يحول ثقل الجسم من قدم لأخرى ، كان واقفا ينتظر صاحبه بكل صبر • لم يكن يعرف انه سيلزمه فى المستقبل الوقوف هنا مرات عديدة منتظرا طوال الليل حتى الصباح •

خرج تاناباى عند الفجر ، وشرع يلجم غولسارى بيدين دفيئتين • والآن حتى يداه هو صارتا تفوحان بتلك الرائحة السحرية لذلك العشب الذى لم يعرفه •

وخرجت بوبوجان لتودع تاناباى • والتصقت به ، وقبلها طويلا • ــ وخزتنى بشواربك ــ همست له • ــ استعجل ، أفلا ترى ان الدنيا نور تماما • ــ واستدارت لتمضى •

ــ بوبيو ، تعالى هنا ، ــ دعاها تاناباى • ــ ربتى عليه، داعبيه ، ــ أومأ برأسه الى الرهوان • ــ لا ينبغى ان تزعلينا !

ــ أوه ، نعم ، لقد نسيت ، ــ ضحكت هى • ــ انظر ، انه كله قد غرق فى زهور التفاح • ــ وجعلت وهى تتلفظ

بكلمات المداعبة الرقيقة ، تربت الحصان بيديها العجيبتين اللدنتين والمرهفتين ، مثل شفتى تلك المهرة الكميت ذات النجمة فى جبينهـــا ...

ووراء النهر انطلق صاحبه يغنى . كان المضى بمصاحبة أغنيته رائعا مسرا ، وكان بود غولسارى لو أسرع فى بلوغ القطعان ليرتع معها .

لقد حالف تاناباى التوفيق فى ليـــالى نوار هذه . فهنا بالضبط جاء دوره فى الرعى الليلى . وعند الرهوان أيضا ابتدأ شكل ما من أشكال الحياة الليلية . ففى النهـــار كان يرعى ، ويستريح ، وليلا بعد أن يسوق صاحبه القطيع الى الوهدة ، كان ينطلق على ظهره ثانية الى هناك ، الى ذلك الفناء ذاته . وعند الفجر ، وآثار الظلام ما تزال لم تنجل بعد ، كان ينطلقان من جديد، مثل سراق الخيل، فى الممرات السهبية غير الملحوظة، الى الخيول التى تركت فى الوهدة . وهنا كان صاحبه يجمع القطيع فى مكان واحد ، ويعد الخيل ويهدأ أخيرا . كانت حال الرهوان صعبة عانى منها الكثير . فقد كان صاحبه يسرع الى كلتا غايتيه ، فى طريق الذهاب وطريق الاياب ، لكن الجرى ليلا فى الطرق الرديئة الوعرة لم يكن ســـــهلا بحال . ولكن هكذا كانت مشـــيئة ســيده .

كان بود غولسارى أن يفعل أمرا آخر . فلو كان يتمتع بحريته حقا لما انفصل بحال من القطيع . فلقد نضجت فحولته واشتد عودها . وهو لا زال الى الآن قد واءم حصان القطيع

الضخم . ولكن مع كل يوم جديد كان يصطدم به أكثر ، وهما يداوران فرسا واحدة بالذات . وقد جعل يثنى رقبته أكثر فأكثر، ويرفع ذيله عموديا مثل أنبوب ، ويتظاهر أمام القطيع . وكان يصهل على نحو رنان ، ويتهيج ، وينقض على الأفراس يعضها فى أفخاذها . بدأ كما لو أن هذا الأمر يعجبهن ، فكن ينزعن اليه ويلتصقن به ، مثيرات بذلك غيرة حصان القطيع الضخم . وقد عانى الرهوان الأمرين جراء ذلك ، فقد كان هذا الحصان عربيدا عجوزا شرسا . وعلى أية حال ، فلقد كان الأفضل ، فيما يراه هو ، ان يتقاتل مع هذا الحصان ويكر ويفر منـــه ، من ان يمكث فى الفناء هناك طوال الليل . فقد كان هنا يحن الى الأفراس ويشتاقهن بكل جوارحه . فكان يتململ ويدور فى مكانه ، ويقرع الأرض بحوافره ولا يهدأ الا بعد ذلك . من يعرف ، كم كانت ستطول هذه الرحلات الليلية ، لو لم يكن ذلك الحادث ...

ففى تلك الليلة كان الحصان الرهوان يقف كالعادة فى الفناء ، يحن الى القطيع ، وهو ينتظر صاحبه ، وها قد بدأ ينعس . وكانت مقاود الاعنة قد ربطت عاليا الى عارضة فى طرف السقف . ومثل هذا الوضع لم يسمح له بالرقود : ففى كل مرة كان رأسه ينحنى فيها كان اللجام ينغرز بلهاة الفم . ومع ذلك فقد كان يلح به داعى الكرى . وكان الجو مربدا ، والسحب تلبد السماء .

وفجأة سمع غولسارى عبر تهويماته ، واغفاءاته ، سمع

الأشجار تضج وتهتز ، كما لو ان أحدا قد انقض عليها فجأة وجعل يهزها ويجندلها • وكانت الريح القوية تسوط الفناء وتعصف به ، وقد دحرجت بجلبة عظيمة محلابا فارغا ، اطارت الملابس المغسولة من الحبل • وبدأ الكليب يعوى بصوت خافت، ويندفع جيئة وذهابا ، دون ان يعرف الى أين يلتجىء • وشخر الحصان فى حنق ، وتسمر ، منصبا أذنيه • واذ رمى برأسه فوق السياج ، جعل ينظر على نحو راكز فى الظلمات المتكاثفة على نحو غير مفهوم ، الى هناك ، صوب السهب ، من حيث اقترب مصحوبا بالرعد شىء ما رهيب • وفى اللحظة التالية كان الليل قد بدأ يقرقع ، مثل غابة هاوية ، وزأر الرعد وهزم ، وخطط البرق السحب • وتدفق وابل المطر الغزير • فانقذف الرهوان من مربطه ، كما لو أنه قد سيط بسوط ، وجعل يصهل مستميتا من الرعب والخشية على قطيعه • فلقد استيقظت فى ذاته الغريزة الأبدية للدفاع عن بنى جنسه من الخطر • لقد دعته هذه الغريزة الى هناك للمساعدة • فانتفض ، وقد جن ، ضد الالجمة ، وضد الاعنة ، وضد الحبل المبروم من الشعر ، ضد كل شىء أمسك به وثيقا وحبسه هنا • وجعل يتقلب ، ويحرث الأرض بحوافره ، وشرع يصهل دون انقطاع بأمل أن يسمع صراخات القطيع جوابا • ولكن لم يكن هناك شىء سوى العاصفة تصفر وتعول • آه ، لو أتيح له آنذاك أن يتحرر مما يربطه ! ••

وخرج صاحبه واثبا فى ثوب داخلى أبيض ، وخلفه امرأة

فى رداء أبيض أيضا • وفى لحظة اقتم لونهما تحت المطر • وفى وجهيهما البليلين وعيونهما المرعوبة ومض شـعاع أزرق ونور قسم البيت والباب الذى جعل يصفق فى الريح •

ــ قف ، قف ! ــ طفق تانابای يصرخ فى الحصان ، منتويا ان يحل وثاقه • لكن هذا صار لا يعترف به • وانقذف عليه كالوحش ، وجعل يهدم السياج بحوافره وهو لا يزال يناضل ويصارع وثاقه • فتسلل تانابای اليه ، ملتصقا بالحائط ، ووثب الى أمام ، مغطيا رأسه بيديه ، وتعلق بأعنته •

ــ حليه سريعا ! ــ صرخ فى المرأة •

حتى اذا أفلحت هذه بالكاد فى أن تحل حبل الشعر ، كان الرهوان قد شب على عقبيه ، وجر تانابای فى الفناء •

ــ اسرعى بالسوط !

وعدت بوبوجان تبحث عن السوط •

ــ قف ، توقف ، قف ، والا أقتلك ! ــ كان تانابای يصرخ فى الحصان ، وهو يوالى سوطه بسعار فى خطمه • كان يلزمه الآن ارتقاء السرج ، وان يطير طيرانا الى القطيع • ما هناك ؟ الى أين طرد الأعصار الخيول ؟

على ان الحصان الرهوان بدوره كان يريد أيضا الطيران الى هناك ، الى القطيع ، دون ابطاء ، فى هذه الدقيقة بالذات ، الطيران الى هناك ، الى حيث دعاه سلطان الغريزة الجبار فى هذه الساعة الرهيبة • وهو لذلك كان يصهل ، ولذلك كان يشب على عقبيه ، ولذلك أيضا كان يريد الانطلاق من هنا •

لكن المطر هطل مدرارا ، وقصف الرعد مجنونا ، وهو يهز بهديره الليل الذى احتدم سعاره •

ــ امسكيه ! ــ أمر تاناباى بوبوجان ، حتى اذا قبضت هذه على اللجام، كان هو قد استوى على السرج • وما أن استقر على صهوة الرهوان بالكاد ، ممسكا بعفرته متشبثا بها ، حتى أن غولسارى قد انطلق على التو من الفناء ، مطوحا بالمرأة التى كانت تمسكه وقاذفا بها فى بركة المطر •

انطلق غولسارى ينهب الأرض نهبا ، دون ان يخضع لا لسلطة الألجمة ، ولا للسوط ، ولا للصراخ ، انطلق عبر الليل العاصف ، عبر الوابل المنهمر ، متلمسا الطريق بحسه ليس الا • وحمل صاحبه المجرد من السلطة الآن عبر النهر الهائج ، عبر هزيم الرعد وهدير الماء ، عبر خمائل الشجيرات ، عبر الخنادق ، عبر الوهاد ، وانطلق على هواه دون أن يصده صاد، انطلق الى أمام دون توقف • لم يركض غولسارى بهذا الشكل ولا مرة واحدة لحد الآن ، لا فى المسابقة الكبيرة ، ولا فى مباراة « ألمان ــ بايغا » ، ولا فى أية مناسبة أخرى ، لم يركض غولسارى كما ركض فى هذه الليلة الأعصارية •

ولم يكن تاناباى يدرى كيف والى أين حمله رهوانه المتعفرت• وقد تراءى اه المطر لهبا حارقا، يلفح الوجه والجسد• وليس الا فكرة واحدة شغلت لبه : « ما دهى القطيع الآن ؟ أين هى الخيول فى هذه اللحظة؟ هل انطلقت، لا سامح الله ولا قدر، فى الوادى الى السكة الحديد ؟ انها اذن لكارثة ! فلتساعدنى،

يا الله ، فلتساعدنى ! أعينونى أنتم يا أرواح الأجداد ، أين أنتم ؟ لا تقع يا غولسارى ، لا تقع ! خذنى الى السهب ، الى هناك ، الى القطيع ! »

أما فى السهب فكان الوميض الساطع يعصف عصفا ، وهو يعمى عين الليل بلهيبه الأبيض • ومن جديد كان الدجى يطبق، وتحتدم العاصفة ، ويلفح المطر وجه الريح •

كان الجو ينور تارة ، وتارة أخرى يظلم ، طورا ينور ، ليظلم طورا آخر •••

وكان الحصان الرهوان يشب على عقبيه ويصهل ، ممزقا فمه • كان يدعو ، ويستدعى ، ويبحث ، وينتظر • « أين أنتم ؟ أين أنتم ؟ أجيبوا ! » وجوابا له هدرت السماء ، ــ وها هو من جديد منخرط فى الجرى الجنونى ، فى البحث ، فى وجه العاصفة •••

تارة نور وتارة أخرى ظلام ، طورا تنور ، وتظلم طورا آخر •••

ولم تهدأ العاصفة الا قبيل الصباح حيث تقشعت الغيــوم تدريجيا ، لكن الرعد ما برح يدوى فى الشرق دون أن يهدأ ــ فكان يهر ، ويعصف ، ويشــتد بين آونة وأخرى • وما لبث الضباب ان انعقد سحبا فوق الأرض المعذبة ، المخربة •

وكان عدد من الرعاة قد تبددوا فى الأرض المجــاورة ، يجمعون الخيول الشاردة •

أما تاناباى فقد بحثت عنه زوجته • بالأحرى لم تبحث عنه،

وانما انتظرته • كانت منذ الليل قد انطلقت مع الجيران ، على ظهور الخيل ، لمساعدة زوجها • وقد وجدوا القطيع وأوقفوه في مكانه • أما تاناباى فلم يكن موجودا • فتصوروا انه ضاع • لكنها وحدها كانت تعرف انه لم يضع • وحين صاح فتى من الجيران بجذل : «ها هو، يا جايدار — آبا ، ها هو قد جاءنا !»، وخف اليه لملاقاته ، فان جايدار لم تبارح مكانها • كانت تنظر صامتة على حصانها ، حالما رجع الزوج الضائع •

كان تاناباى قد ارتحل جهم الهيئة ، صامتا ، في ثوبه الداخلى البليل دون قبعة ، ارتحل على رهوانه الذى هزل وتعب أثناء الليل • وكان غولسارى يعرج فى ساقه اليمنى •

— ولكننا نبحث عنك ! — أخبره الفتى الذى لحق به راكضا • — لقد بدأ القلق ينتاب جايدار — آبا •••

ايه ، أنت ، أيها الصبى ، ياصبى •••

— ضعت ، — قذف تاناباى بكامته بصوت غير واضح •

وعلى هذه الحال التقى بالزوجة • لم يقل أحدهما للآخر أيما كلمة • ولكن حين غاب الفتى موقتا ليسوق القطيع من تحت الجرف الساقط ، قالت له الزوجة بصوت خافت :

— ما دهاك بحيث انك لم تفلح حتى فى ارتداء ملابسك • الحمد لله ان بنطلونك وحذاءك فى قدمك • أو لا تخجل ؟ فانك لم تعد شابا • قريبا سيبلغ أولادك سن الرشد ، أما أنت •••

وصمت تانابای • ما الذی کان سیقول ؟

وفی ذلك الوقت كان الفتى قد انتهى من سوق القطيع • كانت كل الخيول والمهار سايمة •

ــ فلنذهب الى البيت ، يا آلتيكه ، ــ دعت جايدار الفتى•

ــ لن ننتهى اليوم من تدبير أمورنا وأموركم • لا بد ان الريح عصفت بمخيمينا • فلنمض نجمع ما تطاير •

أما لتانابای فقد قالت بصوت خافت :

ــ أما أنت فابق هنا • سأحمل اليك أكلا وشيئا تلبسه • كيف ستمثل أمام النـاس ؟

ــ سأكون هناك ، فی الأسفل ، ــ رمى تانابای بجوابه •

وارتحلا • وساق تانابای القطيع الى المرتع • وانشغل بذلك طويلا • وكانت الشمس قد نورت ، ودفأ الجو • وتصـاعد البخار من السهب ، وعاد الى الحياة • وصارت الأرض تفوح برائحة المطر والعشب الفتى •

كانت الخيول تخب خببا قصيرا ، دون أن تسرع ، مجتازة المنخفضات والوهاد ، لتخرج الى المرتفعات • وهنا ، كأن عالم آخر قد انبسط أمام النظر وانفتح مشهده أمام تانابای • كـان الأفق قد تقهقر بعيدا ، غاية فی البعد مترقرقا بالسحب البيضاء• كانت السماء واسعة ، عالية ، صافية • وعلى غاية البعد كان قطار ينفث دخانه فی السهب •

ترجل تانابای من الحصان ، ومضى فی العشب • والى

جنبه كانت قبرة قد طارت مرفرفة ، وارتفعت وهى تزقزق • ومضى تاناباى ، مطرق الرأس ، وهوى فجأة واقعا على الأرض •

لم يكن غولسارى قد رأى صاحبه بهذا الشكل من قبل • لقد رقد منكبا بوجهه على الأرض ، فيما كانت كتفاه ترتعدان من النحيب • لقد بكى من الخجل ومن الأسى فقد عرف أنه قد أضاع سعادته التى أتيحت له للمرة الأخيرة فى حياته • ولكن القبرة ظلت تزقزق ، على كل حال •••

وبعد يوم ارتحلت القطعان الى الجبال ــ والآن لن يعودوا الى هنا الا فى العام التالى ، فى الربيع الباكر • مضى المرتحلون على طول النهر ، فى الأرض التى يغمرها الفيضان بجانب القرية• ومضت قطعان الأغنام ، وقطعان الماشية ، وقطعان الخيل • مضت الخيل والابل تحت الرحال ، وارتحلت على صــهوات الخيل وظهور الابل النساء والأولاد • وكانت الكلاب الشعثاء تسعى• وأثقل الهواء بحشد من مختلف الأصــوات : صراخ الناس ، وصهيل الخيول ، وثغاء الأغنام •••

أما تاناباى فقد ساق قطيعه عبر المرج الكبير ، ثم فى اليفاع، حيث احتشد الناس منذ أمد غير بعيد فى العيد ، وكان يجهد، ما أمكنه ، ان لا ينظر صوب القرية • وحين توجه غولسارى فجأة الى هناك ، الى البيت فى طرف القرية القصى ، فانه تلقى سوطا لقاء ذلك • وهكذا ، فانهما لم يعرجا الى تلك المرأة ذات اليدين الخارقتين ، اللدنتين ، والمرهفتين مثل شفتى تلك المهرة الكميت ذات النجمة فى جبينها •••

مضى القطيع بهدوء وسلام ٠

كان يود غولساري لو غنى صاحبه ، ولكنه لم يغن ٠ وها هي القرية قد تخلفت وراء ٠ فوداعا أيتها القرية ، وداعا ! وفي الأمام كانت الجبال ٠ فالى اللقاء أيها السحب ، الى الربيع القادم ! وفي الأمام كانت الجبال ٠

٦

اقترب منتصف الليل ٠ ولم يستطع غولساري المضي أبعد٠ فالى هنا ، الى الوادي ، قد بلغ ظالعا ، متوقفا عشرات المرات ولكنه لن يستطيع بحال اجتياز الوادي ٠ وفهم الشيخ تاناباي، انه ليس له الحق ان يطلب من الحصان أكثر من ذلك ٠ وان غولساري على نحو معذب ، ان مثل الانسان ٠ وحين شرع يرقد على الأرض ، لم يعرقله تاناباي ٠

واصل الرهوان الأنين ، راقدا على الأرض الباردة ، وهو ينقل رأسه من ناحية لأخرى ٠ لقد كان يشعر بالبرد ، فكان يرتجف بكامل جسمه ٠ فنفض تاناباي عن نفسه فروته ، وغطى بها ظهر الحصان ٠

ــ ماذا بك ؟ أحالتك سيئة ؟ آسيئة تماما ؟ لقد تجمدت أنت يا غولساري ٠ ولكن لم تتجمد عندي ولا مرة ٠

دمدم تاناباي بشيء ما ، ولكن الحصان الرهوان لم يسمع شيئا ٠ كانت دقات قلبه متقطعة مسموعة في رأسه مباشرة ، على نحو مصم ، مبهور ولاهث في سرعة : توم ــ تاب ، توم ــ تاب،

توم – تاب ، توم .. – لكأن القطيع قد فر مذعورا مرعوبا من مطارديه الذين باغتوه .

وبزغ القمر من وراء الجبال ، وتهدل متعلقا فى الضباب فوق العالم . وخر نجم دون صوت وما لبث ان انطفأ ...

– أرقد أنت هنا ، وسأمضى أجمع الحشائش اليابسة ، – قال الشيخ .

وتجول فى الجوار طويلا ، جامعا الحشائش الطويلة اليابسة المتخلفة من العام الماضى . وقرصت الأشواك يديه ، فيما كان قد جمع حضنا من هذا الحشيش وأوغل فى بحثه ، فهبط الوادى ، والسكين فى يده تحوطا للطوارىء ، واصطدم هنا بشجيرات الاثل . فسر لذلك واغتبط فستكون لديه شعلة حقيقية .

كان غولسارى يخشى دائما النار المضطرمة على مقربة منه . أما لآن فلم يعد يخشى ، فقد منحته هذه الدفء والدخان . وقعد تانابای صامتا على الكيس ، وألقى فى الشعلة الاثل مخلوطا بالحشائش الطويلة الجافة ، وجعل ينظر الى النار ، مدفئا يديه . وكان ينهض أحيانا ، ليسوى من وضع الفروة الملقاة على الحصان ، وليقعد من جديد ازاء النار .

وتدفأ غولسارى ، وسكن ارتجافه ، ولكن خيمت فى عينيه عكارة صفراء ، واختنق صدره ، واحتبست أنفاسه . وكان اللهب يميل تارة ، وتارة أخرى ينهض بهبوب الريح . وكان الشيخ ، القاعد قباله ، وهو صاحبه القديم ، كان هو الآخر

يختفي طورا ، ويظهر طورا آخر • بدا للرهوان وهو في هذيانه، انه وسيده يجريان في السهب في تلك الليلة الرهيبة ، وانه يصهل ، شابا على عقبيه ، ينشد القطيع ، ولكنه غير موجود • وكان الوميض الأبيض يتألق وينطفيء •

تارة ينور الجو ، وتارة يظلم ، طورا ينــور ، وطورا يظلم •••

٧

ولى الشتاء ، وتقهقر لوقت ، من أجل ان يظهر للرعاة ، ان الحياة في الكون ليس بالصعوبة التي يتصورونها • ستكون أيام دافئة ، وستسمن الماشية ، وسيكون الوفر والكفاية من الحليب واللحم ، وستكون المسابقات في أيام الأعياد ، وستكون هناك أيام عادية وسيتوافر توالد الأغنام ، وجز الصوف ، وتربية الصغار ، والارتحــال ، والى كل هــذا ومعــه فعنــد كــل واحــد حيــاته الخــاصة ــ حبه وفراقه ، الولادة والمــوت ، الاعتزاز بنجاحات الأولاد والاغتنام للأخبــار غــير الســارة ، الأخبــار الواردة من مدارســهم الداخليــة ، فيفـــكر المرء : ربما استطاع أطفاله الدراسة بشــكل أفضــل اذا كانوا معه ••• فمن يدرى ماذا يخبيء المستقبل ، فالمشاغل تتوفر دائما وبكمية كافية ، ولا تنسى مصائب الشتاء الا لوقت موقوت • فان جائحات الماشية ، وموتانها ، وانبساط الغطاء الجليدى على الأرض ، والمخيمات المخرقة ، والحظائر المسقفة الباردة •• كل

هذا سيبقى فى النشرات والتقارير حتى العام التالى . وهناك سينفجر الشتاء ثانية مباغتنا ـ سيصل بسرعة على ناقة بيضاء ، وسيجد الراعى ، أينما كان ، فى الجبال أم فى السهب ، وسيريه مزاجه الحرون ، الصعب . وسيتذكر الراعى كل ما قد نساه لوقت . وحتى فى القرن العشرين لا زال الشتاء يسلك ذات السلوك ...

وعلى هذه الحال كان كل شيء آنذاك . لقد هبطت من الجبال قطعان الماشية والخيل العجفاء وانتشرت فى السهب . انه الربيع . ولقد كابدت الشتاء ومصائبه .

وفى ذلك الربيع تنزه غولسارى حصانا بالغا فى القطيع . وكان تاناباى قلما يسرجه الآن ، كان يشفق عليه ، ثم ان ذلك كان غير ممكن ولا يصح ـ فقد اقترب موسم السفاد .

كان من المؤمل ان يكون غولسارى حصانا طيبا . فقد كان يرعى المهار الصغار تماما كما لو انه أبوها . فاذا أهملت الأم لحظة العناية بالمهار ، هب غولسارى رأسا ليحول دون وقوع المهر فى مكان ما أو انفصاله من القطيع . والى ذلك فقد كانت لغولسارى سجية أخرى انه كان لا يحب أن تزعج الخيول عبثا ، ـ فان حدث مثل ذلك فانه كان سيطرد القطيع فى الحال أبعد .

وفى شتاء ذلك العام جرت تغيرات فى الكولخوز . فقد أرسل رئيس جديد له . وكان تشورو قد سلم مهامه ورقد فى مستشفى المنطقة . كان قلبه يؤلمه جدا . أما تاناباى فكان طيلة الوقت يتهيأ ليزور صديقه ، ولكن ترى هل كان سيستطيع

الافلات ؟ ان الراعى مثل أم كثيرة الأولاد ، انه دائما غارق فى المشاغل ، وبخاصة فى الشتاء وفى الربيع • ان الحيوان ليس بماكنة : فليس بمكنتك أن تقفل المفتاح الكهربائى وليس بامكانك أن تمضى تفصله • وهكذا لم يستطع تاناباى الرحيل آنذاك الى مستشفى المنطقة • ولم يكن ثمة من يعوض عنه • وكانت زوجته تعتبر بمثابة راعى القطيع الذى يعوضه ، فقد كان ضروريا ان تعمل شيئا لكسب رزقها : وبالرغم من ان أجرة يوم العمل كانت تافهة الا ان أجرة يومين كانت أكثر من أجرة يوم عمل واحد على كل حال •

لكن جايدار مع الطفل على يديها ! أى معوض ستكون هى بهذه الحال ؟ لقد كان تاناباى نفسه منشغلا بتدبير شئون القطيع آناء الليل وأطراف النهار • وفى الوقت الذى كان تاناباى يتهيأ لعيادة تشورو ، متفاهما مع الجيران على من يعوضه ، آنذاك ورد خبر ان تشورو قد غادر المستشفى وعاد الى القرية • عند ذاك قرر تاناباى وزوجته ان يغشياه فى بيته ، فيما بعد حين يهبطون من الجبال •

حتى اذا هبطوا من الجبال الى الوادى ، وعاشوا فى المكان الجديد ، وقع ما لا يستطيع تاناباى حتى الآن ان يتذكره محتفظا بهدوئه •••

ان مجد الحصان الرهوان ــ هو عصا ذات حدين • فكلما ازداد دوى هذا المجد فى كل الجوار ، كلما تعاظم تطلع المسئولين وطمعهم فى احتيازه •

في ذلك اليوم ساق تانابای الخيول منذ الصباح الى المرتع، أما هو فقد رجع الى البيت ليتناول أفطاره • كان قد أقعد ابنته على ركبتيه ، يشرب الشاى ، ويتحدث مع زوجته فى قضايا عائلية مختلفة • كان يلزمه أن يسافر الى ابنه فى المدرسة الداخلية ، وفى ذات الوقت الى السوق ، قرب المحطة ليشترى هناك ، حيث تباع الملابس المستعملة ، شيئا من الملابس للزوجة والأولاد •

ـ اذن ، سأسرج الرهوان ، فى مثل هذه الحالة ، ـ قال تانابای ، محتسيا شيئا من كوبة الشاى ، ـ والا فاننى لن أستطيع الرجوع سريعا • سأرتحل عليه لآخر مرة ولن أمسه بعد ذلك •

ـ تأمل الأمر بنفسك ، فلا شك انك ترى أفضل •

ـ وافقت هى •

وفى هذا الوقت سمع من الخارج وطء سنابك الخيل • لقد أقبل أحدهم اليهم •

ـ تطلعى ، ـ التمس الزوجة ، ـ من هناك ؟

وخرجت ، وعادت تقول ان هذا هو ابراهيم رئيس مزرعة تربية الخيول ، ومعه واحد من سكان القرية •

ونهض تانابای على مضض ، وخرج من البيت وهو يحمل بنتـــه فى يديه • وبالرغم من أنه لم يكن يحب رئيس مزرعة تربية الخيول ، ابراهيم ، الا أنه ينبغى استقبال الضيوف ، على كل حال • أما لماذا لم يستطع أن يحب ابراهيم هذا ، فذا أمر

لم يدركه تانابای نفسه • فعموما كان هو لبق المعاملة ، وليس مثل الآخرين ، ولكن مع ذلك كان فيه شيء ما مريب • والأمر الأساسى أنه لم يكن يعمل شيئا محددا ، معينا ، سوى الجرد، واعادة الجرد • وعلى أية حال لم يكن ثمة عمل حقيقى فى تربية الخيول فى المزرعة ، فان كل راع كان يعمل من دون أى قيـادة أو مساعدة • وقد تحدث تانابای عن ذلك فى الاجتمـاعات الحزبية ، أكثر من مرة ، فكان الكل يوافقون ، وكان ابراهيم يوافق أيضا ، بل ويشكره على النقد ، ولكن كل شيء ظـل على حاله كما كان فى الماضى • وكان من المحسنات ، ان رعاة القطعان كانوا نزيهين وكان تشورو نفسه قد اختارهم • وما أن ترجل ابراهيم من السرج ، حتى بسط يديه مرحبا :

ـ السلام عليكم يا بيك ! ـ وكان يسمى جميع الرعاة بالبكوات •

ـ وعليكم السلام ! ـ أجاب تانابای متحفظا ، وهو يشد على أيدى الضيوف القادمين •

ـ كيف أنتم ـ أأحياء ؟ وهل أنتم معافون ؟ كيف الخيول وكيف أنت يا تانابای ؟ ـ نثر ابراهيم أسئلته المعتادة ، فيمـا كان خداه المتلئان قد عاما فى ذات الابتسامة المعهودة •

ـ بخير •

ـ الحمد لله • أنا بالطبع لا أقلق بخصوصكم •

ـ أدعوكم لدخول البيت •

وكانت جايدار قد فرشت للضيوف قطعة من اللباد جديدة،

وعليها بسطت بساطا من جلود الماعز ــ وهذا هو غطاء خاص، للجلوس على الأرض • واليها أيضا أعار ابراهيم انتباهه •

ــ مرحبا ، يا جايدار هانم • كيف صحتك ؟

أتعنين كما يجب بسيدك البيك ؟

ــ مرحبا ، تفضلوا ، واجلسوا هنا •

وجلس الجميع •

ــ صبى لنا شراب الكوميس ، ــ التمس تاناباى زوجته• وشربوا الكوميس وتحدثوا عن هذا وذاك من الشؤون •

ــ والآن ، أفضل شيء هو تربية الحيوانات • فهنا على الأقل يتيسر الحليب واللحم فى الصيف ، ــ طفق ابراهيم يناقش ،ــ أما فى زراعة الحقول أو سواها من الأعمال الأخرى فلا شيء، على أى حال • وهكذا فالأفضل الآن الاحتفاظ بقطعان الخيل وكذلك بقطعان الضأن • أو ليس هذا صحيحا يا جايدار هانم ؟

وأحنت جايدار برأسها ، أما تاناباى فقد صمت • لقد كان يعرف هذا ولم يكن يسمعه للمرة الأولى من ابراهيم ، الذى لم يكن ليضيع فرصة للتلميح بأن وضعية مربى المواشى ينبغى الاعتزاز بها• وأراد تاناباى أن يقول أنه لا خير اطلاقا للمجموع ما دام بعض الناس سيحتفظون بالأماكن المريحة ، حيث الحليب واللحم • حسنا ، وكيف هى حال الآخرين ؟ والى أى وقت سيظل الناس يعملون مجانا ؟ أو كان الأمر كذلك ، حقا ، قبل الحرب ؟ كانوا فى الخريف يجلبون الى كل بيت بمعـــدل حمولة عربتين أو ثلاث من الحبـــوب ، على الأقل • أما الآن

فماذا ؟ يركض الناس بالأكياس الفارغة ، علهم يحصلون في مكان ما على شيء ما . انهم هم أنفسهم الذين يزرعون الحبوب ولكنهم يظلون بدون رغيف . ترى لأي شيء يصلح هـذا ؟ لن تصلح الحال ، ولن تعيش بالاجتماعات وحـدها وبمحض المواعظ والنصائح . ولهذا كان تشورو قد أضنى قلبه ، بحيث أنه لم يستطع اعطاء الناس أيما شيء لقاء عملهم ما خلا الكلمات الجميلة .

ولكن الافضاء بكل هذا الذى كان يعذب روحه لابراهيم كان أمرا دون جدوى . أجل ، ولم يشأ تاناباي الآن أن يطيل الحديث . كان ينبغي التخلص منهم وتوديعهم بأسرع ما يمكن، واسراج الرهوان والمضي في أشغاله كيما يستطيع الاسراع في العودة . حسنا لماذا أتوا ؟ الا أن السؤال لم يكن مناسبا .

ـ لا أكاد أعرفك يا أخي ، ـ توجه تاناباي بالحـديث الى رفيق ابراهيم ، وهو فتى صموت ، ـ أو أنت ابن المرحوم آبالاق ؟

ـ نعم أيها العم تاناباي ، أنا ابنه .

ـ أوه ، كيف يطير الوقت . هل أتيت لتلقى نظرة على القطعان ؟ شيء ممتع ؟

ـ كلا ، انمـا نحن ...

ـ انه جاء معي ، ـ قاطعهما ابراهيم ، ـ لقد جئنا في أمر ، ولكن سنتحدث عن ذلك فيما بعد . ان الكوميس عندكم

يا جايدار هانم ، فى غاية الامتياز • ورائحته نفـاذة تماما • املئى لى قدحا آخر !

وتحدثوا من جديد ، عن هـذه الأمور وتلك • وأحس تانابای بشیء غیر مریح ، ولكنه لم يستطع بحال أن يفهم ما الذى أتى بابراهيم اليه • وأخيرا أخرج ابراهيم من جيبه ورقة ما•

ـ تانابای ، لقد قدمنا اليك فى هذا الأمر ، بمـوجب هذه الورقة ، اقرأ •

وقرأ تانابای مع نفسه ، قرأ السطور ، قرأ ولم يصـدق عينيه • كان مكتوبا بحروف كبيرة مايلى :

« أمر •

الى راعى قطيع الخيول باكاسوف •

تحويل الحصان الرهوان غولساری الى اسطبل الخيـل لاستعماله فى الركوب •

رئيس الكولخوز • « التوقيع غير واضح »

التاريخ : ٥ آذار ١٩٥٠ » •

جعل تانابای ، وقد صعق بهذا التحول المفاجیء للأمور ، جعل يلف الورقة صامتا فى أربع طيات ثم وضعها فى الجيب العلوى لقميصه ، ومكث طويلا ، دون أن يرفع عينيه • وما لبث أن شعر فى الحال بتقلص مؤلم فى مقدمة المعدة • وعلى أية حال ، لم يكن ثمة شیء غير اعتيادى هنا • فلمثل هـذا كان هو يربى الخيول ، لكى يحولها فيما بعد الى آخرين من

أجل العمل ، ومن أجل الركوب • كم من الخيول قد أرسل الى فرق العمل خلال هذه السنوات ! ولكن تسليم غولسارى بالذات ، كان أمرا فوق مستطاعه ! وجعل يفكر فى الأمر بحماس وحمية — كيف يمكنه الدفاع عن الحصان الرهوان دفاعا معقولا• كان يلزمه أن يفكر فى الأمر مليا • كان عليه أن يتمالك نفسه • ولكن ها هو ابراهيم قد بدأ يقلق •

— بهذه القضية الصغيرة جئنا اليكم ، ياتاناباى • — أوضح هو بحذر •

— طيب ، ابراهيم ، — نظر اليه تاناباى بهدوء • — لن يهرب هذا الأمر منا ، ولن يفلت • فلنشرب مزيدا من الكوميس ولنتحدث •

— طبعا ، طبعا ، فانك انسان معقول ، يا تاناباى •

— « معقول ! لا أصدق كلماته المنافقة هذه ! » — قالها تاناباى فى نفسه ساخطا •

ومن جديد دار حديث غير مهم • فالآن ما من داع ، بعد هذا ، للاسراع •

وهكذا اصطدم تاناباى ، للمرة الأولى ، مع رئيس الكولخوز الجديد • بالأحرى ، ليس به شخصيا ، وانما بتوقيعه غير الواضح • فهو لم يره عيانا بعد • فقد كان يشتى فى الجبال، حين جاء هذا ، معوضا عن تشورو • وقد قيل عنه انه انسان عنيف • وقد كان مسؤولا كبيرا • وقد ابتدأ ينذر ويحذر، منذ الاجتماع الأول ، أنه سيعاقب بشدة كل مقصر ، وهدد

بالمحاكمة لقاء عدم تنفيذ الحد الأدنى من أيام العمل ، وقال ان كل مصائب الكولخوزات نشأت لأن الكولخوزات كانت صغيرة أما الآن فستوحد وتضخم ، وقريبا سيتحسن الوضع ويقوم — وانه انما أرسل الى هنا لهذا ، وسيجعل مهمته الأساسية ادارة المزرعة التعاونية بموجب كافة وأحدث قواعد علم هندسة الزراعة وتربية الدواجن . ولأجل هذا فعلى الجميع أن يدرسوا فى دورات علمى هندسة الزراعة وتربية الدواجن .

وفى الواقع تم ترتيب أمر الدراسة وعلقت اللافتات، وصار المحاضرون يحاضرون . أما اذا غفا الرعاة وناموا أثناء القاء المحاضرات ، فذلك أمرهم ...

— تاناباى ، لقد آن الأوان لنرحل ، — ألقى ابراهيم على تاناباى بنظرة مترقبة ، وجعل يرفع من ساقى جزمتيه الطويلتين والنازلتين ويقوم من قبعته الضخمة من فراء الثعلب .

— هذا هو ما عندى ، يا رئيس مزرعة تربية الخيول، أخبر رئيس الكولخوز : اننى لن أعطى غولسارى . انه حصان قطيع . أنه يخصب الأفراس .

— أوه ، يا الهى ، تاناباى ، مالك ! أنا سنعطيك خمسة أحصنة عوضا عنه ، ولن تبقى عندك فرس واحدة عزباء . أو هذه مشكلة ؟ — تعجب ابراهيم . لقد سر لأن كل شىء مضى فى مجراه المعتاد ، ولكن ها فجأة ... ولو لم يكن محدثه تاناباى لهان الأمر ، ولكان الحديث قصيرا . بيد أن تاناباى هو تاناباى ، انه لم يشفق حتى على أخيه ، وهذا الأمر ينبغى أخذه

بالحسبان . ولذلك فان الحديث ينبغي آن يكون لينا معه .

ــ لا تلزمنى أحصنتكم الخمسة ! ــ مسح تانابای جبهته العرقة . وقرر ، بعد صمت قصير ، أن يمضي في عناده وتحديه،

ــ قل لى ، هل عدم رئيسك ما يرتحل عليه ؟ أم أن الاسطبل قد خلا من الخيول ؟ ثم لماذا غولساری بالذات كان طلبته ؟

ــ لكن كيف ، تانابای ؟ انه الرئيس ــ انه آمرنا ويتوجب علينا احترامه بالتالي . انه يسافر الى المركز المنطقى ، ويجىء الناس اليه . ان الرئيس بارز دائما ، أمام أنظار الناس ، ان صــح القــول ...

ــ ماذا ان صح القول ؟ ألن يعترف به الناس على حصان آخر ؟ واذا كان بارزا دائما ، فهل من الضرورى على الرهوان ؟

ــ بالتأكيد أو ليس بالتأكيد . ولكن كمـا لو أن ذلك مفروض ، أو عرف متداول بين الناس . خذ مثلك أنت يا تانابای فلقد كنت جنديا في الجبهة . فهل كنت ترتحل في سيارة ركاب صغيرة ، ويرتحل الجنرال في سيارة النقل ؟ كلا ، بالطبع . فللجنرال سيارة الجنرالية ، وللجندى سيارة الجنود . أليس ذلك صحيحا ؟

ــ هنا مسألة أخرى ، ــ اعترض تانابای مترددا . ولكن لماذا مسألة أخرى بالذات ــ فهذا أمر لم يقبل على شرحه ، بل لعله لم يستطع شرحه . اذ أحس أن الحلقة تضيق حــــول الحصان الرهوان قال بحقد، ــ لن أعطيه. وان كنت لا أناسبكم ولا أصلح للعمل ، فاخلعونى من رعاية القطيع . سأمضى الى

ورشة الحدادة • فهناك لن تستطيعوا أخذ المطرقة منى •

ــ ولكن لم كل هذا ، وعلام ، باتاناباى ؟ اننا نحترمك ، ونقدرك • ولكنك كالصغير • أو يليق هذا حقا بمقامك ؟ ــ أخذ ابراهيم يتململ فى محله • يبدو أنه تورط • فقد وعد بنفسه ، بل هو نفسه اقترح ذلك أو اوحاه ، وتطوع هو بالذات لهذا الأمر • ولكن هذا النموذج العنود من الناس يفسد الموضوع كله •

وزفر ابراهيم بعسر ، وانعطف الى جايدار يخاطبها :

ــ أحكمى بنفسك ، يا جايدار هانم ، ما العلة ، ما المشكلة فى هذا ، كل ما فى الأمر حصان واحد ، فليكن رهواناً ؟ أو ليس فى القطيع مثل هذا ، ألا يوجد غيره ••• اختاروا فرسا أخرى • جاءنا انسان ، وقد أرسلوه •••

ــ ولكن لماذا أنت معنى ، لهذا الحد ، بهذا الأمر ؟ ــ سألته جايدار •

وتلعثم ابراهيم ، وبسط يديه :

ولكن كيف اذن ؟ انه الضبط • لقد استودعنى هذا الأمر ، وأنا انسان صغير • أنه ليس لى • فأنا لو ارتحلت على حمار لقبلت • ها هو ابن آبالاق ، اسأليه ، لقد أرسلوه ليستاق الرهوان •

وأومأ ذلك برأسه ، علامة الايجاب ، صامتا •

ــ ولا يكن الأمر على ما يرام ، ــ واصل ابراهيم كلامه ــ لقد أرسلوا لنا رئيسا ، فهو اذن ضيفنا ، أما نحن : كل

سكان القرية ، فنعجز عن تقديم حصان طيب واحد له ! ان عرف الآخرون ، ماذا سيقولون ؟ اين سمع هذا عند القرغيز ، وأين حصل من قبل ؟

ـ دع الأمر يكون على هذا النحو ، ـ قالها تاناباى معلقا

ـ فلتعرف القرية كلها . سأذهب الى تشورو . ودعه هو يحكم ويقرر .

ـ أتتصورون أن تشورو سيقول بعدم اعطائه ؟ لقد نوقش الأمر معه . انكم فقط تورطون الرجل . لكأن هذا عدم خضوع . لا نعترف بالرئيس الجديد ونمضى الى القديم نشكو . ثم ان تشورو انسان مريض . فعلام افساد علاقاته بالرئيس ؟ سيكون تشورو منظم الكولخوز الحزبى ، وسيكون عليه أن يعمل معه . فلماذا تعرقلون عمله ...

وهنا ، وحين انعطف الحديث الى تشورو ، لاذ تاناباى بأذيال الصمت . وصمت الجميع . أما جايدار فقد تنهدت بثقل.

ـ أعطه ، ـ قالت لزوجها ، ـ لا تعطل الناس .

ـ هذا هو المعقول ، وكان ينبغى أن يتم ذلك منذ البدء . شكرا لكم ، يا جايدار هانم .

لم يكن عبثا تدفق ابراهيم فى عبارات الشكر . فليس الا بقليل من الوقت بعد هذا ، كان صاحبنا قد تحول من ناظر مزرعة تربية الخيول الى مساعد الرئيس فى كل شئون تربية الحيوانات فى التعاونية ! ..

وجلس تاناباى فى السرج ، وغض بصره ، ودون أن يتابع

بنظره ، رأى كل شيء • رأى كيف أمسكا بغولسارى ، وكيف وضعا عليه رسنا جديدا — والا فان تاناباى لن يعطى رسنه اطلاقا ورأى كيف لم يرد غولسارى مغادرة القطيع ، كيف جمح، وكيف اندفع من المقاود عند ابن ابالاق ، وكيف ساطه ابراهيم بالسوط بشدة ، كارا عليه تارة من هذا الجانب ، وتارة أخرى من الجانب الآخر • رأى عينى الحصان الرهوان ، ونظرته المعتكرة ، غير الفاهمة الى أين ولماذا يقوده الناس الذين لايعرفهم والى أين يبعدونه عن الأمهات والأمهار ، وعن سيده ، ورأى كيف تصاعد البخار من فمه ، حين صهل ، رأى عفرته وظهره وكفله وآثار السياط على ظهره وجنبيه ، رأى كامل هيكله وقوامه ، وحتى النامية القرنية على القدم الأمامية اليمنى أعلى من رسغه ، رأى مشيته ، وآثار الحوافر ، ورأى كل شيء حتى آخر وبر من أوباره الشقراء الفاتحة — رأى كل شيء ، وكان يتعذب بصمت ، وهو يعض على شفتيه• وحين رفع رأسه ، فان أولئك الذين أخذوا غولسارى منه كانوا قد اختفوا وراء الرابية • وصرخ تاناباى ، وأطلق حصانه فى أثرهم •

— قف ، لا تجرؤ ! — ركضت اليه جايدار من البيت •

وأثناء جريه برق فى ذهنه فجأة هاجس رهيب — انها اذن : الزوجة ، تنتقم من الحصان عن تلك الليالى • واستدار بالحصان بقوة ، سائطا اياه بالسوط ، وقفل راجعا • وترجل بجنب البيت ، وقفز رهيب الهيئة ، بوجه مشوه القسمات من الغضب والألم ، مبيض ، وسعى الى الزوجة •

ــ أنت لماذا ؟ لماذا قلت : اعطه ؟ قالها بما يشبه الهمس ، كأنه يفح ، ناظرا فى عينيها •

ــ اعقل ، واهدأ • اخفض يديك ، ــ قاطعته بملاحظة صارمة وصدته بهدوء ، كما هو الأمر دائما ، ــ اسمع ماسأقوله لك • أغولساري حصانك الخاص ؟ أهو ملكك الشخصى ؟ ما هو ملكك الشخصى هنا ؟ كل ما عندنا هو للكولخوز • وبهذا نعيش • والحصان كولخوزى أيضا • أما الرئيس فهو سيد الكولخوز ، فكما يقول ، فكذلك سيكون • أما فيما يتعلق بذلك الأمر فعبثا ما تتصور • يمكنك ولو الآن أن تذهب • اذهب • هى أفضل منى، افتى وأجمل • امرأة رائعة • وأنا كذلك كنت أستطيع أن أترمل ، ولكنك عدت من الحرب • كم انتظرتك ، ولكن دع هذا ، اطرحه من الحساب ! انما لديك ثلاثة أطفال • فالى أين بهم ؟ ماذا ستقول لهم فيما بعد ؟ وماذا سيقولون هم ؟ وماذا سأقول لهم أنا ؟ قرر بنفسك •••

وغادرها تاناباى الى السهب • وهناك قضى بقية نهاره ، بين القطيع ، حتى غاية المساء وهو لا يزال بعيدا عن الهدوء والسكينة • لقد تيتم القطيع • وتيتمت روحه هو • لقد أخذها الحصان معه • أخذ كل شىء ، الآن كل شىء ليس كما ينبغى ، لم يعد كما كان عليه • فالشمس ليست هى بذات الشمس ، والسماء ما هى بالسماء ، وهو نفسه كأنه ليس هو ذاته •

ولما عاد كان الظلام قد نشر جناحيه • ودخل البيت صامتا، وقد اسود لونه • وكانت بنتاه قد نامتا • وكانت النار تضطرم

فى الموقد • وصبت الزوجة الماء على يديه • وقدمت له طعام العشاء •

— لا أشتهى • — رفض تاناباى • وما لبث أن قال :

— خذى آلة « التمير — كاموز » ، وغنى لى « نــواح النــاقة » •

تناولت جايدار « التمير — كاموز » ، وقربتها من شفتيها، ومست بأصابعها الوتر الفولاذى الرهيف ، ونفخت عليها ، ثم نشقت الهواء ، وانثالت موسيقى الرحل القديمة • انها الأغنية عن الناقة ، التى أضاعت حوارها الأبيض • أياما كثيرة ركضت هى فى الصحراء هائمة على وجهها • تبحث ، تنادى ، وتهتف بوليدها • وتحزن لأنها لن تقوده وراءها بعد الآن فوق الجرف ساعة المساء ، وفى ساعة الصبح فى السهول ، ولن تقتطف معه الأوراق من الأغصان ، أو تخطو معه فى الرمال المتموجة ، أو تجول معه فى الحقول الربيعية ، أو تسقيه الحليب الأبيض • أين أنت ، أيها الحوار الأسود ، وتهتف بوليدها • أين أنت أيها الحوار الأسود العينين ؟ أجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع المليئة ، ويشخب جداول على القدمين • أين أنت ؟ أجب ! يســــيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة • الحليب الأبيض •••

كانت جايدار تتقن العزف على « التمير — كاموز » ، وقد أحبها هو ، لقاء هذا منذ زمن بعيد أيام كانت فتــاة •

وكان تاناباى يستمع ، مطرقا برأسه ، ودون أن يتطلع ،رأى

كل شيء . هـــذه يداها وقـــد اخشـوشنتا وتجستا من العمل المتواصل لسنين طويلة فى حر الصيف وقر الشتاء . وهذه هى الشعرات البيض والغضون التى طلعت على طول رقبتها ، وبجنب الفم ، وبجنب العينين . رأى كيف كان الشباب الآفل يبرز وراء هذه الغضون والتجاعيد ـ فقد كانت فتـاة سمراء تتهدل ضفائرها على الكتفين ، وكان هو نفســه آنذاك ـ شابا فى ريعان شبابه ... رأى حبهما القديم . كان يعرف أنها لا تلاحظه الآن حيث كانت مستغرقة فى موسيقاها غارقة بأفكارها . ورأى هو ، الى ذلك ، رأى فى تلك الساعة ، بأم عينيه نصف عذاباته وأحزانه فيها . فقد كابدتها هى وحملتها باستمرار فى نفسها .

... وتركض الناقة أياما كثيرة ، وتبحث ، وتهتف بوليدها . أين أنت أيها الحوار الأسود العينين ؟ يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، ويشخب جداول على القدمين . آين أنت؟ أجب ! يسيل الحليب الأبيض ...

أما الطفلتان فقد نامتا متعانقتين . ووراء المسكن رقـد السهب ـ رحبا ، لا تطاله العين فى ظلمة الليل ...

وفى هذه الساعة تمرد غولسارى فى الاسطبل ، وحـرم السواس النوم . كانت هذه هى المرة الأولى التى تطوح المقادير فيها به الى الاسطبل ، الى سجن الخيول .

٨

كان سرور تاناباى كبيرا ، حين رأى صباح ذات يوم حصانه

الرهوان فى القطيع . كان يجول بقطعة متهدلة من حبل الرسن، بالسرج مسرجا على ظهره .

ـ غولسارى ، غولسارى ، مرحبا ! ـ وثب تانابای اليه رماحة ، وعاينه عن كثب فى أعنة جديدة ، أعنة أخرى غير ما كانت لديه هنا ، وتحت سرج جسيم آخر ، بركابين ثقيلين، ضخمين . على أن الذى حيره ، بصفة خاصة ، وأدهشه هو أن الرهوان كان ينوء تحت مخدة من المخمل ضخمة ، منتفشة، حطت على السرج ، كما لو أن الذى ارتحل عليه لا رجل وانما امرأة ذات عجيزة ضخمة .

ـ تفو ! ـ بصق تانابای من الامتعاض . وأراد أن يمسك بالحصان وأن يرمى عنه كل هذه العدة الغريبة ، ولكن غولسارى أفلت منه وزاغ . فقد كان فى شغل عنه . كان يداور الأفراس، وكان اشتهاؤه لها وشوقه اليها قد أمض به وأطار طائره ، بحيث إنه لم يلاحظ صاحبه السابق .

« اذن ، فررت منهم ، بهذا الشكل ، وقطعت المقاود . شاطر ! طيب ، تنزه ، وجل ما شئت ، فليكن الأمر كذلك ، أما أنا فسأصمت » ـ فكر تانابای وقرر انه يلزم أن يمنح القطيع عدوا قصيرا . وليحس غولسارى أنه فى بيته ، ما دام لم يظهر مطاردوه الباحثون عنه .

ـ كايت ـ كايت ـ كايت ! ـ هتف تانابای ، ونهض نصف نهوض فى السرج ، وجعل يسوق القطيع بعيدا ، وهو يلوح بالأنشوطة .

وتحركت الأفراس ، داعية الأمهار ، وركضت الافراس الصغيرة وهي تمرح سرورا . وكان الريح قد نفخت عفراتها . وضحكت الأرض المخضرة تحت الشمس . واختلج غولساري، وقوم من جسمه ، وجعل يتبختر زهوا . واندفع في مقـدمة القطيع ، في الطليعة ، وازال حصان القطيع الجديد ، ودفعه الى الخلف ، وبدأ ينخر ، متظاهرا ، متباهيا أمام القطيع ، وابتدأ يتراقص ، ومضى يجرى تارة في هذه الجهة وتارة في الجهـة الأخرى . لقد أدارت رأسه رائحة القطيع ، ثمل بها ، ثمل برائحة حليب الأفراس ، برائحة الامهار ، برائحة الريح المضمخة بعبق نبات الشيخ . ما كان يهمه ان سرجا أخرق مع مخدة مخمليـة خرقاء قد وضعت عليه ، وان الركابين الثقيلين كانا يخزانه في جنبيه . لقد نسي كيف وقف هو بالأمس في المركز المنطقي في مربط الخيل الكبير ، قاضما اللجام ، جافلا من سـيارات الشحن المدوية . نسي كيف وقف بعدئذ في البركة قرب دكان قتن وكيف خرج سيده الجديد مع كافة أفراد حاشيته وكيف فاحت من الجميع رائحة نتنة . وكيف تجشأ السيد الجـديد ولهث ، جالسا على ظهره . نسي كيف انهم قد قاموا في الطريق بشوط عدو أحمق في الاوحال . وكيف حمل هو السيد الجديد منطلقا بكل قوته وكيف كان هذا قد تهدل لاهثا بصفـير في السرج ، متدليا ، متأرجحا مثل كيس ، ثم صار يجذب اللجام بمنتهى الشدة مخرقا فمه ، ويضربه بالسوط ضربا مبرحا في رأسه .

لقد نسى الرهوان كل شيء ، كل شيء • لقد ثمل برائحة القطيع ، برائحة حليب الأفراس ، برائحة الأمهار ، برائحةالريح المضمخة بعبق نبات الشيح • كان الرهوان يركض ، ويركض دون أن يحزر أن المطاردة تنطلق وراءه •

وعاد تاناباي بالقطيع الى المكان السابق ، وهنا جاء سائسان من سواس الاسطبل من القرية وأخذا غولساري من القطيع •

وعلى كل حال فسرعان ما ظهر من جديد • وكان ، في هذه المرة ، دون مقاود ، وبلا سرج • فقد أطرح ، على نحو ما ، الأعنة من رأسه وفر ليلا من الاسطبل • وضحك تاناباي في البدء ، وما لبث بعد ذلك أن صمت وبعد تفكير قصير ، ألقى بالأنشوطة على رقبة الرهوان • لقد أمسكه هو نفسه وقيده بالرسن واقتاده بنفسه الى القرية ، ملتمسا الراعي الفتى من المرعى المجاور سوق الرهوان من الخلف • وفي منتصف الطريق التقيا بالسواس ، المنطلقين بحثا عن الرهوان الآبق •

وسلم تاناباي غولساري اليهم ، بل وانهد يدمدم عليهم متذمرا :

ــ ماذا دهاكم هناك ، هل انتم بلا أيدي ، اجتمعتم جميعا دون أن تستطيعوا مراقبة حصان الرئيس • شدوه أوثق •

ولكن عندما هرب غولساري للمرة الثالثة ، فان تاناباي قد غضب غضبا شديدا :

ــ ما دهاك ، أيها الأحمق ! ما الذي يجذبك الى هنا ، أي شيطان ؟ انما أنت أحمق ، وأحمق أنت بالفعل ، ــ طفق يشتمه،

مطاردا الرهوان بالأنشوطة • واقتاده مرة أخرى الى الاسطبل ، ومرة أخرى أنب السـواس •

ولكن غولسارى لم يكن مستعدا لأن يتعقل ، فقد كان يفر عند سنوح كل فرصة مواتية • فجن السواس ، وطار لب تانا باى •

••• فى ذلك اليوم استسلم تانا باى لسلطان الكرى فى وقت متأخر ، فقد عاد متأخرا من المرتع وساق القطيع الى مكان أقرب من مسكنه تحسبا للطوارىء ، وغفى قلقا ، وبثقل • لقد تعذب وتعب ما فيه الكفاية اليوم • وحلم بحلم غريب — فتارة كأنه فى الحرب من جديد ، وتارة أخرى كأنه فى مذبحة فى مكان ما • يكتنفه الدم اكتنافا ، ويداه كذلك غارقتان فى دم لزج • بل هو نفسه يفكر فى الحلم : ليس لخير هذا الحلم بالدم• ويريد أن يغسـل يديه فى مكان ما • ولكنهـم يدفعـونه ، ويضحكون منه ، ويقهقهون ويهرون فى وجهه — وغير مفهـوم من هذا الذى يفعل ذلك : « تانا باى ، تغسل يديك بالدم • لا يوجد ماء هنا ، يا تانا باى ، تغسل يديك بالدم • لا يوجد ماء هنا ، يا تانا باى ، الدم هنا فى كل مكان ! خا — خا ، خو — خو ، خى — خى ! ••• »

— تانا باى ، تانا باى ، — هزته زوجتـه فى كتفـه ، — استيقظ •

— لكن ، ماذا ؟

— أو تسمع ، فى القطيع شىء ما غير طبيعى • ان الأحصنة

تتشاجر ، وعلى الأرجح ، فر غولساري ثانية الى القطيع .

ـ فليلعن ! لا راحة معه ! ـ ارتدى تاناباى ملابسه بسرعة واختطف الأنشوطة وركض الى الوهدة ، حيث كان الشجار يسمع . وكانت الدنيا قد نورت .

اقترب راكضا ورأى غولسارى . لكن ما هذا الذى يراه؟ كان الرهوان يقفز ، موثقا فى كلا قدميه بنوع خاص من القيود، ذى قفل ـ بأغلال حديدية . كانت الأغلال فى القدمين تدوى ، ويستدير هو ، ويشب على عقبيه ، ويئن ، ويصرخ . ولكن هذا الطفيلى ، حصان القطيع يرفسه ويعضه بكل قوة .

ـ ايه انت ، أيها الوحش ! ـ طار تاناباى كالعاصفة ، منقضا عليه ، وضرب الطفيلى بشكل تحطمت معه الأنشوطة . وطرده . وما لبثت دموعه أن فاضت ـ ما الذى فعلوه معك ، ماذا ؟ من هذا الذى خطرت بباله فكرة تقييدك بالأصفاد ؟ ولماذا جئت الى هنا أيها العبيط التعس ؟ ...

يا للعجب ـ كل هذه المسافة البعيدة ، عبر الأخاديد ، والنتوءات ، كل هذه الموانع والعقبات وكل هذا الطريق الطويل اجتازه الرهوان قفزا وهو ينوء بالأغلال ، وبلغ ، أخيرا ، قطيعه. طوال الليل ، كان يقفز فيما يبدو ، طوال الليل كان يسير ، وحيدا ، تحت وطأة القيود ودويها ، مثل سجين فار محكوم بالأشغال الشاقة .

« وأعجباه ، وأسفاه ! » ـ هز تاناباى برأسه . وجعل يربت على الحصان ، ووضع وجهه تحت شفتيه . فمسه هذا بشفتيه

ودغدغه ، وأغمض عينيه .

ــ كيف سيكون أمرنا معك ، كيف سندبر حالنا ، ها ؟ هلا تركت هذا ، يا غولسارى . ان هذا ليس فى صالحك . انك غبى ، غبى . ولا تعرفن شيئا قط . . .

وتفحص تاناباى الرهوان . كانت الخدوش التى تلقاها فى العراك تندمل . ولكن ها آن قدميه قد برتها القيود . الحوافر تنزف دما . وكانت التحشية اللبادية للاصفاد ذات القفل متقيحة . فالعث قد أضر بها ، وحين ركض الحصان فى الماء فالتحشية زلقت ، وعرت الحديد ، فكان يمس الجسد مباشرة ويبريه بريا . وها هى قدماه تنزفان دما جراء ذلك . « ليس سوى ابراهيم من وجد مثل هذا القيد ذى القفل عند الرجال المسنين . ان هذا لصنع يديه » ، ــ طفق تاناباى يفكر بحقد . صنع من أذن يكون ؟ ان القيد ذا القفل هو نوع من الأغلال الحديدية القديمة . وفى كل قيد من هذا النوع قفل خاص ، لا يفتح الا بمفتاح خاص . وفى العهود السابقة كانت أقدام أفضل الخيول وأثمنها تكسى بهذا القيد القفلى كيلا يستطيع سراق الخيل المحترفون سرقتها والعدو بها من مراتعها . فالأغلال الاعتيادية من الحبال يمكن قطعها بسكين ــ وينتهى الأمر ، أما مع هذا القيد الحديدى القفلى فلن تستطيعن بحال سوق الحصان أو اقتياده أو الهروب به . لكن ذلك كان قديما ، أما الآن فهذا القيد أصبح نادرا . أجل ، ربما ذخر هذا عند شيخ ما كذكرى من ذكريات الماضى . ولا بد أن أحدهم قد أوحى بذلك ،

فيا للعجب • وهكذا قيدوا الحصان الرهوان كيلا يستطيع المضى بعيدا عن مرتع القرية • لكنه ، مع كل ذلك وبرغمه ، مضى •••

شاركت العائلة جميعا فى نزع قيود غولساري • كانت جايدار تمسك به تحت اللجام ، وتغلق عينيه ، فيما كانت بنتاها تلعبان قريبا منها ، أما تاناباى ، الذى كان قد أتى بحقيبته ذات الأدوات فقد جلله العرق ، وكان يحاول أن يجد مفتاحا مناسبا لفتح القفل • ها هى خبرة الحداد قد ساعدته • وبعد أن انشغل وقتا غير قصير ، مشتدا فى العمل حتى صار يلهث ، وبعد أن جرح يديه ، استطاع أن يجد وسيلة مناسبة ، مع كل ذلك وفتح القفل •

ورمى بالقيد بعيدا عن العيون ، سحقا له ! وأقبل يدهن الجروح الدامية فى قدمى الرهوان بمرهم ما ، وبعد ذلك اقتادته جايدار الى المربط • وكانت البنت الكبرى قد رفعت الصغرى على ظهرها ، ومضوا جميعا الى البيت •

أما تاناباى فقد مكث جالسا وقتا ، وكان يلهث ، فقد أمض به التعب • ثم جمع أدواته ، ومضى ، ورفع القيد القفلى من الأرض ، اذ ينبغى ارجاعه ، والا فستلزم المسؤولية عنه • وتفحص القفل الصدىء بنظرة مدققة ، فأعجب بعمل صانعه • كان كل شيء مركبا بدقة ، ومصنوعا بابتكار • أنه عمل الحدادين القرغيز القدماء • أجل ، لقد ضاعت الآن مثل هذه الحرفة ، وطواها النسيان • فالآن لم تعد لازمة مثل هذه القيود • ولكن ها قد اختفت أشياء أخرى ـ ويا للأسف • أية حلى ، أية لوازم وأدوات

من الفضة ، ومن النحاس ، ومن الخشب ، ومن الجلد كانو يتقنون صنعها ! والى ذلك فهى ليست غالية ، فيما يبدو ، وانما كانت أشياء جميلة حقا • كل شيء منها متفرد بنفسه ، خصوصى المميزات • أما الآن فلا توجد مثل هذه الأشياء • فالآن يصنعون من الألومنيوم كل شيء على التوالى : الأكواب ، الأقداح ، الملاعق ، الأقراط ، والطسوت • حيثما تولى فثم وجه الألومنيوم ـ شيء واحد ، متكرر • حتى ان ذلك صار موحشا ، مضجرا • أما الأسطوات من السراجين فقد أصبحوا هم بدورهم ، قليلى العدد • ولكن أية سروج كانوا يتقنون صنعها ! فلكل سرج كان تأريخه وحكايته : من صنعه ، ولمن ، ومتى ، وكيف كان صاحب السرج الجديد يشكر صانع السرج على عمله • وعلى الأرجح سيسافر الجميع ، قريبا ، فى السيارات ، كما هو الحال هناك ، فى أوروبا • الكل فى سيارات متماثلة ، ولن تفرق فيما بينها الا بالأرقام • أما مهارة الأجداد فننساها • لقد دفنت تماما تلك المهارة اليدوية العريقة ، مع أن فى الأيدى تكمن روح الانسان وعيناه •••

كانت مثل هذه التأملات تعمر روح تاناباى أحيانا • فكان ينهد يناقش حول الصنعة الشعبية والحرف ، وكان يعلن عن سخطه دون أن يعرف من الذى يتهمه ويستذنبه فى اختفائها • على انه فى شبابه كان هو نفسه واحدا من حفارى قبور المصنوعات القديمة • بل انه ألقى ذات يوم فى اجتماع كومسومولى بحديث حول تصفية الخيام • كان قد سمع فى مكان ما ان الخيمة ينبغى أن تختفى ، وان الخيمة هذه انما هى مسكن

ما قبل الثورة • « سحقا للخيمة ! كفى عيشا على الطريقة القديمة ! »

« ونزعوا ملكية » الخيمة وصفوها • وجعلوا يبنون البيوت ، أما الخيمة فقد أعدت للهدم • فقطعت قطع اللباد لمختلف الاحتياجات ، أما الخشب فقد استخدموه فى بناء الاسيجة وزرائب الماشية ، بل حتى أعد وقودا •••

ولكن تبين ، بعدئذ ، ان تربية المواشى فى المراعى انما هى أمر غير معقول بدون الخيام • والآن فان تاناباى كان يدهش ، فى كل مرة ، كيف انه تجرأ ان ينطق بمثل هذا الكفر ، وان يلعن الخيمة التى لم يخترع أفضل منها ، لحد الآن ، للترحل • كان يعجب كيف انه لم يستطع أن يرى فى هذه الخيمة الصنع المدهش لشعبه ، حيث كل جزيئة صغيرة وكل تفصيل من التفصيلات قد سوى ، وصنع بمهارة وتجربة عشرات الأجيال عبر القرون ؟

أما الآن فقد صار يعيش فى خيمة من هذه الخيام ، مثقبة، مغطاة بالسخام ، هى تلك الخيمة التى تركها له ترغوى المسن • كان لهذه الخيمة عمر عريق ، وقد تصرم عليها كثير من السنين، أما اذا كانت قد عمرت لحد الآن ، فانما يرجع الفضل فى ذلك لصبر جايدار الخارق • اذ كانت تنشغل أياما بكاملها تخيط وترتق ، وتعمل كل شيء من أجل ان تعطى لهذه الخيمة العتيقة المهلهلة مظهرا صالحا للحياة • ولكن بعد أسبوع لا أكثر ، كانت قطع اللباد العتيق تنزلق هاوية ، فتطلع الشقوق والثغرات من

جديد ، وتعصف الريح من خلال الثغرات ، ويتساقط الثلج ، ويهطل المطر متسربا من الشقوق • ومن جديد كانت الزوجة تضطلع بالاصلاح والترقيع ، وكان يبدو انه ما من نهاية لذلك •

ـ حتى متى سنظل نتعذب ؟ ـ كانت تجأر بالشكوى ، ـ انظر ، ان هذه ليست بقطع اللباد ، وانما تراب ، فهى تتناثر كالرمل • أما الأعمــدة الخشبية فالى أى شىء تحولت ! انه ليخجلنى القول • هلا جاهدت على الأقل من أجل ان يعطونا قطعا جديدة من اللباد ! أأنت رب البيت أم لا ؟ ان علينا أن نعيش ، أخيرا ، كالناس •••

وكان تانابای يهدئها فى البدء وكان يعد • ولكن حين كاد يلمح فى القرية ، لاحتياجه الى انشاء خيمة جديدة ، تكشف ، ان الصناع القدماء قد توفوا منذ زمن ، أما الشبيبة فلم تكن لديهم حتى فكرة حول كيفية صنعها • وفى الكولخوز أيضا لم يكن اللباد الضرورى للخيام موجودا •

ـ طيب ، أعطونا صوفا ، وسنصنع بأنفسنا قطع اللباد •
ـ طلب تانابای منهم •

ـ أى صوف ! ـ قالوا له ، ـ ماذا دهاك ، أمن القمر هبطت الينا ؟ ان كل الصوف يجهز للبيع بموجب الخطة ، أما للكولخوز فلا يفترض ان يترك ولا غرام •••

واقترحوا ، تعويضا ، خيمة من التاربولين * •

---

* هو النسيج المشمع •

ورفضت جايدار رفضا باتا :

ـ لأفضل ان نعيش فى خيمة مثقبة ، من ان نعيش فى خيمة من التاربولين .

لقد اضطر كثير من مربى المواشى الى الانتقال الى أمثال هذه الخيم . ولكن أى عيش هذا ؟ فكل شيء ممنوع : لا تقوم، ولا تقعد ولا تشعل نارا . فى الصيف حر لا يطاق ، وفى الشتاء قر لا تحتمله حتى الكلاب . ولن تستطيع تنظيم أشيائك ، ولا ان تقيم مطبخا ، ولا حتى ان تنظف وترتب حوائجك على نحو أحسن وأجمل . أما حين يأتيك الضيوف ، فتحار ، لا تعرف الى أين تمضى بهم .

ـ كلا ، كلا ! ـ رفضت جايدار ، ـ كما تشاء ، ولكنى لن أعيش فى خيمة كهذه . انما الخيم لمن ليس لهم عوائل ، ولعل ذلك موقتا أيضا ، أما نحن فمعيلون ومطفلون . ولا بد من غسل الأطفال ، وتنشئتهم ، كلا ، لن أعيش هناك ...

وفى تلك الأيام التقى تاناباى ، ذات مرة ، بتشورو وكاشفه بكل شيء .

ـ كيف يحدث مثل هذا ، أيها الرئيس ؟

وهز تشورو رأسه بحزن .

ـ فى مثل هذه الأمور ، كان ينبغى علينا أن نفكر ، فى وقتها . وكذلك كان ينبغى على مسئولينا . أما الآن فماذا نفعل

ـ نحرر الرسائل اليهم ، ولا نعرف بماذا سيجيبوننا . يقال ، ان الصوف مادة أولية ثمينة ونادرة ومادة للتصدير . أما الانفاق

على الضرورات الاقتصـــادية الداخلية . فأمر غير معقول ، كما يقال .

وصمت تاناباى بعد ذلك . اذن فهو ذاته كان مذنبا ، لحد ما . فكان يضحك من حمقه ، صامتا : « غير معقول ! » .

وهكذا ، وعلى هذه الحال ، ظلوا يعيشــون فى الخيمة العتيقة ، المرقعة بصنوف الرقع وألوانها ، والتى كانوا يحتاجون الصوف الاعتيادى من أجل تصليحها . بيد ان هذا الصوف ، بالمناســبة ، كانوا يجزونه من قطعان الضــأن فى الكولخوز بالأطنان ...

تقدم تاناباى من خيمته والقيد الحديدى القفلى بيديه . فتراءت له هذه الخيمة حقيرة ، تافهة ، واستحوذ عليه ، فى الحال، سخط عارم على كل شىء ــ على نفسه، وعلى هذا القيد الحديدى القفلى الذى أدمى قدمى الحصان ، بحيث انه جعل يزيق أسنانه. وفى هذه اللحظة الحرجة تحت وطأة هذا السخط العارم ، كان قد جاء السواس ، الذين انطلقوا بحثا عن غولسارى .

ــ خذوه ، ــ صرخ فيهم تاناباى . وتحركت شفتاه من الحقد ، ــ أما هذا القيد الحديدى القفلى فأعطوه الى رئيسكم وقولوا له : ان تجرأ مرة أخــرى على تقييد الرهوان ، فانى سأحطمن رأسه بهذا القيد . هكذا أبلغوه ! ..

عبثا قال ذلك . أوه ، عبثا ! فلقد كلفته هذه الحدة وهذه الصراحة ثمنا غاليا فى حيــاته ...

٩

حل نهار مشمس ، نيره ضيق الربيع عينيه أمام الشمس الساطعة ، وتجعدت وجوه أوراقه الجديدة ونبتـاته الكثار ، وأطلق نهاته فى الأرض المحروثة ، وطلع عشبا وافرا فى الممرات والدروب ، ونتأ تماما تحت الأقدام •

كان الصبية يلعبون ، بجانب ، لعبة «التشيجيك»

يرمى صبى حرك ، نشيط بالعصا الصغيرة ، الى فوق ، فى الهواء ، ويدفعها بعد ذلك وهى فى الهواء بضربة من عصا أخرى، بكل قواه ، لتطير مسافة فى الطريق • ثم يبدأ يقيس المسافة على الأرض بعصاه ــ واحد ، اثنين ، ثلاثة ••• سبعة ••• عشرة ••• خمسة عشر ••• ويمضى المحكمون الماحكون بجنب اللاعب ، جماعة ، يراقبونه كيـلا يتلاعب أو يزيد • اثنـان وعشرون •

ــ كان ثمانية وسبعون ، والآن اثنان وعشرون ، ــ يحسب الفتى اللاعب ، ويفذلك الحسـاب ، ويهتف من فرط سروره ،

ــ مائة ! صارت مائة !

هورا ، مائة ! يلتقفها الآخرون •

اذن ، اصاب الهدف وربح الدور فى اللعبة • مائة ، دون زيادة أو نقصان • والآن ، فان الخـاسر يجب أن « يزمر » • ويمضى الظافر الى الحد ، الذى وقعت عنده العصا ، ويرميها مرة أخرى ، بذات الطريقة، كى تقع أبعد من ذى قبل • ويهرع الجميع الى هناك ، حيث وقعت العصا ، ومن الحد الجديد يرمى بالعصا ، بذات الطريقة ، مرة ثالثة • عندها يحزن الخاسر أشد الحزن ، بل

تكاد دموعه تطفر • ذلك أن عليه أن يزمر كل هذه المسافة البعيدة! ولكن قانون اللعب لا يخرق • « لماذا تقف ، هيا زمر ! » ويجمع المزمر الهواء فى رئتيه ويركض ، وهو يردد :

اقباي ، قوقباى ،
لا تطرد العجول فى الحقول •
فان طردتها ــ لن تلحقها •
وستتلقى الجزاء ــ دوــوــوــو •••

ويصدع رأسه وينفطر ، وهو لا يزال يزمر • لكن كلا ، لن يصل الحد • فعليك الرجوع والبدء من جديد • ومن جديد لم يصل • أما الظافر فيضحك ويمرح جذلا • ما دام نفسك لا يكفيك ــ احملنى اذن ! ويعتلى ظهر الخاسر ، ويحمله ذلك، كما لو أنه حمار •

ــ هيا الى الأمام ، هيا اسرع ! ــ يلزه راكبه بقدميه ، ــ أنظروا ، أيها الفتيان ، ان هذا هو حصانى ــ غولسارى ! أنظروا كيف يمضى رهوا •••

أما غولسارى الحقيقى ، ذاته ، فقد كان يرزح وراء الجدار ، فى الاسطبل • ولسبب ما لم يسرجوه اليوم • ولم يطعموه ولم يسقوه منذ الصباح • لقد نسوه • وقد فرغ الاسطبل منذ زمن ، وتفرقت العربات كل الى ناحية ، وافترق المسافرون على ظهور الخيل كل الى غايته ، ولم يبق الاه فى الاسطبل •••

يجمع السواس الدمان • ويضج الفتيان وراء الحائط • أواه ، لو استطاع الآن أن يبلغ القطعان ، كم بوده أن يطير الى

السهب ! ها هو السهل الرحب يلوح له ، أمام ناظريه ، وها هو يرى كيف تجول القطعان ، كل على هواه ومشيئته • تطير فوقها طيور الأوز الشهباء ، وهي تخفق بأجنحتها ، وتنادى ••

انتفض غولسارى ، وحاول أن يقطع الوثائق التى توثقه• كلا ، لقد ربطوه وثيقا وبقوة بسلسلتين ضخمتين • وفكر : لعل ذويه سيسمعونه ؟ اذن فليصهل • فرمى برأسه الى الشباك تحت السقف ، وجعل يصهل ، وهو يراوح قدميه على أرضية الاسطبل، يصهل على نحو مصم ، مطيل : « أين اذ •• ت •• م — تم — تم ؟ » •

— قف ، أيها الشيطان ، لقد استصرخ ! — وثب السائس، ملوحا ، بالمجرفة • وصرخ ، مخاطبا أحدهم وراء الباب :

— أنخرجه ؟

وأتى الجواب من الفناء :

— أخرجه !

وها هما سائسان يخرجان الرهوان ، يقتادانه الى الفناء• أوه ، ياله من نهار مشرق ! وما أعذب الهواء ! وارتجف منخرا الرهوان الرقيقان الناعمان ، وهما يمستان ويتنشقان نسيم الربيع الثمل • وكانت الأوراق تفوح منها رائحة مرة • وتفوح رائحة الطين الندى من الأرض • وها أن دمه جعل يمرح فى بدنه • كم كان بوده لو يفر الآن • وقفز غولسارى شيئا •

— قف ! قف ! — حاصرته عدة أصوات على الفور •

ماذا حصل اليوم ، ولم هذه الكثرة من الناس حوله ؟ كانوا

يقفون وقد شمروا عن سواعد عفية ، شعراء • وكان أحــدهم في برد رمادى ، ينشر على خرقة بيضاء أشياء معدنية القة • انها تتلامع فى الشمس فتخطف الأبصار • وآخرون ــ كانوا يقفون الحبال فى أيديهم • وحتى السيد الجديد هنا ! يقف متعاظما ، وقد باعد بين ساقيه القصيرتين ، السمينتين فى بنطلون الخيــالة العريض • كان حاجباه مقطبين كما كان الحال عند الجميع • الا أنه لم يشمر عن ساعديه • كان قد وضع احدى يديه عــلى خاصرته ، فيما كان باليد الأخرى يدور زرا فى سترته الرسمية ذات الصف الواحد من الأزرار • وبالأمس فاحت منــه ، مرة أخرى ، ذات الرائحة العطنة •

ــ طيب ، لماذا تقفون ، ابدأوا ! انبدأ يا جــوروكول آلدانوفيتس ؟ ــ خاطب ابراهيم الرئيس • فأحنى هذا رأســه صــامتا •

ــ حسنا ، هلم نبدأ ! ــ تململ اتراهيم ، ومضى يعلق بعجلة قبعته المصنوعة من فراء الثعلب على مسمار ما فى بوابة الاسطبل • ولكن هذه تهوى ، فتقع فى الدمان • فرفعها ابراهيم بتقزز ، ونفضها ليعلقها من جديد ، ــ لو ابتعدت شيئا ، يا جوروكول آلدانوفيتش ، ــ قال هو أثناء ذلك ، ــ والا فانه قد يركل بحوافره ، دون توقع • ان الحصان كائن غير معقــول، انتظر منه المقالب دائما •

وارتجف جلــد غولساري ، وقد أحس فى رقبته بالوهق الشعرى • كان شائكا • وربطوا الوهق بأنشوطة متحركة عــلى

صدره ، ورموا بالنهاية الى الخارج ، على جنبه • ترى ما الذى يلزمهم ؟ ولسبب ما أوصلوا الوهق الى القدم الخلفية ، الى الكاحل ، ولأمر ما شبكوا القدمين وعقدوهما على نحو أوثق• وبدأ غولسارى يتنرفز ويهتاج ، ويشخر ، ويزور بعينيه • علام كل هـذا ؟

ــ عجلوا ! ــ حث ابراهيم القوم وعوى فجـأة بصـوت ناشز عـال :

ــ جنـدلوه !

وسرعان ما جذب زوجان من الأيدى العفية الشعراء الوهق دفعة واحدة ، الى ناحيتهما • فهوى غولسارى على الأرض ، كما لو أنه خر صريعا ــ هخا ــ آ ! وانقلبت الشمس رأسا على عقب ، وارتجت الأرض من وقع الضربة • ما هذا ؟ لماذا يرقد هو على جنبه ؟ ولماذا استطالت وجوه الناس الى أعلى ، فصارت فوقه ، ولماذا نهضت الأشجار وارتفعت فى العلاء ؟ ولماذا يرقد هو على هذا النحو غير المناسب على الأرض ؟ كلا ، لا ينبغى أن يكون الأمر كذلك •

وهز غولسارى رأسه ، وانتفض بكل جـذعه ، وكامل جسمه • الا أن الوهق أخذ يحز مثل أغلال حديدية حارقة ، طاويا قدميه تحت البطن • فاندفع الرهوان ، وتوتر ، وجعـل يحرك قدمه التى كانت لا تزال حرة • وشد الوهق ، وقرقع•

ــ اجثموا عليه ، اضغطوا ، امسكوه جيدا ! ــ صـاح ابراهيم •

وانقض الجميع على الحصان ، جاثمين عليه بركبهم •

ــ رأسه ، اجذبوا رأسه واضغطوا به الى الأرض ! لف ! شد ! هكذا ! عجلوا ! خذ هنا ، شدمرة أخرى • شد مرة أخرى، مرة أخرى • هكذا • والآن اشبك ، ولف عقدة ! ــ كان ابراهيم يزعق دون انقطاع •

وجعلوا يزيدون من شد قدمى الرهوان بالوهق ، حتى جمعت القدمان كلتاهما فى عقدة وثيقة ، جاسئة ، واحدة • وبدأ غولسارى يئن ، وأخذ يجأر ، وهو لا يزال يحاول التملص من هذا التقييد الوثيق الخانق بهذا الوهق ، مطوحا بكل أولئك الذين جثموا على رقبته وعلى رأسه • لكنهم من جديد جثموا عليه بركبهم • وسرى تشنج فى جسم الرهوان المتصبب عرقا، وخدرت قدماه • واستسلم •

ــ أوف ! أخيرا !

ــ يا له من قوى !

ــ لن يتحرك بعد الآن ، حتى ولو كان هو تراكتور !

وهنا وثب الى الرهوان المدحور ، الهاوى ، الموثق ، وثب هو ذاته ، سيده الجديد ، وجلس القرفصاء من ناحية رأسه ، تفوح منه رائحة فودكا الأمس الرديئة ، بدأ يبتسم ويضحك فى لذة متشفية ، فى عداوة صريحة ، ثملا بلذة الفوز ، كما لو أن الذى يرقد أمامه لا حصان ، وانما انسان ، عدوه اللدود •

واندس ابراهيم الى جانبه وقعد ، وهو يجفف وجهه بمنديل،

فقد جلله العرق • ودخنا ، وهما قاعدان على هذا الشكل ، بجانب الرهوان ، دخنا فى انتظار ما كان ينبغى أن يتلو كل هــــذه العمليات •

أما وراء الفناء فقد كان الصبية يلعبون لعبتهم السابقة :

اقباى ، قوقباى ،
لا تطرد العجول فى الحقول •
فان طردتها ــ لن تلحقها •
وستتلقى الجزاء ــ دوــوــوــو •••

كانت الشمس لا زالت تنور كما كانت • ورأى هــــو ، للمرة الأخيرة ، السهب الواسع ، رأى كيف تجول القطعان كل على مشيئته وهواه • تطير فوقها طيور الأوز الشهباء ، تخفق بأجنحتها ، وهى تتنادى ••• لكن الذباب التصق زرافات على بوزه • ولن يستطيع طرده أو كشه •

ــ هل نبدأ ، يا جوروكول آلدانوفيتش ؟ ــ سأله ابراهيم من جديد • وأحنى هذا رأسه • فنهض ابراهيم •

وابتدأ الجميع الحركة ، جثموا على الرهوان المــوثوق بركبهم وبصدورهم • وشدوا برأسه ، أوثق ، الى الأرض • وبدأت يدا أحدهم تهارش بضجة فى الأربية •

وتسلق الصبية السياج ، وحطوا عليه ، كالعصافير •

ــ أنظروا ، أيها الفتيان ، انظروا ماذا يصنعون •

ــ ينظفون حوافر الرهوان •

ــ ما أكثر ما تعرف ! حوافر ! قطعا ليست الحوافر •

ـــ هيه ، ما الذى يلزمكم هنا ، ولوا من هنا ، ابعـــدوا!
ـــ صاح فيهم ابراهيم ولوح مهددا ، ـــ أمضوا ، العبوا ! لا شغل لديكم هنـــا !

فتزحلق الفتيان من السياج هابطين •

وعم الهـــدوء •

كان غولسارى قد تقلص بكليته من الصدمات والهزات ، ومن ملامسة شيء ما بارد • أما السيد الجديد فقد كان لايزال جالسا القرفصاء أمامه ، كان ينظر ، ويرتقب شيئا ما • وفجأة نسف الألم الحاد النور فى العينين • آه ! لقد اندلعت شـــعلة حمراء ألقة ، وفى الحال استحالت قاتمة ، مسودة ـــ سوداء •••

وحين كان كل شيء قد انتهى ، كان غولسارى لا يزال يرقد موثقا • كان ينبغى أن يتوقف نزف الدم •

ـــ وأخيرا ، لله الحمد ، ها قد انتهت المسألة، ـــ قال ابراهيم ، وهو يفرك يديه • ـــ لن يعدو الآن الى أيما جهـــة • انتهى ـــ لقد ركض شوطه فى الحياة • أما بخصوص تاناباى فلا تلق اليه بالا • أبصق عليه • كان دائما بهذا الشكل • انه لم يشفق حتى على أخيه ـــ فنزع ملكيته ، وطـــــوح به الى سيبيريا • فلمن تتصورون أنه يريد الخير ، اذن •••

وأخذ ابراهيم المغتبط ، الراضى قبعته من فراء الثعلب ، ونفضها ، وملسها ، وحطها على رأسه العرق •

أما الصبية فكانوا لا يزالون يرمون بالعصا :

أقباى ، قوقباى ،

... دو - و - و - و .

أها ، انك لم تركض كل المسافة ، اذن فهيئ ظهرك للركوب . تشو ، غولساري ، الى الأمام ! هورا ، هذا هو رهواني غولساري !

وكان نهار مشرق ، مشمس ...

١٠

كان الليل قد ناء بكلكله ، ليل بهيم حالك السواد . وفي جوف هذا الليل كان اثنان : انسان هرم وحصان هرم . شعلة تضطرم في طرف الوادي . ولهبها يعلو وينخفض في الريح ...

كانت الأرض المتجلدة ، الجاسئة قد بردت جنب الرهوان. كان قفاه قد ناخ بثقل حديدي ، أما رأسه فقد كل من النود تارة الى أعلى وتارة أخرى الى أسفل ، مثلما كان حاله آنذاك حين سار قفزا ينوء بالقيد الحديدي القفلي في كلتا قدميه . وكما كان وضعه آنذاك ، هو الآن لا يستطيع الركض ، كما لم يستطع تمزيق القيود . كان بوده أن يلوح بساقيه بحرية ، من أجل أن تتدفأ حوافره من الجري ، وبوده أن يطير فوق الأرض ، لكي ينشق الهواء ملء رئتيه ، وبوده أن ينهب الأرض نهبا كي يبلغ مرتعه بأسرع وقت ، لكي يصهل ملء صوته ، هاتفا بالقطيع كي تعدو الأفراس والأمهار سوية معه في السهب الكبير المغطى بالشيح ، لكن القيود كانت تعوقه . ومضى وحيدا تحت دوي الأصفاد ، مثل فار محكوم بالأشغال الشاقة يسير

على ايقاع سلاسله ، ومضى يقفز خطوة بعد خطرة ، خطوة بعد خطوة. وكان فراغ، وظلام ، ووحدانية • ويتلألأ القمر، يلوح مرة بعد أخرى فى جداول الهواء • كان ينهض ماثلا أمام العينين ، حين كان الرهوان يقفز ، ويرفع رأسه ويهوى القمر كالحجر ، حين ينزل الرهوان رأسه •

كان الجو ينور تارة ، ويظلم تارة أخرى ، طورا ينور ، وطورا آخر يظلم ••• لقد كلت عيناه من النظر •

تدوى السلاسل فتبرى قدميه وتدميهما • قفزة ، فقفزة أخرى ، فأخرى • وكان فراغ وكان ظلام • ما أطول السير فى القيود ، ما أشق السير فى القيود !

الشعلة تضطرم فى طرف الوادى • وقد جمد جنب الرهوان بسبب الأرض المتجلدة الجاسئة •••

١١

بعد أسبوعين كان عليه أن يقوم بترحال جديد ، مرة أخرى الى الجبال • وسيمكث هناك طوال الصيف ، وطيلة الخريف والشتاء ، حتى الربيع التالى • كم من العنـــاء يكلف السفر والانتقال • حتى اذا انتقلت من شقة الى شقة ، يصيبك تعب ونصب كثير • ترى من أين تتجمع كل هذه الحاجيات القديمة، وكل سقط المتاع هذا ؟ أو ليس لهذا قال القرغيز منذ القدم : ان حسبت نفسك فقيرا ، فحاول أن تترحل !

كان ينبغى عليه أن يتهيأ للترحل ، كان يلزمه أن يؤدى جملة

من الأعمال المختلفة، كالسفر الى الطاحونة، والتعريج الى السوق، الى الحذاء ، والى الابن فى المدرسة الداخلية ... أما تانابای فقد كان يسير خائر النفس ، مغموما . وكان يبدو غريبا فى ناظرى زوجته فى تلك الأيام . كان يسرع فى الفجر مستعجلا أبدا ، فكنت لا تستطيع أن تتحدث معه مليا ، لأنه سيفارقك فى الحال مبتعدا رمحا الى القطيع . وكان يعود لتناول الغداء مكتئبا ، مثارا . كان طيلة الوقت فى حال من الترقب والانتظار، لكأنما كان يتوقع شيئا ، فكان أبد الوقت متوترا ، مرهفا .

ــ ماذا دهاك ؟ ــ كانت جايدار تسأله مستخبرة . فكان يلزم الصمت ولا يرد . لكنه ذات يوم قال :

ــ لقد رأيت حلما سيئا ، منذ زمن غير بعيد .

ــ أتقول كذلك لأجل أن تتخلص من الجواب على أسئلتى؟

ــ كلا ، لقد حدث هذا فى الواقع . وهو لا يبـــارح رأسى .

ــ لقد عشنا حتى هذا الوقت وطعنا فى السن . ولكن أو لست أنت أول من بدأ ونظم معشر الكفار فى القرية ؟ أو لست الذى لعنتك العجائز ؟ انما أنت تشيخ ياتانابای ليس الا ، فها أنت تحوم وتدور حول القطيع ، أما أن الترحل قد صار قاب قوسين أو أدنى ــ فهذا أمر لا يهمك . أحقا أستطيع ان ادبر الأمور وحيدة مع الأطفال ؟ لو ارتحلت لرؤية تشورو على الاقل، ان الناس الاسوياء يزورون المرضى ، قبل الترحـــل .

ــ لا زال ثمة وقت ، ــ لوح تانابای بيديه ، ــ بعدئذ.

ـ متى بعدئذ ؟ ماذا بك ؟ أتخاف أن تسافر الى القــريةؐ؟ لنسافر اذن سوية غدا • لنأخذ الأطفال ونرتحل • فانه ليلزمنى أنا أيضا أن أزور القرية •

وفى اليوم التالى ، وبعد أن اتفقا مع الجار الفتى ليعنى بأمور القطيع وقت غيابهما ، ارتحلت العائلة كلهــا على ظهــور الخيل : جايدار مع البنت الصغيرة ، وتاناباى مع الكبيرة • أخذ الطفلتين ، ووضعاهما أمامهما على السروج •

طافوا فى شوارع القرية ، وحيـــوا من لاقوهم وحيوا المعارف ، لكن تاناباى أوقف فرسه فجأة بجنب ورشة الحدادة •

ـ قفى لحظة ، ـ قال للزوجة • وترجل من السرج ، وأقعد البنت الكبرى الى الزوجة على كفل الحصان •

ـ ماذا بك ؟ الى أين أنت ؟

ـ سأجىء الآن ، جايدار ، ارتحلى • قولى لتشورو اننى سأمر عليه فى لحظة • لدى قضايا مستعجلة فى الدائرة ، وستغلق هى قريبا لفرصة الغداء • وعلى ورشة الحدادة يلزمنى العروج • فعلينا توفير الحداوى ، والمسامير فى الارتحال •

ـ لا يليق أن نزوره مفترقين •

ـ لا يهــم ، لا بأس • ارتحــلى أنت ، وأنا ســأتبعك بعد برهة •

لم يعرج تاناباى لا على الدائرة، ولا على ورشة الحدادة • انما ارتحل مباشرة الى بيت الخيل •

دخل الى الاسطبل ، مترجلا ، دون أن ينادى أحد • وجف

فمه ، فيما اعتادت عيناه على الظلمة الخفيفة هنـــاك • كان الاسطبل فارغا ، هادئا ، وقد مضت الخيول جميعا فى مختلف أغراض السفر والتنقل ، وما أن عاين تانابای ذلك حتى تنفس الصعداء وخرج عبر الباب الجانبى الى فناء الاسطبل ليرى أى سائس من سواس الاسطبل • وهنا رأى ما كان يخشاه طيـلة هذه الأيام •

ـ هكذا خمنت ، أيها الأوغاد ! ـ قال بهدوء ، جامعا قبضة يده فى توتر •

كان غولسارى واقفا تحت السقيفة ، بذيل مضمد بلفائف ومربوط بحبل الى رقبته • وبين القدمين الخلفيتين المنفرجتين اقتم ورم صلب ، منتفخ بحجم الابريق • كان الحصان واقفا دون حركة ، وقد نكس رأسه المعلف باكتئاب • فبدأ تانابای يخور، عاضا شفتيه ، وأراد أن يمضى الى الرهوان ، لكنه لم يجـرؤ• كان الأمر رهيبا مريعا بالنسبة له • لقد استفظع هذا الاســطبل الخاوى ، وروع من رؤية بيت الخيل المقفر الا من الرهــوان المخصى وقد ترك لوحده • فاستدار وقفل راجعا لا يلوى على شيء • فلقد كان الأمر قد انتهى ولم يعد اصلاحه ممكنا •

ومســـاء ، حينما رجعوا الى الخيمــة ، قــال تانابای لزوجته بأسى :

ـ لقد صح حلمى •

ـ ولكن ماذا ؟

ـ لم أقل شيئا عن ذلك وقت كنا فى ضيافة تشورو •

الا أن غولسارى لن يأتينا بعد الآن • أتعرفين ماذا فعلوا به ، لقد خصوه ، الأوغاد !

ـ أعرف • ولذلك جررتك الى القرية • هل خفت أن تعرف ذلك ؟ ولكن علام الخوف ؟ انك لم تعد صغيرا ! أو هذه أول أو آخر مرة يخصون فيها حصانا ؟ كان هذا منذ سحيق الأزمان وسيكون • وقد أصبح هذا معروفا للجميع •

ولم يعلق تاناباى بشىء على هذا • لكنه قال :

ـ كلا ، مع ذلك يخيل لى ان رئيسنا الجديد ، انسان ردىء • بهذا يحدثنى قلبى •

ـ دع عنك هذا ، يا تاناباى ، ـ قالت جايدار ، ـ يعنى، مادام قد خصوا حصانك ، اذن ، على الفور ، يصبح الرئيس رديئا • علام تقول هذا ؟ انه انسان جديد ، والمزرعة كبيرة ، وفى حال صعبة • ها ان تشورو نفسه يقول انه منذ الآن سيتم تنظيم أمور الكولخوزات على نحو دقيق ، وستقدم المساعدة • بل ان الخطط قد وضعت لذلك • أما أنت فتحكم على كل شىء قبل الأوان • اننا لا نعرف الكثير هنا •••

وبعد العشاء توجه تاناباى الى القطيع • وظل هنـاك حتى آخر الليل • كان يؤنب نفسه ، بل وكان يرغم نفسه على أن ينسى كل شىء ، ومع ذلك فلم يبـارح باله ما رآه نهـارا فى الاسطبل • وفكر ، وهو يطوف بالقطيع ، دائرا فى السهب : « لعله حقيقة انه لا يصح الحكم على الانسان بهذا الشكل ؟ فذلك بالطبع غباء • وهذا ، على الأرجح بسبب أننى أشيخ ،

وأظل أرعى القطيع عاما كاملا ، دون أن أعرف أو أرى شيئا . ولكن الى أى وقت سيظل العيش صعبا بهذا الشكل ؟ .. ومع ذلك فما ان تسمع الخطب والأحاديث حتى تتصور ان كل شيء على مايرام ، وان الأمور تجرى رخاء . موافق ــ فلنفترض أننى أخطىء . هب ، اننى أخطأت . ولكن الآخرين ، على الأرجح ، يفكرون بهذا الشكل أيضا ... »

دار تاناباى فى السهب ، وفكر مليا ، ولم يجد جوابا على شكوكه . وطفق يتذكر كيف بدأوا بانشاء الكولخوز فى وقت من الأوقات ، وكيف وعدوا الناس بالحياة السعيدة ، وأية أحلام كانت عند الجميع . وكيف ناضلوا من أجل تحقيق هذه الأحلام. لقد قلبوا كل شيء واجترفوا كل قديم . ولكن ، وللحق ، عاشوا فى البداية على نحو غير سيء . ولكانوا قد عاشوا أفضل لو لم تكن هذه الحرب اللعينة . أما الآن ؟ كم من السنين تصرمت بعد الحرب ، ولا يزال نرقع المزرعة ، كما نرقع الخيمة العتيقة المهملة . تخيطها فى جانب ، لتنفتق فى جانب آخر . ولكن مم هذا ؟ لماذا صار الكولخوز كأنه ليس كولخوزك ، مثلما كان سابقا ، وانما كأنه كولخوز غريب ؟ فآنذاك ، كلما قرر الاجتماع شيئا فانه يصبح قانونا . كانوا يعلمون ، ان القانون صاغوه هم أنفسهم ، وعليهم تنفيذه . أما الآن ، فان الاجتماع مجرد أحاديث فارغة ليس الا . ولا أحد يهتم بك . كأن الكولخوز لا يديره الكولخوزيون أنفسهم، وانما يديره دخيل، غريب . كان الغريب يرى على نحو أوضح ويقرر على نحو أفضل ما العمل ، وكيف

العمل أفضل وكيف ادارة المزرعة • يلفون ، يقلبون ، يدورون بالمزرعة تارة بهذا الشكل ، وتارة بشكل آخر ، ولكن دون نفع ولا جدوى • حتى اللقاء بالناس صار رهيبا ــ فانهم ما ان يروك حتى يبادروك بالسؤال : ها انك عضو حزبى ، أحد مؤسسى الكولخوز ، وأكثر الجميع صراخا وزعيقا ــ هلا فسرت لنا ، كيف يحصل كل هذا ؟ فما الذى ستقول لهم ؟ لو جمعوا الناس على الأقل وحدثوهم شيئا عن الموضوع • لو سألوا الناس عما يجول فى خواطرهم ، وعن أفــكارهم واقتراحاتهم ، وهمومهم وشكاواهم • كلا ، انهم لا يفعلون ذلك • فحتى المفوضون الذين يأتون من المركز المنطقى اناس آخرون ، وغيرهم بالأمس • فمن قبل كان المفوض يمتزج بالناس ، وكان الناس كلهم يقدرونه فهو فى متناولهم • أما الآن فيأتى ، ليصرخ فى رئيس الكولخوز بالدائرة، أما مع مجلس القرية فلا يتحــدث بحــال • واذا خطب فى الاجتماعات الحزبية ، فعن الوضع الدولى ، على الأكثر ، أما وضع الكولخوز فهذا لا يهمه ، كأنه ليس بالمسألة الهامة • اعملوا ، انجزوا الخطة ، ولا شىء أكثر •••

وتذكر تاناباى كيف جاء أحدهم الى هنا منذ زمن غير بعيد، فكان يتحدث طيلة الوقت عن مذهب جديد فى علم اللغة • وقد حاول تاناباى التحدث معه حول وضع الكولخوز ومعاشه ــ فكان يجيب خائفا : أفكارك مريبة • ولم يستحسنها • فكيف يحدث كل هذا ؟

« ما أن ينهض تشورو من فراش المرض ــ قرر تاناباى ــ .

حتى أجبره على الافضاء بما فى قلبه • وسأدلى بكل ما عندى • فان كنت خاطئا ، فليقل لى آنذاك باننى خاطىء ، أما اذا لم أخطىء ؟ •• فكيف الأمر آنذاك ؟ كلا — كلا ، مثل هذا لا ينبغى أن يكون • بالطبع أخلط أنا • من أنا ؟ مسئول قطيع بسيط ، راع • أما هم فأناس حكماء ••• »

رجع تاناباى الى الخيمة ، ولم ينم طويلا • لقد فكر مليا، وطويلا ، وقلب الأمر تقليبا : فيم العلة ، أين المشكلة ؟ ومن جديد لم يعثر على جواب شاف •

أما مع تشورو فلم يوفق ، والحال هذا ، للحديث معه • فلقد أغرق بالأعمال حتى الهامة ، قبل الترحل •

ومن جديد ترحل المترحلون الى الجبال ، رحلوا رحلة الصيف ، ليمكثوا هناك طوال الصيف والخريف والشتاء حتى الربيع التالى • ومن جديد مضت قطعان الماشية ، والخيل ، والضأن على طول النهر ، وفى مناطق الأرض التى تغمرها مياه الفيضان • وامتدت قوافل الرحل • ورجع الهواء مختلف الأصوات ، وخفقت بضروب الألوان مناديل النساء وفساتينهن ، وأخذت الفتيات يغنن عن الفراق •

وساق تاناباى قطيعه عبر المرج الكبير، فى التلال السفحية بجانب القرية • وكان ذلك البيت ، وذلك الفناء ، الى حيث كان يرتحل على رهوانه ، كان لا يزال ينهض فى الطرف القصى من القرية• وآلمه قلبه • فالآن لم تعد لديه لا تلك المرأة، ولا الرهوان غولسارى • لقد أصبح كل شىء فى خبر كان ، وها هو يضج

فى الذكريات فحسب ، مثل سرب من طيور الأوز الشهباء فى الربيع •••

••• وتركض الناقة أياما كثيرة ، تبحث ، وتنادى طفلها • أين أنت يا حوارى الأسود العينين ؟ أجب ! يجرى الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، ويشخب جداول فى القدمين • أين أنت ؟ أجب ! يسيل الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة • الحليب الأبيض •••

١٢

وفى خريف ذلك العام كان مصير تاناباى باكاسوف قد تغير فجأة •

فبعد عودته من المضيق الجبلى ، استقر هو فى التلال السفحية ، فى المراتع الخريفية ، من أجل أن يمضى قريبا بالقطعان الى مكانات الرعى المحددة فى الجبال ، لقضاء فصل الشتاء •

وفى هذه الأيام بالذات وصل رسول من الكولخوز •

ــ أرسلنى تشورو ، ــ قال هو لتاناباى ، ــ لأخبرك باسمه ان عليك أن تأتى الى القرية غدا ، لتمضيا معا من هناك الى الاجتماع فى المركز المنطقى •

وفى اليوم التالى وصل تاناباى الى دائرة الكولخوز • كان تشورو هنا ، فى غرفة المنظم الحزبى • وكان يبدو أفضل مما كان حاله فى الربيع ، بالرغم من انه كان واضحا ، حكما على زرقة شفتيه وهزاله ، ان المرض كان لا يزال موجودا لم يبارحه

بعد • وكان ناشطا حميا فى تصرفه ، وكان غاية فى الانشغال • وقد احتشد الناس حوله • فسر تاناباى لحال صديقه ، واغتبط بذلك • اذن فقد شفى ، وأقبل على العمل من جديد •

وحين بقيا لوحدهما ، هما الاثنين ، فان تشورو نظر الى تاناباى ، ومس براحته خديه الضامرين ، الجاسئين ، وابتسم :

ــ أما أنت يا تاناباى فلا تشيخ ، فلا زلت من حيث المظهر أنت أنت • منذ متى لم نلتق ، وكم من الوقت قد تصرم ــ منذ الربيع نفسه ؟ ان حليب الكوميس وهواء الجبال شيئان نافعان جدا ••• أما أنا فأنهار شيئا فشيئا • انه الزمن ، على الأرجح ، قد ••• ــ وصمت برهة ثم ابتدأ الكلام عن الموضوع الذى سيدور عليه البحث والذى استدعى فيه تاناباى ، ــ هاك ما عندى ياتاناباى • انى لأعرف ، انك ستقول ــ أعط من لا يستحى ملعقة ليذوق الحساء وسيحتسى خمس مرات بدلا من مرة واحدة • من جديد يخصك الأمر • غدا سنرحل الى اجتماع مربى الماشية • ان الأمر على غاية السوء بخصوص تربية الماشية ، وبشكل خاص بالنسبة الى تربية الضأن ، وخصوصا فى كولخوزنا • قضية خاسرة تمــاما • ولقد توجهت اللجنة المنطقية بنداء دعت فيه الشيوعيين ، والكومسومولين للتوجه الى القطاعات المتأخرة ، الى قطعان الضأن • أنقذنا ! بالأمس أنقذتنا بخصوص قطعان الخيل ، فشكرا لك ، والآن أنقذنا أيضا ! خذ قطعان الضأن ، وتحول الى رعى الأغنام !

ــ عجول أنت جدا ، ياتشورو • ــ صمت تاناباى برهة •

« لقد اعتدت الخيول وتعودتني ، ـ فكر هو • ـ أما مع الأغنام فسيكون الأمر مضجرا نوعا ما ! ثم كيف سيتم كل هذا ؟ »

ـ ألزمك ، يا تاناباى ، ـ قال تشورو ثانية ، ـ وليس ثمة خيار ـ انها مهمة حزبية • لا تغضب • ذكرني ، عند الضرورة، على نحو صديق ، وسأجيب في الحال عن كل شيء ! ••

ـ أجل ، سأذكرك ، يوما ما ، تذكيرا حازما ولن تسر لذلك، بحال ! ـ طفق تاناباى يضحك ، دون أن يفكر ، انه ليس ببعيد جدا ذلك الوقت ، الذى سيلزمه ان ينبه فيه تشورو عن كل شيء ••• ـ أما بخصوص قطعان الضأن فينبغي التفكير شيئا ، والتحدث مع الزوجة •••

ـ حسنا ، فكر ! ولكن عند الصباح احزم أمرك ، فغدا على أن أبلغ بذلك قبل الاجتماع • أما مع جايدار فتشاور معها فيما بعد ، واشرح لها كل شيء • أجل ، وأنا نفسي سأجيء ، عند سنوح الفرصة وأحدثها • انها ذكية ـ وستفهم • لو لم تكن هي عندك ، لكنت قد هلكت ، منذ زمن ، في مكان ما ، وانتهى أمرك ، ـ قال تشورو ممازحا • ـ كيف تعيش هي هناك ؟ وكيف الأطفال ؟

وتحدثا عن عائلتيهما ، وعن الأمراض ، وعن هذا وذاك من الأمور • وكان تاناباى متلهفا ، طيلة الوقت ، لأن يبدأ حديثا كبيرا مهما مع تشورو ، لكن مربي الماشية بدأوا يفدون ، وقد استدعيوا من الجبال ، ثم ان تشورو ذاته جعل يستعجل ، وقد نظر الى ساعته •

ـ اذن، بهذا الشكل، اتفقنا • سلم حصانك الى الاسطبل • لقد قررنا الارتحال سوية فى سيارة عند الصبح • فلقد تسلمنا سيارة • وسنستلم الثانية قريبا • سنعيش ! أما أنا فسأتوجه الآن ، فالمقرر ان أكون قبيل الساعة السابعة فى مقر اللجنة المنطقية • والرئيس هناك • أتصور ، انى سأفلح ، على الرهوان، فى الوصول الى هناك قبيل المساء ، فانه لا يقل عن السيارة فى سرعة الجرى •

ـ كيف ، أحقا سترتحل على غولسارى ؟ ـ دهش تاناباى،

ـ اذن فالرئيس قدرك •••

ـ كيف القول • قدر ـ لم يقدر • ولكنه أعطانى اياه • أتدرى ، أية مصيبة ، ـ بسط تشورو يديه ضاحكا • ـ لقد كره غولسارى الرئيس لسبب ما • مجرد أمر لا يفهم بالعقل • انه يتوحش ، ولا يسمح له بالاقتراب منه • لقد حاولوا بمختلف الوسائل والأشكال ، ولكن لم ينجحوا بحال ! من رابعة المستحيلات • أما أنا فأرتحل عليه بسهولة ـ انه يجرى على نحو رائع ، فقد روضته أنت جيدا • أتعرف ، ينتابنى مرض القلب أحيانا ، فيؤلمنى قلبى ، ولكن ما أن أمتطى ظهر الرهوان، ويسير بى ، حتى يزول الألم ، كما لو أن يدا قد مسحته مسحا • ولقاء هذا فقط أنا مستعد أن أعمل طيلة الحياة منظما حزبيا ، فانه يعالجنى ! ـ ضحك تشورو •

أما تاناباى فلم يضحك •

ـ وأنا أيضا لا أحبه • ـ ردد هو •

ـ من ؟ ـ سأل تشورو ، وهو يمسح دموع الضحك من عينيه •

ـ الرئيس •

واكتسى محيا تشورو سيماء الجد :

ـ لماذا لا تحبه ؟

ـ لا أدرى • أتصور انه انسان تافه ، أجوف وحقود •

ـ أتعرف ، من الصعب ارضاؤك • لقد عذلتنى طيلة حياتى بسبب لين العريكة ، وهذا أيضا ، كما يتبين ، لا تحبه ••• لا أدرى • لقد التحقت بالعمل منـذ زمن غير بعيد • ولم أستطع بعد أن أتفحص وأدرك الأمور •

وران عليهما الصمت • فقد لاح لتاناباى ان ما أراد قوله لتشورو عن القيد الحديدى القفلى ، وعن الاخصاء ، انما هو الآن ليس فى محله ، بل وليس مقنعا • ولكى لا تطول الوقفة فى الحديث جعل تاناباى يتحدث عما أبهجه فى حديث تشورو ، كنبأ سار :

ـ انه لأمر طيب جـدا أنهم أعطـوكم سـيارة • اذن فللكولخوزات أيضا ابتدأوا تخصيص سيارات • أجل هذا لازم، وضرورى • أتذكر حين استلمنا قبيل الحرب سيارة النقل الأولى• لقد احتشد القوم جميعا آنذاك • كيف لا ـ هذه هى سيارة الكولخوز الخاصة ! وانت نفسك حينذاك خطبت ، واقفا فى جوف السيارة : « ها هى ـ أيها الرفاق ، ثمار الاشتراكية ! »

ـ أما بعدئذ فحتى هى أخذوها الى الجبهة •••

أجل ، كان مثل هذا الوقت ••• وقت رائع بهى بهاء شروق الشمس • ماذا كانت تعنى سيارة النقل آنذاك بالقياس الى أحداث أخرى ! وعندما رجعوا من بناء قناة تشويسكى ، وجاءوا معهم بأول جهاز حاك ، فكيف اشرأب القوم برقابهم وأرهفوا آذانهم محتشدين لسماع الأغنية الجديدة ! كان ذلك فى نهاية الصيف • فكان الناس جميعا يجتمعون كل مساء عند أولئك الذين أتوا بأجهزة الحاكى ، فكان هؤلاء ينقلونها الى الشارع ، ليسمع الجميع ويشنفوا آذانهم بسماع أغنية الاسطوانة عن العاملة الطليعية ذات الخمار الأحمر • « ايه ، أيتها العاملة الطليعية ذات الخمار الأحمر ، لو غليت لى شايا ! •• » لقد كان هذا أيضا بالنسبة لهم من ثمار الاشتراكية •

ــ ولكن كيف تكدسنا نحن بعد الاجتماع فى سيارة النقل ــ كيف تكدسنا فحشونا السيارة لحد الامتلاء ! ــ تذكر تانابای منتعشا ، ــ لقد وقفت أنا عند القمرة وبيدى علم أحمر ، تماما كما لو فى عيد • وارتحلنا فى السيارة دون غاية ، الى المحطة ، ومن هناك على طول السكة الحديد ، الى محطة أخرى ، الى كازاخستان • وشربنا البيرة فى المنتزه • وطيلة الطريق الى هناك ، وفى طريق الأياب ، كنا نغنى ألوان الأغانى • قليل من تبقى من أولئك الفتيان ــ فأكثرهم قد استشهد فى الحرب ، أجل ••• وليلا ، حتى فى الليل ، اسمع ، لم أفلت من يدى هذا العلم الأحمر • ليلا ، من كان سيراه ؟ ولكننى أمسكت به باستمرار ، ولم أفلته من يدى ••• كان ذلك علمى • وكنت طوال الوقت

أغنى وأغنى ، حتى بح صوتى ، أتذكر كل ذلك ••• ولكن ، بالمناسبة ، لماذا نحن الآن لا نغنى يا تشورو ؟

ــ نشيخ ، ياتاناباى ، والآن هذا لا يليق لحد ما •••

ــ لكنى لست بصدد هذا ــ نحن بالطبع قد غنينا أغنيتنا • لكن والشبيبة ؟ ها انى أتردد على ابنى فى القسم الداخلى • أتدرى أى انسان سيصبح بعد انهاء التعليم هناك ؟ منذ الآن صار يعرف كيف ارضاء الرؤساء ومداهنتهم • أنت ، يا أبى ــ يقول ــ اجلب كمية أكبر من شراب الكوميس لمدير المدرسة • ولكن علام هذا ؟ انه يدرس بشكل لا بأس به ••• ولكن ليتك سمعت كيف يغنون ! أتذكر اننى حين اشتغلت عاملا زراعيا فى صباى عند يفريموف الروسى فى قرية الكسندروفكا ، فكان هذا قد أخذنى مرة الى الكنيسة فى عيد الفصح • وها هم أولادنا يرتقون المسرح جميعا ، يسلبون الأيدى على الجانبين ويغنون بوجوه متحجرة ، تماما كما لو فى كنيسة روسية • وكل ما يغنون شيء واحد متماثل ، على ذات النمط والمنوال ••• لا ، ان هذا لا يعجبنى • وعلى العموم فكثير من الأمور لا أفهمها الآن ، علينا أن نتحدث بهذا الخصوص ••• لقد تأخرت عن الحياة ، ولم أعد أفهم كل شيء •

ــ لا بأس ، ياتاناباى • سنتحدث فى مرة تالية ، سنجد وقتا ، ــ وجعل تشورو يجمع أوراقه ، ويضعها فى محفظته • ــ شيء واحد ــ لا تنفعل بقوة • أنا ، مثلا ، أومن ايمانا قويا أنه مهما كانت الأحوال صعبة ، فاننا سننهض ، برغم ذلك ،

وسنحيا على ذلك الشكل الذى حلمنا به ••• ـ قال هـو ، متهيأ للخروج وعند العتبة التفت ، وتذكر : ـ اسمع ، ياتاناباى، لقد مررت ذات مرة بالشارع الذى فيه بيتك ـ فلحظت أن بيتك قد خوى تماما • أنت لا تلقى نظرة عليه • طوال الوقت فى الجبال ، والبيت مهجور ، دون صاحب • كانت جايدار وحدها أثناء الحرب ، ومع ذلك ، ومن دونك ، كانت تعتنى به على نحو أفضل مما تفعل الآن معه • هلا ألقيت نظرة عليه • آنذاك أخبرنى أى شيء يحتاج ، وفى الربيع سنساعدك بشكل من الأشكال فى التصليح • لقد جاء ابنى سامنصور صيفا بمناسبة العطلة ، ومع ذلك لم يطق صبرا • أخذ محصدة ، وقال انه سيحش الحشائش الطفيلية الطويلة فى فناء تاناباى • لقد انهار الجص ، والزجاج ذاته محطم ، مكسور ، وهو يقول ان العصافير تتنقل فى الغرف كما فى بيدر •

ـ بخصوص البيت ـ أنت محق • ولسامنصور شـكرى وامتنانى • كيف يدرس هو هناك ؟

ـ فى السنة الثانية ، وهو يدرس ، بشكل جيد ، فى رأيى• ها أنك قد تكلمت عن حال الشبيبة ، وأنا أحكم قياسا على ولدى ـ لكأن شبيبة اليوم ليست سيئة • فمن أحاديثه وقصصه أفهم أن الشباب فى المعهد عمليون حاذقون • وبالطبع ، سيتضح الأمر فيما بعد • ان الشبيبة تتعلم الآن وسوف تفكر فى نفسها بشـكل جاد •••

وتوجه تشورو الى اسطبل الخيل ، أما تاناباى فقد ارتحل

ليعاين بيته • وجال حنايا الفناء كله وطافها • وكانت الحشائش الطفيلية الطويلة المتربة الجافة تخشخش متقصفة تحت الأقدام ، وكانت قد جزت صيفا بيد الطالب سامنصور ، ابن تشورو • كان ضميره يخزه أن البيت مهجـــور ، ينصب بعيدا عن عينى صاحبه ورعايته • وفى بيوت مربى الماشية الآخرين كان الحال أفضل • فقد تبقى أقارب ، أو أن أحدا ما كان يلقى نظرة عليهـا على نحو من الانحاء • أما بالنسبة له ، فكانت أختاه تعيشـان فى قريتين أخريين ، كما أنه ليس على وفاق مع الأخ قولوباى أما جايدار فليس عندها من أقارب وثيقين عموما • وقـد نتج بالتالى ان البيت كان مهجورا بالفعل • والآن ها هو من جـديد ملزم أن يعمل فى تربية الماشية فى المراتع وسيصبح راعى غنم • كان تاناباى لا يزال مترددا حتى الآن ولكنه كان يعرف فى قرارة نفسه أن تشورو ، مهما كان الأمر ، سيقنعه ، وهو لا يستطيع رفض كلامه ، وسيوافق كما هو الحال دائما •

وارتحلوا عند الصباح فى السيارة ، من القرية ، متوجهين الى المركز المنطقى • كانت سيارة النقل من طراز «غاز» ، ذات حمولة ثلاثة أطنان ، قد أعجبتهم جميعا • «نرتحل كالقياصرة !» — جعل رعاة الماشية يمزحون • وسر تاناباى أيضا اذ لم يقع له منذ زمن طويل أن يسافر فى سيارة ، منذ أيام الحرب ذاتها• فآنذاك قدر له السفر فى طرق سلوفاكيا والنمسا فى سـيارات

« الستوديبكر » الأميركية • وكانت سيارات النقل تلك قوية، ذات محاور ثلاثة • « ليتنا ملكنا أمثال هذه ـ فكر تاناتاى • ـ خصوصا فى نقل الحبوب من التلال السفحية • فان مثل هذه السيارات لن تغرز فى ايما مكان » • وكان يؤمن بأنه ما أن تنته الحرب حتى تكون هذه عندنا • فبعد الحرب سيكون كل شيء ! ••

لم تنعقد أواصر ايما حديث فى جوف سيارة النقل المفتوح، تحت رحمة الريح • كان الجميع صامتين أغلب الوقت حتى ذكر تاناباى الشبان :

ـ غنوا ، أيها الفتيان • لماذا تنظرون الينا ، نحن الشيوخ ، غنوا وسنسمعكم •

وغنى الشباب • وفى البداية لم يستقم اللحن عندهم ، ولكن فيما بعد جرت ريح الأغانى رخاء • وصار السفر مبهجا • « بدأت رحلتنا تحلو ـ جعل تاناباى يفكر ـ ان هذا أفضل بشكل ما • ولكن الأهم من هذا هو أنهم سيجمعوننا ، والحمد لله ، أخيرا • وسيبلغوننا ، على الأرجح ، كيف وماذا سنعمل فى الكولخوز • ان المسؤولين يرون أصوب ، مما نرى نحن • اننا نعرف ما هو موجود لدينا ، لا أكثر • فما أن يبينوا لنا جلية الأمر ويلقنونا ما العمل وكيف ، حتى نضطلع ، على الأرجح ، بالأمر بشكل جديد واجدى » •

وفى المركز المنطقى كان حشد وضجيج • فقد ملأت السيارات وعربات النقل الطويلة ، ومن أتوا على صهوات الخيل ، ملأوا

الساحة كلها بجانب النادى • ولم ينس صانعو الشاى وصانعو الشواء أن يتخذوا لأنفسهم أماكنهم فى الساحة أيضا • وأشعلوا نيرانهم ، فدخنت هذه ما شاءت ، وكانوا ينـــادون على المارة ويرغبونهم بمأكولاتهم •

وكان تشورو ينتظر •

ــ أسرعوا فى الترجل من السيارة ، وأمضوا • خـذوا أماكنكم • سنبدأ قريبا • تاناباى ، الى أين أنت ؟

ــ سأجيء الآن ، ــ رمى تاناباى بكلمته ، شاقا لنفسه طريقا خلال حشد من خيل الركوب• وكان وهو لايزال بعد فى السيارة قد لاحظ حصانه غولسارى ، وها هو الآن ذهب اليه ، وتقدم منه • انه لم يره منذ الربيع ذاته •

كان الرهوان واقفا تحت السرج بين الخيول الأخرى ، متميزا عنها بلونه الأشقر ، الفاتح ، المشرق ، وبكفله القـوى الواسع ، وبرأسه ذى الأنف المحدودب والعينين القاتمتين •

ــ مرحبا ، غولسارى ، مرحبا ! ــ همس اليه تاناباى ، وهو يتسلل اليه • ــ طيب ، كيف حالك هنا ؟

وحرف الرهوان كرة عينه ، وعرف صاحبه القديم ، ودق بقدميه ، ونخر • •

ــ ولكن يبدو عليك ، يا غولسارى ، انك بحال لا بأس بها • اسمع ، لقد اتسع صدرك • اذن ، فأنت تركض كثيرا • أو كان حالك سيئا آنذاك ؟ اعرف ••• حسنا انك وقعت فى أيد طيبة • فاسلك سلوكا مسالما ، وسيكون الأمر على ما يرام ، ــ

قال تانا باى ، متحسسا فى الخرج بقايا العلف • اذن ، فتشورو لم يهلكه جوعا هنا ، ــ حسنا ، قف أنت هنا ، أما أنا فسأمضى•

وعند مدخل النادى ، وعلى الحائط ، كانت تخفق بلونها الأحمر لافتتان من قطع القماش مكتوب عليها : « أيها الشيوعيون ــ الى الأمام ! » و « الكومسومول ــ طليعة الشبيبة السوفييتية ! » •

كان الناس يمضون حشدا كثيفا ، متدفقين فى البهو ، وفى صالة المسرح • وفى المدخل التقى تانا باى بتشورو ، ورئيس الكولخوز آلدانوف •

ــ تانا باى ، فلنمض على حدة جانبا ، ــ ابتدأ الكلام آلدانوف ، ــ لقد علمنا اسمك ، ها هى مذكرتك • عليك أن تخطب • فأنت حزبى ، وأنت أفضل راعى قطيع خيل عندنا •

ــ ولكن عم ينبغى أن أخطب ؟

ــ قل ، انك كشيوعى قررت أن تمضى للعمل فى القطاع المتأخر فى انتاج المزرعة ، وان تمضى الى رعى الأغنام •

ــ وهذا كل شىء ؟

ــ كيف ، كل شىء ! عليك أن تبين التزاماتك • عليك أن تقول : التزم أمام الحزب والشعب بتسلم ورعاية بمعدل مائة وعشرة حملان من كل مائة نعجة ، وجز الصوف بمعدل ثلاثة كيلوغرامات عن كل رأس •

ــ كيف سأقول هذا ، ان لم أكن قد رأيت قطيع الغنم البتة ؟

ـ تصور ، ماذا القول ! أهذه مشكلة ـ قطيع الغنم ستتسلمه •

ولطف تشورو الحديث •

ـ ستختار من الضأن ما يروق لك • لا تقلق بهذا الخصوص • أجل ، وقل أيضا أنك ستختار للتدريب تحت رئاستك اثنين من الرعاة الكومسموليين الشبان •

ـ من ؟

وتدافع الناس • وكان تشورو يطالع القوائم •

ـ أشيم بولوتبيكوف وبكتاى زارليكوف •

ـ كيف ان لم آكن قد تحدثت معهما بهذا ؟ ثم كيف سينظران الى الأمر ؟

ـ من جديد تطرح ما يخصك أنت ! ـ قال الرئيس مستاء
ـ كأنك ملزم بالتأكيد أن تتحدث معهما ؟ أو ليس الأمر سواء؟ انهما لن يمضيا الى ايما مكان آخر ، نحن قد عيناهما لك ، والأمر مقرر سلفا •

ـ حسنا ، اذا كان مقررا ، فعلام اجراء الحديث معى ؟ ـ ومضى تاناباى •

ـ قف ، ـ أمسك به تشورو ، ـ هل تذكرت كل شىء ؟

ـ حفظت ، حفظت ـ رمى تاناباى بكلماته هذه منفعلا، متوترا ، وهو فى عرض الطريق •••

١٣

انتهى الاجتماع قبيل المساء • وخلت بناية المركز المنطقى ، وافترق الناس مرتحلين ، كل الى جهته : الى الجبال ، الى قطعان الضأن والى قطعان الماشية • الى المزارع ، الى القرى الصغيرة والكبيرة •

وارتحل تاناباى سوية مع الآخرين فى سيارة النقل عبر مرتفع الكساندروفكا ، عبر النجد السهبى • وكان الظلام قد خيم فى الأرجاء ، والريح تعبث على هواها • انه الخريف• وحشر تاناباى نفسه فى زاوية فى جوف السيارة ، ودفن نفسه فى ياقة مرتفعة منشغلا بأفكاره • ها قد انتهى الاجتماع اذن • أنه هو نفسه لم يقل شيئا ذكيا ، ولكنه فى المقابل استمع الى الآخرين • وينتج من هذا الذى رآه وسمعه أنه لا زال ينبغى عمل الكثير ، من أجل أن تمضى الأمور حسنا • ان سكرتير اللجنة المنطقية ، هذا الرجل ذا النظارات قد نطق الحق ، حين قال : « لم يعبد لنا الطريق أحد ، انما نحن جئنا لنشقها بأنفسنا!» وهكذا فلو فكر مليا لوجد أنه منذ الثلاثينيات ذاتها والحال يتأرجح تارة الى أعلى وتارة الى أسفل ، مرة نهوض ومرة انحدار ••• ان قضية الكولخوز ليست قضية بسيطة كما يبدو • وها هو نفسه قد شاب رأسه، وقد أضاع شبابه وافناه، أى شىء لم يره! أى شىء لم يعمله! الحماقات ارتكبها غير مرة، وكان يلوح له طيلة الوقت ان الأمور ستستقيم فى هذه اللحظة الوشيكة أو تلك التى تتلوها بالذات ، فى ايما لحظة ••• ولكن الحال بقى

ذات الحال وظلت الأعباء والنواقص فى الكولخوز هى هى ...

ثم ماذا ـ ان العمل شيء ضرورى وسنعمل . كان حقا ما قاله السكرتير : ان الحياة لا تتدحرج اليك من تلقاء نفسها ، كما قد بدا فى وقت ما بعد الحرب . فأبدا ينبغى دفعها بكتفك، ما دمت فى قيد الحياة ... شيء واحد انها تنقلب كل مرة على زواياها الحادة ، ها قد صارت الكتفان نسيجا ملؤه الجسآت والأورام . أجل وما قيمة الجسآت ـ لو كانت الروح راضية مغتبطة بما تفعله أنت نفسك ، وبما يفعله الآخرون ، ومن أجل أن تكون سعادة من هذه الأعمال ... حسنا كيف ستكون حاله الآن مع قطيع الضأن ؟ ماذا ستقول جايدار ؟ حتى الى المخزن لم يستطع العروج ـ ولو لشراء الحلويات لبنتيه . لقد وعدهما. ترى ما أسهل القول : بمعدل مائة وعشرة حملان من كل مائة نعجة وكذلك بمعدل ثلاثة كيلوغرامات من الصوف عن كل رأس ! ان هذا يعنى ان كل حمل يولد ينبغى أن يعيش ، ولكن كيف يتم هذا اذا كان ضده المطر ، وضده الريح ، وضده البرد ! والصوف ؟ خذ شعرة من الصوف ، انك لا تستطيع أن تميزها بعينيك ، فما ان تنفخ ـ حتى تطير ! فكيف اذن بالكيلوغرامات منها ؟ ومن أين ؟ آه ، انما كيلوغرامات ذهبية ! ولكن الآخرين لا يتصورون حتى مجرد تصور ، على الأرجح ، كيف يستحصل كل هـذا ...

أجل ، لقد توهه تشورو ، ضلله وورطه ... « اخطب ، ـ يقول هو ـ ولكن بمنتهى الايجاز ، عن التزاماتك فقط . ولا

تقل شيئا آخر • لا أنصحك » • وأطاعه تاياباى • ارتقى المنبر وتهيب شيئا ، وقال ما قيل له ، ولكنه لم يقل شيئا مما تكدس فى أعماق روحه • تمتم بالواجبات وهبط • انه لمخجل حتى أن يتذكر ذلك • أما تشورو فراض ، مسرور • ترى لم صار حذرا بهذا الشكل ؟ أمن المرض يا ترى ، أم لأنه لم يعد المسؤول الأساسى فى الكولخوز ؟ علام لزمه أن يحذر تاناباى ؟ كلا ، ان شيئا ما فيه قد تزحزح ، فقد تغير على نحو ما • ولعل سبب ذلك فى أنه ظل عمره كله رئيسا للكولخوز ، وكان المسؤولون يؤنبونه ويعذلونه طيلة الوقت • لقد تعلم المكر والدهاء ، فيما يبدو •••

« ولكنك انتظر ، أيها الصديق ، سأذكرك بذلك وقتا ما وجها لوجه ••• » طفق تاناباى يفكر ، محكما من الالتحاف بفروته • فلقد كان برد وريح ، ولا زالت المسافة بعيدة الى البيت • ماذا ينتظره هناك ؟ •

ارتحل تشورو على الرهوان • ارتحل لوحده ، ولم يشأ أن ينتظر رفاق السفر فى الطريق • كان يريد أن يبلغ البيت على نحو أسرع ، فقد بدأ قلبه يؤلمه • وأطلق الحصان ليسير كما يريد ، أما هذا ، وهو الذى قد شبع وقوفا طوال النهار ، فقد أنهد الآن يجرى رهوا واسعا راسخا • وكان يطبع حوافره فى الطريق المسائى مثل ماكنة قد شد نابضها • لم يتبق عنده ، من كل ماهو قديم ، الا التحرق الشديد للركض • أما الأشياء

الأخرى فقد ماتت كلها عنده منذ زمن بعيد • أماتوها فيه لكى لا يعرف سوى السرج والطريق • وكان غولسـارى يحيا بهذا الركض ويعيش • كان يركض طواعية ، وعن طيب خاطر ،دون كلل ، كما لو أنه كان يريد بذلك أن يلحق بما استلبه الناس منه• كان يركض ويركض ولم يدرك ذلك قط •

وكانت حالة تشورو قد تحسنت فى الطريق وفى الهـواء الطلق • لقد زال الألم فى القلب • كان راضيا بالاجتماع على العموم ، وقد أعجبته جدا خطبة سكرتير لجنة المحافظة الذى كان قد سمع عنه الكثير، ولم يره الا الآن للمرة الأولى • ومع ذلك فالمنظم الحزبى لم يكن راضيا تماما • كان منزعجا متألما • ذلك أنه أراد لتاناباى الخير • فلقد شبع تجربة وخبرة فى كل هـذه المشاورات ، والاجتماعات ، والجلسات ، وعرف عجرها وبجرها فكان يعرف ما وأين يلزم القول ، وما وأين لا يلزم • لقـد حنكه الدهر • أما تاناباى فمع أنه اطاعه ، الا أنه لم يرد فهم ذلك • فبعد الاجتماع لم يتفوه معه ولا بكلمة • لقد جلس فى السيارة ، وأشاح بوجهه عنه • كان مستاء • ايه ، تاناباى ، تاناباى ! انما أنت غشيم ، ولسبب ما لم تفد شيئا من حياتك • أنت لا تعرف شيئا ولا تلاحظ شيئا •كيفما كنت فى صباك ، فكذلك أنت الآن ، لقد بقيت من كنته دونما تغيير • طيلة الوقت كنت تريد أن تقرر كل شيء رأسا وبضربة واحدة • ولـكن الزمن لم يعد هو ذلك الزمن • فالشيء الأهم الآن انما هـو كيف القول ، وبحضور من وكذلك التحدث بشكل يتسـق فيه

الحديث مع روح العصر ، مثلما هو الأمر عند الجميع ، دون أن تتميز عنهم ، ودون أن تتلجلج ، وان تكون الكلمة ناعمة سلسة. آنذاك يكون كل شيء في محله . ولكن لو أطلقت ياتاناباي ، كما تشتهي روحك ، لارتكبت ، اذن ، حماقة ، ولأفسدت كل شيء بحيث تتعين على المسؤولية عن ذلك . « كيف تربي أعضاء منظمتك ؟ أي ضبط هذا؟ ما هذا الاستهتار ؟ » ايه تاناباي ، تاناباي .

١٤

ما برحت ذات الليلة ، التي حلت وهما في الطريق ، قائمة ، ومجلسها معقودا . الانسان الهرم والحصان الهرم . وشعلة تضطرم في طرف الوادي الضيق . وينهض تاناباي وليس لأول مرة ، فيسوي من وضع الفروة الملقاة على غولساري المحتضر . ومن جديد كان يجلس بجنب رأسه . انه يراجع في خاطره فصول حياته كلها . انها الأعوام ، الأعوام ، الأعوام ، تمر مثل ركض الرهوان ... ولكن ماذا كان آنذاك ، في تلك السنة ، في ذلك الخريف المتأخر ، أو في ذلك الشتاء الباكر ، حين مضى راعيا للغنم مع القطيع ؟ ..

١٥

كان كل تشرين الأول في الجبال جافا وذهبيا . يومان فقط في البداية ، هطل المطر ، وكان برد ، وخيم ضباب . ولكن ، فيما بعد ، صحت السماء في الليل ، اذ تبدد الضباب وتبعثر ،

وحين خرج تاناباى فى الصباح من خيمته ، كان ان يعود القهقرى ـ فقد كانت الجبال تخطو اليه متعممة بثلج جديد على قممها • كم ناسبها الثلج ! وكم كانت تبدو رائعة فيه ! كانت تقف فى زرقة السموات فى طهارتها التى لا تشوبها شائبة ، متميزة فى النور وفى الظل ، لكأن الله قد خلقها توا • وهناك حيث كان الثلج يرقد ، كانت تبتدىء زرقة لا نهاية لها ولا حد • أما فى أعماقها البهيمة ، فى أقصى أطراف لازوردها ، فكان أفق الكون الشفيف • فاقشعر جسم تاناباى من فيض النور والطراوة ، وانتابته اللوعة والأسى الخفيف • ومن جديد تذكر هو تلك المرأة التى كان يرتحل اليها على ظهر غولسارى • ليت الرهوان كان فى يده الآن ، اذن لامتطاه ، وهو يهتف من الغبطة والسرور ولدلف اليها وخف ، مثلما خف هذا الثلج الأبيض فى الصباح•

بيد أنه كان يعرف ان هذا محض حلم ليس الا ••• ثم ماذا ان نصف الحياة يمضى فى الأحلام ، ولعل من هنا حلاوتها • ولربما أنها بسبب هذا غالية وعزيزة اذ ليس كل شىء مما تحلم به يتحقق • نظر هو الى الجبال وأجال طرفه فى السماء وفكر بأنه هيهات أن يكون كل الناس سعداء بنفس القدر من السعادة• فعند كل قدره ومصيره • وفى هذا المصير أفراحه وأتراحه معا، مثل النور والظل على جبل واحد فى وقت واحد • وبهذا تكون الحياة حافلة ومليئة • « أما هى فلعلها لم تعد تنتظر • وربما تذكرته ، وهى تطالع ببصرها الثلج الطرىء الجديد على رؤوس القمم فى الجبال ••• »

يشيخ الانسان ويكبر ، لكن روحه لا تريد أن تخور وتضعف ، فبين الحين والآخر تخفق وتعلن عن نفسها •

وأسرج تانابای حصانه وافتتح حظيرة الغنم ، وهتف فى زوجته ، فى المخيم :

ـ جايدار ، سأسوق الأغنام ، وسأرجع ، ريثما تنهين عملك •

كان قطيع الأغنام يخطو خطوات سريعة قصيرة ، مستعجلا، وتدفق تيار الظهور والرؤوس ، وهو يصعد على المنحدر • كان الرعاة المجاورون قد سرحوا أغنامهم أيضا • وهنا وهناك فى الحوادير ، والفجاج مضت قطعان الأغنام تقضم غطاء الأرض الخالد ـ العشب • كانت تجول ، أكداسا بيضاء ـ رمادية ؛ وسط المرتع المختلف الأعشاب ، ذى اللونين الأمغر والبنى ، وهو الواقع على سفوح الجبال فى الخريف •

وحتى الآن كان كل شيء يتواجد فى شروط طيبة • فقد وقع لتانابای قطيع غنم غير ردیء من النعاج فى الولادة الثانية والثالثة • خمسمائة رأس • خمسمائة هم • أما بعد الولادة فستكون أكثر بمرتين ونيف • ولكن حتى الولادة وحتى موسم تكاثر الأغنام ، كان لا يزال ثمة وقت طويل •

ان الحال مع الأغنام أهدأ بالطبع مما مع قطيع الخيول ، لكن تانابای لم يتعود ذلك فى الحال • ولم يكن الحال كذلك مع الخيول ، كان مغايرا تماما ! لكن تربية الخيول أضاعت ، كما يقال ، فائدتها • لقد حلت محلها السيارات • وبالتالى تكون

الخيول غير مربحة . والآن فالشيء الأساسى ـ هو تربية الأغنام، والصوف ، واللحم ، وفروة الضأن . وكان هذا التنبه للحساب والتبصر به ، يدفع تاناباى الى القرف ويجرح احساسه ، بالرغم من أنه كان يفهم أن فى ذلك حقيقته الخاصة .

ومع القطيع الجيد من الخيول بحصانه الطيب يمكنك أحيانا الغياب عنه لوقت ما، أو لنصف نهار، وقد يمكن أن يكون أكثر ، وذلك للمضى فى أشغالك الخاصة . ولكن مع الأغنام، لا يمكنك أن تفارق القطيع قط . ففى النهار عليك أن تتبعه فى كل مكان ، أما فى الليل فعليك أن تحرسه . وفيما عدا راعى الغنم ، فانه ينبغى أن يكون معه شخص آخر بصفة مساعد راع، ولكن لم يعطوه هذا المساعد . وهكذا وجد تاناباى نفسه بالتالى أمام عمل فى منتهى الوفرة ، دون تعويض ودون راحة . وسجلت جايدار كحارس ليلى ـ فكانت لا تستطيع الا بعض الأحيان فى النهار أن تلقى مع بنتيها نظرة على الأغنام ، وحتى منتصف الليل كانت تسير بالبندقية قرب الحظيرة أما بعدئذ فكان يلزمه أن يحرس بنفسه . أما ابراهيم وقد غدا الآن متولى كل شؤون تربية الماشية فى الكولخوز ، فكان يجد لكل شيء أسبابه ومعاذره .

ـ طيب ، أين أجد لكم مساعد الراعى ، يا تاناباى ! ـ قال هو بمظهر آسف حزين ، ـ أنت انسان عاقل . كل الشبيبة تدرس . أما أولئك الذين لا يدرسون فهم لا يرغبون حتى بسماع اسم الأغنام ، وهم يمضون الى المدينة ، الى السكك

الحديدية، وحتى الى المناجم فى مكان ما . ما العمل ، لا ادرى. عنـدكم قطيع أغنام واحد ومع ذلك تئنون ، وأنا ؟ عندى كل تربية الماشية معلقة فى رقبتى . قد أعرض للمحكمة . عبثا ، عبثا وافقت على هذا العمل . حاول أن تعمل مع أمثال بكتـاى الذى يتدرب تحت رئاستك . أتدرى ماذا يقول ، « أنت وفر لى راديو ، سينما ، جرائد ، مسكنا جديدا ، وكـذلك أن تزورنا سيارة المخزن كل أسبوع . فان لم يكن هذا ـ فسأمضى الى حيث يمتد بصرى » . ليتك تحدثت معه ، تانابای !

ولم يكذب ابراهيم . انه نفسه ما كان مسرورا أنه شـغل منصبا كبيرا . وبخصوص بكتاى هذا ، كان حقيقة أيضا . وكان تانابای يخطف الوقت أحيانا ، ليرتحل الى كومسومولييه . كان أشيم بولوتبيكوف شابا دمث الأخلاق ، ولو أنه ليس حـركا ونشيطا . أما بكتاى فكان وسيما ، شاطرا ، غير أن فى عينيه السوداوين القلقتين كان الحقد ينز نزا . فكان يستقبل تانابای بوجه متجهم ، ويقول له :

ـ أنت يا تانابای ، لا تبذل أكثر من طاقتك . لأفضل لك أن تكون مع أطفال ، والا فان المراقبين يكفون من دونك .

ـ ولكن ماذا ، أستكون حالك أسوأ؟

ـ أسوأ أو ليس أسوأ ـ لا يهم . ولكنى لا أحب أناسا أمثالك . لقد بذلتم جهودا عظيمة . كل الوقت : فليحيا ، فليحيا! أما الحياة الانسانية الحقة فلا أنت نفسك رأيتها ، ولا جعلتنا نراها لنعيش كما البشر .

ـ كفى ، كفى ، لا داعى للمزيد من هذا الكلام ، أيها الفتى ـ كان تانابای يتكلم من بين أسنانه ، ضابطا بالكاد نفسه. ـ ولا تشر بأصبعك الى . هذا ليس شغلك . أجل اننا الذين بذلنا أعظم الجهود ، لا أنت . ولا تتأسف . عملنا من أجلكم . ولو لم نفعل كذلك لرأيت كيف كنت ستتحدث الآن . فليس فقط انك ما كنت لترى سينما أو جرائد وانما حتى لما عرف أسمك . وما كان عندك اسم الا اسم من أحرف ثلاثة ـ كول ـ يعنى عبد .

لم يكن تانابای يحب بكتای هذا ، ولو أنه فى أعماق نفسه كان يحترمه لصراحته هذه . وكانت تخفت فيه قوة طبعه، وكان ذلك مؤلما ، مريرا على تانابای أن يرى أن اعوجاج هذا الشاب لن يقوده الى ما ينبغى ... وبعدئذ ، حين افترق طريقهما ، والتقيا صدفة فى المدينة ، لم يقل تانابای له شيئا ، بل لم يشأ أن يسمعه .

فى ذلك الشتاء الباكر ...

حل الشتاء بسرعة طائرا على ناقته البيضاء الجموح ، وجعل يضايق الرعاة ويضنيهم لقاء نسيانهم اياه .

كان تشرين الأول جافا وذهبيا . أما تشرين الثانى فقد حل الشتاء دفعة واحدة ، معلنا عن نفسه ، دون سابق انذار .

كان تانابای قد ساق الغنم فى المساء ، وأطلقها الى الحظيرة

وكان كل شيء يبدو كأنه على ما يرام • ولكن فى منتصف الليل أيقظته زوجته :

ــ استيقظ، ياتانا باى ، لقد تجمدت تماما • الثلج يتساقط •

كانت يداها باردتين ، وكانت كلها تفوح بالثلج الندى • وكانت البندقية أيضا مبللة وباردة •

وفى الفناء كان ليل ضارب لونه الى البياض • كان الثلج يهطل كثيفا • وكانت النعاج راقدة فى قلق ، وكانت تهز رؤوسها نافضة الثلج لعدم تعودها عليه ، وكانت تسعل ، أما الثلج فكان ما برح ينصب صببا • « على مهلك ، سوف يكون أمرنا أسوأ معكم ــ فكر تانا باى ، وقد لف نفسه بالفروة باحكام ، ــ لقد جئتنا ، أيها الشتاء ، فى وقت مبكر ــ جد مبكر ، وتماما قبل الأوان • فعلام هذا ، ألخير أم لشر ؟ لعلك عند النهاية ستتقهقر قليلا ؟ حبذا لو رحلت عندما ستكون ولادة النعاج • هذا كل ما نرجوه • أما الآن فافعل ما يحلو لك • ان لك الحق فى ذلك وما من داع يدعوك للتشكك فى حقك هذا ••• »

سكت الشتاء الوليد ، وكان يجهد صامتا وباستعجال فى الظلام ، لكى يبدأ الجميع عند الصبح بالتأوه ، والأنين ، والسعى جيئة وذهوبا •

وبردت الجبال فى الليل باقية على حالها كتلا ضخمة قاتمة • فالشتاء لا يهمها ولا ضرر منه عليها • كل ما فى الأمر : دع الرعاة وقطعانهم يركضون • أما الجبال فكما وقفت ، فكذلك ستكون •

بدأ ذلك الشتاء المشهود ، ولكن أحدا ما لم يكن يعـرف ماذا يكنه الشتاء للناس •

رقد الثلج ، وخلال عدة أيام تكدست كميات أخـرى منه، ثم كميات أخرى وأخرى ، وهكذا أرغم هو الرعاة على مغادرة المراتع الخريفية • وكانت القطعان قد جعلت تتشتت ، وتختفي في الفجاج ، وفي المواقع الهادئة ، المحمية من الريح ، وفي الأماكن القليلة الثلج • وبدأ فن الرعاة الأبدي مفعوله ــ ايجاد العلف للقطعان في تلك الأماكن التي لو رآها واحد ممن لا يمتـون الرعي بصلة ، لقال ، وهو يهز بيده : كلا ، هنا لا شيء سـ الثلج• ولكنهم لمثل هذا ولهذا انما كانوا رعاة ••• فقد يزور المسؤولين أحيانا ويظل يعاين وينظر ، ويناقش ، ويتكرم من الوعود ، وسرعان ما يفر من الجبال ، أما الراعي فيظل لوحده ، وجها لوجه ، مع الشتاء •

كان تاناباي يود طوال الوقت ، أن ينطلق الى الكولخـ ليستعلم كيف يفكرون هناك بخصوص اجراءات ولادة الأغنا وهل أعد كل شيء ، وهل وفر كل ما هو ضروري • ولكن أ له ذلك ، حيث لا مجال حتى للتنفس • وارتحلت جايدار ذات يوم الى الابن ، الى القسم الداخلي ، وتعطلت هناك غير طويل، حيث كانت تعرف أنه من دونها يضحى الأمر في غاية الصعوبة، فتاناباي كان يرعى أنذاك قطيع أغنامه سوية مع بنتيه • فـكان يجلس الصغيرة أمامه في السرج لافا اياها بالفروة ، حيث الدفء والراحة لها ، أما الكبرى فكانت تتجمد ، جالسة خلفه • وحتى

النار فى الموقد كانت تحترق على نحو آخر ، دون اشعار بالدفء .

وحين رجعت الأم ، فى اليوم التالى ، فماذا كان هناك !!
كانت طفلتاها قد ارتمتا على رقبتها ، فلم تستطع الانفكاك منهما الا بالقوة . أوه ، كلا ، ان الأب ، بالطبع هو الأب ، ولكنه غيره من دون الأم .

وهكذا تصرم الوقت . وتكشف الشتاء متقلبا ، تارة يعتصر الناس ، وتارة يريحهم من قبضته ، ومرتين كان اعصاران ، ثم ما هدوء ، وماع الثلج . كان هذا بالذات هو ما يقلق تانابای . معه يكون الأمر على ما يرام ان حانت الولادة فى جو دافىء ، اما جئتنا لم يكن كذلك ، فما العمل آنذاك ؟

الأوا والى ذلك فان بطون النعاج كانت تتضخم وتتثاقل باستمرار قليلا بعض منها ، ممن كان لديها جنين كبير أو توأمان ، كانت ما لون قد بدأت تتهدل . كانت الأمهات الحبلى تخطو بصعوبة، وحذر وقد باتت أجسامها ضعيفة . وما عتمت الأعمدة الفقرية ن جعلت تنتأ . وليس هناك مايبعث على الحيرة والعجب ــ ان الجنين كان ينمو فى الأحشاء ، وقد تشرب بعصير الأم ، وهنا فان على كل أم التقاط كل عشبة من تحت الثلج . وعلى الراعى أن يطعم الأمهات عند الصباح وعند المساء ، وأن يجلب العلف الى الجبال ، أما عنابر الكولخوز فكانت خاوية الوفاض تماما، فخلا البذور والهرطمان للخيول العاملة ، لم يكن ثمة شىء .

وكان تانابای ، وهو يسوق قطيع الغنم من الزريبة ، كان يتفحص الأمهات، ويجس بطونها وضروعها • وتصور زاعما لنفسه أنه اذا مر كل شيء على ما يرام ، فان واجبه بخصوص الأحمال سينفذ ، أما التزامه بخصوص الصوف فلعله لن يتحقق • ففى الشتاء كان الصوف قد نما بشكل سيء ، بل عند بعض من النعاج كان يخف ويتضاءل ، بل وصار يقع • ومن جديد تعين اطعامها على نحو أفضل • فكان تانابای يتجهم ، ويحنق ، لكنه لم يستطع عمل شيء ، وجعل يشتم نفسه باقذع الشتائم لكونه أطاع تشورو ، ولكونه وعد والتزم ، ولكونه خطب من على المنبر • أنا ، كما يقال ، طليعى لا يشق له غبار ، وأمام الحزب والوطن أعطى كلمة ! ليتنى ما قلت هذا على الأقل ! وعلام الحزب والوطن هنا ! ان هذا أمر من أمور المزرعة الاعتيادية • كلا ، ان هذا مقرر ، مفروض • ولكن لماذا نحن فى كل خطوة ، لزم ذلك أم لم يلزم ، ننطلق بمثل هذه الكلمات ؟

حسنا ، ثم ماذا ، أنا نفسى مذنب فى ذلك ، فانى لم أفكر مليا فى الأمر • صرت أعيش وفقا لما يمليه الآخرون • ولكن بالنسبة اليهم ليس ثمة أى شيء رهيب ، انهم سيتنصلون من ذلك، فقط انه يشفق على تشورو • انه لا يجد توفيقا البتة • يوما معافى ، ويومين مريض • طيلة حياته يركض ويسعى حثيثا مشغولا بشيء ما فهو يقنع هذا ، ويشجع ذلك ، ولكن أى جدوى فى ذلك ؟ لقد صار حذرا ، ينتقى كلماته انتقاء • حسنا ، وما دام هو مريضا ، فليغادر هذا العمل للراحة •••

وسار الشتاء مسراه الاعتيادى ، تارة يطمن ، وتارة يقلق رعاة الأغنام • وقد هلكت فى قطيع تاناباى نعجتان حبليان من الانهاك ، فقد كانتا ضعيفتين ، وعند الراعيين الشابين ، اللذين ساعدهما تاناباى نفقت أيضا عدة نعاج • ولكن بالطبع لا يمكن من دون هذا • فان فقد عشر نعاج فى الشتاء أمر اعتيادى • انما الشىء الأساسى كان لا يزال أمام ، عند الاقتراب من الربيع •

وفجأة بدأ الجو يدفأ • واحتقنت ضروع النعاج بالحليب فى الحال • تنظر ، فتراهن نحيفات ، بالكاد يجرجرن بطونهم، أما الحلمات فتتورد ، وتنتفخ لا بالأيام ، وانما بالساعات • ولكن من أين كل هذا ؟ من أين تتأتى هذه القوى ! وانتشرت اشاعة تقول انه قد ولدت عدة أمهات عند أحدهم • اذن ، كان هناك اهمال عند الأسفاد • وكان هذا هو الانذار الأول • فبعد أسبوع أو اسبوعين ستنثال الحملان مثل الكمثرى • ما عليك الا أن تفلح فى استقبالها • وسيبدأ آنذاك موسم جهد جهيد عند رعاة الأغنام ، انه موسم حصادهم الكبير ! فلقاء كل حمل سيرتجف الراعى سيلعن ذلك اليوم الذى التحق فيه برعى القطيع ، كما لن يكون لسروره حد أن احتفظ بهذه المواليد ، وان نهضت هذه الحملان على أقدامها معافاة فيما بعد ، وأبرزت ذيولها للشتاء •

آه ، لو تم الأمر كذلك ، لو حصل كذلك ! كيلا يخفى عينيه ، فيما بعد ، من الناس •••

وبعث الكولخوز بمساعدات الرعاة وهن نساء متقدمات فى

السن ، أو ليس لديهن أطفال ، وقد أفلح الكولخوز فى انتقائهن من القرية لارسالهن على وجـه السرعة للمساعدة وقت توالد الأغنام • وأرسلت امرأتان من هؤلاء الى تاناباى ليتدبر معهن أمر قطيعه أثناء الولادة • وجاءت هاتان مع أفرشتهما ، والخيمة ، والعفش والحاجيات الضرورية • وعمت البهجة والانشراح • كان يلزم على الأقل سبع من هاته المساعدات • وكان ابراهيم قد أكد انهن سيجئن حينما ترتحل قطعان الأغنام الى نقطة الولادة ، فى وادى الأشجار الخمس ، أما الآن ، فقـــد زعم أن هاتين الامرأتين تكفيان •

وتحركت القطعان ، وجعلت تنحدر أسفل ، الى التـــلال السفحية ، الى نقاط الولادة• والتمس تاناباى أشيم بولوتبيكوف من أجل أن يساعد هاتين الامرأتين فى بلوغ الأماكن المعينـــة والاستقرار فيها ، ريثما يسوق هو القطيـــع • ورحلهما منذ الصباح ، قافلة كاملة ، أما هو نفسه فقد جمع النعاج ووجهها فى مسيرها ، وجعل يسير بها ويقتادها ، رويدا رويدا ، كيـلا يصعب الأمر على الأمهات وهى فى الشهر الأخير من شهور الحمل• وسيلزمه ، فيما بعد ، أن يجتاز ذات الطريق الى وادى الأشجار الخمس مرتين ، فى عون الشابين اللذين تحت رعايته •

وببطء تحركت النعاج وتقدمت فى طريقها وكان من غير الممكن استعجالها • حتى الكلب ضجر فجعل يعدو ويجـوس جانبى الطريق •

كانت الشمس تقترب من الأفول ولكن كان ثمـة بعض

الدفء • وكلما ازداد هبوط القطيع الى التلال السفحية كلما تعاظم الدفء • وكانت الخضرة قد شقت طريقها الى النور تحت أشعة الشمس المحرقة •

وحصل تأخر غير كبير فى الطريق ، فقد ولدت النعجة الأولى • ما كان ينبغى أن يقع هذا ، حزن تاناباى ، وهو ينفخ فى أذنى ومنخرى الوليد الجديد • فقد كان ميعاد الولادة سيحل بعد أسبوع لا أقل • أما الآن فقد سبق السيف العذل ، وهاك البلوى خذها !

لعل ولادات أخرى ستقع فى الطريق ؟ وتفحص الأخريات — كلا ، كان الأمر غير وارد • فهدأ ، بل انه سر فيما بعد • تلك هى المسألة ، سوف تسر بنتاه أيما سرور بالوليد الأول • ان الوليد الأول لطيف دائما • وقد ظهر هذا الحمل جميلا، رائعا• كان أبيض برموش سوداء وأظلاف سود • وكان فى القطيع عدة نعاج من ذوات الصوف شبه الغليظ ، ها واحدة منهن قد وضعت طفلها • والعادة أن الحملان من أمثال هذه النعاج تولد قوية ، مكسوة بالصوف ، وليس مثل تلك التى تولد من النعاج ذوات الصوف الناعم ، فانها تلد حملانا عارية تقريبا •

— حسنا ، ما دمت قد استعجلت ولادتك ، اذن فلتطالع عينك النور والعالم ، — ردد تاناباى ، — واجلب لنا السعادة! اجلب لنا أمثالك ، بذلك القدر الذى لا يكون معه لقدم مكان لتطأه ، وكى يكون من أصواتكم فى الأذن دوى ، ومن أجل أن تعيشوا كلكم كحمل واحد ! — ورفع هو الحمل فوق رأسه

ــ انظر ، يا حامى الغنم ، ها هو الأول ، ساعدنا !

كانت الجبال تقف حوله ، وكانت صامتة •

وأخفى تانابای الحمل تحت فروته ، ومضى يسوق النعاج• وركضت أمه فى أثره قلقة ، تثغو •

ــ فلنمض ، هلم بنا ! ــ قال لها تانابای ، ــ ها هو عندى ولن يمضى الى أيما مكان •

وجف الحمل تحت الفروة ، وتدفأ •

ووصل تانابای بالقطيع الى القاعدة قبيل المساء •

كان الجميع فى المكان وكان الدخان يتصاعد من الخيمة • وكانت المساعدتان منشغلتين بجانب خيمتهما • واذن فقد دبرتا أمورهما بعد الانتقال • ولم يكن أشيم موجودا آنذاك • ولكن ها هو قد أتى ببعير للحمل ، كى يترحل عليه هو نفسه غدا • واذن فكل شىء مضبوط •

لكن ما رآه تانابای ، فيما بعد ، قد هزه هزا ، مثل هزيم الرعد فى رابعة النهار • لم يكن يتوقع شيئا طيبا ، ولكنه لم ينتظر قطعا أن تكون حظيرة ولادة الأغنام الموعودة قد انتصبت بسقف متآكل منهار ، بثقوب فى الجدران ، من دون نوافذ ، من دون أبواب ، والريح تهب فيها طولا وعرضا • بل انه لم يكن هناك ثلج حواليه فى الجوار ، أما فى هذه الحظيرة فقد كان يرقد كثبانا •

كانت الزريبة المبتناة فى وقت من الأوقات ، من الأحجار، كانت ترقد فى الأنقاض أيضا • وقد تكدر تانابای لدرجة أنه

كف عن النظر كيف كانت بنتاه مسرورتين بالحمل • فدسه فى أيديهما ، ومضى يتفحص كل ما حواليه • وحيثما امتد نظره — كانت ثمة صنوف من الفوضى وسوء التدبير من نوع لم تعهده الدنيا من قبل • فمنذ الحرب ذاتها، كان كل شيء هنا مهجورا ••• فقد حل هنا أحدهم مع قطعان الضأن ودبر أمر ولادة النعاج بشكل ما ومضى ، تاركا كل شيء للريح والأمطار • وعلى سقف العنبر كان يتراءى طرف مائل لدريس متعفن ، كما كانت ترقد أكوام القش المبعثر — وكان هذا هو كل العلف ، بل وكل المفارش لحملان وأمهات القطيع كله ، هذا اذا لم نحسب كيسين غير ممتلئين من طحين الشعير وصندوق ملح ، وكان كل هذا مرميا فى أحد الأركان • وهناك فى ذات الركن كانت قد بعثرت بضعة فوانيس مكسورة الزجاج ، وصفيحة صدئة بالكيروسين، ومجرفتان ومذراة محطومة • كم كان يود تاناباى أن يريق الكيروسين على كل هذا ويحرقه حرقا الى سقر ، وان يمضى بعد ذلك الى حيث تقوده قدماه •••

كان تاناباى يدور متعثرا بالأكوام المتجلدة مما تخلف من العام الماضى من الثلج والدمان ، غير عارف ما كان ينبغى أن يقول • لم يجد الكلمات المناسبة • شيء واحد كان يعيده ، كالممسوس : « لكن كيف يمكن هذا ؟ ••• لكن كيف يمكن هذا ••• لكن كيف يمكن هذا ؟ ••• »

ثم وثب من الحظيرة المسقفة وانطلق يسرج حصانه • وكانت يداه ترتجفان ، حين أسرج • سينطلق الآن الى هناك ، فيقيم

الدنيا ويقعدها وسط هذا الليل ، ويفعلن ما لم يعرفه هو نفسه! وسيمسك بتلابيب ابراهيم وتلابيب هذا الرئيس آلدانوف وتشورو : دعهم لا ينتظرون رحمة منه ولا شفقة ! ما داموا يقفون منه هذا الموقف ـ اذن فدعهم لا يترقبوا خيرا منه ! كفى ! ولتكن النهاية ! •

ـ ولكن على مهلك ! ـ وفقت جايدار فى أن تمسك بأعنة الحصان ، ـ الى أين ؟ لا تتجزأ ! ترجل ، أصغ الى !

ولكن انى لها أن توقف تاناباى !

ـ خلى سبيلى ! أطلقى الأعنة ! ـ صار يصرخ ، جاذبا الأعنة ، مصطدما بالزوجة ، وسائطا الحصان ، ـ خلى سبيلى، أقول لك ، سأقتلهم ، سأقتلهم ، سأقتل !

ـ لن اتركك ! أتريد أن تقتل أحدا ؟ أقتلنى اذن !

وهنا خفت المساعدتان عونا لجايدار ، وركضت بنتاه ، جعلتا تولولان ، وأجهشتا بالبكاء :

ـ يا أبانا ، يا أبانا ! لا ترحل ! لا داعى !

وهدأ تاناباى قليلا ، لكنه كان لايزال يتوثب للرحيل •

ـ لا تمسكينى ولا توقفينى ، أولا ترين ، ماذا يجرى هنا؟ أفلا ترين ـ ها هى الأمهات مع الحملان • الى أين نمضى بهن فى الغداة ، أين المأوى ؟ أين العلف ؟ سيمتن جميعا • من سيتحمل المسئولية عن ذلك ؟ كفى وخلى سبيلى !

ـ على مهلك ، يا هذا ، على رسلك ! طيب ، سترحل وستصرخ ما شئت ، وستشبع خصاما وشجارا • ولكن ما جدوى

هذا ؟ ما داموا حتى الآن لم يعملوا شيئا ، اذن ، ليس لديهم الامكانية لذلك • لو كان ثمة شيء أفكان الكولخوز يبخل ببناء حظيرة ولادة جديدة مسقفة ؟

ـ لكن السقف ـ أفلم يستطيعوا اصلاحه ؟ وأين الأبواب ؟ وآين النوافذ ؟ كل شيء هذا مهدم ، والثلج مكدس فى الحظيرة، والدمان لم يحمل من هنا عشرا من السنين ! لكن اسمعى : لكم من الوقت سيكفى هذا العلف المتعفن ؟ أو يعطى مثل هذا العلف للحملان ؟ ومن أين سنأخذ المفارش ؟ دع الحملان تنفق فى الأوحال والقاذورات ، نعم ؟ أو هذا ما تريدين ؟ ولى عنى !

ـ كفى ، يا تاناباى ، اهدأ ! هل أنت أفضل الكل ؟ شأننا شأن الجميع ويحسبونك بعد ذلك رجلا ! ـ لامته الزوجة • ـ لأفضل ان تفكر ماذا يمكن عمله ، ما دام الوقت ليس متأخرا بعد • ابصق عليهم • اننا نحن الذين سنتحمل المسئولية ونحن من يتوجب عليه العمل • ها انى لاحظت فى الطريق الى الوادى شجيرات عليق كثيفة ، صحيح انه شائك ، ولكن سنقطعه لتغطية السقف ، وسنرمى بالدمان فوقه • أما للمفارش فسيلزمنا ان نحش حشائش جافة • وهكذا على نحو من الأنحاء سندبر أمرنا ، ان لم يوقع بنا الجو •••

وهنا انضمت المساعدتان فجعلتا تهدئان تاناباى فترجل هذا من الحصان ، وبصق ، ومضى الى الخيمة • وقعد هناك مطرقا برأسه ، منقبضا ، مثلما بعد المرض الشديد •

وصمت الجميع فى البيت • تهيبوا الحديث وخافوه • أما

جايدار فقد رفعت ابريق الشاى من الفحمات الدمانية ، وغلت شايا مركزا ، ثم أتت بماء فى الجرة وناولته لزوجها ليغسل يديه. وبسطت فوطة مائدة نظيفة ، وأخرجت حلوى من مكان ما ، ووضعت شرحات من السمن المسلى فى اناء . ودعت المساعدتين، وجلس الجميع يحتسون الشاى . آه ، منكن آنتن أيتها النساء ! لقد جلسن يشربن الشاى من الأكواب ، ويتجاذبن أطراف مختلف الأحاديث ، لكأنهن قاعدات فى ضيافة أحدهم . كان تاناباى صامتا ، أما بعد الشاى فقد خرج وشرع ينضد الأحجار المنهارة فى سياج الزريبة . ان الأعمال هنا على غاية الوفرة . ولكن شيئا ما على الأقل كان ينبغى عمله ، كى يستاقوا النعاج فى الليل . وخرجت النساء وانخرطن أيضا فى العمل ، يساعدن تاناباى . وحتى البنتان الصغيرتان وجدتا من القوة ما يكفى لمناولة الأحجار .

— امضين الى البيت ، — قال لهما الأب .

كان هذا الأمر مخجلا له . فكان ينقل الأحجار ويمضى بها، دون أن يرفع عينيه . لقد قال تشورو الحقيقة : لو لم تكن جايدار ، لكان تاناباى قد هلك جراء تهوره ...

١٦

ارتحل تاناباى — فى اليوم التالى ، ليعاون فى ترحل الشابين اللذين كانا يشتغلان تحت رعايته ، أما فيما بعد فكان يعمل طوال الأسبوع بمواظبة ودون فتور . بل انه لم يتذكر متى عمل مثل ذلك ، ربما فى الجبهة حين كانوا يبنون تحصينات الدفاع أياما

بكاملها ليل نهار . لكنه كان هناك مع الفوج كله ، مع الفرقة ، مع الجيش ، أما هنا فهو وحده ولا يعاونه الا شخصان اثنان . زوجته واحدى المساعدتين ، ذلك ان الأخرى ترعى الأغنام على مقربة من هنا .

وكان أصعب ما ابتلى به هو ما عاناه بخصوص تنظيف الحظيرة المسقفة من هذا الدمان ، وكذلك بخصوص احتطاب شجيرات العليق . فقد تبين أن هذه الشجيرات قد نمت كثيفة وافرة الأشواك . وقد أهلك تاناباى جزمتيه الطويلتين وأجهز على معطفه العسكرى من أيام الجندية . فكان هذا يتعلق على كتفيه مزقا ، فقد تمزق اربا اربا . وربطوا العليق المحتطب بالحبال وسحبوه جرا ، ذلك انه لا يمكن تحميله على الخيل ، كما لا يستطيع الانسان أن يحمله على ظهره لوفرة أشواكه . وقد أنهد تاناباى يشتم بأقبح الكلمات وادى الأشجار الخمس هذه ، التى لن تحصل منها حتى على خمسة جذامير . وسحبوا متقوسى الجذوع الى الأرض ، متصببين عرقا ، سحبوا هذا العليق اللعين جرا ، وشقوا طريقا الى الحظيرة . وقد أشفق تاناباى على النساء ، لكن لم يكن ثمة طريق آخر . وعملوا قلقين . فالوقت كان على شفيره ، والى السماء كان ينبغى النظر بين لحظة وأخرى ، لمطالعة صفحتها واستقرائها ـ كيف هناك ؟ ذلك انه سقط الثلج فآنذاك يكون كل هذا العمل عبثا زائدا . وكذلك كان يجبر بنته الكبرى باستمرار على الركض الى القطيع لتعرف أبدأت ولادة الأغنام .

أما الحال مع الدمان فكان أسوأ الكل . فقد كان هذا غزيرا للدرجة انك لا تستطيع نقله طوال نصف عام . وحين يرقد دمان غنم جاف مدكوك تحت سقف جيد فان العمل معه قد يكون ممتعا . ذلك ان الطبقة منه اذا قطعت جيدا فانها تنفصل الى قطع متينة ، سميكة . ومثل هذا يوضع أكواما كبيرة للتجفيف . ان الحرارة من صفف دمان الغنم لطيفة ونظيفة مثل الذهب وبها يتدفأ الرعاة فى برد الشتاء . ولكن ان كان هذا الدمان قد رقد تحت المطر أو تحت الثلج ، مثل هذا الذى ابتلى به تاناباى ، فآنذاك لن يكون شيء أكثر مشقة وعسرا من الكدح والاشتغال به . بل ان هذا شغل من الأشغال الشاقة . أما الوقت فكان يمر ولا ينتظر أحدا . وواصلوا العمل فى الليل، تحت ضوء الفوانيس الداخنة ، ناقلين على حمالات هذا الوحل اللزج البارد ، الثقيل كالرصاص . وها قد مر اليوم الثانى .

كانوا قد كوموا كومة ضخمة من هذا الدمان ، وراء سياج الحظيرة المسقفة أما فى داخلها فقد تبقت منه وفرة لا يطالها الحساب . وقد استعجلوا فى تنظيف ولو زاوية واحدة من الحظيرة ، للحملان التى كانت تنتظر . ولكن ماذا تعنى زاوية واحدة ، حين تضيق كل هذه الحظيرة الكبيرة عن أن تؤوى كل الأمهات وأطفالها ــ ذلك انه فى اليوم الواحد ستزيد عددها بمقدار ٢٠ ــ ٣٠ حملا ! « ماذا سيكون ؟ » ــ لم يفكر تاناباى الا فى هذا ، وهو يكوم الدمان فى النقالات، ليأخذه الى هناك، وليرجع من جديد ، وهكذا من دون نهاية ، حتى منتصف الليل،

حتى الفجر • وصار يشعر بالغثيان • وخدرت يداه • زد على ذلك ان الفانوس كان كثيرا ما تطفئه الريح • وكان من حسن الطالع ان المساعدتين لم تتذمرا أو تتضجرا ، فكانتا تعملان بذات القدر وذات الحمية ، كما كان يعمل تانابای وجایدار •

ومر يوم كامل ، ثم يوم آخر ويوم ثالث • أما هم فلازالوا طيلة الوقت يحملون الدمان وينقلونه ، ثم يملأون الثغرات فى الحوائط وفى السقف • وسمع تانابای ، ذات مرة ، فى الليل ، وهو خارج بالنقالات من الحظيرة ، سمع كيف ثغا حمل فى الزريبة ، وكيف ثغت أمه جوابا له ، وجعلت تدق الأرض بقدميها • « ها قد ابتدأت البلوى ! » ــ خفق قلبه بشدة •

ــ هل سمعت ؟ ــ التفت تانابای الى زوجته ورميا دفعة واحدة ، بالنقالة مع حمولتها من الدمان ، تحت الأقدام ، واختطفا فوانيس وجريا بها الى الزريبة •

كانت الفوانيس قد بدأت تجوس الزريبة متـألقة بضوء متأرجح، منيرة قطيع الشياه • أين هو ؟ ها هو فى الركن هناك! وكانت أمه قد جعلت تلحس الجسـم الضئيل المرتجف للوليد الجديد • فاختطفت جايدار الحمل بطرف ثوبها • حمدا لله ، أنهم أدركوه فى الوقت المناسب ، والا لكان الحمل قد تجمد فى الزريبة • وتبين أنه بجانبها قد ولدت أم أخرى • لقد ولدت توأمين فوضع تانابای هذين فى طرف رداءه • وفى الطلق كانت ترقد خمس نعاج • وكانت تجأر باختناق • اذن بدأت الولادة • وقبيل الصباح كانت ستلد هذه • ودعيا المساعدتين ، وجعلوا

يأخذون من الزريبة الأمهات التى قد ولدت ، كى يضعوها فى ركن الحظيرة المسـقفة ذاك الذى كان قد نظف بشـكل من الأشكال •

وفرش تاناباى القش ازاء الجدار ، وأرقد الحملان ، التى كانت قد ذاقت لأول مرة فى حياتها لبـأ الأمهات ، وغطاها بالكيس • وكان الجو باردا • وأدخل الأمهات الى الحظيرة المسقفة أيضا • واسترسل فى التفكير ، عاضا شفتيه • ولكن أى جدوى كانت فى التفكير ؟ لم يتبق الا التأميل وتعليل النفس أنه قد يترتب كل شىء على نحو ما • ما أكثر الأعمال ، وما أكثر الهموم ••• ليتهم جلبوا كمية كافية من القش على الأقل، ولكن حتى هذا لا يتيسر • وسيجدن ابراهيم حتى لهذا الأمر سببا وجيها • فسيقول ، حاول فقط أن تنقل القش فى هذه الطرق البالغة الرداءة والتى يتعذر فيها السير ، الى الجبال •

آه ، فليكن ما يكون ! ومضى ليجلب قنينة حبر • وعلم واحدا من الحملان على ظهره علامة «٢» ، أما التوأمان فعلمهما بعلامة «٣» ، وبهذا الشكل رقم الأمهات أيضا • عمل ذلك وهو يفكر : والا حاول أن تميز بعدئذ حينما تختلط المئات معـا وتكتظ ، فيخلط الحابل بالنابل • ان موسم القطاف لدى رعاة الأغنام ليس بالبعيد ، بل قد بدأ •

بدأ الموسم بشكل حاد ، قاس ، كما الحال فى الدفاع أثناء الحرب حين لا تستطيع أن تحتمى بشىء ، فيما تنطلق باتجاهك الدبابات • فانك يقف فى الخندق ولا تتقهقر ، لأنه

ببساطة ليس ثمة ما تستطيع التقهقر اليه • أحد أمرين لا ثالث لهما ، أما الصمود بمعجزة فى القتال ، وأما الموت •

وقف تانابای صباح ذات يوم على اليفاع قبل سوق القطيع الى الرعى ، وجعل ينظر صامتا الى الجهات الأربع ، كما لو انه يقدر موقفه • كان دفاعه متداعيا ، لا يصلح لشىء • ولكنه كان ملزما بالصمود • فليس له أى مكان يتقهقر اليه • كان الوادى الملتوى غير الكبير بنهيره الضحل يضيق بين المرتفعات المستطيلة الوعرة ذات الأصباب المعتدلة ، التى كانت تنهض وراءها الجبال الأعلى ووراء هذه جبال أعلى منها وفوق تلك الجبال قمم شاهقة معتمرة بالثلج • وعلى المنحدرات البيض كانت تتراءى بلونها الأسود صخور حجرية عارية ، أما هناك ، على سلاسل الجبال المقيدة بالجليد ، فكان الشتاء يرقد • وليس له الا أن يمد يده حتى ترتمى هنا • كان يكفيه التحرك فقط ، والتطويح بالغيوم الى أسفل ، فيغرق الوادى فى طيات الظلام ، ولن تستطيع استكشافه •

كانت السماء رمادية ، فى عكارة رماذية باردة • وكانت الريح تدوم فى الأسفل • كان كل ما حوله مقفرا • الجبال ، وليس الا الجبال تكتنف المكان من سائر جهاته • وتقشعر النفس وتجمد من القلق والانزعاج • أما فى الحظيرة المسقفة المتهدمة فكانت الحملان قد بدأت تثغو • وها هم قد فصلوا من القطيع ، توا ، عشر أمهات وشيكات الولادة ، وافردوها للولادة •

مضى القطيع بهدوء لكى يحصل على علف زهيد • وهناك

فى المرتع كانت تلزم عين الراعى ورعايته الآن أيضا • اذ يقع ان النعاج لا تظهر أيما علامة لقرب الولادة • ثم تهرع ، دفعة واحدة، لترقد وراء الشجيرات ، وتضع أطفالها • فان لم تفلح فى رؤية ذلك فى الوقت المناسب ، فان الحمل قد يتجمد على الأرض الرطبة ، وآنذاك لا يعود فى قيد الأحياء •

وعلى أية حال ، لقد وقف تاناباى ، على اليفاع ، ما فيه الكفاية • وما لبث ان لوح بيده ، واتخذ طريقه الى الحظيرة • فهناك لا زالت وفرة من الأعمال ، ويلزم القيام ولو بشيء صغير منها •

وجاء ابراهيم ، بعدئذ ، وجلب طحينا • جاء بعينيه الوقحتين ••• وهو يقول : أين أجد القصور لكم ؟ كيفما كانت الحظائر فى الكولخوز ، فكذلك تقوم الآن • وليس ثمة حظائر أخرى • اننا لم نصل الى الشيوعية بعد •

وبالكاد ضبط تاناباى نفسه ، من أجل ان لا ينقض عليه بقبضتى يديه •

ـ علام سخريتك هذه ؟ انى أتحدث عن العمل ، وفى العمل أفكر • وسأكون فى المسئولية •

ـ وأنا ، فى رأيك ، لا أفكر ؟ انك مسئول عن قطيع واحد، أما أنا فعن الجميع ، عنك وعن آخرين ، وعن كل تربية الماشية• أتتصور ان هذا سهل على ! ـ وعلى حين غرة ، ولدهشة تاناباى انخرط هذا الخب المكار بالبكاء ، دافنا وجهه فى راحتيه ، وتمتم عبر دموعه ، يقول : سأمثل أمام المحكمة ! أمام المحلمة ! لن

تستطيع الحصول على أيما شيء في أيما مكان . والناس لا تريد المضي ،حتى لوقت موقوت ، لمساعدة الرعاة . اقتلوني ، قطعوني، لن أستطيع أكثر من هذا . ولا تنتظروا مني شيئا . عبثا ، التحقت عبثا بهذا العمـل ...

وبهذا المشهد وهـذه الكلمات ارتحل ، تاركا تانابای .

والى الآن ولدت المائة الأولى من الأمهات . أما في قطيعي أشيم وبكتاى الواقعين أعلى ، في الوادي ، فلم تبدأ الولادة بعد ، ولكن تانابای أحس بالكارثة تقترب . انهم كلهم ، كم كان عددهم ، ثلاثة من البالغين ــ دون حساب المرأة العجوز المساعدة، والتي هي الآن ترعى القطيع باستمرار ، والبنت الكبرى ذات الستة أعوام ــ كان هؤلاء جميعـا بالكاد يوفقون لاسـتقبال الحملان حالما تولد ، ولأجلاسها الى أمهاتها ، وتدفئتها بما يقع تحت اليد ، ونقل الدمان والأتيـان بالحطب القشـاش لأجل المفرش . وقد صارت تسمع صرخات الحملان الغرثى ، فقد كان الحليب لا يكفيها ، ذلك ان الأمهات كانت منهكة مضناة ، ولم يكن ثمة ما تعلف به . حسنا ، ولكن ماذا كان يخبيء المستقبل ؟

بدأت أيام وليالي الرعاة تدور دورتها الكاملة ، وانثالت المواليد انثيالا ــ نهرا متصلا ، وليس لك ، مع هذا ، أن تلتقط نفسك ، أو أن تقوم من جذعك .

ولكن كم أرعبهم الجو بالأمس ! لقد برد الجو بشدة ، على حين غرة ، وزلقت السحب جهمة ، وما لبثت ان انصبت حبوب الثلج الجاسئة، وغرق كل شيء في العتمة ، وأظلم ...

ولكن سرعان ما تقشعت الغيوم ، وجعل الجو يدفأ • وفاحت فى الهواء رائحة الربيع وعبقه ونداوته • « فليسمح الله ، ان ينهض الربيع على قدميه ويثبت وطيدا • فلو نهض بشكل مكين ثابت لكان الحال أفضل ، والا فليس ثمة أسوأ حالا حين يروح يترنح الى هنا والى هناك » ـ طفق يفكر تانا باى وهو يحمل على المذراة ما تجمع من خلاصات الأجنة المفعمة بالماء •

وجاء الربيع ، ولكن ليس بالشكل الذى انتظره تاناباى • لقد أعلن عن قدومه فجأة مع المطر ، مع الضباب ، مع الثلج ، وانقض بكل كتلته الرطبة والباردة ، على الحظيرة ، وعلى الخيمة، وعلى الزريبة ، وعلى كل شىء حواليه • وكان من مظاهر الربيع امتلاء البرك وجريان الجداول والنهيرات على الأرض المتجلدة الموحلة • كما كان من مظاهره أن جعل يتسرب عبر السقف المتآكل ، ويجترف الحيطان ، ويغرق الحظيرة ، لينفذ الى قاطنيها بالقشعريرة حتى نخاع العظم • كان هذا هو الربيع الذى حل ، لقد أقام الجميع وأقعدهم • فتألبت الحملان جمهورا فى الماء ، وصرخت الأمهات التى كانت تلد وهى واقفة • ومن هذا الاقتحام عمد الربيع هؤلاء الولدان الجدد بالماء البارد •

كان الناس يسعون فى هرج ومرج ، فى أرديتهم المطرية ، مع الفوانيس • وكان تاناباى يعدو من جانب لجانب • ومثل زوج

من الوحوش المطاردة ، كانت تنحرك سريعا فى الظلمة جزمتان طويلتان تخوضـــان فى البرك ، وفى وحل الدمان • وكان ذيل معطفه ، وهو مسرع ، يسوط الأرض مثل جناحى طير مسقط • كان يشخر ويصرخ على نفسه ، وعلى الآخرين : ــ أسرعى ، أعطينى العتلة ! المجرفة ! والدمان

ارمين هنا ! احجزن الماء !

كان يلزم تحويل مجرى جداول الماء المتدفقة الى الحظيرة ، على الأقل • فكان يدق الأرض المتجلدة ليحفر أقنية وخنادق لتحويل الماء اليها •

ــ ضوئى ! ضوئى هنا ! لماذا تنظرين ؟

وكان الليل ملفعا بالضباب ، وأخذ الثلج يتساقط ممزوجا مع المطر • ولم تكن هناك أية حيلة أو وسيلة لوقف ذلك •

وركض تاناباى الى الخيمة • وأشعل الضوء • وهنا أيضا تساقطت قطرات الماء من كل مكان ولكن ليس كما فى الحظيرة• كانت بنتاه نائمتين ، وقد ابتل غطاؤهما • فالتقف تاناباى طفلتيه بحضنه ، سوية مع الفراش ، ونقلهما الى الركن محررا بذلك مساحة أكبر فى الخيمة • ورمى على الأطفال قطع اللباد ، كيلا يبتل الغطاء من فوق ، وجعل ، وهو يركض من الخيمة يهتف فى النساء فى الحظيرة :

ــ انقلن الحملان الى الخيمة ! ــ وركض هو نفسه الى ذلك الاتجاه بالذات • ولكن كم من الحملان كان يمكن ايواؤه

فى الخيمة ؟ بضع عشرات ، لا أكثر • أما الباقى فالى أين ؟ أوه ، دعنا ننقذ ما يمكن انقاذه على الأقل •••

وها هو الصباح قد أطل • أما مطر السماء فليس له نهاية ولا حد • وعم الهدوء شيئا ، ومن جديد كان المطر يهطل تارة، وتارة أخرى يسقط الثلج ، مرة مطر ، ومرة ثلج •••

كانت الخيمة قد اكتظت بالحملان • كانت هذه تصرخ دون انقطاع • وها هو الدفء • وضعوا الأشياء فى مكان واحد ، كومة واحدة ، وغطوها بمشمع التاربولين ، أما هم أنفسهم فقد انتقلوا الى خيمة المساعدتين العجوزين الاعتيادية • وكانت الطفلتان ترتعشان ، وجعلتا تبكيان •

كانت هذه هى أيام الراعى السوداء • انه يلعن نصيبه ، يلعن مصيره وقدره • انه يلعن ويشتم كل أحد وكل شىء فى الكون • انه يقاسى الأمرين هنا، فهو لا ينام ، ولا يأكل ، ويبذل قصارى جهده لوقاية النعاج المبتلة من قمة الرأس حتى اخمص القدم ، وبين الحملان المتجمدة والخدرة من البرد • لكن الموت جعل يحصدها فى الحظيرة العفنة الرطبة والباردة للغاية • ولم يكن صعبا على الموت ان يجىء الى هنا ــ ليدخل ، من حيثما يريد • من السقف المتهدم ، وعبر النافذة التى عدمت زجاجها ، وخلال الكوى الفارغة للأبواب • قدم ، ومضى يحصد دون رحمة الحملان والأمهات الضعيفات • فكان الراعى يحمل كل يوم بضعا من الجثث الزرقاء ، ويكومها وراء الحظيرة •

ولكن فى الخارج ، فى الزريبة وتحت المطر والثلج كانت

الأمهات الحبالى تقف ، متضخمات البطون . وهذه ستلد بين عشية وضحاها . تقف يركلها المطر بقدميه ، ويسرى التشنج فى فكوكها . ويتهدل الصوف الندى فتائل ...

ولم تعد النعاج تريد المضى للرعى . أى مرتع هناك فى مثل هذا الصقيع وهذه الرطوبة . فكانت المساعدة العجوز ، والكيس على رأسها ، تسوق النعاج الى هناك ، أما هذه فترتد الى وراء ، لكأن الجنة قد أعدت تنتظرها هنا . وجعلت المرأة تبكى ، وتجمعها جميعا ، لتسوقها ، فتركض هذه من جديد الى وراء . وكان تاناباى يخرج مغيظا ، ساخطا . لكان بوده أن يضرب ضربا مبرحا هذه النعاج الغبية ، ولكنها حبلى . فدعى الآخرين ، وتضافرت قواهم جميعا لسوق القطيع الى المرتع .

ومنذ ذلك الوقت ، منذ بدأت الكارثة ، كان تاناباى قد أضاع حساب الوقت ، وحساب المواليد التى كانت تحتضر أمام عينيه . وكان أكثر ما يولد هو التوائم بل وحتى ثلاثة . وقد ضاعت كل هذه الثروة . كل الجهود ذهبت أدراج الرياح ، هباء . وكانت الحملان تطالع النور فى يوم ، لتنفق فى هذا اليوم بالذات فى وحل المطر ووحل الدمان . أما تلك التى تبقت فكانت تسعل ، وتشخر ، وتصاب بالزحار ، وتوسخ الواحدة الأخرى . كانت الأمهات التى مات أطفالها تصرخ ، وتركض ، وتدفع ، وتدوس تلك التى رقدت فى المخاض . وكان فى كل هذا شيء شاذ ، مخالف للطبيعة . أوه ، كم أراد تاناباى ان تتأخر الولادة ولو بعض الشيء !

بيد ان الأمهات كانت ، كما لو انها تآمرت ، تلد الواحدة بعد الأخرى ، الواحدة بعد الأخرى !

وتصاعد فى روحه حقد عارم ، أسود . ثار هذا الحقد ، وغطى عينيه بظلمة سوداء من الكراهية لكل شيء ، مما وقع هنا وألم به ، لهذه الحظيرة المتهدمة ، للنعاج ، لنفسه ، لحياته، لكل شيء ناضل هو من أجله هنا ، كما يختبط السمك فى الجليد .

لقد غشاه نوع من التبلد . كان يدوخ من تيار أفكاره ، فكان يطردها بعيدا ، لكنها لم تكن تتقهقر ، كانت تتغلغل روحه ، ورأسه : « علام كل هذا ؟ من يلزم هذا ؟ لماذا نكثر الأغنام ، ان لم نكن نستطيع رعايتها وحفظها ؟ من المذنب فى هذا ؟ من ؟ أجب ، من ؟ أنت نفسك ، وأمثالك من الثرثارين . اننا ، كما يقال ، طليعيون ، ننهض الانتاج ، ندرك ونسبق المعدل ، ونمنح كلمات الالتزام . اننا نجمل القيل . ولكن تعال الآن ، أيها الطليعى ، وأنهض هذه الحملان الفاطسة ، وانقلها . جر تلك الأم ، التى نفقت فى البركة . وأظهر نفسك للملأ ، أيا ومن أنت فى الواقع ... »

وكان تاناباى يختنق ، وخاصة فى الليل ، وهو يغوص حتى الركبتين فى الأوحال وفى بول الأغنام ، كان يختنق من أفكاره المزعجة ، المرة . يا أنت ، يا ليالى التوالد المؤرقة ! أى عذاب : تحت الأقدام مستنقع الدمان المشبع بالمياه ، ومن فوق ، وعلى الرأس يسيل المطر . والريح تعبث بالحظيرة ، تصول وتجول ،

كما في الحقل والسهب ، وتطفىء الفوانيس • ويمضى تانابای ، متلمسا طريقه بصعوبة ، متعثرا ، ويزحف على أربع ، من أجل أن لا يدوس المواليد الجدد ، ويجد الفانوس ، ويشعله ليرى في ضوئه يديه السوداوين ، المتورمتين ، الملوثتين بالدمان والدم•

منذ زمن بعيد لم يطالع هو وجهه في المرآة ، لم يكن يعرف ، أنه قد شاخ وكبر سنين كثيرة • وان اسمه منذ الآن — هو الشيخ • ولكنه كان في شغل شاغل عن هذا وعن نفسه• ولم يكن عنـده وقت لا للأكل ولا للاغتســال • انه لا يمنح لا نفسه ، ولا الآخرين ، فرصة للراحة • ووضع ، وقد رأى ان الأمر يمضى حثيثا الى كارثة محيقة ، وضع المساعدة الأفتي سنا على الحصان :

— طيرى ، وجدى تشورو • وأبلغيه ان يرتحل الينا دون ابطاء • وان لم يجيء ، فقولى له أن لا يمثل أمام عيني بعد هذا قط !

وعدت هذه على حصانها عائدة فوصلت قبيل المساء ، ونزلت مترجلة من السرج ، مزرقة ، مبتلة حتى آخر خيط مما كانت ترتديه :

— انه مريض ، يا تانابای • انه راقد في الفراش ، ويقول انه بعد يوم أو يومين سيأتي من كل بد ولو كان سيموت •

— ليته لا يرتاح من هذا المرض ! — شتم تانابای •

وأرادت جايدار أن تنتهره ، ولكنها لم تجرؤ ، فقد كان ذلك غير ممكن •

وجعل الجو يروق فى اليوم الثالث • كانت الغيوم تتقشع على مهل وبتباطؤ ، وتصاعد الضباب الى الجبال • وسكن الريح• ولكن بعد فوات الأوان • كانت النعاج الحبالى قد هزلت ، فى هذه الأيام ، وتضمرت بحيث ان المرء كان يرتعب من النظر اليها• كانت تقف عجفاء ، ببطون منتفخة ، على أقدام نحيفة • فأية أمهات مرضعات هذه ! أما تلك الأمهات التى ولدت ، والحملان التى لا زالت فى قيد الحياة ، ــ أكثير منها سيستطيع ادراك الصيف لتتعافى وتسمن بالعشب الأخضر؟ عاجلا أو آجلا سيدركها المرض، فان حتى لم يحصل ذلك فسوف لن تحصل منها لا على صوف ولا لحم •

وما كاد الجو يصحو حتى حلت نكبة أخرى ــ فعلى الأرض كان الجليد يتكاثف طبقات • كان هذا هو الغطاء الجليدى على الأرض • وعند الظهر خف وتراخى • فسر تاناباى : فلعله الآن سيوفق الى انقاذ بعض آخر • ومن جديد انطلق عمل المجارف ، والمذارى ، والنقالات • كان يلزم ايجاد طريق ما الى الحظيرة ، والا فانك لن تستطيع أن تخطو ولا خطوة • وعلى كل حال فلم ينشغلوا بهذا وقتا طويلا • فقد كان يلزم أيضا اطعام الحملان اليتامى ، وارضاعها من الأمهات التى فقدت أطفالها • على ان هذه لا تسمح ، ولا تتلقى غير أولادها • فكانت الحملان تخبط طالبة الحليب • كانت تلتهم الأصابع بافواهها الباردة ، وتمصها • وان طردتها ــ فانها ستمتص الأطراف الوسخة للأردية المطرية • كانت

تريد الطعـــام ، أي طعام • فكانت تســـعى فى اثرك زرافات تصرخ •

ماذا كان يمكن أن ينفع فى مثل هذه البلوى ؟ حتى ولو تبكى ! حتى ولو تقطع نفسك اربا ! ثم كم يمكن الطلب من هذه النساء ومن بنتك الصغيرة ؟ انهن بالكاد يقفن على اقدامهن • كم من الأيام تصرمت ولا تجف هذه المماطر عليهن • ولم يكن تاناباى ليقول لهم شيئا • مرة واحدة فقط لم يصطبر • لقد ساقت المســـاعدة العجوز القطيع الى الزريبة ، فقد أرادت ان تساعد تاناباى • فوثب هذا لينظر ماذا هناك • نظر — فاشتعل دمه نارا عندما رأى ان النعاج تقف ، وتقضم الواحدة صوف الأخرى • ان هذا يعنى أن القطيع يتهدده الموت جوعا • فركض وأنقض على المرأة :

— ما دهاك ، أيتها العجوز ! أفلا ترين ؟ لماذا تصمتين ؟ ولى من هنا ! سوقى القطيـــع ! ولا تدعيه يقف ولا لحظة ! لا تتركى الشياه تقضم الصوف • دعيها تمشى أبدا ، كيلا تقف ولا لحظة • والا فانى سأقتل !

وهنا أيضا انقضت عليه مصيبة أخرى — فان احدى الأمهات ذات التوأمين جعلت تتخلى عن حمليها ، كانت تنطح ، ولا تسمح لهما بالاقتراب منها ، وكانت تركلهما بأقدامها • ولكن الحملين كانا يدبان ، ينسلان اليها ، ويقعان ، ويصرخان من ألم ومن جوع • ان مثل هذه الظاهرة تحدث حين يبدأ فعله أقسى قانون فى الطبيعة وهو قانون حفظ الذات ، وذلك حين ترفض الأم غريزيا اطعام

أطفالها الرضع ، لكى تبقى هى فى قيد الحياة ، لأنها لم تعد قادرة على اطعام آخرين • وهذه الظاهرة ، كالمرض ، معدية • فيكفى أن تضرب نعجة واحدة بنفسها مثلا ، حتى يبدأ الكل الاحتذاء بها • فجن جنون تاناباى وطرد البنت والنعجة التى توحشت من الجوع ، مع حمليها الى الفناء ، الى الزريبة ، وهنا أخذا يرغمانها على اطعام طفليها • وفى البداية كان تاناباى يمسك بالنعجة ، أما البنت فكانت تجلس الحملين الى ضروعها • لكن الأم كانت تدور ، وتصد • ولم توفق البنت لشىء •

— يا أبى ، انهما لا يستطيعان المص •

— يستطيعان ، انما أنت غير قادرة على شىء •

— كلا ، كلا ، أفلا تنظر ، انهما يقعان • — وكادت تبكى •

— طيب اذن امسكى هنا ، سأقوم بالأمر بنفسى •

ولكن كم من القوة عند البنية • فما كاد الحملان يمسكان بالضروع ، وما كاد هذان يبدآن المص ، حتى كانت النعجة الأم تندفع بقوة ، لتركض ، مطوحة بالطفلة • ونفد صبر تاناباى • فصفع البنت فى خدها • لم يكن قد ضرب أطفاله ولا مرة فى حياته ، لكنه هنا ضاق ذرعا ، وطفح كأس صبره • وبدأت الطفلة تبكى بكاء خافتا • أما هو فقد مضى ، بصق على كل شىء ومضى •

مشى قليلا ، ثم رجع ، غير عارف كيف يسأل ابنته الصفح عنه ، أما هى فقد ركضت اليه :

ـ يا أبى ، لقد تقبلتهما • أنا وأمى قد أجلسنا الحملين اليها • ولم تعد هى تطردهما •

ـ ما أروع ذلك • انك شاطرة •

وصار يشعر بالتحسن والانشراح فى الحال • وكأن ليس كل شىء فى منتهى السوء • فلعله سيوفق لأن ينقذ ما تبقى • ولعل الجو يروق ويعتدل ! ولكن ماذا لو نهض الربيع بشكل حقيقى وولت أيام الرعاة السود هذه ؟ ومن جديد انخرط فى العمل • العمل ، العمل ، العمل ـ ليس الا العمل ، فيه وحده النجاة •••

ووصل العداد ـ فتى ارتحل على حصانه • أخيرا ، وبعد كل شىء ، جاء يسأل ماذا وكيف • وأراد تاناباى ارساله الى ألف من الشياطين • ولكن بماذا تستطيع أن تطالبه •

ـ أين كنت سابقا ؟

ـ كيف أين ؟ فى القطعان • لا أستطيع أن ألحق ـ أنا وحدى •

ـ ولكن كيف الحال عند الآخرين ؟

ـ ليس أفضل • فقد أهلكت هذه الأيام الثلاثة السود حياة الكثير •

ـ وماذا يقول الرعاة ؟

ـ ماذا • انهم يؤنبون ويشتمون • وبعض منهم لم يرد حتى التحدث معى • بكتاى طردنى من الفناء • انه يسير حاقدا ، ومن الصعب التفاهم معه •

ـــ أجل • وعندى لم تكن فرصة لأسعى اليه • على أى حال ، لعلى سأفلت وأرتحل اليه • حسنا ، وأنت ؟

ـــ أنا ؟ أى شيء أستطيع أن أعمل ؟ أنا أتولى الاحصاء •

ـــ ولكن هل ستكون أيما مساعدة ؟

ـــ ستكون • يقال ان تشورو أبل من مرضه • فوجه رتلا من العربات بالتبن والحشائش الجافة ، وأخذ كل شيء من الاسطبلات ـــ يقول ـــ فلتنفق الخيول ولا الأغنام • ويقال ان قافلة العربات تعطلت فى مكان ما ، فهذه الطرق عسيرة حقا •

ـــ الطرق ! ولكن بماذا فكروا من قبل ؟ أبد الدهر والحال عندنا بهذا الشكل • ثم أية فائدة ترجى من هذا الرتل الآن ! حسنا ، ولكنى سأريهم يوما ما ! ـــ هدد تاناباى • ـــ لا تسأل• امض أنت وعدها وسجلها بنفسك • فالآن بالنسبة لى الأمر سيان ! ـــ ومضى الى الحظيرة ، قاطعا الحديث ، ليتولى ولادات جديدة • وكانت خمسة عشر نعجة قد وضعت أطفالها اليوم •

سار تاناباى ، جامعا النتاج ، ونظر ـــ فاذا بالعداد يدس اليه ورقة :

ـــ وقع المحضر عن الموتان •

ووقع ، دون أن ينظر • كتب بسرعة خارقة انكسر معها القلم •

ـــ مع السلامة ، تاناباى ! لعلك تقول لى ان أبلغ شيئا ؟ قل !

ـــ ليس لى ما أقوله • ـــ ثم قال ، مخاطبا الفتى العداد،

- عرج على بكتاى • أخبره ، أننى غدا سأنطلق اليه عند الغذاء •

عبثا قلق تاناباى • فقد سبقه بكتاى • لقد أتى هو نفسه اليه • أجل والى هذا ، فكيف أتى •••

فى تلك الليلة هب الريح من جديد ، وهطل ثلج ليس بالكثيف جدا ، لكنه وفق لأن يفرش الأرض بالبياض • وغمر النعاج فى الزريبة باللون الأبيض ، وكانت هذه قد وقفت الليل بكامله على قوائمها • انهـا لم تعد الآن ترقد • كانت تتألب جمهورا ، وتتراص كومة ، لتقف دون حراك ، ودون اكتراث بايما شيء • وقد طال عهد سوء التغذية فترة طويلة جدا ، وطويلا جدا ناضل الربيع الشتاء •

وفى الحظيرة عم البرد • وكانت ندف الثلج تسقط عبر السقف الذى اجترفته الأمطار ، وكانت تدور فى نور الفوانيس الكابى لتسقط بانسجام وتناسق الى أسفل ، على الأمهات والحملان المتجمدة، الملتحمة بعض ببعض • أما تاناباى فكان طيلة الوقت يتدافع بين الأغنام ، قائما بواجبه ، مثل جندى فى فرقة الدفن فى ميدان الحرب بعد المعركة • لقد اعتاد أفكاره المريرة ، الكالحة وألفها ، واستحال الاستياء عنده الى حقد صامت • لكأن وتدا قد دق على قلبه ، فلا يستطيع الانحناء • كان يسير ، وينطلق صوت ارتجاج جزمتيه الطويلتين وهو يخوض بهما فى البرك والأوحال ، كان يؤدى عمله ويتذكر طيلة الوقت فى الساعات الليلية هذه مزقا من حياته الماضية •••

وقتما كان يسعى فى الأرض صبيا ، مساعد راع • كان يرعى سوية مع أخيه قولوباى الأغنام عند أحد أقربائهما • ومضى عام ، وتجلى انهما أنما كانا يعملان لمجرد القوت • خدعهما صاحب الأغنام • ولم يشأ التحدث معهما • وهكذا غادراه ، ومضيا باخفاف بالية على الاقدام ، وقمطرين هزيلين على ظهريهما ، ويدين خاليتى الوفاض • واذ خرج تاناباى هدد صاحب الأغنام : « انى سأذكرك بذلك ، حين أكبر » • أما قولوباى فلم يقل شيئا • كان يكبره بخمسة أعوام • كان يعرف أنك بذلك لن تخيف رب العمل • شىء آخر ، أن تكون أنت مالكا ، فتقتنى قطيعا وتفلح أرضا • « ان صرت رب عمل يوما ما فلن أسىء الى عاملى قط » ــ كان يقول هو آنذاك • وعلى هذه الحال افترقا فى ذلك العام • مضى قولوباى ليرعى عند مالك آخر ، أما تاناباى فقد طوحت به المقادير الى الكسندروفكا ، حيث اشتغل عاملا زراعيا عند مستوطن روسى يدعى يفريموف • ولم يكن هذا المالك مفرط الثراء ــ كل ما عنده زوج من الثيران ، وزوج من الخيول ، وحقل للحراثة • كان يبذر الحبوب • وينقل القمح الى الطاحونة فى بلدة أوليه ــ آتا • وكان يعمل بنفسه من الفجر الى المساء • وكان أكثر مايعمله عنده تاناباى هو العناية بالثيران والخيول • كان صارما ، وعادلا فى نفس الوقت • فكان يدفع ما عليه • وأيامذاك كان فقراء القرغيز المنهوبون من قبل مواطنيهم الأغنياء كانوا يفضلون البحث عن عمل بأجر عند المالكين الروس •

وتعلم تاناباى التكلم بالروسية ، وحل سوية مع عربة النقل

فى تلك البلدة اوليه ــ آتا ، ورأى شيئا من العالم • وهنــاك أدركته الثورة • وقلبت كل شيء رأسا على عقب • وحان حــين التانابايين •

رجع تاناباى الى القرية • وابتدأت حياة أخرى • التقفته، جرت به ، وأدارت رأسه • وقد أتى كل شيء مرة واحدة ــ الأرض والحرية والحقيقة • وانتخب فى لجنة العمال الزراعيين • وفى تلك السنين التقى هو بتشورو وتصادق معه • كان تشورو هذا متعلما، وقد علم الشبيبة كيف كتابة الحروف ، وكيف قراءة السطور • كان تاناباى بأمس الحاجة لمعرفة القراءة والكتابة ، فهو عضــو فى لجنة العمال الزراعيين • وقد التحق بخلية كومسومولية • وهناكان سوية مع تشورو ، وبالحزب التحقا سوية ، وجرى كل شيء فى مجراه ، واستلم الفقراء السلطة • وحين ابتدأت كلخزة الاقتصاد الزراعى ، كان تاناباى قد أقبل على هذا الأمر بــكل روحه • كان أكثر الجميع اهتماما وتكريسا لقضية النضال من أجل الحياة الفلاحية الجديدة ، فى سبيل أن يكون كل شيء مشتركا ــ الأرض ، والماشية ، والعمل ، والأحلام • سحقا للكولاك ! ها اذن قد دوى الزمن العنيف ، العاصف • نهارا كان مفرشه صهوة حصانه ، وليلا كان يغوص فى الاجتماعات والجلسات • ووضعت قوائم الكولاك • كان هؤلاء البكوات والملالى ، وكل صــنوف الأغنياء الآخرين قد استبعدوا من الحياة العامة ، مثلما يســتأصل العشب الضار من الحقل • كان ينبغى تنظيف الحقل من أجــل أن تنبت بذور جديدة • وفى قائمة نزع ملكية الكولاك ، كــان

قولوباى أيضا • والى هذا الوقت ، ريثما كان تاناباى يعــدو قمصا ، وفيما كان يحضر الاجتماعات والجلسات ، كان أخـــوه قد وفق لأن يشق طريقه فى الحياة • فقد كان قد تزوج من أرملة، وكون لنفسه ثروة • اقتنى ماشية ـ أغناما ، وبقرة ، وزوجا من الخيول ، وفرسا حلوبة مع مهرها ، ومحراثا ، ومسالف وما شاكل ذلك • وكان يستأجر عمالا لموسم الحصاد • وهكذا فلا يمكن القول أنه قد أصبح غنيا مثريا ، ولكنه لم يكن ، بالمقابل ، فقيرا بحال • لقد عاش ببلهنية واكتدح بجــد •

قال تشورو حين بلغ الدور قولوباى ، فى جلســة مجلس القرية :

ـ دعونا ، أيها الرفاق ، نفكر • أننتزع ملكيته أم لا • ان أناسا مثل قولوباى يمكن أن ينفعوا فى الكولخوز • فانه نفســه قد تحدر من الفقراء • كما انه لم يشتغل بالتحريض والدعــاية المعــادية •

وصار الأعضاء يتحدثون بوجهات نظر مختلفة ، بهذا الصدد• منهم من كان « مع » ، ومنهم من كان « ضــد » • وأعطيت الكلمة لتاناباى • كان قد جلس منتفشا ، مثل غراب أســحم • بالطبع ، انه أخوه ولو من أبيه فقط • ومن ناحية أخرى ، كان يلزم المضى ضد أخيه • كانا يعيشان على نحو مسالم ، ولو أنهما كانا يلتقيان نادرا • كان كل مشغولا بقضاياه الخــاصة • فان قال : لا تمسوه ، فكيف سيكون الأمر آنذاك مع الآخرين ـ سيوجد عند كل من يدافع عنه ، قريبه ، وان قال : قرروا بأنفسكم

فانهم سيتصورون أنه انما يتملص ، ويتجنب الأمر خوفا .

كان الناس ينتظرون ما الذى سـيقوله . ولأنهم كانوا ينتظرون كلمته ، تعاظم فيه العنف والحدة :

ــ أنت يا تشورو دائما هكذا ! ــ بدأ كلامه هو ، ناهضا . ــ فى الجرائد يكتبون عن أهل الكتب ، كيف ، أعنى ، المثقفين. وأنت نفسك مثقف . أنت طول عمرك تتشكك ، تتهيب ، كما لو ان الأمر لا ينبغى أن يكون كذلك . ولكن لم التشكك وعلام ؟ طالما هو موجود فى القائمة ــ اذن فهو كولاك ! ولا رحمة ولا شفقة ! من أجل السلطة السوفييتية أنا لا أشفق حتى على أبى نفسه . أما كونه أخى ، فهذا أمر لا ينبغى أن يحيركم . لستم أنتم ، وانما أنا الذى سأنزع ملكينه .

وأتاه قولوباى فى اليوم التالى . فواجه تاناباى أخاه ببرود، ولم يمد اليـه يده .

ــ لماذا اعتبرتمونى كولاكا ؟ ألسنا قد اشتغلنا معا عـاملين زراعيين ؟ أو لم يطردنا الأغنياء سوية من الفناء ؟

ــ ان هـذا لا يعنى شيئا الآن . أنت نفسك صرت غنيا.

ــ أى غنى أنا ؟ بعمل ذراعى هذين اكتسبت هذا كله. ومع ذلك فلا أبخل بهذا ولا أشفق عليه . خذوه كله . شيء واحد ــ لماذا تتهموننيبأننى كولاك ؟ خف الله يا تاناباى واتقه !

ــ الأمر سواء . انت طبقة معادية . ونحن ملزمون بتصفيتك من أجل بناء الكولخوز . انما أنت تقف فى طريقنا ، وعلينـا أن نزيحك من الطريق ...

كان هذا هو حديثهما الأخير . وها قد مرت عشرون سنة، منذ لم يتبادلا كلمة . وحين أرسل قولوباى الى سيبيريا ، فكم من الأحاديث ، وكم من اللغط والقيل والقال كان فى القرية !

كان قليلا من دافع عن تاناباى . أكثر النـــاس أدانوه : « لا تسأل الله أن يمنحك مثل هذا الأخ . لأفضل أن تكون دون قريب ! » وجرحه البعض حيث كانوا يقولون له هذا صراحة . أجل ، ان قلنا الصراحة ، فان الناس تحاشوه آنذاك . لم يكن هذا بشكل مكشوف ، ولكنهم صاروا يمتنعون من التصويت من أجل ترشيحه . وهكـــذا صار يخرج تدريجيـــا من سلك النشطاء وينعزل عنه . ومع ذلك فقد كان يتبرر بأن الكولاك قد أحرقوا الكولخوزات ، وأطلقوا الرصاص على النـــاس ، وبأن الشىء الأساسى هو أن الكولخوز بدأ حياته ، وان أموره كانت تتحسن من عام لعام . لقد حلت حيـــاة أخرى تماما . كلا ، ليس عبثـــا كل ما كان آنذاك .

تذكر تاناباى كل ما مر ، حتى أدق التفاصيل . لكأن كل حياته قد تبقت هناك ، فى تلك الفتـــرة العجيبة ، حين كانت الكولخوزات تستجمع قواها . ومن جديد تذكر هو أغانى تلك الفترة عن « الطليعية ذات الخمار الأحمر » ، وتذكر سيارة النقل الكولخوزية الأولى ، وكيف وقف هو آنذاك ، ليلا ، عند القمرة بالعلم الأحمر .

كان تاناباى يجول فى الحظيرة، ويؤدى خدمته المريرة، غارقا بأفكاره المؤلمة . ترى لم يتدهور الآن كل شىء ؟ أتراهم قـــد

أخطأوا ، ولم يمضوا الى ما ينبغى ، ولم يســــيروا فى الطريق المطلوبة ؟ كلا ، هذا لا ينبغى ، لايجوز أن يكون الأمر كذلك ! لقد كانت الطريقة صحيحة ، مضبوطة • اذن ففيم العلة والأشكال؟ أضلوا سواء السبيل ؟ اذن ، متى وكيف حدث هـــذا ؟ ها هى المسابقات الآن ــ لقد دونت الالتزامات والواجبات ، وبعد هذا لم ولن يهم أحدا كيف حالك هنا ، ماذا يحدث لك • من قبل ، كانت لوحات حمر وسود ، فكانت أحاديث كثيرة تدور ، ونقاشات كثيرة تنعقد : من سيكون فى اللوحة الحمراء ، ومن فى السوداء ــ كان هذا يهم الناس ويعنيهم • والآن يقولون ان هذا قديم ، مضى وقته ، وقد بطل استعماله الآن • ولكن ما هو البديل ؟ أحاديث فارغة ووعود • أما فى الواقع فلا شىء • فلماذا هكذا ؟ ومن هو المذنب فى كل هذا ؟

كل تاناباى من هذه الأفكار التى لا مخرج منها • لقد لفه عدم الاكتراث ، والتبلد بقبضتيه • وكان لا يعمل بموفور قواه أو بعظيم رغبته وحافزه • وآلمه رأسه • وأراد أن ينام • لقد رأى كيف أن المساعدة الأفتى سنا قد اتكأت الى الحائط • رأى كيف تتغامض وتتلاصق عيناها المتورمتان ، المحمرتان، وكيف كانت تقاوم النعاس ، وكيف جعلت تنزلق تدريجيا ، وكيف جلست ، بعدئذ ، على الأرض وغفت ، وقد ألقت برأسها على ركبتيها ، وامتنع عن ايقاظها • وهو أيضا اتكأ الى الحائط ، وببطء زحف

الى أسفل ، ولم يستطع فعل أى شىء مع نفسه ، مع هذا الثقـل الذى ارتمى على كتفيه ، والذى كان يميـل به باسـتمرار الى أسـفل ...

واستيقظ من الصراخ المخنوق ومن ضربة صماء بالأرض. وجفلت النعاج مرعوبة ، فكانت تدوس قدميه وهى تسعى . ووثب هو ، دون أن يفهم ، ما الذى حدث وكان الفجر قـد انبلج .

ــ تاناباى ، تاناباى ، النجدة ! ــ دعته زوجتـه .

واليها ركضت المساعدتان، وما لبث هو أن التحق بهما . ونظر ــ فاذا بعارضة خشبية ضخمة قد هوت من السقف وجثمت عـلى جايدار . كان أحد طرفيها قد انخلع من الحائط المجترف، وانهارت العوارض تحت ثقل السقف المتآكل . وطار النوم من عينيه فى الحال .

ــ جايدار ! ــ صرخ ، وهو يدس كتفه تحت العارضـة، رفعها دفعة واحدة .

وزحفت جايدار، وجعلت تئن وتتأوه. وطفقت النساء تندب وجعلت تتلمسها . دفعهما تاناباى دون أن يتميز شيئامن الرعب، وجس بيديه المرتجفتين ما تحت الصديرى فى بدن الزوجة :

ــ ماذا بك ؟ ماذا ؟

ــ أوه ، الحقو ! الحقو !

ـ هل رضضت ؟ اذن ، فلنسعفها ! ـ وألقى بردائه المطرى على الفور ، ووضعوا جايدار عليه وحملوها من الحظيرة .

وتفحصوها فى الخيمة . كانت من الخارج تبدو وكأنه لم يقع لها شيء . لكنها كانت قد صدمت بقوة . ولم تكن تستطيع التحرك .

وطفقت جايدار تبكى :

ـ كيف الآن ؟ ما أصعب هذا الوقت الذى جرحت فيه ؟ كيف سيكون الأمر معكم الآن ؟

« أوه يا الهى ! ـ خطر كالبرق فى ذهن تاناباى . ـ انه لينبغى السرور أنك قد بقيت حية . أما هى ؟ فليذهب الى كل شياطين الأرض هذا العمل ! فقط لتبقى سالمة أنت ، يا مسكينتى ... »

وجعل يربت على رأسها .

ـ عجبا لك ، جايدار ، اهدئى ! فقط لو نهضت على قدميك . أما الباقى كله فلغو باطل . سندبر أمورنا ...

وطفقوا كلهم ، ولم يصحوا من الذهول والانشداه الا الآن، طفقوا يتحدثون ، ينافس بعضهم بعضا ، مقنعين ومهدئين جايدار . وكأنها قد هدأت بسبب ذلك . فابتسمت عبر الدموع .

ـ لا بأس . لا تزعلوا لأن هذا حدث . لن أرقد طويلا . بعد يومين سأنهض . سترون .

وأقبلت النساء تعد الفراش لها ، وتشعل النار ، أما تاناباى فقد رجع من جديد الى الحظيرة ، وهو لا يزال ، مع ذلك ، غير

واثق أن الشقاء قد ولى جانبا عن طريقه •

انفلق الصباح أبيض فى الثلج الناعم الجديد • وقد وجد تانابای فى الحظيرة أما من النعاج قد أودت العارضة بحياتها • ولم يلاحظوا من قبل هذه النعجة الفاطسة • وكان الرضيع يدور ببوزه فى ضروع الأم النافقة • وأصبح تانابای يشعر بمزيد من الرعب ، ومزيد من السرور ، فى آن واحد معا ، ان الزوجة قد بقيت فى قيد الحياة • فأخذ الحمل اليتيم ، ومضى يبحث له عن أم أخرى • ثم وضع عتلة تحت العارضة ، ساندا الحائط بذلك ، وهو ما ينفك يفكر أنه ينبغى المضى ليعاين ماذا طرأ للزوجة •

ورأى ، خارجا الى الخلاء ، رأى غير بعيد قطيعا من الأغنام كان يجول ببطء فى الثلج • لابد أنه راع ما غريب قد ساق أغنامه اليه • ولكن أى قطيع هذا ؟ ولم يسوقها هو الى هنا ؟ ستختلط النعاج معا ، أفحقا ممكن التصرف بهذا الشكل ؟ ومضى تانابای ليحذر هذا الراعى الغريب ، ويبلغه أنه انما وصل هائما الى غير مكانه •

واذ اقترب منه ، وجد ، أن القطيع يسوقه بكتاى •

ــ أى ، بكتاى ، أنت ؟

ولم يجب هذا بشىء • كان يسوق القطيع اليه ، صامتا ، وكان يوالى الضرب الشديد للأغنام بعصاه فى ظهورها • « لماذا يفعل هكذا مع النعاج الجبالى ! » ــ دهش تانابای وتحير •

ــ من أين جئت ؟ والى أين ؟ مرحبا •

ــ من هناك ، حيث لم أعد موجودا • أما الى أين ــ فأنت

ترى بنفسك • ــ واقترب بكتاى منه ، وقد شد رداءه وثيقا بحبل في خاصرته ، وقفازاه مرميان على صدره تحت الرداء •

وتوقف ، ممسكا بعصاه وراء ظهره ، توقف على مبعـــدة بضع خطوات من تاناباى ، ولكن دون أن يحييه • وبصق حاقدا، وبحقد داس على بصقته فى الثلج • ورفع رأسه • كان أسود، وقد أطلق لحيته ، لكأنها ملصقة الصاقا الى وجهه الفتى الجميل • كانت عيناه الوحشيتان كعينى القط البرى تنظران من تحت جبينه بكراهية وتحد • وبصق مرة أخرى ، ونقل العصا بتشنج ، ملوحا بها على القطيع :

ــ خذه • تريد أن تعده ، أو لا تريد • ثلاثمائة وخمســـة وثمانون رأســا •

ــ ولكن لماذا ؟

ــ انى تارك العمــل •

ــ كيف هذا « تارك » ــ الى أين ؟

ــ الى مكان ما •

ــ حسنا ، وما ذنبى أنا هنا ؟

ــ لأنك رئيسى •

ــ ثم ماذا ؟ على مهلك ، على رسلك ، قف الى أين ؟ الى أين توجهت ؟ ــ ليس الا الآن تحسس تاناباى وفهم ما فكر فيــه مرؤوسه وما دبره • وأحس بالاختناق ، وبالسخونة من الدم الذى هجم على رأسه ، ــ كيف هكذا ؟ ــ جعل يتمتم ذاهلا •

ــ ولكن هكذا . كفى معى . لقد سئمت . وقد شبعت حتى الهامة من حياة كهذه .

ــ لكن أتفهم ما تقول ؟ ان الولادة فى قطعيك وشيكة جدا ، أما اليوم أو غدا . اذن ، كيف يمكن مثل هذا ؟

ــ ممكن . ما دام مثل هذا ممكنا معنا ، اذن فيمكننا أن نجيب بذات الشيء ، أن نفعل مثيله . وداعا ! ــ ودور بكتاى بالعصا فوق رأسه ، ورماها بكل ما أوتى من قوة ، ومضى لايلوى على شيء .

وتجمد تانابای خدرا . لم يعد يجد ماييناسب من الكلمات . أما ذاك فقد وسع خطاه دون أن يلتفت الى وراء .

ــ تأمل مليا ، يا بكتاى ! ــ ركض وراءه ، ــ مستحيل هكذا . فكر أنت نفسك ، ماذا تفعل ! هل تسمع ؟

ــ كف عنى ، ابتعد ! ــ استدار اليه بكتاى بحدة . ــ أنت فكر ! انى أريد أن أعيش كما يعيش الناس . أنا لست أسوأ من الآخرين . وأنا أيضا أستطيع العمل فى المدينة ، والقبض على أجر . لماذا أنا ملزم الهلاك هنا مع هذه النعاج ؟ بلا عاف ، بلا حظيرة ، بلا خيمة على الرأس ؟ كف عنى ! وامض أشبع نفسك ببذل المستحيل ، اندفن فى الدمان ! أنظر الى نفسك : من صرت تشبه . ستنفق هنا قريبا . أما أنت فتجد هذا قليلا بحقك . تنثر لى النداءات . تريد أن تجر الآخرين وراءك أيضا . مستحيل! كفى معى ! ــ وجعل يخطو ، وهو يدوس الثلج الأبيض ، الطرى ،

غير الممسوس بعد بقوة ، بحيث أن آثاره كانت تسود فى الحال، وتطفح بالماء .

ـ بكتاى ، اسمعنى ! ـ لحق به تانااباى ، ـ سأوضح الأمر لك .

ـ أوضح للآخرين . ابحث عن حمقى !

ـ توقف ، يا بكتاى ، ولنتحدث .

ومضى هذا ، غير راغب فى سماعه .

ـ ستمثل أمام المحكمة !

ـ لأفضل أمام المحكمة من هذا الوضع ـ كشر بكتاى ، ولم يعد يلتفت .

ـ انك فار !

أما هذا فكان لا يزال يحث خطاه .

ـ أمثالك أعدموهم فى الجبهة رميا بالرصاص !

وواصل ذاك خطاه .

ـ قف ، أقول لك ! ـ امسك تانااباى بردنه .

فنفض ذاك يده ، ومضى أبعد .

ـ لا أسمح لك ، أنت لا تملك حقا ! ـ جذبه بقوة من كتفيه ، وفجأة عومت الجبال البيضاء حواليه ، فى عينيه وأظلمت فى الدخان . كانت الضربة المفاجئة ، غير المتوقعة ، فى الفك ، قد ألقته أرضا .

وحين رفع رأسه الذى كان يدور ، كان بكتاى قد اختفى وراء اليفاع .

ومضت وراءه سلسلة واحدة لآثار قاتمة •

ــ ضاع الفتى ، ضاع ، ــ جعل تاناباى يئن ، ناهضا على أربع • وقام • كانت يداه ملطختين بالوحل والثلج •

والتقط نفسه • وجمع قطيع بكتاى وساقه مكتئبا ، منكس الرأس ، الى حيث مرعاه هو •

١٧

ارتحل فارسان من القرية متجهين الى الجبال • كان أحدهما على الحصان الأشقر ، والآخر على حصان كميت • وكان ذيلا حصانيهما قد ربطا بعقدتين ، فقد كان الطريق طويلا • وكان الوحل المختلط بالثلج يبقبق ، ويتطاير من تحت الحوافر كتلا ورذاذا •

لقد مضى غولسارى بعنان قوى مشدود وثيقا ، وبخطو حازم ، مكين • فلقد شبع الرهوان وقوفا ، فبينما كان صاحبه مريضا • انما ارتحل الآن عليه لا صاحبه ، بل شخص آخر لا يعرفه هو ، شخص قد غاص فى معطف جلدى ، وممطر من التاربولين مفتوح الياقة ارتداه فوق المعطف • ومن ملابسه كانت تفوح رائحة الأصباغ والمطاط • والى جانبه كان تشورو قد اعتلى صهوة حصان آخر • وقد حدث هذا أحيانا ــ فقد تنازل تشورو عن الرهوان للرفيق القادم من المركز المنطقى • وبالنسبة لغولسارى، فى الحقيقة ، كان الأمر سواء : من الذى يمتطيه • فمنذ ذلك الوقت ، وحين أخذ من القطيع ، وفصل عن صاحبه القديم ، كان قد امتطى صهوته كثير من الناس المختلفى الطبائع والمشارب

ـ أناس طيبون وأناس غير طيبين ، مريحون أو غير مريحين في السرج • بل ووقع في أيدي المتهورين • كم كانوا حمقى على ظهر الحصان ! يستحثه أحدهم لغاية ما يستطيع من الجري السريع ثم يجذب اللجام فجأة ، فيشب الحصان على عقبيه ، ومن جديد يستعجله مسرعا للغاية ليوقفه ، شادا باللجام ، من جديد ، بأقصى قواه • انه هو نفسه ، هذا الراكب ، لا يعرف أية أعمال غريبة يقوم بها ، كل ما يريد هو أن يراه الجميع ممتطيا صهوة الرهوان • لقد اعتاد غولساري على كل شيء • شيء واحد كان همه الآن أن لا يقف طويلا في الاسطبل ، فيسأم ، ويكل ركودا • وكانت لا تزال تعيش فيه وتمور تلك الشهوة العريقة وذلك التحرق الأكال القديم ـ الركض ، الركض ، الركض • أما من يحمل على ظهره ، فهذا الأمر سيان بالنسبة له ، انه لا يهمه• لكن الحال كان مختلفا بالنسبة الى من يركبه ، فلم يكن بالنسبة له سواء على أي حصان يرتحل • فما دام قد أعطوه الرهوان الأشقر ـ فهذا يعني أنهم احترموه ، وهابوه • فغولساري قوي وجميل • وراكبه يشعر بالراحة والطمأنينة عليه •

وفي هذه المرة حمل الرهوان المدعي العام للمنطقة سيغيربايف المرسل الى الكولخوز ، مفوضا • وقد اصطحبه المنظم الحزبي للكولخوز ـ هذا يعني ، أيضا ، الاحترام والتقدير • ويصمت المنظم الحزبي ، يخاف أن يرفع رأسه ، ويخاف الحديث ذاته ، فالأمور سيئة مع التوالد في شئون تربية الأغنام • بل في غاية السوء • حسنا ، اذن دعه يصمت • دعه يهاب • فلا داعي يدعوه

لأن يزج نفسه فى أحاديث فارغة ، فالأسفلون ينبغى أن يهابوا الأعايين • وبخلاف ذلك لن يكون أى نظام • والى ذلك فيوجد ثمة من يعامل ببساطة بمرؤوسيه ، ولكنه يتلقى من هؤلاء المرؤوسين بالذات ، فيما بعد ، تلك الضربات التى يتطاير منه التراب من جراءها ، كما من الملابس العتيقة • ان السلطة ــ قضية كبيرة ، مسئولة ، وليس بمستطاع أيما أحد تحملها •

ارتحل سيغيزبايف بمثل هذه الأفكار ، مهتزا فى السرج على ايقاع خطوات الحصان ، ولا يمكن القول انه كان فى حال معنوية واطئة ، بالرغم من أنه ماض فى مهمة تفتيشية الى رعاة الأغنام ، وبالرغم من أنه كان يعرف أنه لن يلقى الكثير مما يسره• لقد التحم الشتاء بالربيع وجعل يصطرع معه ، ولا يريد أحدهما أن يتنازل للآخر ويخلى له المكان ، وفى هذا الاصطراع تتألم فى الأكثر ، الأغنام ، فتموت الصغار ، وتموت الأمهات العجفاوات، وما من طريق آخر ، ولن تستطيع أن تفعل شيئا • كل عام يقع مثل هذا الأمر • والكل يعرف ذلك • ولكن ما دام قد أرسل مفوضا مسؤولا ، اذن فانه ملزم أن يستذنب أحدا ، وان يضعه أمام المسؤولية • وفى مكان ما فى خفايا الروح العميقة كانت تستخفى فكرة تقول ان هذه النسبة العالية من موتان الماشية فى المنطقة ، انما هى فى صالحه • ذلك أنه فى خاتمة المطاف ليس هو، المدعى العام المنطقى ــ وكل ما هو عضو مكتب لجنة المنطقة الحزبية ، ــ ليس هو بالمسؤول عن الوضع فى تربية الماشية • انما السكرتير الأول ــ هو الذى مكلف بذلك ، هو المسؤول • فهذا

الذى لا زال حديث العهد فى المنطقة ، هذا بالذات ... دعه يكون مسئولا ! أما هو ، سيغيزبايف ، فليتفرج ، ولينتظر . وأولئك الذين يتربعون فى مقاعد المسؤولية العالية ، فوق ، دعهم ، هم أيضا ، يروا ـ أفلم يخطئوا حين بعثوا سكرتيرا من خارج المنطقة . لقد استاء سيغيزبايف حين حدث هذا ، ولم يستطع أن يرضخ أو يهادن كونهم قد تخطوه بهذا الشكل . انه هنا منذ زمن طويل فى الادعاء العام ، وقد أثبت ، أكثر من مرة ، فيما يبدو ، لأى شىء هو مؤهل وعلى أى شىء هو قادر . لكن لا بأس ، ان لديه الأصدقاء الذين سيسندونه عند الضرورة . لقد حان الحين لأن ينتقل الى العمل الحزبى ، فقد شاب هو وشبع جلوسا فى مقعد المدعى العام المنطقى ... أما الرهوان فكان رائعا يتهادى مثل سفينة ، لا يعوقه لا وحل ولا أوساخ . وكان حصان المنظم الحزبى قد تغطى برغوة ، أما الرهوان فهو انما بدأ يندى ليس الا ...

أما تشورو فكان يفكر بأموره ، هو الآخر . كان يبدو عليه أن صحته فى غاية السوء . فالصفرة قد طفحت على وجهه المرهق تماما وعيناه قد غارتا فى موقيهما . كم من السنين كان قلبه يعذبه ، وكلما امتد به العمر ، كان الأمر يسوء أكثر فأكثر . وكانت أفكاره مزعجة ، مؤلمة . أجل ، لقد تبين أن تانابای كان محقا . فهذا الرئيس يصرخ ، ويضج ، وما من جدوى فى صراخه وضجيجه . وكان يقضى أكثر وقته فى المركز المنطقى ، وهو يزعم باستمرار أن لديه أمورا ما هناك . ينبغى وضع سؤال عنه فى

الاجتماع الحزبى ، ولكن فى المركز المنطقى يوصون بالتريث • ولكن لم التريث ؟ انهم يقولون ، كان آلدانوف نفسه يريد أن يغادر عمله ، ألعله بسبب ذلك ؟ لو غادر لكان أفضل • وبالنسبة له ، هو تشورو ، آن أوان تركه العمل أيضا • فأى نفع يرجى منه ؟ انه مريض أبد الوقت وقد جاء سامنصور فى العطلة ، وهو الآخر ينصحه بترك العمل أيضا • وبالطبع ، فترك العمل ممكن، لكن والضمير ؟ ان سامنصور فتى ليس بالغبى ، والآن هو يميز الأمور على نحو أفضل من أبيه • فباستمرار يناقش هو ويوضح كيف ينبغى ادارة المزرعة التعاونية واقتصادها • انهم يدرسونهم علوما نافعة ، طيبة ، ويمكن ، مع مرور الزمن ، أن تصبح الأمور والحال على ما يعلمهم أساتذتهم ، ولكن ريثما يجرب ذلك ، ويختبر ، ويقرر ، ــ فان الأب سيكون قد جاد بروحه ، وغادر هذه الدنيا • وليس له أن يزوغ من حزنه وبلواه هذه الى أيما مكان • فمن نفسك لن تهرب ، ولن تختفى • ثم ما سيقول الناس؟ لقد وعد ، وشجع ، وورط الكولخوز فى ديون يصعب الايفاء بها • ــ أفيغادره للراحة الآن ؟ كلا ، لن تكون له راحة ، الأفضل ان يبقى حتى النهاية • سيهبون لمساعدته ، فمثل هذا لن يستمر طويلا • فقط لو أسرعوا للعون ! ولو كان ذلك العون بشكل حقيقى ، وليس هكذا ، مثل هذا الذى أتى • سنحاكم ، يقول، لقاء تدهور الحال : طيب ، حاكم ! ولكن الآمور بالأحكام والعقوبات لن تصلح • انه يرتحل متجهما ، مقطب الجبين ، لكأن هناك ، فى الجبال ، ليس سوى المجرمين ، وهو لوحده يناضل

من أجل الكولخوز ... لكنه في الحقيقة يبصق على كل شيء ، فالأمر لا يهمه ، انما هو يتصنع مظهرا ليس الا . ولكن جرب أن تقول ذلك !

١٨

كانت الجبال تقف في العتمة الرمادية . لقد أظلمت ، منسية من قبل الشمس واقتمت في أعاليها على نحو متجهم ، مثل عمالقة غاضبين . وكانت الرطوبة والعكارة تسود الأماكن حولها .

لقد ابتأس تاناباى في حظيرته هذه . ليس الا البرد ، وضيق النفس . وقد ولدت في الحال عدة أمهات ، ولكن لم يكن ثمة مكان لتنقل هذه الحملان اليه . حتى ولو تصرخ صراخا ، وتلطم الخدود . ضوضاء ، وثغاء ، وزحام . والكل يريدون الأكل ، الكل يريدون الشرب ، ويتهاوون موتى كالذباب . والى ذلك فلا زالت الزوجة راقدة بحقو محطوم . كانت تريد أن تنهض ، ولكنها لا تستطيع أن تنتصب بجذعها . فليكن ما يكون . لم تعد ثمة أيما قوى .

وبكتاى لم يبارح ذهنه قط ، فكان حقده العاجز عليه يخنقه خنقا . لا لانه انصرف ـ فهذا ما يستحقه ، ولا لأنه هجر قطيعه، مثلما يهجر طائر الوقوق بيضه في عش الغير ـ ففي خاتمة المطاف سيرسلون راعيا آخر ، وسيأخذون أغنامه ، وانما لأنه لم يستطع أن يجيب بكتاى بذلك الشكل الذى لانفرط معه كرشه من العار والخزى . بذلك الشكل الذى لن يبتهج معه ، بعد هذا ، بنور

العالم الأبيض • الصبى الغر ! ضعيف الارادة ! لكنه هو تاناباى، الشيوعى العجوز، الباذل كل حياته للكولخوز ، لم يجد مايكفى من الكلمات ويناسب ، لكى يجيبه كما ينبغى • لقد رمى بعصا الرعاة ، وانصرف الغر ! أو فكر تاناباى ، آنذاك ، أنه سيحدث مثل هذا ؟ أتصور هو ، وقتا من الأوقات ، ان أحدا ما سيضحك وسيسخر من قضيته المصيرية ؟

« كفى ! » ــ أوقف هو سيل أفكاره ، ولكن بعد دقيقة ليس الا ، عاد من جديد الى ذات الأفكار •

ها قد ولدت أم أخرى ، أنجبت توأمين لطيفين • ولكن الى أين بهما ؟ فالضرع عند الأم يابس ، ولكن من أين يمكن له أن يدر حليبا ؟ اذن ، وسيموت هذان أيضا ! ايه انها المأساة ، الكارثة ! أما هناك فترقد الحملان الميتة ، المتجمدة من البرد • وجمع تاناباى الجثث ، ومضى ينقلها • وها قد دخلت ركضا اليه بنته وقالت لاهثة :

ــ أبتاه ، لقد قدم الينا رؤساء •

ــ دعهم يقدمون ، ــ قذف تاناباى بكلماته • ــ امضى ، انت ، انظرى حال أمك •

واذ خرج تاناباى من الحظيرة ، رأى فارسين • « أوه ، غونساري ! ــ سر هو • وعزف فى صدره الوتر القديم ودوى عانيا • ــ كم من الوقت لم نتلاق ! انظر كيف يمضى ، لا زال هو هو ! » ومن القادمين كان لا يعرف الا تشورو • أما الآخر ، فى المعطف الجلدى ، والذى ارتحل على الرهوان ، فلم يكن

يعرفه • لا بد أنه أحدهم من المنطقة •

« أحم ــ تفضلوا • لقد وصلتم أخيرا • » بدأ يفكر بتشف • هنا ، كان يمكنه أن يجأر بالشكوى ، وان يفرج عن نفسه بالبكاء ويلعن نصيبه وحظه فى هذه الحياة ، ولكن لا ، لن يئن ، دعهم يخجلون ، دعهم يتضرجون استشعارا بالخزى • أو ممكن ، حقا ، بهذا الشكل ؟ رموه للموت ، وها هم الآن قادمون بعد كل ذلك •••

لم يعد تاناباى ينتظر حتى يصلوا ، فمضى وراء ركن الحظيرة ، وألقى بالحملان الميتة فى كومة • ورجع غير مستعجل •

أما القادمان فقد كانا فى الفناء • وكان حصاناهما يتنفسان بعسر • وكان تشورو يبدو فى مظهر يرثى له ، مظهر المذنب الذى يثير الشفقة • لقد كان يعرف أنه سيلزمه أن يجيب أمام صديقه عن كل هذا • أما ذاك الذى على الرهوان فكان غاضبا متوعدا ، بل حتى لم يحيه • وما ابث ان انفجر على التو :

ــ يالها من شناعة ! فى كل مكان مثل هذا ! انظر ما الذى يجرى هنا ! ــ دهش باستيباء ، متوجها بالكلام الى تشورو • ثم عاد يخاطب تاناباى • ــ لماذا هكذا ، أيها الرفيق ،ــ والتفت الى تلك الجهة ، حيث رمى تاناباى بالحملان النافقة ، ــ كيف أنت راع شيوعى ، وحملانك تنفق ؟

ــ أما هى ، الحملان ، فعلى الأرجح ، لا تعرف أنى شيوعى • ــ قالها تاناباى ، ساخرا ، لاذعا ، وفجأة ، وعلى حين غرة كما لو ان نابضا ما انكسر فيه ، فجعلت روحه تقفر ، وبدأت

تستولى عليه لا مبالاة مريرة .

ــ يعنى كيف ؟ تضرج سيغيزبايف . ولاذ بالصمت ــ هل تقبلت الالتزامات الاشتراكية ؟ ــ وجد ، فى النهاية ، ما يقوله .

ــ تقبلت .

ــ ما الذى قيل هناك ؟

ــ لا أتذكر .

ــ ولهذا تنفق عندك الحملان ! ــ وأومأ سيغيزبايف بمقبض السوط ، مشيرا الى تلك الجهة ، مرة أخرى ، ونهض بالركاب، متشجعا ، بامكانية تعليم هذا الراعى الوقح ، واعطائه درسا . ولكنه فى البداية انقض على تشورو بالذات: ــ ما الذى تهتم به؟ الناس لا يعرفون حتى واجباتهم . يخرقون الخطط ، يقتلون الماشية . بماذا تشتغل هنا ؟ كيف تربى شيوعييك ؟ أى شيوعى هو ؟ أنا أسألك أنت !

وصمت تشورو ، منكسا رأسه . وثنى بيديه مقاود العنان .

ــ كما هو موجود ، ــ أجابه تاناباى بهدوء .

ــ هذه هى المسألة ، كما هو موجود ! أجل ، انك لمؤذ ! انك تقضى على ثروة الكولخوز . أنت عدو للشعب . فى السجن مكانك وليس فى الحزب . انك تسخر من المسابقة الاشتراكية وتستهزىء بها .

ــ أى نعم ، فى السجن مكانى ، فى السجن ــ أكد تاناباى بنفس الهدوء . وجعلت شفتاه تتواثبان مرتجفتين من نوبة الغضب المحتدم احتداما ، والمنفجر فيه من الأساءة ، من الأحزان والمرارة،

من كل ذلك الذى منه طفح كأس صبره • طيب ! ــ وسمر نظره على سيغيزبايف ، جاهدا أن يكبح غضبه ويلم شفتيه المرتجفتين • ــ ما الذى ستضيف الى هذا كله ، أيضا ؟ هل من مزيد ؟

ــ علام تتحدث بهذا الشكل يا تاناباى ؟ تدخل تشورو •

ــ علام ؟ أوضح كل شىء بتعقل !

ــ هكذا ! يعنى ، أو لك أيضا ينبغى أن أوضح الأمور ؟ قل لى : علام جئت الى هنا ، يا تشورو ؟ ــ بدأ تاناباى يصرخ• ــ لماذا جئت ؟ أسألك أنت بالذات ؟ الأجل ان تقول ان الحملان عندى تموت ؟ أنا نفسى أعرف ذلك ! أم لأجل ان تقول اننى غاط بالأوحال والعذاب حتى الهامة ؟ أنا أعرف ذلك أيضا ! أم لأجل ان تقول اننى كنت أحمق طيلة حياتى واننى بذلت المستحيل من أجل الكولخوز ممزقا نفسى ؟ وهذا أعرفه أنا أيضا ! ••

ــ تاناباى ! ثب الى رشدك ! ــ قفز تشورو الشاحب من السرج •

ــ اليك عنى ! ــ دفعه تاناباى ، مبعدا اياه • ــ لأبصقن على التزاماتى ، على كل حياتى ! امض ! ان مكانى فى السجن ! لماذا جئتنى بهذا السيد الجديد فى المعطف الجلد ؟ ألأجل ان يستهزأ بى ؟ أم لأجل أن يطوح بى فى السجن ! عجل ، أيها الوغد ، وألقنى فى السجن ! ــ جعل تاناباى يتحرك سريعا ، من أجل أن يختطف شيئا ما بيديه ، فاختطف المذارى ، التى كانت

متكئة الى الحائط ، وانقض بها على سيغيزبايف • ــ فلتول عنى ، أيها الوغد ! أبعد ! ــ وطفق يلوح ، وهو لم يعد يميز شيئا ، بالمذارى أمامه •

وكان سيغيزبايف ، الذى جبن غاية الجبن ، يجذب الحصان ، بارتباك وبلادة ، تارة الى هنا ، وتارة الى هناك ، فكانت المذارى تضرب الحصان المشدوه فى رأسه ، وترتد عنه، مدوية ، لتهوى ، من جديد ، على رأسه • ولم يفهم تانابای فى سعاره الضارى هذا ، لماذا كان يرتجف رأس غولسارى بتشنج وعصبية ، ولماذا كان لجامه يمزق الفم الأحمر الساخن ، ولم كانت عيناه الجاحظتان من موقيهما تتخاطفان أمامه منذهلتين ومرعوبتين تماما •

ــ ول عنى ، يا غولسارى ، ابعد ! دعنى أبلغ هذا السيد فى الجلد ! ــ زأر تانابای ، موجها الضربة تلو الضربة على رأس الرهوان البرىء •

وتعلقت المساعدة الأفتى سنا ، وقد وفقت لأن تهرع فى الوقت المناسب ، تعلقت بيديه ، محاولة ان تختطف المذارى ، ولكنه ألقاها أرضا •

ــ الى الوراء ! فلنفر ! انه سيقتل ! ــ ارتمى تشورو حاجزا بينه وبين سيغيزبايف ، الذى كان قد وفق لأن يثب الى السرج •

وأهوى تانابای عليه بالمذارى ، لكن الفارسين كانا قد أطلقا حصانيهما فى فرار سريع من الفناء • فطاردهما كلب بنباحه،

وهو يتشبث بالركب ، وبذيلي الحصانين •

أما تاناباى فقد ركض أثرهما ، يتعثر ، واختطف فى ركضه كتلة من الطين ، ورماها فى أثرهما ، دون ان يكف عن الزعيق :

ـ فى السجن مكانى ! فى السـجن ! ولوا ! ولوا من هنا ! فى السجن مكانى ! فى السجن !

ورجع بعدئذ ، وهو لا يزال يتمتم ، لاهثا ، مختنقا : « فى السجن مكانى ، فى السجن ! » والى جنبه كان كلبه يسير ، مفتخرا ، معتزا بشعور من قد أدى واجبه • كان ينتظر استحسان صاحبه ، ولكن هذا لم يلاحظه ، ولم يلق له بالا • وللاقاته ، خفت جايدار ، معتمدة على عصاها ، تعرج ، شاحبة ، مرعوبة :

ـ ماذا فعلت ؟ ماذا ارتكبت ؟

ـ عبثا •

ـ أى عبث ؟ بالطبع عبثا •

ـ عبثا ضربت الحصان •

ـ أأنت فى كامل عقلك ؟ أتعرف ماذا ارتكبت ؟

ـ أعرف • أنا مؤذ • أنا عدو الشعب ـ صار يتكلم ، مقاوما لهاثه ، وما لبث أن صمت ، وابتدأ ، وقد غطى وجهه بيديه ، ينتحب بمرارة وبصوت عال •

ـ اهدأ ، اهدأ ! ـ سألته زوجته ، باكية سوية معه ، ولكنه كان لا يزال يبكى ويبكى ، مهتزا من جانب الى آخر • ولم تكن جايدار قد رأت ، من قبل ، ولا مرة ، تاناباى باكيا •••

١٩

اجتمع مكتب اللجنة المنطقية الحزبية فى اليوم الثالث بعد هذه الواقعة الاستثنائية .

كان تانابای باكاسوف جالسا فى قاعة الاستقبال ، وهو ينتظر دعوته الى الغرفة ، التى كان الحديث عنه يدور خلف بابها. لقد فكر كثيرا فى هذه الأيام ولكنه لم يستطع أن يقرر بعد : أمذنب هو أم لا . لقد فهم انه قد ارتكب عملا شائنا ، لقد رفع يده على ممثل السلطة ، ولكن لو كان الأمر يقتصرا على ذلك فقط ، لكان كل شىء سهلا . فلقد كان مستعدا أن يتلقى، لقاء سلوكه غير اللائق ، أيما عقوبة . انما هو ، وقد انصاع لسورة الغضب ، قد قذف فى الريح بكل آلامه وعذاباته من أجل الكولخوز ، ودنس كل همومه ومعاناته وتأملاته . فمن سيثق فيه الآن ؟ من سيفهمه الآن ؟ « ولكن لعلهم ، على كل حال ، سيفهموننى ؟ » ـ برقت عنده بارقة أمل . ـ سأحكى كل شىء، عن هذا الشتاء ، عن الحظيرة والمخيم العتيق المهلهل ، عن عدم وجود العلف ، عن الليالى المؤرقة ، عن بكنای ... دعهم يميزوا الأمر ويتفحصوه . أفيمكن بهذا الشكل ادارة المزرعة التعاونية واقتصادها ؟ » ولم يعد يأسف ، فى هذه اللحظة ، أن الأمر قد جرى بهذا الشكل . « دعهم يعاقبوننى ـ طفق يفكر . ـ فمقابل هذا ، سيكون الأمر أسهل على الآخرين . لعلهم بعد هذا سيلقون على رعاة الأغنام نظرة الرعاية ، ولعلهم سيهتمون بأمر معيشتنا ، بأحزاننا وكوارثنا » . ولكن بعد دقيقة استسلم

للعنف من جديد ، وهو يتذكر كل ما عاناه ، فضغط جمعى يديه بين ركبتيه ، وأكد بعناد لنفسه : « كلا ، لست مذنبا فى أيما شيء ، كلا ! » وما لبث ان وقع بعد ذلك من جديد ، فى دوامة الشك ...

وهنا ، فى قاعة الاستقبال بالذات ، جلس ، لأمر ما ، ابراهيم أيضا . « ولكن لأى شيء يلزم هذا هنا ؟ لقد طار مثل صقور الجثث على جيفة » . حقد تانابای ، مشيحا بنظره عنه . أما ذاك فقد لزم الصمت ، وتأوه ، وهو يطالع ببصره رأس الراعى المطرق .

« لماذا يطيلون ؟ — طفق تانابای يفكر ، وهو يتحرك متململا على الكرسى . — ما هو المزيد — الضرب . ماذا يعوقكم اذن ، اضربوا !» وهناك ، وراء الأبواب المغلقة ، كان يبدو أن الجميع كانوا فى اجتماع . وكان آخرهم الذى دلف الى الغرفة قبل بضع دقائق هو تشورو . عرفه تانابای من الشعر اللاصق بساقى جزمتيه الطويلتين . كان ذلك هو الشعر الضارب الى الصفرة ، والذى كان يزهو به جلد غولسارى . « أفرط فى السرعة ، فيما يبدو ، وعرق غولسارى حتى رغى » — طفق يفكر ، ولكن دون أن يرفع رأسه و وسمع وطأ الجزمتين اللتين علق بهما فيض قطرات عرق الحصان ، وشيء من شعره ، سمع وطأهما الواهن بجنبه ، ثم ما لبثت ان اختفت الجزمتان وراء الباب .

ومضى وقت طويل ، ريثما أطلت السكرتيرة ناحيته :

ـ ادخل ، أيها الرفيق باكاسوف •

فانتفض تاناباى ، ونهض ، وقد أصمت سمعه ضربات قلبه العنيفة ، ومضى الى الغرفة تحت وطأة هذا القصف غير المنقطع فى أذنيه • وطغى على عينيه الضباب • ولم يميز تقريبا أو يشخص وجوه الناس الجالسين هنا •

ـ اجلس • ـ أشار السكرتير الأول للجنة المنطقية كاشكاتايف لتاناباى ، ليجلس على كرسى عند نهاية المنضدة الطويلة •

جلس تاناباى ، ووضع يديه المتثاقلتين على ركبتيه ، وجعل ينتظر ريثما يتبدد الضباب فى العينين • ثم أجال بصره على طول المنضدة • وعلى اليد اليمنى للسكرتير الأول ، كان قد جلس سيغيزبايف بوجه متجبر ، متكبر • واستشعر تاناباى بتوتر بالغ من مقته لهذا الانسان ، بحيث أن الضباب الذى كان جاثما فى عينيه ، قد تقشع مرة واحدة • وتبينت وجوه الجالسين ازاء المنضدة بجلاء وتمييز • وكان أكثر الوجوه اظلاما هو وجه سيغيزبايف الأحمر القاتم ، أما أكثرها شحوبا وخلوا من الدم تماما فكان وجه تشورو • وكان هذا جالسا فى الطرف الأقصى أقرب الجميع الى تاناباى • كانت يداه المعروقتان ترتجفان بعصبية على غطاء المائدة الأخضر من الجوخ • أما رئيس الكولخوز آلدانوف ، الجالس قبال تشورو ، فكان يئز نفسه بضجيج وانزعاج ، وهو يجيل طرفه مقطبا ، فى الجوانب • ما كان يخفى موقفه من القضية المطروحة • أما الآخرون فكانوا

لا يزالون ينتظرون ، وأخيرا رفع السكرتير الأول نظره عن الأوراق في الاضبارة .

ـ نباشر بالقضية الشخصية للشيوعي باكاسوف . ـ قال هو ضاغطا على الكلمات بقوة .

ـ أجل ، اذا أمكن القول ، الشيوعي . ـ نبس أحدهم بخبث وهو يسخر .

« حاقدون ! ـ لاحظ تانابای محاورا نفسه . ـ لا تتوقع منهم لا رحمة ولا شفقة . ولكن لم يتعين على انتظار الشفقة ؟ أو أنا مجرم ؟ » .

لم يكن يعرف أنه في حل قضيته ومعالجتها ، سيصطدم جانبان متنافسان بخفية ، وكل واحد منهما مستعد لأن يستثمر بطريقته الخاصة هذا الحادث المهين . يتمثل أحد الطرفين في شخص سيغيزبايف وأنصاره ، وقد أراد هذا الطرف أن يمارس مقاومة السكرتير الجديد ، وأن يختبر امكانية اخضاعه ، ولو في البداية . أما الطرف الآخر ـ المتمثل في شخص كاشكاتايف ذاته ، ـ الذي حزر طمع سيغيزبايف في الاستيلاء على منصبه ، ـ فقد فكر في الأمر مليا للتوصل الى تلك الطريقة لمعالجة هذه القضية ، والتي بموجبها لا يحط هو من منزلته أو منصبه من جهة ، كما لا يؤزم العلاقة مع هؤلاء الناس الخطرين من جهة أخرى .

وبدأ سكرتير اللجنة المنطقية قراءة مذكرة سيغيزبايف . وقد وصفت ، على نحو مفصل ، في هذه المذكرة ، كافة الجرائم

المقترفة بكلمات وأفعال تانابای باکاسوف ، راعى كولخوز « الأحجار البيضاء » • ولم يكن في المذكرة ما يستطيع تانابای رفضه ، لكن لهجتها ، وطريقة صياغة الاتهامات الموجهة له اقتادته الى اليأس • وجلله العرق ، اذ وعى ضعفه التام أمام هذه الورقة الرهيبة • كانت مذكرة سيغيزبايف قد أظهرت أنها أخطر من سيغيزبايف ذاته • وضدها لن تهوى بالمذارى في يديك • وكان كل ما أزمع تانابای قوله في دفاعه وتبريره قد انهار ، في لحظة واحدة ، وفقد في عينيه كل معنى ، واستحال الى شكاوى بائسة لراع من نكباته الاعتيادية • أو لم يكن غبيا ؟ أى قيمة لدفاعه وتبريراته أمام هذه الورقة الخطيرة ، الرهيبة ! ضد من فكر هو أن يحارب ؟ •

ـ أيها الرفيق باكاسوف ، أتعترف بموضوعية الحقائق المقررة في مذكرة عضو المكتب الرفيق سيغيزبايف ؟ ـ سأله كاشكاتايف ، وقد أنهى قراءة المذكرة •

ـ نعم ، ـ أجاب تانابای بصوت خافت •

ووجم الجميع • وبدا ، كما لو أن الجميع كانوا في رعب من هذه الورقة • وقاس آلدانوف الجالسين ازاء المنضدة بنظرة تحد صارخ ، كأنه يقول : أفلا ترون ، كما يقال ، ما يحدث هنا •

ـ أيها الرفاق ، أعضاء المكتب ، ان سمحتم ، سآتى بالمزيد من التوضيحات لجوهر القضية • ـ بدأ سيغيزبايف كلامه بحزم • ـ أريد تحذير بعض الرفاق ، على الفور ، من مغبة

المحاولة المحتملة لوصف أفعال الشيوعي باكاسوف بأنها مجرد تصرف من تصرفات الشقاوة . لو كان الأمر كذلك ، فثقوا بأني ما كنت أرفع القضية ، اذ ذاك الى المكتب : فمع الأشقياء لدينا وسائل أخرى للنضال . والأمر ، بالطبع ، ليس في مشاعري المهانة . فورائي يقف مكتب لجنة الحزب المنطقية ، وورائي في القضية المعنية ، ان أردتم ، يقف الحزب كله ، وأنا لا أستطيع السماح بهتك سمعته . أما الشيء الأساسي — فهو أن كل هذا انما يحكي عن استهتار وتدهور عملنا السياسي — التربوي بين الشيوعيين وغير الشيوعيين ، عن النقائص الجدية في العمل الأيديولوجي للجنة المنطقية . وعلينا جميعا أن نكون مسئولين عن طابع أفكار هؤلاء الشيوعيين الاعتياديين، البسطاء أمثال باكاسوف . وسيظل علينا أن نوضح: آهو لوحده هنا، أم أن لديه شركاء في تفكيره؟ ما مغزى تصريحه «سيد جديد في معطف جلدي ! » فلنضع جانبا المعطف . ولكن وفقا لما يقوله باكاسوف ينتج أنني ، انا الانسان السوفييتي ، المفوض الحزبي — سيد جديد ، صاحب الملك ، جلاد للشعب ! فتأملوا ! اتفهمون ماذا يعني هذا ، وماذا يختفي وراء هذه الكلمات ؟ أرى ، أن التعليق هنا زائد ... والآن ، عن جانب آخر من الموضوع . فأنا ، وقد بت مكروبا غاية الكرب من الحبوط البالغ في تربية الماشية في كولخوز « الأحجار البيضاء » ، وأنا ، في معرض الجواب عن كلمات باكاسوف الشائنة ، في كونه نسي وأهمل التزاماته الاشتراكية ، أنا أسميته مؤذيا

وعدوا للشعب ، وقلت ان مكانه ليس فى الحزب وانما فى السجن. انى أعترف اننى قد أهنته ، وكنت مستعدا للاعتذار أمامه. ولكنى الآن اقتنعت أن الأمر انما هو بالضبط كذلك ، ولن أسحب كلماتى ، وأؤكد أن باكاسوف - عنصر خطر ، ذو مزاج معاد ...

ما الذى لم يعانه تاناباى ؟ لقد خاض الحرب من بدايتها حتى نهايتها ، لكنه لم يكن يتصور ولم يخبر أن قلبه يمكن أن يصرخ مثل هذا الصراخ الذى صرخه الآن . وتحت رحمة هذا الصراخ الذى كان يتردد قصفا لا يفتر فى الأذنين ، كان قلبه يهبط ، وينهض ، ويتسلق ، ويتدهور ، ومن جديد يحاول النهوض ، لكن الرصاص قد خرقه عن كثب . « يا الهى » - قرع رأس تاناباى ، - الى أين مضى كل شىء ، كل شىء مما كان مغزى حياتى ، ومغزى كل أعمالى ؟ الى أين امتد بى العمر - الى حد أننى أصبحت عدوا للشعب . ولكن ماذا فعلت ، كل ما فعلت انى تعذبت وعانيت من الحظيرة ، ومن هذه الحملان المتسخة بالدمان ، ومن بكتاى الضال سواء السبيل. فمن يلزم هذا ! .. »

- أذكر مرة أخرى باستنتاجات مذكرتى . - واصل سيغيزبايف ، مرتبا كلماته بنهج حديدى . - أن باكاسوف يكره نظامنا ، يكره الكولخوز ، يكره المباريات الاشتراكية ، يبصق على كل هذا ، يكره كل حياتنا . لقد أعلن كل هذا بصراحة ، بحضور المنظم الحزبى للكولخوز ، الرفيق ساياكوف . وفى

أعماله تتوافر كذلك أركان الجريمة الجنائية ـ وذلك فى محاولة اغتيال ممثل السلطة والتطاول عليه عند تنفيذ هذا لالتزامات خدمته . انى ألتمسكم أن تفهمونى على نحو صحيح ، ألتمسكم التصديق على تقديم باكاسوف للمسؤولية القضائية بحيث لا يخرج من هنا الا تحت خفارة الميليشيا . ان أركان جريمته تتفق تماما مع نص المادة الثامنة والخمسين . أما عن بقاء باكاسوف فى صفوف الحزب ، فلا يمكن أن يكون حديث ، فى رأيى !...

كان سيغيزبايف يعرف أنه قد أفرط فى الطلب ، لكنه قدر أنه ان لم يحسب المكتب ضروريا تقديم تانابای باكاسوف الى المسؤولية أمام القضاء ، فان فصله من الحزب سيكون مضمونا فى كل الأحوال . فان مثل هذا الطلب لم يكن ممكنا أن لا يحظى بموافقة كاشكاتايف ، وآنذاك سيتقوى موقفه ووضعه هو ، سيغيزبايف ، أكثر فأكثر .

ـ أيها الرفيق باكاسوف ، ما الذى ستقوله عن اثمك ؟ـ سأله كاشكاتايف مشارا .

ـ لا شىء . فكل شىء قد قيل . ـ أجاب تانابای . ـ ينتج بالتالى أننى كنت وسأظل مؤذيا ، عدو الشعب ... اذن فعلام ، والحال هذه ، معرفة بماذا أفكر أنا ؟ أحكموا بأنفسكم ، قرروا ما ترون ، فرأيكم أصوب ...

ـ وأنت ... أتحسب نفسك شيوعيا شريفا ؟

ـ غير ممكن أن تثبت هذا الآن .

ـ وهل تعترف بذنبك ؟

ـ كـلا .

ـ عجبا ، أتحسب نفسك أذكى الجميع ؟

ـ كلا ، بالعكس ، أغبى الجميع .

ـ اسمحوا لى بالكلام . ـ نهض من مكانه شاب بشارة الكومسومول على صدره . كان هذا أصـغر الجميع سنا ، ضئيل القد ، ضيق الوجه ، وقد بدا مظهره أكثر فتوة ، فـكان يتراءى صبيا ...

وليس الا الآن لاحظـه تاناباى . « العن ، أيها الفتى ، لا تشفق ، ـ قال هو فى سره . ـ فلقد كنت أنا نفسى مثلك ، وقتا من الأوقات ، ولم أشـفق ... »

ـ تكلم يا كريمبيكوف .

ـ انى لا أستحسن تصرف الرفيق باكاسوف ولا أؤيده . وانى لأرى انه يجب أن يلقى العقوبة الحزبية المقتضاة . بيـد انى غير موافق أيضا واعترض على الرفيق سيغيزبايف . ـ وقمع كريمبيكوف فى نفسه الاضطراب . ـ وفضلا عن ذلك فانى أرى أنه ينبغى محاكمة الرفيق سيغيزبايف نفسه ...

ـ عجيب ! ـ قاطعه أحدهم بخشونة . ـ أو هـذه الأنظمة عندكم فى الكومسومول ؟

ـ الأنظمة عند الجميع واحدة ، ـ أجاب كريمبيكوف ، وقد تعاظم اضطرابه وتضرج وجهه . وتلجلج ، وهـو ينتقى كلماته ويقمع حصره ، وفجأة ، وكأن ذلك بسبب يأسه ، بـدأ الكلام على نحو لاذع وحاد : ـ أى حق كان لك فى اهـانة

كولخوزى ، راعى غنم ، وشيوعى قديم ؟ حاول أن تسميني عدوا للشعب ... انك توضح ذلك وتبرره بأنك كنت مكروبا تماما بسبب وضع الماشية فى الكولخوز . أفلا تفترض أن الراعى لم يكن أقل كربا منك ؟ وحينما قدمت اليه أنت ، فهل استرعى اهتمامك كيف يعيش هو ، وكيف تجرى أموره ؟ لماذا تموت الحملان ؟ كلا ، حكما على مذكرتك ذاتها أنت لم تفعل ذلك ، بل بدأت فى الحال تثلبه وتشتمه . ليس خافيا على أحد كيف تسير حملة توالد الأغنام فى الكولخوزات بصعوبة . اننى كثيرا ما أغشى هذه الأماكن وانه لمن المخجل بل والمحرج لى أمام رفاقى الرعاة من الكومسوموليين أننا تتطلب منهم الكثير ، ولكن لا نقدم مساعدة عملية . انظروا أية حظائر عندنا فى الكولخوزات، ثم كيف هى حالة العلف ؟ اننى نفسى ابن راع . وانى لأعرف ماذا يعنى الأمر حينما تموت الحملان . فى المعهد يدرسوننا بشكل ، ولكن فى الواقع تمضى كل الأمور فى المزارع بشكل آخر ، وبالطريقة القديمة . ان قلبى ليؤلمنى حين أجيل طرفى فى كل هذه الأمور ! ...

ــ يا رفيق كريمبيكوف ، ــ قاطعة سيغيزبايف . ــ لا تحاول أن تستعطفنا وتثير شفقتنا ، ان الشعور ــ هو مفهوم مطاط . ان الحقائق ، الحقائق هى اللازمة لا المشاعر .

ــ اسمح لى ، ولكن ليست هنا محاكمة لمجرم جان ، وانها تحليل ومناقشة أعمال رفيق لنا فى الحزب ، ــ استطرد كريمبيكوف . ــ هنا يتقرر مصير شيوعى . اذن دعونا نفكر

قليلا ، ترى لماذا بهذا الشكل بالذات تصرف الرفيق باكاسوف . ان أعماله ينبغي ادانتها ، بالطبع ، ولكن كيف حدث هذا ، كيف حدث أن واحدا من أفضل مربي الماشية في الكولخوز ، وهو من كانه باكاسوف ، وصل الى مثل هذه الحياة وانحدر ؟

ــ اجلس ، ــ قال كاشكاتايف ممتعضا . ــ انك تحرفنا عن جوهر الموضوع ، أيها الرفيق كريمبيكوف . فواضح جدا للكل هنا ، في رأيي ، أن الشيوعي باكاسوف قد ارتكب جريرة بالغة السوء . فلمن يصلح هذا وبمن يليق ؟ أين شوهد مثل هذا من قبل؟ اننا لانسمح لأحد أن ينقض بالمذاري على مفوضينا ولن نسمح لأحد بثلب سمعة موظفينا وشغيلتنا . لكان أفضل، يا رفيق كريمبيكوف ، لو فكرت بطرق تسوية الأمور والاحوال في الكومسومول ، بدلا من الانشغال وأشغالنا بنقاشات لا موضوع لها عن الروح والمشاعر . انالعواطف تعالج بالعواطف، والأعمال تعالج بالأعمال . ان هــذا الذي ســوغه لنفسه باكاسوف ، ينبغي أن ينبهنا ويحذرنا حقا . وبالطبع لا مكان له في صفوف الحزب . أيها الرفيق ساياكوف ، بصفتك منظم الكولخوز الحزبي ، هل تؤكد صحة كل هذه الواقعة ؟ ــ سأل هو تشورو .

ــ أجل ، اؤكد ، ــ قال تشورو الشاحب ، ناهضا ببطء من مكانه . ــ ولكني وددت أن أشرح ...

ــ ماذا تشرح ؟

ــ أولا ، لالتمست أن نحاكم باكاسوف عندنا ، فى منظمتنا الحزبية .

ــ هذا ليس بالحتم . اطلع ، فيما بعد ، أعضاء المنظمة الحزبية على قرار مكتب اللجنة المنطقية . وماذا بعد ذلك ؟

ــ وددت أن أشرح ...

ــ ماذا تشرح يا رفيق سایاکوف ؟ ان أقوال باكاسوف المعادية للحزب واضحة وبينة . ولا شىء هنا يستحق الشرح والايضاح . انك أيضا تتحمل المسؤولية . واننا سنعاقبك عن تدهور العمل فى تربية الشيوعيين . لماذا حاولت اقناع الرفيق سيغيزبايف بعدم طرح القضية على جلسة المكتب ؟ هل أردت أن تخفى هذه الواقعة ؟ أية شناعة ! اجلس !

وابتدأت المناقشات . كان مدير محطة الآلات والتراكتورات فى المنطقة ومحرر الجريدة المنطقية فى صف كريمبيكوف ، وقد أيداه . بل حتى لقد بدا ، فى لحظة ما ، أنهم سيوفقون فى الدفاع عن تانابای . ولكنه هو نفسه ، المسحوق والمشوش ، لم يسمع أحدا . كان يسأل نفسه باستمرار : « الى أين ولى ما كنت أعيشه وأعيش به ؟ فانه ليبدو هنا ، أن الجميع فى شغل شاغل ولا تهمهم أمورنا وما يلم بنا فى عملنا مع قطعان الماشية وقطعان الأغنام . أى أحمق كنته ! لقد بذلت حياتى من أجل الكولخوز ، من أجل الأغنام والحملان . والآن لا يؤخذ كل هذا بالحسبان . والآن أنا خطر ! طيب ، الى الشيطان بكم جميعا ! اعملوا معى ما شئتم ، ــ ان كانت الأمور ستكون أفضل

حالا بذلك ، لن آسف على شيء • اطردوني بخشونة ! فالآن لدى نهاية واحدة ، العنوا ما شئتم ، لا تشفقوا ••• »

وتكلم رئيس الكولخوز آلدانوف • ورأى تانابای وفهم، من تعبير وجه الرئيس ومن اشاراته ، انه يشتم أحدا ما ، ولكن من بالذات — لم يستطع أن يفهم ، حتى سمع الكلمات : « القيد القفلى ••• الرهوان غولساری ••• »

— ••• وماذا تتصورون ؟ — قال آلدانوف مستاءا • — لقد هدد صراحة بتحطيم رأسى لا لشيء الا لأنا كنا مضطرين لوضع القيود فى قدمى الحصان • أيها الرفيق كاشكاتايف ، أيها الرفاق أعضاء المكتب ، بصفتى رئيسا للكولخوز ألتمسكم تخليصنا من باكاسوف • حقا ، ان مكانه فى السجن • انه يكره كافة الموظفين القياديين • أيها الرفيق كاشكاتايف ، يوجد وراء الباب شهود يستطيعون تأكيد تهديدات باكاسوف بخصوصي• أممكن دعوتهم ؟

— كلا ، لا داعى • — اجابه كاشكاتايف مصعرا خده بتقزز • — يكفى هذا • اجلس •

وشرعوا بعد ذلك بالتصويت •

— مدرج اقتراح واحد : فصل الرفيق باكاسوف من عضوية الحزب • من يؤيد ؟

— دقيقة واحدة ، يا رفيق كاشكاتايف • — نهض كريسبيكوف باندفاع مرة أخرى • — أيها الرفاق أعضاء المكتب أفلا نرتكب بهذا خطيئة كبيرة ؟ ان لدى اقتراحا آخر —

الاقتصار على توبيخ شديد مع ادراجه فى الملف الشخصى لباكاسوف ، وسوية مع ذلك ، اعلان توبيخ لعضو المكتب سيغيزبايف لاهانته الاعتبار والكرامة الحزبية والانسانية للشيوعى باكاسوف ، ولأسلوب عمل سيغيزبايف غير المسموح به كمفوض للجنة المنطقية .

ــ ديماغوغية ! ــ هتف سيغيزبايف .

ــ اهدأوا ، أيها الرفاق ، ــ قال كاشكاتايف . ــ انكم موجودون فى جلسة مكتب اللجنة المنطقية وليس فى بيوتكم ، أرجوكم التقيد بالضبط . ــ كان كل شىء الآن قد توقف عليه ، على السكرتير الأول للجنة المنطقية . وقد حول هو الأمر كما كان سيغيزبايف يأمل . ــ تقديم باكاسوف الى المسؤولية الجنائية أمر لا أراه لازما ، ــ قال هو . ــ ولكن فى صفوف الحزب لا يوجد له مكان طبعا ، والرفيق سيغيزبايف على تمام الحق فى هذا . سنصوت . من مع فصل باكاسوف ؟

كان عدد أعضاء المكتب سبعة . رفع ثلاثة أيديهم مع الفصل ، وثلاثة ــ ضده . بقى كاشكاتايف نفسه . وببطء ، رفع يده « مع » الفصل . ولم ير تاناباى أى شىء من هذا . لقد عرف كيف تقرر مصيره ، حين سمع كيف خاطب كاشكاتايف السكرتيرة :

ــ أكتبى فى المحضر : فصل الرفيق باكاسوف من عضوية الحزب بقرار من مكتب اللجنة المنطقية .

« وهكذا ، انتهى كل شيء ! » ـ قال تانابای فی نفسه، منهارا .

ـ ولكنی أصر على اعلان توبيخ لسيغيزبايف . ـ لم يستسلم كريمبيكوف .

كان يمكن اطراح هذا الاقتراح جانبا ، وان لا يوضع موضع التصويت ، لكن كاشكاتايف قرر أنه ينبغی وضعه . وكان فی هذا مغزاه الخفی أيضا .

ـ من مع اقتراح الرفيق كريمبيكوف ؟ أرجو رفع الأيدی !

ومرة أخرى كانت نتيجة التصويت ثلاثة ضد ثلاثة . ومرة أخرى ، رفع كاشكاتايف يده ، رابعا ، وأنقذ ، بهذا بالذات ، سيغيزبايف من التوبيخ . « ولكن أيفهم هو هذا ، أيقدر هذه الخدمة ؟ من يعرفه ... انه لئيم وماكر » .

وتململ الجالسون على الكراسی كأنهم يتهيأون للخروج. وقرر تانابای ان كل شیء قد انتهى ، ونهض صامتا ، دون أن ينظر لأحد ، واتجه الى الأبواب .

ـ باكاسوف ، الى أين ؟ ـ أوقفه كاشكاتايف . ـ سلم بطاقتك الحزبية .

ـ اسلمها ؟ ـ ليس الا الآن وعی تانابای كل ما حدث.

ـ نعم . ضعها على الطاولة . لست الآن عضوا فی الحزب، ولا تملك الحق فی حملها معك .

ودس تانابای يده يبحث عن البطاقة الحزبية . انشغل

طويلا فى البحث ، فيما قد ران الصمت • كانت البطاقة هناك، فى مكان قصى ، تحت الصديرى ، تحت السترة ، فى محفظة جلدية صغيرة ، كانت قد صنعتها يدا جايدار • وكان تاناباى يحمل هذه المحفظة فى حزام عبر كتفه • وأخيرا أخرجها من هنالك ، وأدرك البطاقة الحزبية ، مدفأة من حرارة صدره وأنفاسه، ووضعها ، دافئة ، مشبعة برائحة بدنه ، وضعها على طاولة كاشكاتايف الباردة ، المصقولة جيدا • وتقلص أثر ذلك ، حتى صار يشعر بالبرودة • ومرة أخرى ، ودون أن ينظر لأحد ، جعل يحشر المحفظة تحت السترة ، متهيئا للخروج •

— يا رفيق باكاسوف ، — سمع من ورائه ، من وراء المنضدة صوت كريمبيكوف المتعاطف معه • — ولكن ماذا ستقول أنت فى كل هذا ؟ ما هى كلمتك ؟ فانك لم تقل أيما شىء هنا • ألعل ذلك كان صعبا عليك ؟ اننا نأمل أن الأبواب ليست مغلقة بالنسبة لك ، وانه عاجلا كان أم آجلا ستستطيع العودة الى الحزب أفلا تقول لنا بماذا تفكر الآن ؟

فاستدار تاناباى ، وهو يحس فى نفسه بالألم والحرج مما حدث له ، أمام هذا الفتى الذى لا يعرفه ، والذى كان لايزال يحاول على نحو ما تخفيف المصيبة التى ناءت بكلكلها على كتفيه •

— ما يمكننى أن أقول ؟ — فاه بذلك بأسى • — لا أستطيع أن أتحدث أكثر من الآخرين وأقنعهم هنا • شىء واحد أقوله فقط — هو أنى لست مذنبا فى أيما شىء ، حتى ولو أنى رفعت

يدى ، وحتى ولو أنى فهت بكلمات غير طيبة . أما شرح ذلك لكم فلا أستطيعه . وهذا هو كل شيء ، اذن .

وخيم صمت ثقيل . .

ــ هم . اذن ، أنت زعلان على الحزب ؟ــ قال كاشكاتايف بضجر . ــ اذن ، فاعرف أيها الرفيق : ان الحزب قد وجهك الى الطريق الحقيقى ، وقد أنقذك من المحكمة ، ولكنك لازلت مستاء ، غير راض ! اذن ، أنت لا تستحق ، حقا ، لقب عضو الحزب . ومن المستبعد أن تكون الأبواب مفتوحة لك للرجوع فى المستقبل !

وخرج تاناباى من مقر اللجنة المنطقية هادئا فى مظهره . بل هادئا جدا . وكان ذلك سيئا . كان النهار دافئا ، مشمسا وكان المساء يقترب . وقد جاء الناس وارتحلوا فى أمورهم الخاصة . وكان الأولاد يلعبون فى الساحة عند النادى . وكان من المقرف لتاناباى الآن النظر الى كل شيء ، بل وكان يشعر بالقرف حتى من نفسه . فليعجل ، اذن ، من هنا الى الجبال ، الى البيت . وليسرع ، مخافة أن يلم به ويدهاه ما هو أسوأ .

وفى مربط الخيل ، وجنبا الى جنب مع حصانه ، كان الرهوان غولسارى واقفا . كان يراوح بقدميه كبيرا ، طويلا وقويا ، حين اقترب تاناباى منه ، وطالعه بنظرات هادئة واثقة من عينين قاتمتين . لقد نسى الرهوان كيف انهال تاناباى بالمذارى على رأسه . فهو حصان ، وهذا أمر طبيعى .

ــ انس ، يا غولسارى ، لا تزعل ، ــ همس تاناباى

للرهوان • ان لدى مصيبة كبيرة ، مصيبة كبيرة جدا • ــ ونشج معانقا رقبة الحصان ، ولكنه اعتصم برباطة الجأش ، وتماسك فلم يبك خجلا من المـارة •

واعتلى ظهر حصانه ، ومضى الى البيت •

ولحق به تشورو وراء مرتفع الكساندروفكا وما أن سمع تاناباى ، وراءه ، السير المعهود للرهوان الراكض ، حتى عض على شفتيه باستياء ، وتقلص بامتعاض • ولم يلتفت الى الوراء • ان استياءه العميق مما حل به قد جعل روحه مظلمة ، وعينيه قاتمتين • ان تشورو الحالى بالنسبة له انسان آخر ، غير ذاك الذى كانه من قبل ، تماما • فها هو اليوم قد فضح نفسه ــ فما أن رفع كاشكاتايف صوته ، حتى جلس مطيعا ، وبخشـوع ، مثل تلميذ مدرب •ثم ، ما الذى سيحصل ، فيما بعد ؟ ان الناس يثقون ويؤمنون به ، أما هو فيخاف أن يقول الحقيقة • يدخر نفسه ، وينتقى الكلمات انتقاء • ترى ، من الذى علمه ذلك ؟ هب أن تاناباى انسان متأخر ، عامل بسيط ، لكنه هو ، تشورو ، متعلم ، متنور ، يعرف كل شيء ، وقد قضى عمره فى القيادة • وعجبا ، أو لم يلاحظ تشورو أن الأمر ما كان فى الحقيقة كما صوره السيغيزبايفيون والكاشكاتايفيون ! وان كلماتهم جميلة من حيث المظهر ، أما فى الداخل فزائفة وفارغة • فمن يخدع بذلك ، ولأجل أى شيء ؟

لم يدر تاناباى رأسه حين لحق به تشورو ، وصار الى جانبه ، وهو يجذب الرهوان الحامى ، كابحا سرعته •

ـ لقد تصورت ، ياتاناباى ، أننا سنرتحل معا ، ـ قال هو ملتقطا نفسه • ـ تفقدتك فلم أجدك •••

ـ ما تريد منى ؟ ـ رمى تاناباى بكلماته ، وهو لا يزال بالوضع ذاته ، دون أن ينظر اليه • ـ امض فى طريقك •

ـ دعنا نتحدث • لا تشح وجهك يا تاناباى ، ولا تطو كشحا عنى • فلنتحدث كأصدقاء ، كشيوعيين ، ـ بدأ تشورو الحـديث وتلعثـم •

ـ لست صديقا لك ، ناهيك عن أن أكون شيوعيا • أما أنت فمنذ زمن بعيد لم تعد شيوعيا • فانك تتظاهر بالشيوعية•

ـ أو جاد أنت فيما تقـول ؟ ـ سأله تشورو بصـوت متـدهور •

ـ بالطبع ، جاد • فأنا لم أتعلم بعد انتقاء الكلمات • ولا أعرف كذلك ما وأين وكيف ينبغى أن أتكلم • طيب ، وداعا • طريقك يمتد باستقامة ، وطريقى يحرف جانبا • ـ وحرف تاناباى حصانه من الطريق ، وارتحل ، دون أن يلتفت ، ودون أن يطالع وجه الصديق بنظره ولا مرة ، ارتحل عبر الحقل ، بشكل مباشر الى الجبـال •

انه لم ير كيف شحب تشورو وأبيض على نحو مميت ، وكيف أراد أن يوقفه ، مادا يده ، وكيف تلوى من الألم بعدئذ، وأمسك بصدره ، ثم كيف انهار على عفرة الرهوان ، ينشـق الهواء بفمه •

ـ حالى سيئة ، ـ همس تشورو ، مصعرا وجهه من الألم

الذى لا يطاق فى القلب • ــ أوه ، كم أشعر بســوء ! ــ بح صوته ، وصار يلهث مزرقا • ــ فلأسرع الى البيت ، يا غولسارى أسرع بى الى البيت •

وانطلق به رهوانه الى القرية ، عبر السهب المقفر ، المظلم، فقد أرعب الحصان صوت الانسان ، فقد سمع فيه شيئا ما رهيبا، مميتا • وأرهف غولسارى السمع ، ونخر مرعوبا فى عـدوه • أما الانسان الذى كان على صهوته فقد تعذب ، وتلوى متقلصا، وقد تشبث بتشنج بعفرة الحصان بكل ما أوتيت يداه وأسنانه من قوة آفلة • وتأرجحت المقـاود متهـدلة من على رقبة غولسارى الراكض •

٢٠

وفى هذه الساعة المتأخرة ، حين كان تاناباى لا يزال فى الطريق الى الجبال ، كان قد انطلق فى شوارع القرية مسرعا فارس على حصان ، مثيرا نباح الكلاب المذعورة •

ــ أى ، من هناك فى البيت ؟ أخرج ! ــ كان يدعو أهل البيت ــ • الى الاجتماع الحزبى ، تعالوا الى الدائرة •

ــ ولكن ما الأمر ؟ ولماذا أنت مستعجل بهذا لشكل ؟

ــ لا أدرى • ــ أجاب الرسول • ــ تشورو يدعوكم • قال ، ان تأتوا سريعا •

وكان تشورو نفسه قد جلس ، فى هذا الوقت، فى الدائرة• كان قد أمسك بصدره ، أمسكه بكفه بقوة تحت القميص ، وقد

اتكأ بكتفه الى المنضدة ، منحنيا ، لاهثا ، محتبس الأنفاس . كان يجأر من الألم ويعض شفتيه . وكان العرق البارد يطفح على وجهه المخضر ، وكانت عيناه قد غارتا داخل حفرتين قاتمتين. وكان يغمى عليه من وقت الى وقت ، فكان يتراءى له ، من جديد أن الرهوان ينطلق به فى السهب المظلم ، وانه يريد أن ينادى تانابای ، لكن هذا ، وقد رمى عند الوداع بكلمات متوهجة، مثل الفحم المتوهج ، لم يلتفت اليه . ان كلمات تانابای تحرق الصدر ، تحرق الروح ... والى هنا أتوا بتشورو ، يقودونه من ابطيه ، من الاسطبل ، بعد أن رقد هناك قليلا على الدريس . وقد أراد سواس الاسطبل أن يأخذوه الى البيت ، لكنه لم يوافق . وأرسل شخصا ليدعو الشيوعيين وصار الآن ينتظرهم لحظة بعد لحظة .

وأشعلت الحارسة المصباح ومضت ، تاركة تشورو وحده، لتنشغل بالموقد فى الغرفة الأمامية ، متطلعة من وقت لآخر عبر الباب المواربة ، متأوهة تهز برأسها .

كان تشورو ينتظر الناس ، ولكن الوقت كان يتصرم قطرات . لقد نضب الوقت الذى منح له منذ ولادته ، نضبت كل ثانية منه مثل قطرات مرة ، ثقيلة ، ونفد هذا الوقت الذى لم يدرك قيمته الا الآن ، بعد أن عاش حياة ليست بالصغيرة . انه لم يتابع أيامه وسنينه ، لم يفلح فى أن يلتفت اليها ، وقد طارت هذه وتبخرت بين المشاغل والهموم . ولم يحصل كل شىء فى عهده ، ولم يحالفه الحظ فى كل شىء كما كان يريد .

لقد ناضل ما شاء وجاهد ما استطاع ، ولكنه تقهقر فى مكان ما، من أجل أن يتخطى الزوايا الحادة ، كيلا يكون سيره بالغ الصعوبة ولم يفلح فى تخطى ذلك على كل حال . لقد حشرته تلك القوة فى الزاوية، وهى القوة التى كان بها يتجنب المصادمة، أما الآن فالتقهقر غير وارد ، فالطريق قد انتهى . آه ، لو كان قد فهم ذلك من قبل ، ولو أرغم نفسه من قبل على النظر بصراحة فى عينى الحيــاة ...

لكن الوقت كان يجرى بقطراته المرة . ما أطول ما يتأخر الناس ، وما أطول وأمر انتظارهم !

« فقط لو وفقت ــ فكر تشورو برعب . ــ فقط لو وفقت لأن أقول كل شىء ! ــ كان يستمسك بحيــاته الآفلة بصراخ يائس مستميت لا صوت له . واصطبر ، مستعدا للمعــركة الأخيرة . ــ سأتحدث بكل شىء . كيف فصــل تاناباى من الحزب . دع الناس يعرفون اننى لست موافقا على هذا القرار للجنة المنطقية ، سأقول كل شىء مما أفكر به واعتقده حــول آلدانوف . دعهم بعدئذ ، بعدى ، يســتمعون اليــه . دع الشيوعيين هم الذين يقررون . سأحكى كل شىء عن نفسى كمــا أنا على حقيقتى فى الواقع . سأتحدث عن كولخــوزنا ، عن الناس ... ليتنى أفلح فقط فى ذلك ، لو أسرع الناس بالمجىء، لو أسرعــوا ... »

كان أول من عدا اليه زوجته بالدواء . وارتعبت ، وبدأت تندب وتبكى :

ــ أأنت فى وعيك ؟ أو لم تشبع حقا من هذه الاجتماعات؟ لنذهب الى البيت • أنظر الى نفسك • أواه يا آلهى ، لو فكرت فى نفسك على الأقل !

ولم يرد تشورو أن يسمعها • وأبعدها ملوحا بيديه ، وهو يتناول الدواء • وصكت أسنانه على القدح ، واريق الماء علــى صــدره •

ــ لا شىء ، صارت حالى أفضل ، ــ طفق يتكلم ، محاولا أن يتنفس على نحو أكثر انتظاما • ــ انتظرينى أنت هنــاك ، ستقودينني بعدئذ • لا تخافى شيئا • امضى •

وحين سمعت من الشارع خطوات الناس ، كان تشورو قد قوم من جذعه وانتصب ازاء المائدة ، وكبت الألم فى نفسه، واستجمع كل قواه ، من أجل أن ينفذ ما اعتبره واجبه الأخير•

ــ ما الذى حصل ؟ ما الذى معك ، يا تشورو ؟ ــ جعــل الناس يسألونه •

ــ لاشىء • سأقول الآن • دع الجميع يأتون • ــ كان يجيب •

وكان الوقت يتضاءل بقطراته الداوية ، المرة • وحين اجتمع الشيوعيون نهض المنظم الحزبى تشورو ســـاياكوف من وراء الطاولة ، وخلع قبعته عن رأسه ، وأعلن عن افتتاح الاجتمــاع الحــزبى •

٢١

رجع تانابای الی بیته لیـلا • وطلعت جایدار الی الفنـاء بالفانوس • كانت تنتظره طويلا ، وابتدأت تجيل بصرها فيه • ومن النظرة الأولى فهمت هى أية كارثة حلت بالزوج • وفـك اللجام صامتا • ونزع السرج ، أما هى فكانت تضوىء له ، ولم يقل لها شيئا • « حتى لو أفرط فى الشراب فى مركز المنطقـة لكان ذلك أهون مما هو الآن عليه ؟ » كانت تفكر هى ، أما هو فكان لا يزال صامتا ، وزاد الحال سوءا وأصـبح رهيبا من صمته • أما هى فقد تهيأت لأن تسره بشىء ـ فقد أتوا بقليـل من العلف ، والقش ، وطحين الشعير ، وصار الجـو أدفأ ، فسرحوا الحملان الى المرعى ، وقد بدأت هذه تقضم العشب •

ـ أخذوا قطيع بكتاى • وارسلوا الينا راعيا جديدا ، ـ قالت هى •

ـ فليمضوا الى الشيطان جميعـا : بكتاى ، والقطيع ، وراعيك ••• انهم لا يهموننى قط •••

ـ أتعبان أنت ؟

ـ مم تعبت ؟ لقد طردونى من الحزب !

ـ اخفض صوتك ، قد تسمع المساعدتان •

ـ لماذا أخفض صوتى ؟ ما الذى أخفيه ؟ طردونى مثل كلب عقور ، وانتهى كل شىء• وهذا ما ينبغى وهذا ما استحق• وأنت تستحقين ذلك أيضا • فهذا قليل بحقنا • طيب لماذا تقفين ؟ لماذا تنظرين ؟

ـ امض لتستريح .
ـ أعرف أنا نفسى ذلك .

مضى تانابای الى الحظيرة المسقفة . تفحص النعاج . ثم مضى الى الزريبة ، وهناك أيضا جال فى العتمة ورجع من جديد الى الحظيرة . لقد ضاقت الأرض على روحه من الألم والحزن. رفض الأكل ، وامتنع من الكلام . هوى على القش المرمى فى الركن ، ورقد دون حراك . لقد فقدت الحياة والقلق والهموم والمطامح معناها . لم يكن يريد أى شيء . لم يرد أن يعيش ، لم يرد أن يفكر ، لم يرد أن يرى أى شيء حواليه .

كان يتململ ، أراد أن يغفو ، أراد أن ينسى ، ولكن أنى له هذا ، والى أين تفر من نفسك وتختفى . ومن جديد تذكر كيف مضى بكتاى ، وكيف تخلفت وراءه آثار سوداء على الثلج الأبيض ، وكيف لم يجد ما يجيبه به . ومن جديد صور لنفسه كيف صرخ سيغيزبايف ، ممتطيا صهوة الرهوان ، وكيف شتمه بأقذع الشتائم ، وكيف هدد بالقائه فى السجن ، وكيف صور فى مكتب اللجنة المنطقية كشخص ضار وعدو للشعب ، وعند هذا انتهى كل شيء ، وانتهت حياته كلها . ومن جديد أراد أن يختطف المذارى وينقض بها مع الصراخ ، وأن يعدو فى الليل، ويصرخ بآخر قواه المنهكة فى الكون كله ، حتى يتدهور فى مكان ما فى الوادى فيدق عنقه .

فكر ، وهو يغفو ، أن الموت أفضل من أن يحيا بهذا الشكل أجل ، أجل ، فالموت أفضل ! ..

وصحا برأس ثقيل يئن . ولبضع دقائق لم يستطع أن يميز أين هو وأى شيء حل به . فالى جنبه كانت الشياه تسعل مثارة والحملان تثغو . اذن ، فهو فى الحظيرة . وكان الفجر قد بزغ ، وهو يلقى بقليل من شعاعه فى الفناء . علام استيقظ هو ؟ علام ؟ لكان أفضل أن لا يستيقظ . لم يتبق له الا الموت، والانتحار ...

... وشرب الماء ، بعدئذ ، حفنات بملء يديه من النهر . كان ماء باردا ، مثل ثلج ناعم هش . وسال الماء بضجيج من بين أصابعه المرتجفة ، ولكنه أخذه من جديد وجعل يشربه ، وهو يتسايل على ملابسه . وبلغ ريقه ، وصحا على نفسه وليس الا آنذاك تحقق من سخف هذه الفكرة وهذه الخاطرة بالانتحار ، ومن غباء كل هذا الظلم والاضطهاد الذى لاحق به نفسه . أجل، كيف يمكن أن تحرم نفسك الحياة ، التى لا تعطى للانسان الا مرة واحدة فحسب ! وهل يستحق انصار سيغيزبايف حقا مثل هذا ؟ كلا ، سيعيش تاناباى المزيد ، وسيظل غارقا فى العمل !..

وبعد رجوعه أخفى البندقية وجراب الطلقات ، وانهد يعمل فى ذلك اليوم ، بمواظبة واجتهاد لا يعرف الكلل . وأراد أن يكون أكثر رقة مع الزوجة ومع بنتيه ، ومع المساعدتين ، لكنه ضبط نفسه كيلا ترتاب الامرأتان بأى شيء أو تفطنا الى سره . أما هاتان فقد كانتا تعملان بدون أى اهتمام اليه ، وكأن شيئا لم يحدث ، وكأن كل شيء على ما يرام . وكان تاناباى ممتنا منهما لقاء ذلك ، فصمت هو الآخر وانغمس فى العمل . وذهب الى

المرتع ورجع ، وساعد فى سوق القطيع والمجىء به الى البيت .

وساء الجو فى المساء . لم يكن واضحا ماذا سيكون أمطر أم ثلج ، ولكن شيئا من هذين سيكون . وتجللت الجبال بالضباب ، وتلبدت السماء بالغيوم . ومن جديد كان ينبغى التفكير بوقاية الحملان من البرد . ومن جديد كان ينبغى تنظيف الحظيرة وفرش القش ، كيلا يبدأ الموتان من جديد . واقتم تاناباى ، ولكنه حاول أن ينسى ما حدث ، وان لا تخور عزيمته.

كان الظلام قد خيم فى الوادى ، حين ظهر فارس فى الفناء. قابلته جايدار . وتحدثا بشىء . وكان تاناباى فى هذا الوقت يعمل فى الحظيرة .

ـ أخرج لدقيقة ، ـ دعته زوجته . ـ لقد قدم شخص اليك . ـ وأحس تاناباى من مجرد الشكل الذى دعته به زوجته ، أحس بشىء ما غير طيب .

خرج وحياه . كان هذا راعيا من المرعى المجاور .

ـ أهذا أنت يا آيتباى ؟ ترجل من حصانك . من أين جئتنا ؟

ـ من القرية . كنت هناك فى أشغال . وقد رجونى ان أبلغك : أن تشورو مريض جدا . وقالوا آن ترتحل اليهم .

« من جديد هذا التشورو ! » وثارت فيه الاساءة ، التى كانت آخذة بالانطفاء . ما كان بوده أن يراه بعد هذا .

ـ ولكن ماذا ، هل أنا طبيب ؟ انه مريض أبد عمره . وأنا من دونه غارق فى الهموم حتى أذنى . وها قد ساء الجو .

ـ حسنا ، هذا شغلك ، يا تانابای ، تمضی أو لا تمضی ، انك نفسك من يقدر هذا ويعرفه • ولكننی قـــد ابلغتك ما التمسونی • الى اللقاء • لقد آن الأوان لی لأمضی ، فقريبا سيشتد ظلام الليــل •

ودفع آيتبای فرسه ، لكنه تلكأ بعدئذ وأوقفها •

ـ فكر ، على كل حال ، يا تانابای • انه منحرف الصحة تماما • وقد استدعوا أبنه من حيث يدرس • ومضوا لاستقباله فی المحطة •

ـ شكرا ، أنك أبلغت • ولكننی لن أمضی •

ـ بل سيمضی • ـ قالت جايدار خجلة • ـ لا تقلق ، ســيرتحل •

وصمت تانابای شيئا ، ولكن حين غادر آيتبای الفناء ، بادر زوجته بحقد قائلا :

ـ كفی عن هذه العادة ـ عادة الاجابة عنی • أننی نفسی أعرف ماذا يجب علی أن أقول • قلت لن أمضی ، يعنی لن أمضی •

ـ هل تفكر بما تقول ، يا تانابای ؟

ـ ليس عندی ما أفكر به ، وما يدعوننی للتفكير • كفی ! لقد أكثرت التفكير وواصلته أبد الوقت حتی انتهی بطردی من الحزب • ليس عندی من أدعوه أو من يساعدنی ، فأنا وحيد • واذا مرضت ، فلا أريد أن يجيئنی أحد سأنفق لوحدی ! ـ ولوح بيده بضجر ودلف الی الحظيرة •

ولكن الطمأنينة بارحت قلبه . فكان اذ يستقبل المواليد الجدد عند من تضع من الأمهات ، واذ ينقل الحملان ليجد لها مستقرا فى الركن ، واذ يصرخ بالنعاج الزاعقة ، ويشق طريقه زاحما بينها ، كان يدمدم ويلعن شاتما ، ساخطا :

ـ لو ترك منصبه من زمان ، سوف لا يتعذب هكذا . كل حياته يمرض ، ويئن ، وتنتابه نوبات القلب ، لكنه لا يترجل من صهوة حصانه . أى رئيس أنت ! لا أريد رؤيتك بعد هذا . تزعل أو لا تزعل ، لا يهم ، أنا زعلان أيضا . ولن يهم أحدا ذلك ...

وأحلولك ظلام الليل فى الفناء . وجعل الثلج يتساقط قليلا ، وكان الصمت والهدوء مرهفين لدرجة كان يسمع معها حتى حفيف ندفات الثلج النادرة المبعثرة وهى تتهاوى على الأرض .

لم يمض تاناباى الى الخيمة ، كان يتجنب الحديث مع الزوجة ، وهى لم تأته أيضا . « طيب ، فلتجلسى هناك ، ـ طفق يفكر . ـ ولكنك على الرحيل لن ترغمينى . فالأمر سيان بالنسبة لى الآن ، ولم أعد أكترث به . فانى وتشورو شخصان مختلفان ، لا يلتقيان . ان لديه طريقه ولدى طريقى . أجل ، كنا أصدقاء ، ولم نعد الآن كذلك . اذ لو اعتبرنى صديقا له ، فأين كان من قبل اذن ؟ كلا ، أنا لم أعد أبالى بشىء ... »

ومع ذلك فقد أتته جايدار . جلبت له ممطرا ، وجزمة

طويلة جديدة ، ووشاحا ، وقفازات ، وقبعة كان يرتديها فى المناسبات الهامة •

ــ البس ، ــ قالت له •

ــ عبثا تطلبين منى ذلك • لن أرتحل الى أيما مكان •

ــ لا تضع الوقت • فقد يحدث ما ستظل تتأسف عليه طيلة حياتك •

ــ لن آسف على شيء • كما لن يحدث معه سوء • سيرقد عدة أيام فحسب ويشفى • ليست هذه بأول مرة •

ــ تاناباى ، لم ألتمســك ولا مرة فى أيمـا شيء • ولكنى ألتمسك الآن • احسب اساءتك على • أعطنى حزنك • ارتحل • وكن انسانا •

ــ كلا • ــ هز تاناباى رأسه بعناد • ــ لن أرتحل • لم أعد الآن أبالى بأيما شيء • أنت تفــكرين باللياقة والعرف ، بالواجب ، وماذا سيقول الناس ؟ أما أنا فلا أريد ان أعرف بشيء بعد اليوم •

ــ تفكر جيدا ، يا تاناباى • أنا ماضية لألاحظ النار ، وقتا ، كيلا تقع الفحمات على اللباد •

ومضت ، وقد تركت له ملابسه ، ولكنه لم يتزحزح قيد شعره • جلس فى الركن ، ولم يستطع ان يقهر نفسه ، لم يستطيع نسيان تلك الكلمات ، التى قالها لتشورو • أما الآن فيجيء ليقول « مرحبـا ، جئت أعـودك ، كيف صـحتك ؟ أو لا أساعدك بشيء ؟ » كلا ، انه لا يستطيع ان يعمل هكذا،

فان هذا ليس من طبعه ولا من عاداته .

وعادت جايدار .

ــ أو لم تلبس بعد ؟

ــ لا تضجرينى . قلت : لن أرتحل ...

ــ انهض ، ــ صرخت هى به غاضبة . وهو لعجبه ، نهض بأمرها ، مثل جندى . خطت اليه ، وهى تجيل بطرفها فى النور الكابى للفانوس بعينين منهكتين ، منزعجتين . ــ ان لم تكن رجلا ، ان لم تكن انسانا ، ان كنت امرأة ضعيفة الارادة ، اذن فسأمضى أنا بدلا عنك ، أما أنت فابق ، واسترسل فى بكائك ! سأمضى الآن . قم ، أسرج الحصان فى الحال !

ومضى ، مذعنا ، مطيعا ، مضى يسرج الحصان . وكان الثلج قد رش الفناء ، وانفرش خفيفا . وبدا ان الظلمة تدور فى الجوار مثل دوارة بطيئة ، دون ضجيج ، مثل الماء فى خليج عميق واهن التيار . حتى الجبال لا تميزها من الظلام الدامس هذا . « ها هى مشكلة أخرى ، الى أين تمضى هى الآن وحدها خلال الليل ؟ ــ جعل يفكر ، ملقيا السرج فى العتمة على الحصان . ــ ولن تثنيها عن عزمها . كلا . انها لن تتراجع . اقتلها ، ولن تتراجع . لكن كيف اذا ضلت عن الطريق ؟ دعها لا تلوم سوى نفسها ! .. »

أسرج تاناباى الحصـان ، وأخذ يشعر بالخجل « اننى وحش ، لا أكثر . لقد تبلدت من الاساءة . أعرضها للأنظار ، ــ انظر ، كم أنا شقى ، وكيف ساءت أمورى . وقد أضنيت

زوجتى • ولكن هى ذاتها بأى شىء مذنبة ؟ ولقاء أى شىء أعذبها وأوذيها • لن يكون لدى خير • وأنا انسان لا أصلح لشىء • وحش ليس الا » •

وتردد تانابای • فليس من السهل عليه التراجع عن كلماته • وانتكص الى الوراء متجهما ، ينظر الى أسفل •

ــ هل أسرجت ؟

ــ نعم •

ــ اذن فتهيأ للرحيل • ــ وأعطته جايدار ممطرا •

وجعل تانابای يرتدى ثيابه صامتا ، وقد سر أن زوجته كانت هى أول من مضى للمصالحة • ومع ذلك فمن أجل المظهر ليس الا ، جعل يعاند :

ــ ولكن ، ربما فى الصبح أذهب •

ــ كلا ، أمض الآن • والا فسيكون متأخرا ، وبعد فوات الأوان •

كان الليل يحوم فى الجبال وينساب انسيابا هادئا مثل التيار فى خليج صغير بطىء الجريان • وبرقة وتناسق كانت ندف الثلج الربيعى الأخير تتساقط على الأرض وارتحل تانابای ، وحيدا بين المنحدرات المظلمة ، مستجيبا لنداء الصديق الذى أشاح هو بوجهه عنه • كان الثلج يعلق بالرأس ، بالكتفين ، باللحية ، وبالأيدى • وجلس تانابای فى السرج دون حراك ، دون ان ينفضه • كان ذلك أفضل له لكى يفكر • كان يفكر فى تشورو ، وفى كل هذا الرباط المشترك بينهما والذى تطاول سنين عددا ، حين علمه تشورو

القراءة والكتابة ، وحين انتسبا سوية الى الكومسومول ، ثم الى الحزب • وتذكر كيف عملا ، هما الاثنان ، سوية فى بناء قناة ، وكيف كان تشورو أول من جلب له الجريدة التى نشرت صورته وكتبت مقالا عنه ، وكان أول من هنأه ، وشد على يده •

وتطامنت روح تانابای ، وزال تجمده ، وما لبث ان اكتنفه شعور معذب بالقلق : « كيف هو هناك ! لعله فى الحقيقة منحرف الصحة تماما ؟ والا فعلام دعوة الابن ؟ أم انه يريد ان يقول شيئا ؟ أهو الوداع الأخير ؟! •• »

وكان الجو قد نور • وكان الثلج لا يزال يدور • وحث تانابای الحصان ، واستحثه ليخب خببا • فوراء هذه الروابى ، وفى المنخفض ، سيبلغ القرية قريبا • كيف حال تشورو هناك ؟ ليته استطاع السير أسرع •

وفجأة فى صمت الصباح ترامى الى مسامعه صوت مبهم، بعيد من ناحية القرية • انفجر صراخ أحدهم ثم انقطع وانطفأ • فأوقف تانابای الحصان ، ونصب أذنيه للريح ، مرهفا السمع • كلا ، لم يسمع شيئا • يبدو ان هذا قد خيل اليه ليس الا •

ارتفع الحصان بتانابای ، مرتقيا الرابية • وفى الأسفل أمامه ، وبين الحواكير المثلجة البيضاء ، والحدائق العارية ، كانت ترقد شوارع القرية ، وهى لا تزال بعد مقفرة من الناس فى هذا الوقت المبكر • ليس من أحد فى أيما مكان • وليس الا فى فناء دار واحدة كانت تهوش جيئة وذهابا كومة سوداء من الناس ، كما كانت الخيول ترابط مسرجة عند الأشجار • كان هذا هو

دار تشورو • ترى لماذا تجمع مثل هذا العدد الغفير من الناس ، ما الذى حدث ؟ أفحقا •••

ولم يطق تانا باى صبرا ، فنهض على الركابين ، وابتلع متشنجا كتلة شائكة من الهواء البارد ، وتسمر ، وفى الحال ساق الحصان الى أسفل فى الطريق • « لا يمكن أن يكون ! كيف هكذا ؟ لا يمكن أن يكون ! » وضايقه شعور موجع ، وألم حاد فى روحه ، لكأنه كان هو المذنب فيما حل هناك ، على الأرجح • كان تشورو ، صديقه الوحيد ، قد التمسه ان يرتحل اليه للوداع الأخير قبل الفراق الأبدى ، أما هو فقد حرن وعند ، معللا نفسه ، ومتبررا بالحيف والأساءة • فمن سيكون هو بعد هذا ؟ ولماذا لم تبصق الزوجة فى وجهه ؟ وماذا يمكن أن يكون أكثر وجاهة واعتبارا ، فى الأرض ، من الالتماس الأخير لانسان محتضر ؟

ومن جديد انتصبت أمام تانا باى تلك الطريق فى السهب ، التى أدركه فيها تشورو على الرهوان • فبماذا أجابه هو آنذاك ؟ أو يستطيع ان يغفر لنفسه حقا هذا ؟

وكما فى نوبة الهذيان ، ارتحل تانا باى فى الشارع الثلجى ، منحنيا تحت ثقل ذنبه وعاره ، وفجأة ، رأى أمامه ، ووراء فناء دار تشورو ، جماعة كبيرة من الناس على الخيول • لقد اقتربت كومة صامتة ، فجأة ، ودفعة واحدة • انطلقوا يصرخون عاليا بصوت واحد ، متمايلين فى السروج •

ـ أويباي ! باوريماي ! أويباياي ، باوريم !*

« انهم الكازاخ قد قدموا » ـ حزر تاناباي ، وفهم انه لم يعد ثمة شيء يمكن التأميل عليه . فان الجيران الكازاخ ، الذين قد وصلوا من وراء النهر ، كانوا يبكون تشورو كأخ ، كجار ، كانسان قريب لهم ومشهور في كافة أوساطهم . «شكرا لكم أيها الأخوة ، ـ جعل تاناباي يفكر في تلك اللحظة . ـ اننا منذ عهود الأجداد والآباء معا في المصائب والآلام والأحزان، وسوية في ولائم الاعراس والمسابقات والأعياد معا في السراء والضراء . ابكوا ، سوية معنا ! »

وما لبث ان انطلق في أثرهم يشق أجواز القرية في الصباح بصراخ عال ، مضن .

ـ تشورو ـ أو ـ أو ـ أو ! تشورو ـ أو ـ أو ! ـ تشورو ـ أو ـ أو !

وخب على الحصان ، متهدلا من السرج تارة الى الشمال وتارة الى اليمين ، وانخرط ينتحب حزنا على صديقه الفقيد الذي غادر هذا العالم .

وها هو فناء الدار ، ها هو غولساري يقف بجانب البيت في جل الحداد . يسقط الثلج عليه ويموع . لقد تبقى الرهوان من دون صاحبه . انه يقف بسرج فارغ .

ويخر تاناباي على عفرة الحصان ، وينهض ليخر من جديد . وحواليه كان البكاء ، ووجوه الناس الذين بالكاد يتميزون ،

* هتاف الحداد ، يبكي المتوفى ويندبه .

كأنهم غرقى فى الضباب • ولم يسمع كيف قال أحدهم :

ــ ارفعوا تاناباى من السرج • خذوه الى ابن تشورو •

وامتدت فى الحال بضعة أزواج من الأيدى وساعدوه فى الترجل من الحصان ، واقتادوه من أبطيه عبر جمهور الناس •

ــ سامحنى ، يا تشورو ، سامحنى ! ــ أجهش تاناباى بالبكاء •

وفى الفناء كان ابن تشورو ، الطالب سامنصور واقفا ، ووجهه الى الحائط • فالتفت الى تاناباى واغرورقت عيناه بالدموع ، وتعانقا باكيين •

ــ لم يعد أبوك موجودا ، لم يعد رفيقى تشورو ! سامحنى ، يا تشورو ، سامحنى ! ــ انهد تاناباى ينتحب مختنقا ، لاهثا •

وفرقوا بينهما بعدئذ • وهنا رآها تاناباى الى جنبه ، تقف بين النساء ــ رآها ، هى بوبوجان • كانت تجيل بصرها فيه وتذرف دموعها صامتة • فتعاظم انتحاب تاناباى •

لقد بكى كل شىء ، بكى كل فقداناته وضياعاته ، بكى تشورو ، وبكى اساءته الى صديقه ، وكونه لم يستطع ان يسحب تلك الكلمات التى رماها له فى الطريق ، بكى عليها هى التى كانت تقف بجنبه كغريبة ، وبكى ذلك الحب وذلك الليل العاصف ، وكونها بقيت وحيدة ، وكونها قد شاخت ، بكى رهوانه غولسارى ، الواقف فى جل الحداد ، بكى مظالمه والاساءات بحقه وعذاباته ، بكى كل ما لم يبكه بعد •

ــ سامحنى ، يا تشورو ، سامحنى ، ــ كان يكرر • وكأنه ،

بهذا نفسه ، كان يطلب الصفح منها .

كان يود أن تجيء اليه وتعزيه ، وان تجفف دموعه وتنشفها، ولكنها لم تجيء . كانت واقفة تبكى .

وعزاه أناس آخرون :

ـ كفى ، يا تانابای . انك بالدموع لن تفعل شيئا ، ولن تجدى نفعا ، اهدأ .

ومن هذا بالذات ازداد مرارة وألما وتعاظم حزنه .

٢٢

دفنوا تشورو بعد الظهر . كان قرص الشمس المعتكر ينور شاحبا خلال الطبقات الكالحة للغيوم الساكنة . وكانت لا تزال تسبح فى الجو ندف الثلج النـاعمة الرطبة . وامتد الموكب الجنائزى فى الحقل الأبيض كالنهر الأسود الصامت . وكان هذا النهر قد ظهر فجأة ، وكأنه يمد لنفسه المجرى للمرة الأولى . وفى الأمام وعلى سيارة مكشوفة ، مفتوحة الجوانب نقلوا جثمان المرحوم تشورو ، المقمط بقوة واحكام فى قطعة من اللباد الأبيض الخاص بالدفن . وبجانب الجثمان جلست زوجته ، والأطفال ، والأقارب . وتابعهم الآخرون جميعا راكبين على الخيول . وكان اثنان فقط قد مضيا يمشيان وراء السيارة ـ سامنصور نجل الفقيد ، وتانابای الذى كان يقتاد حصان صديقه الراحل ، الرهوان غولسارى ، بسرج فارغ .

كان الطريق وراء القرية يرقد فى ثلج ناعم متناسق . وفى

أثر الموكب الجنائزى كان الطريق يمتد شريطا واسعا ، قاتما ، محتفرا بحوافر الخيول . كأن الطريق ، بهذا الشكل كان يشيع تشورو الى مثواه الأخير . كان الطريق يقود الى التل ، حيث كانت المقبرة . وهنا انتهى الطريق ، بالنسبة الى تشورو ، نهاية أبدية لا رجوع منها .

كان تاناباى يقود الرهوان بالمقاود ويقول له فى نفسه « ها قد فقدنا أنا وأنت ، يا غولسارى ، صديقنا تشورو . انه غير موجود ، لم يعد بيننا ... لماذا لم تصرخ فى آنذاك ، ولم توقفنى ؟ ان الله لم يعطك لغة . أما أنا ، ولو كنت انسانا ، لكنى تكشفت أسوأ منك ، أنت أيها الحصان . لقد طوحت بصديقى فى الطريق ، لم ألتفت ، ولم أثب الى رشدى . لقد قتلت تشورو ، قتلته بكلماتى ... »

وطيلة الطريق حتى المقبرة ذاتها كان تاناباى يلتمس الصفح عند تشورو . وعند القبر ، حينما نزل فى جوفه مع سامنصور كان يقول لتشورو ، وهو يسجى جسده فى المرقد الأرضى الأبدى :

ــ اغفرلى ، ياتشورو . وداعا . أتسمعنى ياتشورو ، أسألك العفو والغفران ! ..

وانهالت حفنات التراب على القبر ، ثم انصب التراب عليه من المجارف أنهارا من مختلف الجهات .

فامتلأ جوف القبر ، ونهضت رابية فتية على القبر .

اصفح عنى ، ياتشورو ! ..

وبعد وليمة التأبين دعا سامنصور تانابای علی حدة :

ـ تانابای ، لدی قضية معك ، وعلينا أن نتحدث •

ومضيا عبر الفناء ، تاركين الناس ، والشعاليل والسماورات بدخانها وبخارها • خرجا الى الحديقة ، وراء البيت ومضيا يمشيان على طول حافة الساقية وتوقفا وراء حاكورة ، عند شجرة هاوية • وجلسا عليها • وران عليهما الصمت والوجوم ، كان كل يفكر بقضاياه الخاصة • « هذه هی الحياة ، ـ جعل تانابای يتأمل • ـ لقد عرفت سامنصور صبيا ، أما الآن فها قد شب وأصبح شابا مؤملا • لقد كبر ونضج من الحـــزن والمصيبة • انه الآن يعوض تشورو • والآن أنا واياه ند لند • هكذا ينبغی أن يكون • ان الأبناء يحلون محل آبائهم • والابناء يحفظـون العشـيرة ، ويواصلون القضية • فليكن بمشيئة الله مثل أبيه • وليمنحه الله القوة من أجل أن يتقدم أباه فی الطريق والعمل من أجل أن ينهض بعقله وذكائه متجاوزا ما لدينا ، ومن أجل أن يبدع السعادة لنفسه وللآخرين • لمثل هذا نسمی نحن بالآباء ، ولهذا ننجب نحن الأبناء بأمل أن يصبحوا أفضل منا ، وفی هذا جوهر الموضوع كله » •

ـ انك ، يا سامنصور ، أكبر أبناء عائلة أبيك ، ـ قال له تانابای ، وهو يجذب ، ويربت علی لحيته ، على طريقة الشيوخ • ـ انك الآن بديل تشورو ، وأنا مستعد لأن أسمعك ، مثلما كنت أسمع تشورو •

ـ أنا ملزم أن أبلغك ، يا تاناباى ، وصية أبى ، ـ قال سامنصور •

وانتفض تاناباى ، وقد التقط بوضوح لهجة الأب فى صوت ابنه ، واكتشف للمرة الأولى أنه يشبه تشورو تماما ، تشورو الفتى ذاك الذى لم يعرفه ابنه ، ولكن عرفه ويتذكره تاناباى • أو ليس لذلك يقولون ان الانسان لا يموت طالما يعيش عارفوه؟

ـ أسمعك يابنى •

ـ لقد أدركت أبى حيا ، يا تاناباى • أفلحت فى أن أصل البارحة قبل ساعة من وفاته • كان فى وعيه حتى نفسه الأخير • أما أنت ، يا تاناباى ، فقد انتظرك طويلا • كان طيلة الوقت يسأل : « أين تاناباى ؟ أو لم يصل ؟ » وكنا نهدئه ونقول : انك فى الطريق ، وانك ستصل بين لحظة وأخرى • وواضح ، انه كان يريد أن يقول لك شيئا • ولم يستطع اتمام الانتظار •

ـ أجل ، يا سامنصور ، أجل • كان ينبغى أن نتلاقى • كان ذلك لازما جد اللزوم • لن أغفر لنفسى ذلك طيلة حياتى • فى هذا أنا المذنب • انى لم أفلح فى الوصول فى الوقت المناسب •

ـ وهكذا التمسنى ان أبلغك أمرا • قال : يا ولدى ، قل لصديقى تاناباى ، اننى ألتمس الصفح عنده ، قل له أن ينسى ما لحقه من ضيم وان يطرح ذلك من روحه ، وان ينقل بنفسه بطاقتى الحزبية الى اللجنة المنطقية • وقال : دع تاناباى بالذات يرجع ، بيده ، بطاقتى ـ لا تنس ، أبلغه • ثم وقع مغشيا عليه • وجعل يحتضر • وحين توفى ، بعد نزعه الأخير ، نظر بشكل كما

لو انه كان ينتظر أحدا ما • وبكى ، ولم نستطع تمييز كلماته •
ولم ينبس تاناباى ببنت شفة ، ولم يفه بأى كلمة جـوابا •
انهد ينشج ، وهو ينتف ويجذب لحيته • لقد مضى تشورو •
وقد حمل تشورو معه نصفا من روح تاناباى ، بعض حياته •

ــ شكرا لك ، يا سامنصور ، على كلماتك • ولأبيك شكرى أيضا • ــ نطق تاناباى أخيرا ، وقد تمالك نفسه ، ــ شىء واحد يحيرنى • أتعرف أنهم فصلونى من الحزب ؟

ــ أعرف •

ــ كيف اذن أحمل أنا ، المفصول ، بطاقة تشورو الحزبية الى اللجنة المنطقية ؟ ليس لى الحق فى ذلك •

ــ لا أعرف ، ياتاناباى ، قرر بنفسك • انما يتعين على أن أنفذ وصية أبى عند وفاته • وسأظل ألتمسك ان تفعل كما أراد ، وهو يغادرنا •

ــ لكنت مسرورا من أعماق قلبى • ولكن هذه الكارثة الكبيرة حلت بى • أفلا يكون أفضل لو حملتها ، أنت نفسـك ، يا سامنصور ؟

ــ كلا ، ليس أفضل ، لقد كان الأب يعرف ما التمسه • طالما هو نفسه وثق فيك ، اذن لماذا لا ينبغى على أن أثق فيك ؟ قل فى لجنة المنطقة ، انه هـذه كانت ارادة أبى ، تشـورو ساياكوف •

كان ظلام الغبش لا يزال مخيما ، حين ارتحل تاناباى من القرية • وجرى غولسارى ، الرهوان المجيد غولسارى ، الحصان

المؤمل سواء فى الأتراح أو فى الأفراح ، فى السراء والضراء ــ ركض تحت السرج ، وهو يضرب بحوافره الكتل المتجمدة لآثار المرور فى الطريق • وفى هذه المرة كان يحمل تاناباى ، المرتحـل بتكليف خاص من صديقه الراحل ، الشيوعى تشورو ساياكوف•

كان الفجر يتفايض ببطء ، فوق المناطق غير المرئية من الأرض أمام العين • كان الفجر الجديد يولد فى جوف السحر • لقد نمى هناك ، داخل العتمة الرمادية •••

عدا الرهوان الى هناك ، الى السحر ، الى النجمة الوحيدة والألقة ، التى لم تأفل بعد فى قبة السماء • كان يطبع على الطريق المقفر ذى الصدى والرنين الايقاع الهادر لرهوه السريع • ومنذ زمن طـويل لم يقيض لتاناباى ان يرتحل عليه • وكان عدو غولسارى سريعا ووثيقا ، كما فى السابق • كان الريح يبسط عفرته ، ويهب فى وجه راكبه • لقد كان غولسارى حصانا طيبا ، وكان لا يزال فى عنفوان قوته •

وطيلة الطـــريق كان تاناباى يتأمل ، وضـــاع فى دوامة الأحجيات ، لماذا اليه بالذات ، هو تاناباى ، المطرود من الحزب أوصى تشورو قبيل وفاته ، بأن ينقل بطاقته الحزبية الى لجنـة المنطقة • ماذا أراد بذلك ؟ هل أراد تجربته ؟ أم لعله أراد بهذا القول بعدم موافقته على اقصاء تاناباى من صفوف الحزب ؟ الآن لن تعرف هذا قط ، ولن تستخبر عنه • فلن يقول أيما شىء أكثر مما قال ، وما من مزيد • أجل ، توجد مثل هذه الكلمات المريعة:

« لن يعود أبدا ! » وليس بعد ذلك فى مقدور المرء أن يقول أية كلمات ...

ومرة أخرى تدفقت أفكار شتى ، ومن جديد انتعش وثار فيه كل ما أراد هو أن ينساه ، وكل ما أراد أن يطرحه من نفسه الى الأبد . كلا ، يتجلى ، انه ليس كل شىء قد انتهى . فمعه وعنده لا زالت ارادة تشورو الأخيرة ووصيته . وسيأتى ببطاقته الحزبية ويبلغ عنه ، عن تشورو ، كل شىء كلما كان فى الواقع، وسيتحدث عن مكانة تشورو عند الناس ، من كان هو بالنسبة لهم ، وأيا كان هو بالنسبة له ، هو تاناباى . وسيتحدث عن نفسه أيضا ، لأنه هو وتشورو اصبعا يد واحدة .

دعهم يعرفوا ، أيا كان هما آنذاك ، فى الشباب ، وأية حياة عاشا . ولعلهم سيفهمون أنه لا يستحق هو ، تاناباى ، أن يحرموه تشورو لا فى حياته ، ولا بعد وفاته . فقط لو سمعوه حتى النهاية ، فقط لو سمحوا له بأن يدلى برأيه ويبين أفكاره!

وصور تاناباى لنفسه كيف سيدخل غرفة سكرتير لجنة المنطقة ، وكيف سيضع على الطاولة بطاقة تشورو الحزبية ، وكيف سيتحدث عن كل شىء . سيقر بذنبه وسيطلب المغفرة ، لا لشىء الا ليعيدوه الى الحزب ، الذى بدونه تسوء حياته ، بل لا يفهم هو نفسه ذاتها .

ولكن ماذا لو قالوا : أى حق يملك هو المفصول من الحزب، فى أن ينقل وثيقة حزبية ؟ « ما كان ينبغى عليك أن تمس البطاقة الحزبية لشيوعى ، لا ينبغى عليك أن تضطلع بهذا الأمر . ومن

دونك كان يمكن أن يوجد آخرون » • ولكن هكذا كانت رغبة تشورو عينه عند وفاته ! انه هـو الذى أوصى بذلك بحضـور الجميع ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة • وان هذا ليمكن أن يؤكده ابنه ، سامنصور • « طيب وأى جديد فى هذا ، لن يعنى شيئا ولا يهم ما يمكن أن يقوله انسان عند وفاته ، فى حالة الهذيان ، تحت وطأة الاغماء ؟ » فبماذا سيجيب آنذاك ؟

أما غولسارى فكان يعدو فى الطريق الصائت ، الرنان ، المتجلد متجاوزا السهب ، وقد انطلق الآن الى منحدر آلكساندروفكا • لقد أوصل الرهوان تاناباى بسرعة • حتى أنه لم يلاحظ كيف وصـل •

كان يوم العمل فى الدوائر قد بدأ على التو حين وصـل تاناباى الى مركز المنطقة • ودون أن يتعطل فى أيما مكان ، وجه هو الرهوان المتصبب عرقا ، رأسا ، الى مقـر اللجنة المنطقية ، وربطه فى مربط الخيول ، ونفض الغبار عن نفسه ، ومضى بقلب يخفق من القلق • ماذا سيقولون له ؟ كيف سيستقبلونه ؟ كانت المماشى مقفرة ، فارغة • لم يفلحوا بعد فى الوصول من القرى • ودلف تاناباى الى صالة استقبال كاشكاتايف •

ــ مرحبا ــ قال للسكرتيرة •

ــ مرحبا •

ــ هل الرفيق كاشكاتايف فى غرفته ؟

ــ أجل •

ــ أنا أقصده • اننى راع من كولخوز «الأحجار البيضاء» •

لقبي هو باكاسوف ، ــ بدأ هـــو •
ــ بالطبع ، انى أعرفك ــ قالت متضاحكة •
ــ اذن قولي له ان منظمنا الحزبى تشورو سايكوف قــد توفى . وقبيل وفاته التمسنى أن أنقل بطاقته الحزبية الى لجنــة المنطقة • وها أنى قدمت بهذا الخصوص •
ــ طيب • انتظر دقيقة •
ولم ينصرم وقت طويل حقا على دخولها غرفة كاشكاتايف، لكن تانابای تعذب الكفاية ، لم يجد لنفسه مكانا ، ضاقت عليه روحه فى انتظاره اياها •
ــ الرفيق كاشكاتايف مشغول ــ قالت هى ، مغلقة وراءها الباب باحكام • ــ لقد أوصى بتسليم بطاقة ساياكوف الى قسم التسجيل • انه هناك ، الى اليمين ، فى الممشى •
« قسم التسجيل •• الى اليمين فى الممشى ••• ماذا يعنى هذا ؟ ــ لم يستطع تانابای ادراك جلية الأمر • وما لبث أن فهم كل شىء دفعة واحدة ، ومرة واحدة خارت عزيمته وانهــارت • كيف يمكن مثل هذا ؟ أو كل شىء رخيص ، هين لهذا الحــد ؟ أما هو فتصور •••
ــ ان لدى حديثا معه • أرجوك ، أخبريه بذلك • ان لدى حديثا مهما •
مضت السكرتيرة ، بتردد ، الى الغرفة ، وقالت ثانية ، اذ رجعت :
ــ انه مشغول جدا • ــ ثم أضافت من عندها بلهجــة

المتعاطف معه : ــ لقد انتهى الأمر معك منذ زمن • ــ ثم قالت بصوت أخفض من ذى قبل :

ــ لن يستقبلك • الأفضل أن تمضى •

ومضى تانا باى فى الممشى ، ثم عطف على اليمين •

وها هى لوحة تقول « قسم التسجيل » • وفى الباب ، كانت ثمة كوة صغيرة • طرق •ففتحوا الكوة •

ــ ماذا تريد ؟

ــ نقلت لكم بطاقة لتسليمها • لقد توفى منظمنا الحزبى تشورو ساياكوف • كولخوز « الأحجار البيضاء » •

واصطبرت رئيسة قسم التسجيل وقتا ، ريثما أدرك تانا باى من تحت السترة المحفظة الجلدية ذات السير ، والتى كان قد حمل فيها فى زمن غير بعيد بطاقته الحزبية الخاصة ، وحمل فيها الآن بطاقة تشورو الحزبية • وسلم البطاقة الى الكوة : « وداعا ، يا تشورو ! »

عاينها وهى تكتب فى الكشف رقم البطاقة الحزبية ، واللقب ، والاسم ، واسم والد تشورو ، وسنة انتسابه الى الحزب ــ وكانت هذه آخر ذكرى منه • ثم أعطته الكشف للتوقيع •

ــ أو هذا كل شىء ؟ ــ سأل تانا باى •

ــ أجل •

ــ مع السلامة •

ــ مع السلامة ــ واصطفقت الكوة •

خرج تانابای الی الشارع • وجعل يفك رباط الرهوان •

ــ انتهى كل شيء ، يا غولساری ، ــ قال هو للحصان • ــ هذا كل شيء •

وانطلق به الرهوان ، الذی لا يعرف الكلل ، فی درب الأياب الی القرية • كان السهب الربيعی الكبير يعدو للقائهما ، مع الريح ، وتحت وطء الحوافر الهادر • وليس الا فی العدو ثاب تانابای الی رشده ، وتطامن ، وسكن ألمه •

ومساء ذلك اليوم بالذات ، عاد تانابای الی بيته فی الجبال •

استقبلته زوجته صامتة • اقتادت الحصان من لجامه ، وساعدت زوجها فی أن يترجل من السرج ، ساندة اياه بيديها • والتفت تانابای اليها ، وعانقها ، انهار علی كتفها • وعانقته هی باكية أيضا •

ــ دفنا تشورو ! لم يعد موجودا ، يا جايدار ، ان صديقی غير موجود ! ــ قال تانابای ، وأطلق العنان لدموعه من جديد •

ثم جلس صامتا علی حجر بجنب المسكن • أراد أن يخلو مع نفسه ، أراد أن ينظر الی طلوع القمر ، الذی كان قد ارتفع هادئا ، من وراء القمم المسننة لسلسلة الجبال الثلجية البيضاء • وأرقدت زوجته الطفلتين فی الخيمة لتباتا ليلتهما • وترامی الی المسامع صوت النار وهی تنش وتفرقع فی الموقد • ثم انهد يعزف الوتر الرنان ، الصافر لآلة « تمير ــ كاموز » الموسيقية ، وصوته يتوغل فی أعماق الروح وتثيرها • لكأن الريح كانت تعوی

بانزعاج وقلق أو كأن انسانا قد عدا فى الحقل ببكائه وأغنيته النـائحة المولولة ، ولكن كل شيء حواليه كان صامتا ، لقد همد كل شيء ، حابسا الأنفاس ، وكأنه لم يجر الا صوت اللوعة والانسحاق الانسانى متوحدا . لكأنه كان يسعى دون أن يعرف الى أين يلتجيء بحزنه ، وكيف التعزى وسط هذا الهمود وهذا الأقفار من الناس ، ولم يجبه أحد . كان يبكى ويستمع لصوته وحيداء وفهم تانابای ان هذه هى زوجته تعزف له «أغنية الصياد العجـوز » ...

.. فى غابر الأزمان كان عند أحد الشيوخ ابن ـ وكان شابا ، وصيادا جريئا . كان أبوه نفسه قد علمه فن الصـيد الصعب ، الحاذق . لكن هذا تفوق عليه وتخطاه .

لم تكن سهامه تعرف الطيش . وليس ثمة مخلوق حى استطاع أن يزوغ من رصاصاته المميتة والمصوبة تصويبا دقيقا محكما . وقد قتل بالجملة كافة الطرائد فى الجبال حواليه . لم يكن يشفق على الأمهات الحبالى ، ولا على الأولاد الصغار أيضاء وقد أباد قطيع المعزى الشهباء ، وهى الأم الأولى لجنس المعز . وبقيت المعزى الشهباء ذاتها مع العنز الأشهب العجوز ، وابتهلت هى وتوسلت ، مخاطبة الصياد الفتى ، أن يشفق على العنز الشيخ ، وأن يوفره ، لكى يستمر جنسهما . ولكن هذا لـم يصخ سمعا الى ندائها ، وصرع باطلاق محكم العنز العجوز الضخم . وتدهور العنز وخر من الصخرة . وآنذاك ابتـدأت

المعزى الشهباء تنذب فقيدها ، واستدارت بجنبها الى الصياد وقالت :

« صوت الى قلبي • لن أتزحزح عن مكاني قيد شعرة • ولكنك لن تصيب مني مقتلا • وسيكون هذا طلقك الأخير ! » فجعل الصياد الفتى يضحك من كلمات المعزى الشهباء العجوز التي أخرفت وجعلت تهذي • وصوب اليها • ودوى الاطلاق • لكن المعزى الشهباء لم تهو ولم تقع • فالرصاصة مستها في قدمها الأمامية ليس الا • ففزع الصياد وارتعب ـ فمثل هذا لم يحدث معه قط من قبل . « أرأيت » ـ التفتت اليه المعزى الشهباء . ـ أما الآن فحاول ان تمسك بي عرجاء ! » فضحك الصياد الفتى جوابا لها • « حسنا ، حاولي ان تهربي • ولكني ان ظفرت بك ـ فلا تنتظري شفقة مني • سأقطعك اربا اربا ، أيها العجوز ، مثل نفاجة قبيحة ! » •

وجعلت العنزة الشهباء ، العرجاء تعدو ، والصياد يطاردها • أياما كثيرة ، وليالي كثيرة في الصخور ، في الجروف ، في الثلوج والأحجار استمرت هذه المطاردة • كلا ، لم تستسلم المعزى الشهباء . وقد مر زمن طويل منذ طرح الصياد جانبا سلاحه ، وملابسه ، لم يتبق منها الا المزق • ولم يلاحظ كيف اقتادته العنزة الشهباء الى الصخور التي لم يطأها أحد من قبل من حيث لا توجد دروب لا الى فوق ، ولا الى أسفل ، حيث يستحيل القفز والهبوط • وهنا تركته العنزة الشهباء ولعنته : « من هنا لن تفلت طول عمرك ، ولن يستطيع أحد في الدنيا

انقــاذك ، فليبك أبوك عليك ، كما أبكى أنا أولادى القتلى وجنسى الذى اختفى • فليعو أبوك وحده بين أحجار الجبال ، فليعو وحيدا بين الجبال الباردة ، كما أعوى أنا ، العنزة الشهباء العجوز ، أم جنس المعز • انى لألعنك ، ياقراغول ، ولتحل بك لعنتى ••• » وغادرته المعزى الشهباء بنواحها وبكائها ، قافزة من حجر الى حجر ، ومن جبل الى جبل •

بقى الصياد الشاب على القمة الشاهقة • كان يقف على الحافة الناتئة الضيقة ، وقد ألصق وجهه بجنب الجبل ، يخاف ان يلتفت — اذ ليس له ان يخطو لا الى فوق ولا الى تحت ، لا الى يمين ولا الى شمال • لا يرى سماء ، ولا يطالع أرضا •

أما الأب فقد كان فى هذا الوقت يبحث عنه فى كل مكان• وقد طاف الجبال جميعا • وحين عثر فى أحد الدروب الجبلية الضيقة على السلاح الذى ألقاه ابنه ، فهم فى الحال أن فاجعة قد حلت به • فجعل يركض فى الشعاب الصخرية ، وفى المضايق المظلمة • « قراغول ، أين أنت ، يا قراغول ، أجبنى ! •• » أما فى الجواب فقد هدرت الجبال الحجرية مقهقهة ، وأرجعت له صدى كلماته ذاتها : « أين أنت ، يا قاراغول ، أجب ! •• » •

« أنا هنا ، يا أبتاه ! » — ترامى اليه فجأة صوت من مكان ما من حالق • نظر الشيخ الى فوق فرأى ابنه ، مثل غراب على طرف جرف ساقط ، على الصخرة العالية المنيعة • انه يقف هناك ، وظهره الى الناظر ، الى العالم ، فهو لا يستطيع الالتفات أو الاستدارة •

« كيف وجدت أنت هناك ، يا ابنى التعيس ؟ » — ارتعب الأب .

« لا تسألنى ، يا أبتاه ، — أجاب هذا . — أنا هنا عقابا على ما جنيت . لقد اقتادتنى الى هنا العنزة الشـــهباء العجوز ولعنتنى لعنة رهيبة . انى أقف هنا أياما كثيرة ، لا أرى شمسا ولا أطالع سماء ولا أشاهد أرضا . ووجهك لا أراه ، يا أبتاه . أشفق على ، يا أبى . فأنا أتعذب عذابا بالغا : فاقتلنى ، خفف عذاباتى ، ألتمسك . اقتلنى وادفنى ! » .

ما الذى كان الأب يستطيعه ؟ طفق يبكى ، ويرتمى الى هنا والى هناك أما الابن فكان يتوسل باستمرار : « اقتلنى سريعا . صوب الى يا أبتاه ! ارحمنى ، سدد ! » وحتى غاية المساء لم يحزم الأب أمره ، ولم يستقر على قرار . ولكن قبيل مغيب الشمس صوب وأطلق . وحطم البندقية بحجر ، وطفق يغنى أغنية الوداع فوق جسم ابنه القتيل بيديه :

« أنى قتلتك ، ياابنى قراغول ،
وبقيت وحدى فى الكون ، يا ابنى قراغول .
ان القدر قد لعننى ، يا ابنى قراغول ،
والقدر قد عاقبنى ، يا ابنى قراغول .
علام علمتك ، يا ابنى قراغول ،
مهنة الصيد ، يا ابنى قراغول ،
لماذا أبدت انت ، يا ابنى قراغول ،
كل مخلوق وكائن حى ، يا ابنى قراغول ،
لماذا افنيت ، يا ابنى قراغول ،
كل ما ظهر ليحيا ويتكاثر ، يا ابنى قراغول ،

واحدا بقيت فى الكون ، يا ابنى قراغول ،
لا احد يرد على ، يا ابنى قراغول ،
ببكائه على بكائى ، يا ابنى قراغول ،
انى قتلتك ، يا ابنى قراغول
بيدى هاتين قتلتك ، يا ابنى قراغول ... »

... كان تاناباى جالسا بجنب الخيمة ، وهو يسمع النواح القرغيزى القديم ، ويتابع بنظره القمر وقد عوم فوق الجبال الصامتة والمظلمة ، ثم كيف تعلق فوق القمم الثلجية ذات الرؤوس الحادة ، فوق الصخور الحجرية العملاقة . وانهد ثانية يبتهل الى صديقه الراحل ويلتمسه الغفران .

أما جايدار فكانت لاتزال تعزف على آلة « تمير ـــ كاموز » مرثية الصياد الكبير قراغول :

« انى قتلتك ، يا ابنى قراغول ،
وبقيت وحدى فى الكون ، يا ابنى قراغول ... »

٢٣

كان الفجر يقترب . وكان الشيخ تاناباى جالسا ازاء الشعلة ، عند رأس الرهوان المحتضر ، وهو يواصل تذكره ماالذى جرى فيما بعد .

لم يكن ثمة أحد يعرف ، أنه قد ارتحل فى تلك الأيام الى مركز المحافظة . كانت تلك هى محاولته الأخيرة . كان يريد أن يرى سكرتير اللجنة الحزبية فى المحافظة الذى سمع خطابه فى اجتماع فى مركز المنطقة ليحدثه عن كافة مصائبه وأحزانه .

وقد آمن ان هذا الانسان كان يمكن أن يفهمه وأن يسدى له يد العون • وقد تحدث تشورو عنه بكلمات الأطراء ، كما ان الآخرين امتدحوه • ولم يعرف عن نقل ذلك السكرتير الى محافظة أخرى ، الا بعد أن غشى مقر اللجنة فى المحافظة بنفسه •

ـ ولكن أو لم تسمع حقا ؟

ـ كلا •

ـ حسنا ، ولكن ان كانت لديك قضية مهمة جدا ، فانى سأبلغ سكرتيرنا الجديد ، فلعله سيستقبلك ـ اقترحت عليه المرأة فى قاعة الاستقبال •

ـ كلا ، شكرا ، ـ رفض تاناباى • فانى انما طلبت ذلك، لقضية شخصية خاصة • ذلك اننى كنت أعرفه ، وهو كان يعرفنى • وبخلاف ذلك لما كنت أزعجه بهذا الشكل • العفو ، مع السلامة• وخرج من قاعة الاستقبال ، مؤمنا فى نفسه ، انه كان يعرف جيدا ذلك السكرتير ، وان ذاك قد عرفه شخصيا ، هو الراعى تاناباى باكاسوف • ولكن لم لا ؟ لكانوا قد استطاعوا معرفة واحترام أحدهما الآخر ، انه لم يشك فى هذا ، ولذلك قاله •

مضى تاناباى فى الشارع ، متوجها الى محطة سيارات الباص • كان عاملان بجانب كشك بيرة يحملان سيارة ببراميل بيرة فارغة • كان أحدهما يقف فى صندوق سيارة الشحن • والتفت ذاك ، الذى كان يدحرج البراميل الى فوق اليه ، التفت صدفة فرأى تاناباى المار بجانبه وتسمر فى مكانه ، وامتقع وجهه • كان هذا هو بكتاى • فجعل وهو يمسك بالبرميل على

اللوحة الخشبية ينظر الى تانابای بثبات وعلى نحو عدائى ، بعينيه الضيقتين القلقتين وينتظر ماذا سيقوله تانابای •

ـ ماذا ، هل غفوت هناك ؟ ـ هتف فى بكتاى العامل الواقف في صندوق السيارة مثارا •

كان البرميل يتدحرج الى أسفل ، لكن بكتاى ، وقد أمسك به ، انحنى قليلا تحت ثقله ، وواصل نظره دون انقطاع الى تانابای • غير أن تانابای لم يحيه . « هذا اذن هو مكانك • انك هنا اذن • شاطر ! تدبير رائع لا عيب فيه ! عكفت على البيرة ، والتحقت باشغالها ! ـ طفق تانابای يفكر ، ومضى ، دون تلكؤ ، موغلا في سيره • سيهلك الفتى ، ها ؟ ـ فكر هو بعدئذ ، مبطئا خطوه . ـ كان يمكن أن يكون انسانا طيبا ، لعلى سأكلمه ؟ » ـ وأراد أن يرجع ، فلقد أشفق على بكتاى هذا ، وكان مستعدا لأن يغفر له كل شىء • فقط ، لو أن هذا ثاب الى رشده • وعلى أية حال ، لم يقم تانابای بذلك • فقد تيقن لو ان هذا عرف أمر فصله من الحزب ، اذن لما أمكن اجراء حديث . ولم يرد تانابای ان يمنح هذا الفتى النمام ، الواشى مناسبة للسخرية منه ، من مصيره ومن قضيته التى ظل ، رغم كل شىء ،أمينا لها • وهكذا واصل سيره • وغادر المدينة مرتحلا فى سيارة عابرة ، وكان يفكر طول الطريق فى بكتاى • تذكر وقفة هذا ، منحنيا تحت ثقل البرميل المتدحرج ، وتذكر كيف تطلع اليه راكزا ، مترقبا .

وفيما بعد حين حوكم بكتاى ، لم يفد تانابای فى المحكمة

الا بأن بكتاى هجر القطيع ومضى • ولم يتفوه بأكثر من هذا • لقد ود ورغب كل الرغبة فى ان يفهم بكتاى فى خاتمة المطاف، أنه ما كان على حق ، وأن يعلن أسفه وندامته • لكن هذا لم يفكر، فيما يبدو ، لا بأسف ولا بندامة .

ـ ان أنهيت سجنك ـ فتعال الى • سنتحدث عن مستقبلك ، ـ قال تاناباى لبكتاى • أما هذا فلم يجب بشىء ، بل حتى لم يرفع عينيه • وغادره تاناباى . لقد صار بعد الفصل من الحزب غير واثق فى نفسه ، وجعل يحس أمام الجميع بأنه مذنب • صار يتهيب نوعما • انه لم يتصور ولا مرة فى حياته ، ولم يجل فى خاطره قط أن مثل هذا الحدث سيقع له ، ويلم به • لم يعيره أحد ولم يجرحه ، لكنه ، على كل حال ، جعل يتجنب الناس ، ويعتزل الأحاديث وكان أكثر وقته صامتا .

٢٤

كان الرهوان غولسارى راقدا دون حراك عند الشعلة ، وقد ألقى برأسه الى الأرض • لقد فارقته الحياة ببطء • شخر وغرغر حلقه ، وجحظت عيناه وانطفأتا ، مسمرتين على اللهب لا تطرفان ، وتخشبت أقدامه الطويلة ، كالعصى .

كان تاناباى يودع رهوانه ، ويقول له كلماته الأخيرة : « لقد كنت حصانا ماجدا ، يا غولسارى ، لقد كنت صديقى ، يا غولسارى • انما تأخذ معك أفضل سنى ، يا غولسارى • سأظل أتذكرك دوما • والآن وأنا بقربك أتذكرك ، لأنك تغادرنى

يا حصانى المجيد . لابد ان نلتقى ، وقتا ما ، فى العالم الآخر . لكنى هناك لن أسمع وقع حوافرك . فهناك لا توجد طرق ، ولا توجد أرض ، وما من عشب ، وما من حياة . لكن حيثما عشت وأينما سأكون ، فانك لن تموت ، لأنى سأظل أتذكرك ، يا غولسارى . ان وطء سنابكك ، سيظل بالنسبة لى ، مثل أغنية حبيبة ... »

هكذا فكر الشيخ تاناباى ، واكتنفه الحزن والأسى . لأن الزمن عدا ، مثل عدو الرهوان . ولأنهما شاخا سوية بسرعة غريبة . ولربما كان لا يزال من السابق لأوانه أن يحسب تاناباى نفسه شيخا . ولكن الانسان يشيخ ليس من السنين التى عاشها فحسب ، بقدر ما يشيخ من الوعى بأنه شاخ ، وان عهده قد ولى ، وانه انما تبقى له ان يحمل نفسه حملا ليعيش بشكل ما حتى نهــاية عمره ...

والآن ، وفى هذه الليلة ، ليلة موت رهوانه ، جعل تاناباى يتأسف ، متطلعا ، من جديد ، بتركيز وانتباه شديد الى ماضيه، على كونه قد استسلم ، على هذا النحو المبكر ، الى الشيخوخة ، ولأنه لم يقرر فى الحال الأخذ بنصيحة ذلك الانسان الذى لم ينسه ، كما يتبين ، والذى بحث عنه هو بنفسه ، وجاء اليه بذاته .

حدث هذا بعد سبع من السنين بعد فصله من الحزب . وكان تاناباى يعمل ، آنذاك ، حارســا للأراضى الكولخوزية المزروعة فى شعب ساريغوسكى ، وعاش آنذاك فى بيت الحراسة

الصغير سوية مع عجوزه جايدار . أما بنتاه فقد ارتحلنا للدراسة وتزوجنا فيما بعد . وأما ابنه فبعد انهاء المدرسة المهنية انخرط فى العمل موظفا فى المنطقة ، وأصبح معيلا .

وذات مرة فى الصيف كان تانابای منهمكا فى حش العشب عند شاطىء النهر . وكان النهار قائظا ، حارا ، ونيرا . وكان الهدوء يعم الشعب . وكانت الجنادب تصرصر . كان تانابای فى قميص طليق وسروال أبيض عريض ، مما يلبس المسنون ، كان يخطو وراء محصدة العشب الهادرة ، ويكوم العشب أكواما كثيفة ، متناسقة . كان يشتغل مسرورا ، مستغرقا فى العمل . ولم يلاحظ كيف توقفت غير بعيد عنه سيارة صغيرة تحمل ماركة « غاز » ، وكيف طلع منها شخصان وتوجها اليه .

ــ مرحبا ، يا تانابای . الله يساعدك ! ــ سمع هو أحدهم يكلمه ، من جانبه . التفت فرأى ابراهيم . وكان هذا لا يزال على عهده خفيف الحركة ، نافر الوجنتين ، ببطن ناتىء . ــ ها أننا وجدناك ، أخيرا يا تانابای ، ــ ابتدأ ابراهيم يبتسم ابتسامة عريضة غطت وجهه . ــ ان سكرتير اللجنة الحزبية فى المنطقة قد جاء اليك بنفسه ، يريد ان يراك .

« ياله من ثعلب! ــ تأمله تانابای باعجاب عفوى، لا ارادى . ــ يعيش فى كافة العهود ويجد لنفسه مكانا . انظر كيف هو يتملق ، وكيف هو متكرم ، على غاية السخاء . انه ليرضى كل أحد ، ويخدم الجميع دون استثناء ! »

ــ مرحبا . ــ شد تانابای على يديهما .

ـ أفلا تعرفني ، أيها الأب ؟ سأل الآخر بحفاوة وترحاب، وهو الرفيق الذي جاء مع ابراهيم ، سأله دون ان يفلت يده من راحة يده القـوية •

وتلكأ تانابای بالجواب . « أين بالذات رأيته ؟ » ـ طفق يتساءل في نفسه • وأمامه كان رجل كأنه معروف جدا لديه ولكن ، فيما يبدو ، قد تغيرت هيأته تماما • كان شابا ، عفيا ، مسفوعا ، بنظرة صريحة واثقة ، مرتديا بدلة رمادية من الكتان بقبعة من القش • « أحدهم ، واحد من المدينة » • ـ تصور تانابای •

ـ انه هو ذلك ••• ـ كاد أن يبوح ابراهيم •

ـ على مهلك ، توقف لحظة ، سأقول بنفسي ، ـ أوقفه تانابای وقال ضاحكا في سره ، ـ أعرفك يا بني • كيف لي أن لا أعرفك ! مرحبا مرة أخرى • اني لمسرور بلقائك •

كان هذا هو كريمبيكوف • انه سكرتير الكومسومول ذاك ، الذي دافع بشجاعة عن تانابای في اجتماع لجنة المنطقة حين فصلوه من الحزب •

ـ طيب، ما دام قد عرفتموني، فتعالوا نتحدث، يا تانابای. هيا بنا نتمشى على الشاطىء • أما أنت فخذ المحصدة وأحصد ، ـ اقترح كريمبيكوف على ابراهيم •

وخف هـذا في الحال باستعداد استثنائي ، وخلع السترة :

بالطبع ، بمنتهى السرور ، أيها الرفيـق كريمبيكوف •

ومضى تانابای وكريمبيكوف فى المرج حيث يجرى حصاد الحشائش ، وجلسا على الأحجار عند النهر •

ــ انك ، على الأرجح ، تحزر ، يا تانابای ، بأية قضية قصدتك ، ــ بدأ كريمبيكوف الحديث • ــ نظرت اليك ، فاذا أنت على حالك السابق من القوة وعلى عهدك ، وها أنت منشغل بجز الحشائش ــ اذن فالعافية عندك فى تمامها والحمد لله • أنا مسرور بهذا •

ــ أسمعك ، يا ولدى ، أنا أيضا مسرور بك •

ــ اذن، ولكى يكون الأمر أوضح بالنسبة لك ، ياتانابای، فالآن تعرف أنت نفسك ، ان كثيرا قد تغير ، وكثيرا من الأمور صارت تجرى على ما يرام • ولا أظنك أقل منى تدرى بهذا •

ــ أعــرف • الحقيقة هى الحقيقة • حتى قياســا على كولخوزنا أستطيع الحكم والاستنتاج • لكأن الأمور تبدلت خيرا ، وصارت أفضل • حتى انى لا أصدق عينى • كنت فى زمن غير بعيد فى وادى « الأشــجار الخمس » حيث دهتنى المصائب فى ذلك العام بالذات وكنت راعيا • وشعرت بالحسد: فقد أنشأوا هناك حظيرة مسقفة جديدة • حظيرة جيدة ، بسقف من قطع الطين الصفحى الرمادى ، تتسع لخمســمائة رأس • وأنشــأوا ، بالتالى ، بيتا للراعى • وبجنب ذلك أقيم عنبر ، واسطبل • ان هذا لشىء جديد تماما لا يقارن بحال بما كان بالأمس • أجل وفى أمكنة المشتى الأخرى صنعوا ذات الشىء • أما فى القرية ذاتها فان الشعب يبنى البيوت • وكلما غشيت

القرية يطالعنى بيت جديد قد نهض فى الشارع • فليجعل الله الأمور كذلك فى المستقبل •

ــ هذا شغلنا وواجبنا يا تانا باى • ليس كل شىء بعد كما يرام • ولكن مع الوقت سنسوى الأمور . أما أنا فقد قصدتك بالقضية التالية : أن ترجع الى الحزب • سنعيد النظر فى قضيتك• وفى جلسة اللجنة دار الحديث بخصوصك • وكما يقال : لا بأس حتى بآجل الأمور •

وصمت تانا باى ، واكتنفته الحيرة . لقد سر من جهة ، ومن جهة أخرى صار يشعر بالمرارة • لقد تذكر كل ما عاناه ، وكان الضيم قد رسخ عميقا فى ذاكرته • لم يكن يريد أن يحرك ساكن الماضى ، ولم يشأ التفكير فى ذلك •

ــ شكرا على الكلمة الطيبة ، الرقيقة ، ــ شكر تانا باى سكرتير اللجنة المنطقية ، ــ شكرا أنك لم تنس الشيخ • ــ وفكر برهة ، وما لبث أن قال بصراحة : ــ لقد صرت شيخا • أية فائدة منى للحزب الآن ؟ أى شىء سأستطيع عمله له ؟ لم أعد أصلح لشىء . لقد ولى عهدى • لا تزعل منى • أعطنى فرصة للتفكير •

تردد تانا باى طويلا ولم يحزم أمره على شىء ، وكان يؤجل باستمرار ــ غدا سأمضى ، بعد الغد ، أما الوقت فكان يمضى مسرعا • كان يتثاقل عندما ينهض ، وفتر حماسه •

وعلى كل حال فقد تهيأ ذات يوم ، وأسرج حصانه ، وارتحل ، ولكنه عاد من منتصف الطريق • ولكن لماذا ؟ لقد

فهم هو نفسه ، انه انما عاد لحمقه ليس الا . قال هو لنفسه « لقد تحامقت ، لقد خرفت خرف الشيخوخة » . كان يفهم كل هذا ، لكنه لم يستطع صنع شيء مع نفسه ، أو قهر هواها .

لقد طالعت عينه في السهب آنذاك غبار الرهوان الراكض. وقد عرف غولساري على التو . قلما كان يراه وقتذاك . كان يجري ، وقد طبع بجريه في السهب الصيفي الجاف أثرا متطايرا. نظر تاناباي الى ذلك ، من بعيد ، واكتأب . فمن قبل كان الغبار المتطاير من تحت حوافره لا يلحق بحال الرهوان ذاته . كان ينطلق الى أمام ، مثل طير طائر بمنتهى السرعة ، ويخلف وراءه ذيلا من الغبار طويلا فائرا . أما الآن فالغبار غالبا ما حط سحابة على الرهوان نفسه ، وغطاه . كان ينطلق الى أمام ، ولكن بعد دقيقة كان يختفي من جديد في مكعبات كثيفة من الغبار الذي أثاره هو ذاته . كلا ، انه الآن لم يعد يستطيع الخلاص من غباره . اذن ، فقد شاخ الحصان ما فيه الكفاية ، وضعف ، وانهارت قواه . « سيئة أمورك ، يا غولساري » ــ فكر هو بأسى .

وصور لنفسه كيف اختنق الحصان بالغبار ، وكيف كان الركض يصعب عليه ، وكيف اغتاظ فارسه فساطه يستحثه . ورأى أمامه عيني الرهوان الذاهلتين ، وأحس بما يبذله هذا من جهد ، لينطلق بكل قواه ، ويمرق متخلصا من سحب الغبار دون ان يستطيع ذلك . وبالرغم من ان الفارس لم يكن ليستطيع أن يسمع تاناباي ــ فالمسافة كانت بعيدة حقا ــ الا ان تاناباي

هتف : « على رسلك ••• لا تستحث الحصـــان » ــ وانطلق بحصانه قمصا لقطع الطـريق عليه •

ولكنه لم يتم جريه ، وسرعان ما توقف • لا بأس اذا فهم ذلك الشخص مقصده ، ولكن ان لم يفهم ؟ واذا قال له جوابا : « لماذا يعنيك الأمر ؟ من أين طلعت على آمرا ؟ كيفما أريد ، فكذلك ارتحل • تنح عنى ، أيها الأحمق العجوز ! »

أما الرهوان فكان فى ذلك الوقت لا يزال موغلا فى الجرى العسير ، غير المنتظم ، يختفى تارة فى الغبار ، ويتخلص منه تارة أخرى • نظر تاناباى فى أثره طويلا • ثم استدار بحصانه وعاد • « لقد عدونا حصتنا من العدو ، يا غولسارى ! — قال هو ــ وشخنا • فلمن نلزم نحن ، الآن ، فى مثل هذه الحال ؟ وأنا الآن كذلك لست بركاض • لم يتبق لنا ، يا غولسارى ، الا أن نعيش آخر أيامنا ••• »

ولكن بعد عام رأى تاناباى الرهوان مقرونا الى عربة نقل• وانهارت أعصابه من جديد • كان يحزنه أن ينظر الى الوثاب العجوز ، الذى عتق وأفل نجمه ، وقد أصبح نصيبه السير فى رقبية قد أضر بها العث ، وجر مركبة متداعية • وأشاح تاناباى ببصره عنه ، فما كان يود رؤيته فى هذه الحال •

والتقى تاناباى بالرهوان مرة أخرى . كان على ظهره فى هذه المرة صبى له من العمر سبع سنين ، ولم يرتد سوى فانلة ممزقة ولباسا قصيرا ، وكان يرتحل به فى الشارع • كان قد استوى عليه متهللا مبتهجا ، وهــو يركله بعقبيه العــاريين ،

متباهيا أنه يقود الحصان بنفسه • وكان واضحا ان الصبى يركب حصانا للمرة الأولى فى حياته ، ولذلك فقد أجلس على أطوع وآمن فرس هزيل ، وهو من كانه آنذاك الرهوان السابق ، غولسارى •

ــ أيها الجد ، أفلا تنظر الى ! ــ افتخر الصبى أمام الشيخ تاناباى • اننى البطل تشابايف ! سأمضى الآن عبر النهر •

ــ مرحى ، مرحى ، امض ، وسأنظر ! ــ شجعه تاناباى •

ومضى الغلام بجرأة عبر النهر ، هامزا الحصان بالأعنة ، ولكن حين صار الحصان يشق طريقه الى الشاطىء المقابل مخوضا فى الماء لم يثبت على ظهره ، فتخبط فى الماء •

ــ ما ــ ما ــ آ ! ــ بدأ الصبى يولول من الرعب •

وانتشله تاناباى من الماء وحمله الى الحصان . وكان غولسارى ، اذ ذاك ، يقف طيعا فى الدريب ، رافعا قدميه واحدة بعد أخرى • « ان قدمى الحصان تؤلمانه ــ اذن فقد ساءت حاله تماما » فهم تاناباى • وأجلس الصبى على الرهوان العجوز •

ــ ارتحل ولا تقع مرة أخرى •

ومشى غولسارى متثاقلا ، على مهل فى الطريق •••

وها هى المرة الأخيرة ، بعد أن وقع الرهوان ثانية فى يدى تاناباى ، وبعد ان لاح ان الشيخ قد شفاه ، وأعاد له قواه وحيله ، ها هى المرة الأخيرة التى حمل غولسارى بها تاناباى الى قرية آلكساندروفكا ، وها هو الآن يلفظ أنفاسه فى الطريق •

كان تاناباى قد ارتحل الى ابنه وكنته ، بمناسبة ولادة

حفيده ، وهو ثانى طفل فى أسرة الابن • وقد قدم اليهم حاملا فى جملة الهدايا نعجة مذبوحة ، وكيسا من البطاطا ، وخبزا وعديدا من الأطعمة والمأكولات التى أعدتها الزوجة • وقد فهم، فيما بعد، لماذا لم ترد جايدار أن تسافر ، وادعت بالمرض• وبالرغم من انها لم تقل لأحد ، الا انها ما كانت تحب هذه الكنة . وقد كان الابن بطبيعته ، انسانا اتكاليا ، ضعيف الشخصية ، ضعيف الارادة خائرا ، أما الزوجة فقد تكشفت قاسية متسلطة • كانت، وهى جالسة فى البيت ، تأمر ، وتهتضم الزوج وتتعسف به ، مثلما تريد وكما تشاء • وفى الدنيا يوجد مثل هؤلاء الناس ، الذين لا يتأثرون اطلاقا ولا يهمهم أبدا الاساءة الى الانسان واهانته والتعدى عليه ، لا لشىء الا للتأمر وللشعور بممارسة السلطة •

ان مثل هذا الأمر قد حدث فى هذه المرة أيضا • فلقد تبين أنهم فى الدائرة كانوا بسبيل أن يرفعوا الابن فى العمل ، ولكن فيما بعد ولسبب ما رفعوا انسانا آخر أما هو فقد تخطوه . وها هى الكنة تنقض على الشيخ البرىء ، غير المذنب فى أيما شىء :

ــ علام انتسبت الى الحزب ، ان كنت تقضى كل حياتك فى رعى الأغنام ورعى الخيول • فالأمر سيان ، فمع كل ما عملت، طردوك عند النهاية ، ومن جراء هذا لن تكون ترقية لابنك • وسيظل مائة سنة أخرى قاعدا فى ذات الوظيفة دون ترقية • انكم تعيشون هناك فى الجبال ، فما الذى يلزمكم هناك ، ألتم الطاعنون فى السن ، أما هنا فنحن نعانى بسببكم •

وثرثرت بكلام كثير آخر في هذا المعنى ...

لم يكن تانابای مسرورا أنه ارتحل . ولأجل أن يهدي الكنة على نحو من الأنحاء ، قال بتردد :

ـ طالما الأمر كذلك ، فلعلي سأسأل العودة الى صفوف الحزب .

ـ أنت تعتقد بانك تلزمهم هناك جدا . وانهم ينتظرونك على أحر من الجمر . كلا ، فهم يستطيعون تدبير أمورهم من دون شيخ عجوز مثلك ! ـ أجابت هي متذمرة بسخرية لاذعة .

لو كان القائل ليس الكنة ، زوجة ابنه ، لو كان القائل انسانا آخر ، ترى أفكان سيسمح تانابای حقا بالتحدث معه بهذا الشكل ؟ ولكنك لن تستطيع التبرؤ من ذويك ، مهما كانوا طيبين أم سيئين . ولاذ الشيخ بأذيال الصمت ، وكف عن المعارضة ، ولم يجرؤ أن يقول لها ان زوجها لا يرقونه في الخدمة لا لأن أباه مذنب ، وانما لكونه هو نفسه لا يصلح لشيء ، ناهيك عن انه ابتلي بمثل هذه الزوجة التي منها يفر الانسان السوي ، الطيب الى حيث تقوده عيناه . فليس عبثا أن يقول الشعب « الزوجة الطيبة تجعل من الزوج الردئ لا بأس به ، ومن الزوج المتوسط طيبا ، أما الطيب فتجعل العالم بأسره يمجده » ولكن من جديد لم يجرؤ الشيخ ولم يرد أن يعير الابن بحضور زوجته ، أجل ، دعهم يفكرون أنه مذنب .

ولكل هذا غادرهم تانابای سريعا . فقد كان مقرفا له أن يبقى عندهم .

« حمقاء ، أنت حمقاء ! ــ كان يوبخها وهو يجلس عند الشعلة ــ فقط ، من أين يطلع هؤلاء الناس ؟ انهم لا يكنون للآخرين لا مشاعر التكريم ، ولا الاحترام ، ولا الخير . أنانيون لا يفكرون طيلة الوقت الا بأنفسهم . ويحكمون على الناس جميعا ، منطلقين من الحكم على أنفسهم . شيء واحد ــ لست كما تظنين ، وكما تتصورين . لا زلت لازما ، وسأظل ضروريا ولازما ... »

٢٥

انفلق الصباح . كانت الجبال تستيقظ فوق الأرض ، وقد اتسع السهب حواليها ، وتلألأ بالنور . وفي طرف الوادي كانت تضطرم على نحو ضعيف ، واه فحمات الشعلة الآخذة بالانطفاء . والى جانبها كان الشيخ الأشيب واقفا ، قد ألقى بالفروة على كتفيه . فالآن لم تعد ثمة ضرورة لتغطية رهوانه . لقد مضى غولساري الى العالم الآخر ، الى قطعان الخيل السماوية ... ونظر تاناباي الى الحصـــان الشـــهيد واستحوذ عليه العجب والدهشة . كان غولساري يرقد على جنبه برأس ملقى بتشنج ، رأسه الذي كانت ترى عليه نقر عميقة ، هي آثار الأعنة . وقد نتأت أقدامه الممدودة ، غير المثنيـــة بحداو بالية على حوافر متصدعة . لم يعد بامكانها ان تطأ الأرض ، أو تطبع أثرها في الطرق . كان يلزم المضي . وانحنى تاناباي على الحصان للمرة الأخيرة ، وأطبق جفنيه على عينيه الباردتين ، وأخذ اللجام ،

ودون أن يلتفت ، مضى لا يلوى على شيء .

مضى هو عبر السهب الى الجبال . مضى مواصلا تأملاته وخواطره الكثيرة . وفكر هو فى أنه قد أصبح شيخا بالفعل ، وأن أيامه آخذة بالأفول . ولم يرد أن يموت طيرا وحيدا ، منفردا ، منفصلا من سربه ذى الأجنحة السريعة . أراد أن يموت فى الطيران ، لأجل ان يتحلق حوله بهتافات الوداع أولئك الذين نشأ معهم فى عش واحد ، والذين سلك معهم وواصل ذات الطريق .

« سأكتب الى سامنصور ، — قرر تاناباى . — وسأكتب فى الرسالة ما يلى : أفلا تذكرن الرهوان غولسارى ؟ ينبغى أن تتذكره . فعلى ظهره نقلت أنا الى لجنة المنطقة بطاقة والدك الحزبية . انك نفسك وجهتنى فى ذلك الطريق . وهكذا ، ففى الطريق ، وقد رجعت البارحة من قرية الكساندروفكا ، خر رهوانى المجيد . وقد جلست طوال الليل بجنب الحصان ، وقد تفكرت متأملا فى حياتى كلها . وفى ساعة تعسة كهذه ، سأخر أنا أيضا فى الطريق ، مثلما خر الرهوان غولسارى . فعليك أن تساعدنى ، يا ابنى سامنصور ، فى أن أرجع الى صفوف الحزب . لقد تبقى لى القليل لأعيشه . الا انى أريد أن أكون من كنته سابقا . وكما أتفهم الأمر الآن ، فليس عبثا ان أوصانى أبوك بأن أنقل بطاقته الحزبية الى لجنة المنطقة . أما أنت فنجله ، وأنت تعرفنى ، أنا الشيخ تاناباى باكاسوف ... »

مضى تاناباى فى السهب ، ملقيا بالأعنة عبر كتفه . كانت

دموعه تجرى فى وجهه ، وقد اخضلت لحيته . ولكنه لم يجففها. لقد كانت دموعه التى يذرفها من أجل الرهوان غولساري .
ونظر الشيخ عبر الدموع الى الصبح الجديد ، الى الأوزة الشهباء ، الطائرة وحدها سريعا فوق التلال السفحية . كانت الأوزة الشهباء تطير مسرعة ، للحاق بسرب طيور الأوز .

ـ طيرى ! طيرى ! ـ همس تاناباى . ـ الحقى بذويك ، طالما لم يهو جناحاك من التعب . ـ ثم تنهد وقال : وداعا ، يا غولسارى !

ومضى ، وطافت فى مسامعه أغنية قديمة .

... تركض الناقة أياما كثيرة . تبحث ، وتنادى وليدها. أين أنت أيها الحوار الأسود العينين ؟ أجب ! فالحليب يتدفق من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، ويشخب جداول على القدمين . أين أنت ؟ أجب . يجرى الحليب من الضروع ، من الضروع الممتلئة ، الحليب الأبيض ...

شجيرتي في منديل أحمر

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

بدلا من المقدمة

بمقتضى عملى الصحفى كنت غالبا ما أزور القرى القرغيزية النائية فى تيان شان • وذات ربيع حينما كنت فى مركز مقاطعة نارين استدعيت الى مكتب التحرير على عجل • وقد حدث أن أقلع الباص قبل بضع دقائق من وصولى الى محطة السيارات • وكان ينبغى انتظار اقلاع الباص التالى بعد خمس ساعات تقريبا• ولم يبق أمامى الا أن أحاول ان أقل سيارة عابرة • فتوجهت الى الطريق العمومى فى آخر المدينة •

وعند منعطف الطريق كان يقف لورى بالقرب من محطة بنزين • وكان السائق قد أتم تعبئة الخزان من توه ، وأخذ يسد صمامه • وسررت • كان على زجاج القمرة علامة الخطوط الدولية «su» — أى الاتحاد السوفييتى • يعنى أن السيارة قد جاءت من الصين الى محطة « المواصلات الخارجية » للسيارات

في ريباتشيه . وكان في الميسور دائما الذهاب من هناك بالسيارة الى مدينة فرونزه .

سألت السائق :

ـ هل ستقلع الآن ؟ احملني أرجوك الى ريباتشيه .

وأدار رأسه ، ونظر من طرف عينه عبر الكتف وقال في هدوء وهو ينتصب :

ـ لا ، يا اغاى ، لا أستطيع .

ـ أرجوك جدا . فعندى شغل مستعجل ، فقد استدعيت الى فرونزه .

نظر السائق الى مرة أخرى في تقطيب :

ـ افهم . ولكن لا تتكدر يا اغاى . ليس في وسعي ان أحمل أحدا .

كنت في دهشة . كانت القمرة فارغة فماذا كان يهمه لو حمل شخصا ؟

ـ أنا صحفي . ومستعجل جدا . سأدفع قدر ما تريد .

ـ ليست مسألة فلوس يا اغاى ـ قاطعني السائق بحدة وضرب بقدمه العجلة غضبا ـ في المرة القادمة أحملك بلا فلوس . أما الآن ... فلا . لا تتكدر . قريبا ستأتى سياراتنا . فأركب واحدة منها . أنا لا أستطيع ...

وقلت لنفسي : أغلب الظن أن عليه أن يحمل أحدا في الطريق .

ـ واذا ركبت فى الخلف ؟

ـ لا فرق فى ذلك ••• أنا معذور جدا يا اغاى •

نظر السائق فى ساعته وأسرع •

وذهلت للغاية ، وهززت كتفى • ونظرت فى حيرة الى معبئة البنزين • وهى امرأة روسـيـة كهلة كانت صامتة طوال الوقت تراقبنا من النافذة الصغيرة • وهزت رأسها : لا تلح • اتركه وشأنه • غريب •

وانسل السائق الى قمرته ، وحشر فى فمه سيكارة غير مشتعلة وشغل المحرك • كان شابا فى نحو الثلاثين من عمره مقوس الظهر قليلا ، طويل القامة • ما زلت أذكر يديه الكبيرتين المسكتين بعجلة القيادة ، وعينيه مع الجفنين المتعبين • وقبـل ان يقلع بالسيارة مرر راحة كفه على وجهه ونظر الى الأمام ، الى الطريق الجبلى نظرة غريبة متنهدا بقوة وقلق •

وانطلقت السيارة •

وخرجت معبئة البنزين من قمرتها • والظاهر انها كانت تريد ان تهدئنى •

ـ لا تقلق ••• ستذهب حـالا •

وصمت •

ـ الفتى يتعذب ••• قصة طويلة ••• عاش معنا زمنا هنا فى قاعدة المر •••

ولم يسعفنى الحظ لأن أصغى الى قصة معبئة البنزين حتى النهاية • فقد جاءت سيارة عابرة من طراز « بوبيدا » •

ولحقنا باللورى بعد وقت غير قصير ــ عند ممر دولون تقريبا • وكان منطلقا بسرعة كبيرة غير مسموح بهـا ، على ما أحسب ، حتى لسواق تان شان المحنكين • كان اللورى ينطلق فى هدير صاخب تحت الصخور المعلقة دون ان يخفض من سرعته عند المنعطفات ، يتسلق المرتفعات خطفا ، ويختفى فى منخفضات الطريق ، وكأنه يغوص فيهـا • ثم يظهر مرة أخرى الى الأمام بمشمعه المتطاير الخافق على الجانبين •

ومع ذلك فقد فازت سيارة « البوبيدا » • وسبقناه • والتفت : أى انسان جسور مجازف هذا ، والى اين ينطلق بهذه السرعة الجنونية ؟ واذ ذاك أخذ المطر يهطل ممزوجا بالثلج كما يحدث عادة فى الممر • ومن خلال دفقات المطر والثلج المائلة المتقاطعة لاح من وراء الزجاجة وجه متوتر شاحب تكز أسنانه على سيكارة • واذ كان يدير عجلة القيادة بقوة كانت يداه تنزلقان عليها بسرعة وسعة • ولم يكن ثمة أحد فى القمرة أو فى حوض اللورى •

وبعد وقت قليل من عودتى من نارين أوفدت الى مقاطعة اوش فى جنوب قرغيزيا • والصحفيون دائما لا يملكون وقتا • وقد وصلت الى المحطة مسرعا قبيل انطلاق القطار ، ودخلت الى المقصورة دون أن التفت حالا الى الراكب الذى جلس موليا وجهه الى الشباك • ولم يلتفت هو حين انطلق القطار •

كان الراديو يرسل موسيقى : عزف على « الكموز » للحن معروف • كان لحنا قرغيزيا كنت أتصوره دائما أغنية فارس

وحيد يسير في سهب قبيل الغروب • والطريق طويل ، والسهب عريض ، وفي وسعه التفكير ، والترنم بصوت خفيض • الترنم بما في النفس • ما أكثر الأفكار التي تراود الانسان حين يخلو الى نفسه • ويهدأ كل شيء حوله ، فلا يسمع الا وقع الحوافر • ورنت الأوتار بصوت خافض مثل صوت الماء على الحصى الخفيف اللون الأملس في الساقية • وغنى الكموز عن الشمس ، وهي توشك على الغروب خلف التلال ، والطراوة الزرقاء تسرى في الأرض في سكينة ، وتتمايل في هدوء ناثرة الطلع ، والابسنت اليمامي اللون ، والريوش الأصفر عند الطريق البني • وسيسمع السهب صوت الفارس ويفكر ويغني معه •••

وربما مر الفارس بهذا المكان ذات مرة ••• وربما اشتعل الغروب أيضا في الطرف النائي من السهب مكتسيا بالتدريج لونا قمحيا • ولربما كان الثلج أيضا في الجبال متوردا مثلما هو تورد الآن مستجيبا لأشعة الشمس الأخيرة • ثم عتم سريعا •••

ومرت وراء الشباك خطفا البســـاتين ودوالي الكروم ، وحقول الذرة الخضرة القاتمة المتكاثفة • ومرت عربة يجرها فرسان محملة بالحلفاء الطرية مرقلة نحو الممر • ووقفت عند المعبر • ونهض على العربة طفل ملوح البشرة يرتدي فانيلة ممزقة ناحلة ، وبنطلونا يرتفع الى أعلى من ركبتيه ، ونظر الى القطار وابتسم ، ولوح بيده لأحد •

وانساب النغم بروعة ونعومة متساوقا مع حركة القطار ، وقرقعات العجلات على الخط الحديدي بدلا من وقع الحوافر •

وجلس جارى قرب الطاولة الصغيرة مغطيا وجهه بيده • وبدا لى وكأنه هو الآخر يغنى فى صمت أغنية الفارس الوحيد • فهل كان حزينا أم حالما • الا ان مظهره كان يدل على شيء فاجع حزين ، حزنا لم يفتر • كان فى غيبوبة حتى انه لم يشعر بوجودى • وحاولت ان أرى وجهه • أين رأيت هذا الانسان ؟ فحتى يداه معروفتان لدى سمراوان ذات أصابع قوية طويلة •

وفى تلك اللحظة تذكرت : كان هو نفس السائق الذى لم يحملنى معه فى سيارته • وقر قرارى على ذاك • وأخرجت كتابا • فهل يستحق الأمر ان أذكره بى ؟ أظنه قد نسانى منذ زمن • فما أكثر ما يلتقى السواق مصادفة بالناس فى الطريق !

وقضينا زمنا على هذه الحال ، ينفرد كل واحد منا مع نفسه• وبدأت الدنيا تعتم خلف الشباك • وعزم رفيق سفرى على التدخين • وأخرج سكائره ، وتنفس بصوت مسموع قبل أن يشعل عود الثقاب • ثم رفع رأسه ، ونظر الى فى دهشة ، وأحمر على الفور • فقد عرفنى •

ــ مرحبا يا اغاى ــ قال ذلك وأبتسم عن ذنب •

ومددت له يدى :

ــ أمسافر انت فى طريق طويل ؟

ــ نعم ••• فى طريق طويل ــ واخرج دخان سيكارته ببطء ، وصمت قليلا ثم أضاف ــ ذاهب الى بامير •

الى بامير ؟ يعنى نفس الطريق • أنا ذاهب الى أوش • فهل انت ذاهب فى أجازة أم غيرت عملك ؟

ـ تقريبا ••• هل تدخن ؟

ورحنا نرسل الدخان ونغرق فى صـــمت • وبدا وكأننا لا نملك كلاما آخر نقوله • واستسلم جارى مرة أخرى الى التفكير • جلس مطرقا برأســه تاركا اياه يهتز على حركات القطار • وبدا لى وكأنه تغير كثيرا عما رأيته فى المرة السابقة • فقد نحف ، وضمر وجهه وظهرت ثلاثة غضون قوية عريضة على جبهته • وكان على وجهه ظل عبوس لانضمام حاجبيه الى أصل أنفه • وفجأة ابتسم زميل السفر فى غير سرور وسأل :

ـ لعلك تكدرت منى كثيرا فى تلك المرة يا اغاى ؟

ـ أنا لا أتذكر ماذا حصل ـ قلت ذلك وأنا لا أريد ان أربك الفتى أمامى • ولكنه نظر الى فى ندم ظاهر حملنى على أن أعترف ـ ها •• آنذاك •• بسـيطة •• نسـيت هـذا • يحدث كل شىء فى الطريق •• وانت أما تزال تذكر ذلك ؟

ـ ربما كنت أنسى لو حدث ذلك فى يوم غير اليوم الذى حدث فيه • ولكن فى ذلك اليوم •••

ـ ما حدث ؟ •• هل وقعت كارثة ؟

ـ لم تقع كارثة من هذا النوع • شىء آخر ـ قال ذلك محاولا ان يجد الكلمات • ثم ضحك ، حمل نفسه على ان يضحك ـ لو حدث الآن لحملتك الى حيث أردت • ولكننى أنا نفسى راكب فى هذه المرة •••

ـ لا بأس • الفرس يسير فى نفس الطريق ألف مرة • وقد نلتقى ذات مرة •••

ــ بالطبع لو التقينا أنا بنفسى فسادفعك الى القمرة ــ وهز رأسه •

فقلت مازحا :

ــ اتفقنا •

أجاب بعد ان تهللت أساريره :

ــ على عهدتى يا اغاى •

ــ ولكن لماذا لم تحملنى معك آنذاك ؟

ــ لماذا ؟ ــ ردد هو ولاح الاكتئاب عليه فى الحال • صمت مخفضا بصره منكبا على سيكارته ماصا الدخان بحرقة • وأدركت ان طرح هذا السؤال لم يكن ضروريا • وتحيرت لا أعرف كيف أصحح غلطتى • وأطفأ هو عقب السيكارة فى نفاضة السيكائر • وارتد عن نفسه بصعوبة : ــ لم يكن فى ميسورى ••• كنت أريد أن أركب ولدى ••• كان فى انتظارى •••

وسألت فى دهشة :

ــ ولدك ؟

ــ الأمر على هذا النحو ••• أفهمنى •• كيف أستطيع أن أشرح لك ؟ ــ وعاد الى التدخين ضاغطا على ما يعتمل فى نفسه من الانفعال • وفجأة نظر الى وجهى بصرامة وجد • وراح يتحدث عن نفسه •

وهكذا أسعدنى الحظ بالاستماع الى قصة سائق •

وكان أمامنا وقت طويل • فان القطار يستغرق فى سيره

الى أوش يومين تقريبا • ولم أستعجله أو أقاطعه فى الأسئلة : فمن الخير أن يقص الرجل نفسه القصة كلها بنفسه ، وان يعانيها من جديد ويغرق فى التفكير ، ويصمت مرة فى منتصف جملته • ولكن امساكى عن التدخل فى روايته اقتضانى جهودا كبيرة • ذلك لانني قد عرفت عرضا ، وبفضل مهنتى الحركة كصحفى شيئا عن شخصه وعن الناس الذين دفع القدر هذا السائق الى الالتقاء بهم • وكان بوسعى أن أكمل قصته وأشرح كثيرا من الأشياء ، ولكننى عزمت على أن أفعل ذلك بعد أن انصت الى قصته حتى النهاية • ثم رفضت هذه الفكرة وأنا أعتبر تصرفى صحيحا • فاستمعوا الى قصة أبطال القصة أنفسهم •

قصة سائق

حدث كل هذا بشكل غير متوقع على الاطلاق • حينئذ كنت قد عدت من الجيش من توى • كنت أخدم فى وحدة النقليات وأنهيت حتى ذلك الحين مدرسة السنين العشر ، وعملت سائقا أيضا • كنت يتيما نشأت فى بيت للأطفال • وقد سرح صديقى على بك جانتورين قبلى بعام واحد • وعمل فى حظيرة ريباتشيه للسيارات • فتوجهت اليه • وقد كنا نحن الاثنان نحلم دائما بأن نكون فى تيان شان أو بامير • وقد استقبلونى بقبول حسن • وعشنا فى نزل عام • بل وقد سلمت الى سيارة « زيل » جديدة تقريبا سالمة من أى بعجة ••• وينبغى القول اننى أحببت سيارتى كما أحب انسانا واعتنيت بها • كانت من مجموعة موفقة ، ولها محرك قوى • وفى الحق لم تكن تحمل دائما حمولة كاملة •

فطريق تيان شان ، كما تعرف ، هو من أعلى طرق السيارات الجبلية فى العالم : فيه مضايق وسلاسل جبلية وممرات • والمياه فى الجبال وافرة • ومع ذلك فانت بحاجة الى حمل الماء دائما معك • ولعلك لاحظت ان فى حوض اللورى عند الزاوية الأمامية سمر صايب خشبى تتدلى منه صفيحة ماء • لأن المحرك تشتد حرارته فى الطرق الحلزونية بشكل مخيف • والحمولة ليست كثيرة جدا • وفى بداية الأمر أجهدت جهدى ، وعصرت فكرى عسى ان أبتكر ما ييسر لى زيادة حمولتى • ولكن لا مجال لتغيير أى شيء • فالجبال جبال على أية حال •

كنت راضيا بعملى • وقد أعجبنى المكان • اذ كانت حظيرة السيارات على ضفة بحيرة ايسيك ـ كول ذاتها • وحين كان السواح الأجانب يأتون اليها يمكثون على ضفة البحيرة ساعات كالمشدوهين ، كنت أفخر فى قرارة نفسى قائلا : ان بحيرتنا ايسيك ـ كول بحيرة رائعة ، ولن تجدوا لها مثيلا •••

وفى الأيام الأولى كان لا يعكر صفوى الا شيء واحد • كان الفصل يفيض بدفق العمل ، فقد كان ربيعا ، والكولخوزات قد استجمعت قواها بعد دورة سبتمبر العامة • وانكبت على العمل بهمة • ولكن التكنيك لم يكن كثيرا • وأرسل قسم من سياراتنا فى الحظيرة لمساعدة الكولخوزيين• وكانوا دائما يرسلون العمال الجدد الى الكولخوز • وأرسلت أنا أيضا • ولكن ما ان بدأت العمل حتى نقلت الى العمل فى القرى • وادركت ان هذا العمل مهم ولازم ، ولكن ما أنا الا سائق على أية حال ، أشفق

على السيارة ، وأعانى من أجلها وكأنها ليست هى ، بل أنا الذى كان على أن أسير فى الحفر والتعاريج وأرتج وأخوض الوحل فى طرق الريف . فأنا لم أر مثل تلك الطرق حتى فى المنام ...

وذات مرة ذهبت الى الكولخوز أحمل قطع الأسمنت لزريبة الأبقار الجديدة . وكانت القرية على سفح جبل ، والطريق اليها يسير عبر سهب . سار كل شيء على نحو مقبول ، فقد جف الطريق ، وصارت القرية على شمرة عصا . وفجأة وقفت وغصت فى الوحل عند قنطرة عبر ساقية . فهناك كان الطريق مخددا محفورا بالعجلات من الربيع حتى ليغرق الجمل فيها ويضيع . وحاولت بجهد مستطاعى أن أخرج السيارة من الوحل فلم أفلح فى شيء . وأمسكت الأرض بالسيارة وكأنها قد لصقت بغراء . وفضلا عن ذلك لويت عجلة القيادة بانزعاج شديد الى آخر درجة . فتعطلت . واضطررت الى الانسلال تحت السيارة ... وتمددت هناك وأنا مغطى بالوحل والعرق ، ولعنت الطريق بكل اللعنات . وسمعت وقع أقدام . ومن الأسفل لم أر غير حذاء طويل من المطـاط . واقترب الحذاء وتوقف ازائى ووقف . واستبد بى الغضب . من الذى جاء بهذا ولم يعاين على . وهل أنا سيرك ؟

ـ انصرف ، ولا تزعجنى بوقوفك ـ صحت من تحت السيارة ومن طرف عينى لاحظت حاشية فستان نسائى بال ملوث

بالطين • والظاهر انها عجوز تنتظر فراغى لتسألنى ان أقلها معى الى القرية •

فقلت ثانية :

ـ اذهبى يا جدة فأنا سأظل هنا طويلا • فلا تنتظرينى •••

فأجابتنى :

ـ أنا لست جدة •

قالت ذلك فى ارتباك وربما فى ضحك •

قلت مندهشا :

ـ ومن أنت ؟

ـ فتاة •

ـ فتاة ؟ ـ ونظرت الى الحـذاء الطويل بطرف عينى وسألت فى شيطنة ـ وجميلة ؟

وراوح الحذاء فى مكانه ، وخطا جانبا وتهيأ للانصراف • واذ ذاك انسللت بسرعة من تحت السيارة • ونظرت ورأيت فى الواقع فتاة هيفاء لها حاجبان مقطبان صـــارمان تعتمر بمنديل أحمر ، وتلبس سترة ، هى فى الظاهر سترة أبيها تسترخى على الكتفين • كانت تنظر الى صامتة • ونسيت أنا استلقائى على الأرض ، وانى ملطخ كليا بالقذر والطين •

ـ لا بأس ! جميلة ـ قلت مكشرا • وكانت فى الحق جميلة وأردفت مازحا ـ لا ينقصك غير الحذاء ذى الكعب العالى ـ ونهضت من الأرض •

الا ان الفتاة استدارت فجأة بقوة ، ومضت فى سبيلها بسرعة دون أن تلتفت •

ماذا بها ؟ هل تكدرت ؟ وخرجت عن أطوارى • قلبت فى فكرى الأمر واندفعت للحاق بها، ثم عدت وجمعت أدواتى سريعا، وقفزت الى قمرة سيارتى • ورحت أنط بالسيارة مرة الى الخلف ومرة الى الأمام فى رجات • لم أفكر الا باللحاق بها • وهدر المحرك وارتجت السيارة وانحرفت جانبا ، ولكننى لم أتحرك الى الأمام خطوة واحدة • وكانت الفتاة تبتعد عنى أكثر فأكثر • وصحت دون أن أعرف على من ، حانقا على العجلات المنزلقة فى مكانها :

ــ أتركنى • أقول : اتركنى ••• أتسمع ؟

وضغطت على البنزين بكل ما أملك من قوة ، ودبت السيارة ودبت مرسلة أنينا ، وبمعجزة غريبة فلتت من السبخة • فما أشد فرحتى بذلك ! وسرت بسرعة فى الطريق ماسحا الوحل عن وجهى بمنديل ممسدا شعرى • ولحقت بالفتاة وفرملت • وبحذاقة لا أعرف مأتاها وأنا أكاد أستلقى على المقعد فتحت باب القمرة :

ــ أرجوك ــ ومددت يدى داعيا اياها الى القمرة •

ولم تتوقف الفتاة ، بل مضت فى سبيلها • آه ••• هكذا، اذن ! لم يبق أثر لشجاعتى • وتبعتها ثانية وطلبت المعذرة فى هذه المرة :

ــ لا تنزعجى ! •• لا أنوى شيئا •• اجلسى !

ولكن الفتاة لم ترد بشيء •

وحين تخطيتها وضعت السيارة عبر الطريق وقفزت من القمرة وهرعت من الجهة اليمنى وفتحت الباب ووقفت مادا يدى • وتقدمت ناظرة الى فى حذر • وكأنها تقول : وماذا تريد منى ؟ ولم أقل شيئا • ولا أعرف هل من اشفاق على أو أى شيء آخر هزت رأسها ، ودخلت القمرة فى صمت •

وسرنا •

ولم أعرف كيف أبدأ الحديث معها • ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أتعرف فيها على فتاة وأتحدث معها ، ولكن لا أعرف لم ساورنى الخوف هذه المرة • وما علة ذلك ؟ ورحت أدير عجلة القيادة وأختلس النظر اختلاسا • كانت خصلات شعر أسود ناعمة رقيقة تسترسل على جيدها • وقد تهدلت سترتها عن الكتف فكانت تمسكها بكوعها • أما هى فقد انزوت جانبا خائفة ان تمسنى • كانت عيناها تنظران بحدة ، ومع ذلك فقد بدت عذبة ذات وجه صبوح • وجبين تريد أن يقطب فلا يقطب • ونظرت فى آخر الأمر نحوى فى حذر • والتقت عيوننا • وابتسمت • ولحظتئذ عزمت على ان أكلمها :

ــ وأنت لماذا توقفت قرب السيارة ؟

أجابت الفتاة :

ــ أردت مساعدتك •

قلت باسما :

ــ مساعدتى ؟ الحق انك ساعدتنى • ولولا أنت لظللت

هناك حتى المساء ••• هل أنت تسيرين دائما فى هذا الطريق ؟

نعم • أنا أعمل فى المزرعة •

قلت مبتهجا :

ــ جميل ! ــ ولكننى عدت فاستدركت ــ الطريق جميل !

ــ وفى تلك اللحظة بالذات ارتجت السيارة متعثرة فى أخدود حتى ارتطم كتفانا وتأوهت وشعرت بالدم يصعد الى وجهى ولم أعرف أين أوجه بصرى • وضحكت هى • وحينئذ لم أضبط نفسى فقهقهت • وقلت معترفا من بين ضحكى : ــ لم أرد الذهاب الى الكولخوز • ولو كنت أعرف اننى سألتقى بمساعدة مثلك فى الطريق لما تصايحت مع مأمور السير • آه يا الياس ! ــ قلت مؤنبا نفسى • وقلت لها شارحا ــ الياس • هذا اسمى •

ــ واسمى آسيل •••

واقتربنا من القرية • وكان الطريق ممهدا أكثر • وكانت الريح تضرب على الشباك ، وتخفق فى المنديل على رأس آسيل، وتموج شعرها • ولزمنا الصمت • وشعرنا بارتياح • وقد يجد المرء نفسه فرحا منبسط النفس حين يجلس بالقرب منه ، لصق الكتف بالكتف تقريبا ، انسان كان لا يعرفه منذ ساعة فقط ، أما الآن فلا يحب الا ان يفكر به ••• وأنا لا أعرف ماذا أحست ! آسيل الا ان عينيها كانتا تبتسمان حتى وددت ان يمتد بنا الطريق طويلا حتى لا نفترق أبدا ••• ولكن السيارة كانت تسير فى شوارع القرية • وفجأة قالت آسيل فى جفلة :

ــ قف ! ••• أريد أن أنزل •

ودست على الفرملة .

ـ هل أنت تسكنين هنا ؟

ـ لا ـ لا أعرف لم بدت قلقة مضطربة ـ ولكن الأفضل أن أنزل هنا .

ـ ولم ذاك ؟ أستطيع أن أوصلك الى البيت رأسا ـ ولم أدعها تعترض وواصلت السير .

قالت آسيل في ابتهال :

ـ هنا . شكرا لك !

ـ تفضلي ـ غمغمت وأضفت في نبرة جادة أكثر منها مازحة : ـ واذا انحصرت غدا في نفس المكان مرة أخرى ، هل ستساعدينني ؟

ولم يتسن لها ان تجيب . وفتحت بوابة ، وخرجت الى الشارع امرأة مسنة للقياها . وكانت مضطربة بعض الشيء وصاحت :

ـ آسيل ! .. أين كنت . جازاك الله . اذهبي وابدلي ملابسك بسرعة . الخطاب وصلوا ـ أضافت هامسة مغطية فمها بكفها .

وارتبكت آسيل ، تركت سترتها تتهدل على كتفها ، ثم أمسكتها وتبعت أمها طائعة ، واستدارت عند البوابة . ونظرت . ولكن البوابة أغلقت في الحال . والآن فقط فطنت الى خيول مسرجة لامعة الجلود من العرق عند مربط الخيل في الشارع ، والظاهر انها جاءت من مكان بعيد . ورفعت جسمي قليلا من وراء عجلة القيادة ، ونظرت عبر الطوفة الطينية . في الفناء قرب

الموقد رأيت نساء يتحركن مسرعات ، وسماورا نحاسيا كبيرا يرسل دخانا ، ورجلين يسلخان جثة خروف تحت سقيفة . نعم انهم يولمون للخطاب حسب العرف . ولم يبق لى شيء أفعله . وكان على أن أذهب لافرغ حمولتى .

ورجعت الى حظيرة السيارات فى آخر النهار . وغسلت السيارة وسقتها الى الكراج . وانشغلت وقتا طويلا ، فقد بحثت عن عمل أفعله . ولم أفهم لم أثرت فى قلبى حادثة اليوم . رحت ألقى اللوم على نفسى طوال الطريق : « ماذا تريد ؟ .. أى مغفل أنت ؟ وما شــأنك بهـا على أية حـال ؟ أهى خطيبتك ؟ أختك ؟ انكما التقيتما مصادفة فى الطريق ، وأوصلتها الى البيت. وها أنت تعانى وكأنكما تصارحتما فى الغرام . ولعلها لا تريد أن تفكر بك . وأنت تظن أنها فى حاجة قصوى لك ؟ كلا ! .. لها خطيب شرعى . وأنت لا شيء . سائق من الطريق . مئات من أمثالك لا يتسنى لها أن تتعرف بهم ... ثم أى حق لك فى أن تتوقع شيئا : يتزاوج النـاس ، ويقيمون الزفاف لهم . فما شأنك بذلك ؟ أبصق على كل شيء ... أدر عجلة القيادة ، وهذا كل ما فى الأمر ! ... »

ولكن المصيبة أننى رغم كل محاولاتى لنسيان آسيل ، لم أستطع نسيانها .

وفرغت من كل شيء يتعلق بالسيارة . لو ذهبت الى المنزل اذ الجو فيه مرح صاخب ، وفيه غرفة للمطالعة . ولكننى لست كذلك . رغبت فى أن أخلو الى نفسى . واستلقيت على رفرف

السيارة ، واضعا يدى تحت رأسي • وكان جانتاى السائق عندنا منشغلا تحت السيارة غير بعيد عنى • وتطلع من الحفرة وحم سائلا :

ــ أيها الفارس • بم تحلم ؟

أجبت فى حنق :

ــ بالفلوس •

لم أكن أحبه • كان شحيحا من الدرجة الأولى ، ماكرا وحسودا • ولم يكن يعيش فى النزل كالآخرين ، بل عند امرأة فى بيت • ويقال انه وعدها بالزواج ، وسيكون سيد البيت على أية حال •

وانصرفت عنه • وفى الفناء ، عند الغسيل ، كان أصحابنا فى جلبة وضوضاء • صعد أحدهم الى قمرة ووجه خرطوم الماء على السواق الذين كانوا ينتظرون أدوارهم فى الغسيل • وملاءت القهقهة أرجاء الحظيرة كلها • وانطلق تيـــار قوى يدفعك من مكانك دفعا • وأرادوا انزال الرجل من القمرة • ولكنه راح يقفز فى مكانه ويطلق الماء على الظهور ، وكأنه دفقات رصاص من رشاش ، وأطاح الطاقيات • وتفرق الجميع •

وفجأة صعد التيار الى فوق ، وانعكف فى أشعة الشمس وكأنه قوس قزح • وأنظر الى حبث يرتفع التيار ، وأرى هناك كاديتشا مأمورة السير عندنا • وهذه لم تجر هربا • استطاعت أن تتصرف فى عزة وليس فى وسعك ان تعاملها • وها هى تقف ببساطة الآن هادئة وبلا وجل • وكأن مظهرها يقول : لا يمسنى،

لا يجسر على هذا ! ورفعت قدما فى حذاء طويل وكانت تشد شعرها ، وتمسك مشابك الشعر بأسنانها • وتضحك • كان الرذاذ الفضى الصغير يتساقط على رآسها • وضحك الفتيان يحرضون الفتى الموجود على سطح القمرة :

ـ صب على رأسها !

ـ صب عليها !

ـ احذرى يا كاديتشا !

ولم يجسر الفتى على أن يصب عليها الماء • واكتفى بتحريك خرطوم الماء حولها • ولو كنت فى مكانه لبللتها من رأسها الى قدميها ، ولا أخالها ستغضب على بعد هذا ، بل ستضحك ، وهذا كل شيء • وكنت ألاحظ دائما انها تعاملنى ولا كالآخرين، وتلاطفنى في شيء من غرابة الأطوار • وكانت تحب حين أغازلها ماسحا على رأسها • وكان يعجبنى منها طول جدالها معى ، وتعنيفها اياى • ولكنها كانت سريعة الاستسلام حتى ولو كنت غير مصيب • وذات مرة حملتها معى الى السينما وأوصلتها وذلك لأن بيتها كان فى طريقى الى النزل • وحين يكون لى شأن فى مأمورية السير أدخل الى غرفتها رأسا بينما لم تكن تسمح للآخرين بغير مخاطبتها عبر الشباك •

ولكن أمرها لا يهمنى الآن • فليتفاكهوا عليها •

وغرزت كاديتشا آخر مشبك • وأمرت :

ـ كفى لعبا •

وحياها الفتى الموجود على القمرة تحية عسكرية صادعا لأمرها :

ــ حاضر أيتها الرفيقة مأمورة السير ــ وأنزلوه من على القمرة ضاحكين .

وأقبلت هي علينا في الكراج . وتوقفت عند سيارة جانتاى. وبدت وكأنها تفتش عن أحد . وفي البرهة الأولى لم تلاحظنى من خلال الشبكة التي تقسم الكراج الى أقسام . وطلع جانتاى من الحفرة وقال باكرام مفرط :

ــ مرحبا يا ذات الحسن .

ــ آه . هذا جانتاى ...

ونظر الى ساقيها في ظمأ . وهزت هي كتفيها في امتعاض .

ــ بم تحملق ؟ ــ ومست ذقنه بطرف حذائها مسا خفيفا .

أظن لو ان شخصا آخر غيره مس على هذا النحو لتأذى شعوره . أما هو فقد تألق محياه ، وكأنما حظى بقبلة . وغطس في الحفرة .

وأبصرت بي كاديتشا .

ــ هل أنت مستريح بصورة طيبة يا الياس ؟

ــ وكأننى على فراش من ريش !

وضغطت وجهها على الشبكة ، وثبتت بصرها بي وقالت بصوت خافت :

ــ تعال الى مأمورية السير .

ــ حسنا .

وانصرف • ونهضت أنا وتهيأت للذهاب • وخرج جانتاى من الحفرة مرة أخرى •

وقال غامزا :

ــ امرأة من صحيح •

فأجبت مقاطعا :

ــ ولكنها ليست لك •

ظننت انه قد غضب ، وانه سيخرج ليتخاصم • ولم أكن من هواة الخصام بله لاتشاجرن مع جانتاى • وانقبضت نفسى حتى لم أعرف ماذا أفعل بها •

ومع ذلك فان جانتاى لم يتأثر •

وغمغم قائلا :

ــ لا يهم •••• سنعيش وسنرى •••

كانت مأمورية السير خالية• ما هذا؟ أين ذهبت ؟ واستدرت فاصطدم صدرى بكاديتشا • كانت واقفة مسندة ظهرها على الباب ملقية رأسها الى الخلف • ولمعت عيناها من خلال الأهداب• ولفحت أنفاسها الحارة وجهى • ولم أتمالك • وتقدمت نحوها ولكننى تراجعت فى اللحظة الثانية • فقد خيل الى أننى اخون آسيل ، رغم ما فى ذلك من غرابة •

وسألت فى عدم ارتياح :

ــ لم استدعيتنى ؟

ظلت كاديتشا تنظر الى فى صمت •

ــ ها ؟ ــ اعدت سؤالى وقد نفد صبرى •

قالت لى وفى صوتها رنة أذى :

ـ لم انت غير بشوش ، ألعلك غرمت بامرأة ؟

وارتبكت . لم تعيرنى ؟ ومن أين عرفت ؟

وفى تلك اللحظة انفتح الشباك ، وأطل رأس جانتاى . وطافت تكشيرة على وجهه .

ـ أرجوك أيتها الرفيقة مأمورة السير ـ قال بلهجة لاذعة معطيا لكاديتشا ورقة .

نظرت اليه فى غيظ . ثم قالت فى وجهى بانزعاج :

ـ ومن سيأخذ لك أمر السفر ؟ أم تنتظر دعوة خاصة ؟

ودفعتنى جانبا بيدها ، وتقدمت مسرعة الى المكتب .

ـ خذ ! ـ قدمت لى قائمة السفر .

تناولتها . كان أمر السفر الى نفس الكولخوز . وتثلج قلبى : أن أذهب الى هناك . وأنا أعرف أن آسيل ... وعلى العموم لم يرسلوننى أنا بالذات أكثر من الآخرين الى هذا الكولخوز أو ذاك ؟

واغتظت غيظا شديدا :

ـ مرة أخرى الى كولخوز ؟ مرة أخرى أحمل السماد والطابوق ؟ لا أذهب ـ وألقيت أمر السفر على المكتب ـ كفانى انزلاقا فى الوحل . وليذهب الآخرون !

ـ لا ترفع صوتك ! .. الأمر لأسبوع واحد . واذا اقتضت الحاجة زيدت المدة ـ قالت كاديتشا غاضبة .

حينذاك قلت فى هدوء :

— لا أذهب .

واستسلمت كاديتشا فجأة كعادتها دائما :

— حسنا . وسأتكلم مع الرئاسة .

وتناولت أمر السفر من المكتب .

وفكرت : « يعنى لا أذهب ، ولن أرى آسيل أبدا » وكان ذلك انكى على . فقد أدركت بوضوح اننى سأندم طوال حياتى . فليكن ما يكون . ولأذهب . خطفت أمر السفر :

— حسنا أعطينيه .

وانفجر جانتاى ضاحكا فى الشباك :

— سلم على جدتى .

لم أقل شيئا . تمنيت لو أضرب وجهه : وصفقت الباب وذهبت الى النزل .

★ ★ ★

فى اليوم التالى لم أنزع البصر عن الطريق . أين هى ؟ وهل سيلوح جسمها الأهيف كشجرة الحور . شجيرتى فى منديل أحمر ! شجيرة حور فى سهب ! ولتكن فى حذاء من مطاط ، وفى سترة أبيها . ليس هذا هو المهم ! فقد رأيت بعينى أى فتاة هى ! مست آسيل قلبى ، وأثارت روحى كلها !

سرت ملتفتا يمنة ويسرة . ولم يكن لها من أثر ووصلت الى القرية . ها هو بيتها . وفرملت . ألعلها فى البيت ؟ ولكن ، كيف أناديها وماذا أقول لها ؟ آه . لعل القدر لا يسعدنى بلقياها .

وسرت للتفريغ . ورحت أفرغ حمولتي ، والأمل يدفيء جوانحي: فقد التقى بها في طريق العودة . ولكنني لم ألتق بها في طريق العودة . فسرت الى المزرعة . ومزرعنهم قائمة في معزل بعيدة عن القرية . وسألت احدى الفتيات . فقالت انها غير موجودة ، اذ لم تخرج الى العمل . « يعنى انها لم تخرج عن قصد لتتفادى الالتقاء بي في الطريق » . قلت لنفسي وتألمت كثيرا . وعدت الى الحظيرة مكسور الخاطر .

وفي اليوم التالي سرت في الطريق أيضا . سرت يائسا من لقياها . والحق ما حاجاتها بي ، ولم أزعج الفتاة اذا كانت مخطوبة ؟ ومع ذلك فلم أصدق بأن حكايتنا ستنتهي الى هذا الحـــد . فان فتيات الريف حتى الآن يخطبن ويتزوجن دون رضاهن . فكم من مرة قرأت عن ذلك بالصحف . وما الجدوى؟ فبعد الشجار لا يبدين ممانعة ، ويرسلن الى أزواجهن قسرا ، ولا يرجعن الى وراء . وتتفتت الحياة ... مثـــل هذه الأفكار طافت في رأسي ...

كان الربيع حينئذ في ريعانه . السفوح تتنور بالخزامى . وكنت أحب تلك الزهور منذ طفولتي . ليتني أقتطف منها ما يملأ ذراعي ، وأقدمها الى آسيل !. ولكن ، حاول أن تجدها ...

وعلى حين بغتة أنظر ولا أصدق عيني . ها هي آسيل جالسة جانبا على حافة صخرة جبلية ، في نفس المكان الذي لزقت فيه سيارتي في المرة السابقة في الوحل . وكأنها تنتظر أحدا .

وتقدمت نحوها فنزلت عن الصخرة مذعورة وتحيرت ، وحسرت منديلها من رأسها ، وعصرته في يدها • وكانت آسيل في هذه المرة تلبس ثوبا حلوا وحذاء ذا كعب عال ، وكانت المسافة بعيدة• وفرملت بسيارتي سريعا • وقد صعد قلبي الى حلقومي انفعالا •

ـ مرحبا يا آسيل •

مرحبا ـ أجابت بصوت خفيض •

بسطت لها يدى أريد أن أساعدها لتصعد الى القمـــرة • الا انها استدارت وسارت في الطريق ببطء • يعنى أنها لا تريد أن تجلس معى • وجعلت سيارتي تسير ، وفتحت باب القمرة ، وسرت ببطء أيضا في حذائها • سرنا هكذا زمنا • هى على طرف الطريق ، وأنا وراء عجلة القيادة • سرنا صامتين • وعم تتحدث؟ ثم انها سألتنى :

ـ هل جئت يوم أمس الى المزرعة ؟

ـ نعم • وما في ذلك ؟

ـ مجرد سؤال • لا حاجة لأن تأتي الى هناك •

ـ أردت أن أراك •

ولم تقل شيئا •

كانت تلك الخطبة الملعونة تلح على فـــكرى • أريد أن أعرف ماذا تم وكيف • أردت أن أسأل الا ان لساني لم يطاوعني• تملكني الخوف • الخوف من جوابها •

حدجتني آسيل بنظرة •

ـ أصحيح هذا ؟

وهزت رأسها موافقة • راحت عجلة القيادة تهتز بين يدى •
سألت :

ـ متى يتم الزفاف ؟

ـ قريبا ـ أجابت بصوت غير عال •

وكدت أنطلق بالسيارة الى حيث لا أعرف • وبدلا من أن أدوس على عتلة السرعة دست على دواسة التعشيق • فهدر المحرك بدورات فارغة ، وتنحت آسيل جانبا • وحتى لم أعتذر • فلم يخطر ببالى ذلك •

قلت :

ـ يعنى أننا لن نتلاقى مرة أخرى ؟

ـ لا أعرف • الأفضل ان لا نلتقى •

ـ أما أنا فسأفتش عنك رغم كل شىء !

ومرة أخرى صمتنا • ولعلنا كنا نفكر بشىء واحد • وكأن بيننا جدار يعيقنى عن التقدم منها ، ويعيقها من الجلوس فى قمرتى •

قلت :

ـ يا آسيل لا تنفرى منى • فلن أعيقك عن شىء • سأنظر اليك من بعيد • أتعديننى ؟

ـ لا أعرف • ربما •••

ـ تعالى وأجلسى يا آسيل •

ـ لا • اذهب • القرية أصبحت قريبة •

وبعد هذا اللقاء كنا نلتقى فى الطريق وكأن ذلك عرضا •

وفى كل مرة كانت هى تسير على الرصيف ، وأنا جالس فى قمرتى . شىء موجع ! ولكن ما العمل ؟

ولم أسأل عن خطيبها . لم يكن باللائق . وأنا نفسى لم أرد . ولكنها كانت ، حسب كلامها ، قليلة المعرفة به . كان أحد أقاربها من أمها ، يعيش فى مخشبة بعيدة فى الجبال . وكانت عائلاتهم تتبادل الفتيات اذا صح هذا التعبير ــ منذ زمن بعيد ، وتحافظ على ذريتها فيما بينها خلفا عن سلف . ولم يألف أبو آسيل فكرة تزويجها لأحد من غير هذه العائلة . ولم يكن فى الامكان الحديث عنى . فمن أنا ؟ ومن أين جاء هذا السائق المجهول الأهل . أنا نفسى لم أجرأ على التلميح .

وكانت آسيل فى تلك الأيام صمــوتا . وكان لها دائما ما تفكر به . ولم أطمح أنا فى شىء . فان مصيرها قد تقرر ، ولقاؤنا لا يجدى نفعا . ومع ذلك فقد كنا كالأطفال نحاول أن نصمت عن ذلك . وكنا نلتقى لأننا لا نستطيع الا أن نلتقى . وقد بدأ لكلينا أن أحدنا لا يقدر على أن يعيش بدون الآخر .

وهكذا انقضت خمسة أيام أو نحوها . وفى ذلك الصباح كنت فى الكراج أستعد لرحلتى . وفجأة استدعيت الى مأمورية السير .

يمكن أن تفرح ــ واجهتنى بذلك كاديتشا متهللة ــ فقد نقلوك الى خط سينتزيان .

وصعقت . فى الأيام الأخيرة خيل الى اننى سأظل الى الأبد أغدو وأروح الى الكولخوز . والطريق الى الصين يستغرق أياما

عديدة • ومن يدرى متى سأعود الى آسيل ؟ كيف أغيب فجأة حتى قبل أن أبلغها أمر غيابى ؟

ولاحظت كاديتشا :

ـ ولكنك تبدو غير فرح ؟

فسألت بادى القلق :

ـ وماذا عن الكولخوز ؟ •• فالعمل فيه لم ينته بعد •

هزت كاديتشا كتفيها فى دهشة :

ـ ولكنك كنت من قبل غير راض •

قلت محتدا :

ـ ما أكثر ما كان من قبل !

وجلست على كرسى ، وظللت فى جلستى لا أعرف ماذا أفعل •

وجاء جانتاى• وتبين أنهم عهدوا اليه بمهمتى فى الكولخوز• أرهفت سمعى • ان جانتاى سيرفض فى أغلب الظن ، فمردود العمل فى الطرق الريفية أقل • ولكنه تنـاول أمر السفر وقال أيضـا :

أرسلينى يا كاديتشا الى حيث تريدين ، حتى ولو الى آخر الدنيا • فى هذه الأيام بالذات نمت الأغنام فى القرية ، ولربما جلبت لك خروفا منها ؟

ثم رآنى •

ـ اعذرنى • يبدو أننى عائق •

ـ اخرج من هنا ـ همست له بحنق دون أن أرفع رأسى •

حطت كاديتشا يدها على كتفى وقالت :
ـ ولم الجلوس هنا يا الياس ؟
سألتها :
ـ على أن أذهب الى الكولخوز • فابعثينى الى هنـاك يا كاديتشا •
ـ أذهب عقلك ؟ لا أستطيع اذ لا يوجد أمر بالسفر ـ قالت محدقة بوجهى فى قلق ـ لم راق لك الذهاب الى هناك ؟
لم أجب بشىء • وخرجت صامتا واتجهت الى الكراج • ومر بى جانتاى فى سيارته ، يغمز فى خبث • وكاد يصدمنى بالرفرف •
انشغلت كثيرا ، وتباطأت • ولكن لم أعثر على منفذ • وذهبت الى محطة الشحن • وكانت السيارات المنتظرة أمامى غير كثيرة •
دعانى رفاقى الى التدخين • ولكننى لم أترك قمرتى • أغمضت عينى ورحت أتصور آسيل تنتظرنى على الطريق عبثا • ستنتظر يوما ويومين وثلاثة ••• وماذا ستظن بى ؟
واقترب دورى • وأخذوا يشحنون السيارة التى سبقتنى• وبعد دقيقة أصبحت سيارتى تحت الرافعة • وقلت فى نفسى : « اعذرينى يا آسيل • اعذرينى يا شجيرتى فى السهب ! » وفجأة خطرت فى فكرى خاطرة : « أستطيع أن أبلغها ذلك وأرجع • ليست مصيبة كبيرة أن أتأخر فى رحلتى عدة ساعات • وفيما بعد أشرح الأمر لمدير الحظيرة • فقد يفهم مرادى • واذا لا يفهم

فليقرعنى • ويصدر توبيخا ••• ولكن ، لا أستطيع !•• ذاهب !»

وشغلت المحرك لأرجع الى الوراء • ولكن السيارات كانت تقف ورائى تماما • وغادرت السيارة التى كان يجرى تحميلها أمامى • وجاء دورى •

قال عامل الرافعة :

ـ هيا يا اليـاس •

ودلت الرافعة خرطومها فوقى • انتهى كل شىء ! فلا خلاص والسيارة محملة ببضائع تصدير • لم لم أفكر بذلك من قبل ؟ أقبل الموظف ، ومعه الوثائق • ونظرت من شباك الخلف : فى الحوض كان ينزل صهريج متأرجح • يقترب ويقترب •

وفى هذه اللحظة هتفت :

ـ انتبه !

واندفعت السيارة من مكانها تحت الصهريج • فأنا لم أطفىء المحرك • وتعالى الصياح ورائى والصفير والسباب •

سقت السـيارة عبر عنابر البضـائع وأكداس الصفائح الخشبية وأكوام الفحم • وكأننى تسمرت بعجلة القيادة ومرت الأرض خطفا • وتمايلت أنا والسيارة من جانب الى آخـر • ولكننا اعتدنا على ذلك •••

سرعان ما لحقت بجانتاى • فأطل من قمرته واتسعت عيناه دهشة : عرفنى • وكان عليه حين رآنى مسرعا أن يفسح لى الطريق • ولكنه لم يفعـل • يعنى لا يريد أن أمر • وأدرت

السيارة نحو الرصيف وشرعت أسابقه فى الحقل • وزاد جانتاى من سرعته أيضا وسد على الطريق • وعلى هذا النحو تسـابقنا : هو فى الطريق ، وأنا فى الحقل • وتبادلنا النظر الشزر ، ونحن منحنيان نحو عجلة القيادة ، وتشاتمنا •

صاح بى :

ـ الى أين ؟ ••• ولم ؟

هددته بقبضة يدى • كانت سيارتى فارغة تماما فسبقته ومضيت •

لم ألتق بآسيل • وصلت الى القرية لاهثا وكأننى بلغتها عدوا • وكادت أنفاسى تتقطع • لم أر أحدا فى فناء دارهم ولا فى الشارع ، سوى فرس مسرج يقف عند مربط الخيل • فما العمل؟ وقررت الانتظار قائلا لنفسى : ستـرى السـيارة وتخرج الى الشارع • وحشرت رأسى فى المحرك وكأننى أصلح شيئا فيه ، وأنظر خلسة الى البوابة • ولم يطل انتظارى : فتحت البوابة وخرجت أمها ورجل عجوز أسود اللحية ممتلىء يرتدى روبين قطنيين : روبا فى الأسفل من المخمل الرخيص ، وروبا فوقه من المخمل القطنى • وفى يده سوط جيد • كان محمصا أحمر يبدو وكأنه قد فرغ من شرب الشاى لساعته • وتقدما الى مربط الخيل • وأمسكت أم آسيل بالركاب فى احترام ، وأعانت العجوز على امتطاء السرج • وقالت :

ـ نحن راضون عنكم يا نسيب • فلا تقلقوا عنا • لن نبخل بشىء لابنتى • أيدينا والحمد لله ليست فارغة ـ

ــ نعم يا بايبيجه * لن نكون فى عسر ــ أجاب وهو يحاول أن يجلس على السرج على نحو أفضل ــ وليعط الله العروسين عافية • أما عن سقط المتاع فهو لأولادنا لا للغرباء وليست هذه هى المرة الأولى التى نتصاهر فيها • معك العافية يا بايبيجه • اتفقنا على يوم الجمعة اذن •

ــ يوم الجمعة • يوم القرآن • صحبتك السلامة • تحياتى لزوجتك •

قلت فى نفسى : « ماذا يقولان عن يوم الجمعة ؟ وأى يوم اليوم ؟ الأربعاء • أحقا سيختطفونها يوم الجمعة ؟ آه ••• متى توضع لهذا الأمر نهـاية والعادات القديمة تحطم حياتنا نحن الشباب ! ••• »

وأخذ العجوز يخب باتجاه الجبل • وانتظرت أم آسيل حتى ابتعد ثم التفتت نحوى ، وألقت نظرة غير ودية وقالت :

ــ ما الذى جعلك تكثر التردد الى هنا أيها الشاب ؟ ••• ليس هذا فندقا لك • ولا حاجة للوقوف • اذهب • أتسمع ؟•• أنا أخاطبك •

يعنى انها تنبهت لى •

ــ حصل عطب ــ غمغمت فى عناد ، وحشرت نفسى حتى خاصرتى تحت غطاء المحرك • لا ، لن أذهب حتى أراها •

ودمدمت الأم بشىء ثم انصرفت •

وخرجت وجلست على مرقاة السيارة أدخن • وأقبلت صبية

---

* بايبيجه • لقب تنادى به المرأة للاحترام •

صغيرة ، وراحت تحجل برجل واحدة حول السيارة • وكان لها شبه قليل بآسيل • فهل هى أختها ؟

ـ ذهبت آسيل ـ قالت وهى تنط •

ـ الى أين ؟ وأمسكتها ـ الى أين ذهبت ؟

ـ وكيف أعـرف ! اتركنى ـ وفلتت ، وأخرجت لسانها مودعة ••

أنزلت الغطاء ، وجلست وراء عجلة القيادة • الى أين أذهب وأين أبحث عنها ؟ وقد آن لى أن أعود وسرت فى الطريق ببطء•• وخرجت الى السـهب ووقفت عند قنطرة على جدول • ولم يسعفنى فكرى بماذا أفعل • وخرجت من القمرة وتهاويت على الأرض مضنى • حالتى النفسية رديئة • لا آسيل وجدتها ولا قمت برحلة ••• وغرقت فى تفكير • أنا لا أرى ولا أسمع شيئا فى هذا العالم • لست أعرف كم بقيت راقدا هكذا • الا أننى رفعت رأسى ونظرت : فى الجانب الآخر من السيارة رأيت قدمين لفتاة فى حذاء ذى كعب عال • هى ! عرفتها فى الحال • وشعت فى نفسى الفرحة حتى راح قلبى يخفق • نهضت على ركبتى • الا اننى لم أقو على القيام • مرة أخرى حدث هذا فى المكان الذى التقينا فيه لأول مرة •

قلت لصاحبة القدمين المحتذيتين :

ـ اذهبى يا جدة •

فأمسكت آسيل بخيط اللعبة :

ـ لست جدة •

ــ ومن أنت اذن ؟

ــ فتاة ٠

ــ فتاة ؟ وجميلة ؟

ــ أنظر تر ٠

وضحكنا سوية ٠ وقفزت ٠ وارتميت نحوها وهرعت هى للقياى ٠ ووقف أحدنا حيال الآخر ٠

ــ أجمل فتاة ــ قلت ، وهى مثل شجرة حور صغيرة تميس فى النسيم ٠ وترتدى فستانا ذا ردنين قصـــيرين وتحت أبطها كتابان وقلت ــ من أين عرفت اننى هنا ؟

ــ خرجت من المكتبة ٠ فرأيت فى الطريق آثار عجلات سيارتك ٠

ــ صحيح ؟ ــ وكان ذلك عندى أهم من كلمة «أحبك» ٠ يعنى أنها فكرت بى ، واننى عزيز عليها ما دامت قد بحثت عن آثار سيارتى ٠

ــ جئت هارعة الى هنـــا ، وكأن قلبى يعلمنى أنك فى انتظارى ٠

وأمسكت يدها ٠

ــ اصعدى يا آسيل ، ولنسر بالسيارة قليلا ٠

وقبلت فى رضى ٠ لم أعرفها ، ولم أعرف نفسى ٠ وكأن يدا مسحت كل المخـــاوف والأشجان ٠ ولم يبق الا نحن ، الا سعادتنا والسماء والطريق ٠ وفتحت باب القمرة ، وأجلستها، وجلست وراء عجلة القيادة ٠

وسرنا فى الطريق دون غاية . لا نعرف الى أين ولم . ولكن هذا لم يكن مهما بالنسبة لنا . يكفينا أن نجلس جنبا الى جنب، وتلتقى نظراتنا وتتلامس أيدينا . وأصلحت آسيل وضع سدارتى العسكرية (وكنت ألبسها منذ سنتين) .

ـ هكذا أجمل ـ قالت ذلك واتكأت بلطف على كتفى...

وسارت السيارة فى السهب تسابق الطيور . والعالم كله قد تحرك . وكل شىء خف للقائنا : الجبال والحقول والأشجار... وكانت الريح تهب على وجوهنا ، فقد كنا ننطلق الى الأمام ، والشمس تسطع فى سمائها . وضحكنا ، وحمل الينا الهواء رائحة الشيح والخزامى . واستنشقنا ملء صدرينا ...

ونهضت حدأة كانت جالسة على أنقاض كونبز* قديم ، ورفرفت بجناحيها وطارت على طول الطريق بانخفاض ، وكأنها فى سباق معنا .

ونفر فارسان عن الطريق فى جفلة . ثم تعقبانا صائحين صياحا وحشيا .

ـ أى ! .. قف ! ـ وساطا الحصانين المندفعين بسرعة كبيرة . فمن هما ؟ لست أدرى . لعل آسـيل قد عرفتهما . وسرعان ما غيبتهما سحائب الغبار .

والى الأمام تحولت عربة عن الطريق ، ورفع شاب وفتاة قامتيهما ، ورأيانا ، وألقى أحدهما ذراعه على كتف الآخر ، ولوحا فى تحية . فهتفت لهما من قمرتى .

---

* كونبز : نصب فوق القبر .

ـ شكرا !

وانتهى السهب ، وخرجنا الى الطريق المعبد ، وراح أسفلت الطريق ينطوى تحت العجلات •

كانت البحيرة على مقربة منا • وتحولت عن الطريق بحدة، وسرت فى أرض عذراء عبر أحراش وأعشاب الى الشاطىء • ووقفت على تل ، حذاء الماء تماما •

كانت الأمواج البيضاء المزرقة تنساب الى الشاطىء الأصفر فى تتابع وكأن بعضها مشدود ببعض • وتوارت الشمس وراء الجبال ، ولاح سطح الماء فى المدى البعيد ورديا • وفى المدى القصى ، فى الجانب الآخر لاح خط ليلقى من الجبال المغطاة بالثلج • وتجمعت الغيوم الرمادية فوق رأسينا •

ـ أنظرى يا آسيل • ها هو البجع !

والبجع لا يوجد فى بحيرة ايسيك ـ كول الا فى الخريف والشتاء • ونادرا ما يظهر فى الربيع • ويقال ان هذا البجع الجنوبى يطير نحو الشمال ، وأن ذلك طالع ميمون •••

طار سرب من البجع الأبيض فوق البحيرة المسائية • والطيور مصعدة فى السماء أو مسفة على وجه الماء ناشرة أجنحتها ، حاطة على الماء ، مطرطشة فى صخب ، محدثة دورات الزبد الفائرة ، وطائرة مرة أخرى • ثم اصطفت فى صف وطارت تخفق بأجنحتها فى وقت واحد نحو المنحدر الرملى للخليج للمبيت •

جلسنا فى القمرة ننظر صامتين • ثم قلت وكأننا قد قررنا كل شىء :

ـ أنظرى الى تلك السقوف على الشاطئ • هذه حظيرتنا وهذا ـ وأدرت يدى فى القمرة ـ هذا بيتنا ـ وضحكت • ولم يكن لى مكان أذهب بها اليه •

نظرت آسيل فى عينى ، وارتمت على صدرى وحضنتنى ، وراحت تضحك وتبكى :

ـ يا عزيزى ، يا حبيبى ! لا حاجة بى الى أى بيت • فقط لو يفهمنى أبى وأمى • ولو فى المستقبل • سيتكدران طوال حياتهما • أنا أعرف ذلك ••• ولكن هل أنا مذنبة •••

وسرعان ما عتم الجو • وغطت الغيوم وجه السماء منحدرة بانخفاض نحو الماء • وسكنت البحيرة وأظلمت • وكأن لحاما كهربائيا ومض فى الجبال : يتوهج تارة حتى ليبهر البصر ، ويخفت أخرى ، وينطفئ • ودنت عاصفة رعدية • فلا غرو ان وصل البجع الى هنا • وأحس أن رداءة الجو سيباغته وهو فوق الجبال •

وهدر الرعد • وهطل المطر فى ضجة وقرقعة • وعلت دمدمة وماجت البحيرة وتلاطمت الأمواج على الشاطئ • وكانت هذه أول عاصفة رعدية فى الربيع ، وكانت تلك أول ليلة لنا • وجرت على القمرة وزجاجتها خطوط الماء• وتهاوت على البحيرة السوداء الواسعة الأرجاء ومضـات برق لامع • والتصـق أحدنا بالآخر نتحدث همسا • وشعرت بان آسيل ترتجف رعبـا أو بردا • وغطيتها بسترتى • واحتضنتها بقوة أشد ، وبذلك بدوت قويا كبيرا • ولم أعرف قط أن فى حناياى مثل هذه الرقة ، ولم أعرف

أية لذة فى أن أحمى مخلوقا وأرعاه . وهمست بأذنها : « لن أسمح لأحد من الناس أبدا ان يكدرك يا شجيرتى فى منديل أحمـــر ... »

وانتهت العاصفة الرعدية بالسرعة التى بدأت فيها . الا ان الأمواج ظلت تتلاطم فى البحيرة الجياشة . وهطل مطر خفيف .

وأخرجت جهاز راديو صغيرا سفريا ، وكان ملكيتى الثمينة الوحيدة حينئذ . والتقط احدى الموجات . وحتى الآن أذكر انهم كانوا ينقلون باليه « جولبون » من مسرح المدينة . ومن وراء الجبال ، ومن وراء سلاسلها تدفقت الى القمرة موسيقى عذبة وقوية كالحب التى تتحدث عنه هـــذه البـــاليه . وتعالى التصفيق فى الصالة ، وهتف الناس بأسماء الممثلين ، ولربما ألقوا الزهور على أقدام الراقصين والراقصات ، ولكن ما من أحد من المتفرجين ــ كما أظن ــ أحس بالغبطة والتأثر اللذين أحسسنا بهما فى القمرة على شاطىء بحيرة ايسيك ــ كول الغاضبة . لقد كانت الباليه تتحدث عنا ، عن غرامنا . وقد انفعلنا عميقا بمصير الفتاة جولبون التى خرجت لتبحث عن سعادتها . وكانت « جولبونى » ، نجمة صباحى معى . وفى منتصف الليل غفت على كتفى . ولبثت وقتا طويلا دون أن يهدأ روعى ، امسح فى لطف على وجهها ، واصغى الى أعماق ايســيك ــ كول كيف تزفـــر ...

فى الصباح جئنا الى الحظيرة . ونلت تقريعا مناسبا . ولكن، حين عرفوا سبب سلوكى ، عفوا عنى وبعد ذلك ضحكوا طويلا

متذكرين كيف هربت من تحت رافعة الشحن .

وكان على أن أخرج فى رحلة الى الصين . وحملت آسيل معى . وأزمعت تركها فى طريقى عند صديقى على بك جانتورين، وكان يعيش مع عائلته فى قاعدة الممر على مقربة من نارين ، غير بعيد عن الحدود . وكنت دائم الزيادة له أثناء رحلاتى . وزوجة على بك سيدة طيبة احترمها .

وانطلقنا . وأول ما فعلناه اشترينا بعض الملابس لآسيل من مخزن فى الطريق . فلم يكن عليها غير الثوب الذى تلبسه ، واشترينا فضلا عن الأشياء الأخرى شالا كبيرا زاهيا . وكان ذلك مناسبا جدا . وفى الطريق التقينا بسائق كهل هو الشيخ أورمات ــ أكه . وقد أومأ لى من بعيد أن أقف . فرمات وخرجنا من قمرتينا . وتبادلنا التحية :

ــ السلام عليكم يا أورمات ــ آكه .

ــ عليكم السلام يا الياس . أمن البازى الذى أمسكته يداك ــ هنأنى حسب العادة ــ وبالرفاه والبنين .

ــ شكرا ! ومن أين عرفت يا أورمات ــ أكه ؟ ــ سألته مستغربا .

ــ الخبر الطيب ياولدى لا يظل فى مكان واحد . ينتقل فى الخط كله من شفة الى شفة ...

قلت وقد زاد استغرابى :

ــ هكذا اذن !

وقفنا فى الطريق نتبادل الحديث . ولكن أورمات ــ أكه لم

يتقدم نحو السيارة ، ولم ينظر الى آسيل • واللطيف أن آسيل أدركت الأمر فأنزلت المنديل على رأسها ، وغطت وجهها • فابتسم أورمات ــ أكه فى ارتياح وقال :

ــ والآن كل شىء على ما يرام • شـــكرا يا بنيتى على الاحترام • أنت نسيبتنا منذ الآن ، نسيبة جميع الشيوخ فى الحظيرة • خذ هذه الفلوس يا اليــاس للخطبة ــ لقد أعطانى الفلوس ولم أستطع الرفض لئلا يتأذى •

وافترقنا • لم ترفع آسيل المنديل عن رأسها • جلست فى القمرة وكأنها فى بيت قرغيزى حقيقى تغطى وجهها خفرا عند الالتقاء بالســواق الذين أعرفهم • وحين نخلو الى أنفســنا نضحك •

وتبدت آسيل لى فى المنديل أكثر جمالا •

قلت لها :

ــ يا خطيبتى ، ارفعى عينيك وهاتى قبلة !

ــ لا يمكن ، فالناس يرون ــ أجابت هى • وبنفس الضحكة قبلتنى من خدى قبلة كأنما اختلستها اختلاسا •

وأوقفنا جميع سواق الحظيرة حين التقوا بنا ، متمنين لنا السعادة • وكثيرون منهم لم يكتفوا بتقديم الزهور التى جمعوها فى الطريق بل والهــدايا أيضا • ولا أعرف من عنت له تلك الفكرة • أصحابنا الروس هم الذين فكروا بذلك • فقد اعتادوا فى قراهم أن يزينوا السيارة فى الزفاف • وهكذا تزينت سيارتنا بشرائط حمر وزرق وخضر ، ومناديل حرير ، وباقات زهور •

وتألقت سـيارتنا وصـارت ترى ــ ربما ــ على بعد عشرات الكيلومترات • وكنت وآسيل سعيدين • وشعرت بالفخر من أصدقائى • والناس يقولون : عند الشدائد يعرف الأصدقاء ، وفى رأيى عند الأفراح أيضا •

وفى الطريق التقينا أيضا بعلى بك جانتورين أقرب أصدقائى الى ، وأكبر منى سنا بحوالى عامين • وهو رجل متين البنيان كبير الرأس حكيم جدى وسائق ممتاز • وهو محترم جدا فى الحظيرة • أنتخب الى لجنـة النقـابة • وفكرت : ماذا عساه سيقول ؟

نظر على بك الى سيارتنا صامتا هازا رأسه ، وتقدم نحو آسيل وسلم عليها مصافحا وزف التهنئة • وقال :

ــ هات ورقة السفر •

اندهشت وقدمت له ورقة السفر صامتا • وأخرج على بك قلم الحبر وكتب على طول الورقة فى خط كبير « رحلة الزفاف رقم ١٦٧ » • والرقم هو رقم الورقة •

قلت فى ارتباك وحيرة :

ــ ماذا تفعل ؟ هذه ورقة رسمية •

قال متضاحكا :

ــ تحفظ للتاريخ • أتحسب ان دائرة الحسابات لا يجلس فيهـا آدميـون ؟ والآن هات يدك ــ وعانقنى بقوة وقبلنى وتضاحكنا • ثم سار كل منا نحو سيارته • الا ان على بك استوقفنى قائلا : ــ وأين ستعيشان ؟

بسطت يدى وأشرت الى السيارة :

ــ هذا بيتنا •

ــ فى القمرة ؟ والأولاد هل ستربيانهم هنا ؟ هذا ما أقول لك : أقم فى شقتنا فى محطة الممر • وسأتحدث مع مدير الحظيرة وننتقل نحن الى بيتنا •

ــ ولكن بيتك لم يكمل بعــد ؟ ــ وكان يبنى بيته فى ريباتشيه غير بعيد عن حظيرة السيارات • وفى أوقات فراغى كنت أذهب لمساعدته •

ــ لا بأس ! •• لم يبق الا الطفيف من العمل • ولا تأمل بمساحة أكبر • أنت نفسك تعرف ان المساكن ما زالت قليلة •

ــ شكرا • لا حاجة بنا الى أكثر من ذلك • كنت أريد أن تقيم آسيل عندك ردحا • وأنت تعطبنا شقتك •••

ــ على العموم أقيمــا عندنا • وانتظرنى عند رجوعك • وسنقرر كل شىء مع زوجتينا • ــ وغمز مشيرا بعينيه الى آسيل •

ــ نعم ، الآن مع الزوجتين •

ــ رحلة زفافية ميمونة ــ صاح على بك فى أثرنا •

يا للشيطان ! لقد كانت بالفعل رحلة زفافنا • واية رحلة !

وكنا مسرورين لأن كل شىء قد دبر على نحو طيب • ولم يعكر مزاجى قليلا غير لقاء واحد •

فى أحد المنعطفات خرجت الى الجادة سيارة جانتاى • ولم يكن جانتاى وحده • كانت كاديتشا جالسة فى القمرة • ولوح

جانتاى بيده لى ، وفرملت بقوة • ووقفت السيارتان تكاد احداهما تمس جانب الأخرى • وأطل جانتاى من الشباك :

ــ لم هذه الزركشة وكأنك فى زفاف ؟

أجبت :

ــ هذا بالفعل •

ــ أحقا ؟ ــ مط كلامه غير مصدق ونظر الى كاديتشا ــ ونحن نبحث عنك ! ــ هتف هذا بغتة • بقيت كاديتشا جامدة فى جلستها ممتقعة الوجه ، بادية الحيرة •

قلت لها فى ود:

ــ مرحبا يا كاديتشا ــ فهزت رأسها صامتة •

حينذاك فقط فطن جانتاى قائلا :

ــ يعنى هذه خطيبتك معك ؟

ــ لا ، زوجتى ــ قلت معترضا وطوقت كتف آسيل •

ــ هكذا اذن ؟ ــ وبحلق جانتاى بعينيه فى دهشة وهو لا يدرى أيبدى فرحه أم لا ــ اذن اهنؤك • من صميم قلبى أهنؤك •

ــ شكرا •

وكشر جانتاى :

ــ يا لك من محتال ! •• نتشتها من غير مهر ؟

قلت له شاتما :

ــ يا أحمق ! •• ابعد سيارتك •

والناس أشكال • أردت أن أشتمه أشد الشتم • نظرت

الى خارج القمرة فرأيت جانتاى واقفا عند السيارة يفرك خده ، ويصيح بشيء ويهز على كاديتشا قبضته • وظلت تعدو حتى وقعت بقوة على الأرض ، وغطت رأسها بيديها • ولا أدرى ماذا حصل بينهما • ولكننى آسفت عليها ، وأحسست وكأننى ملوم فى شيء • ولم أقل لآسيل شيئا •

بعد أسبوع نزلنا فى بيت صغير عند محطة الممر فيه دهليز وحجرتان • وكان هناك عدد قليل من هذه البيوت يعيش فيها السواق من ذوى العوائل والعمال من محطة البنزين • الا ان المكان لطيف على مقربة من الطريق • ونارين غير بعيدة ، وهى على أية حال مركز المنطقة ، والمرء يستطيع فيها أن يذهب الى السينما ، ويتردد على المخازن كما أن فيها مستشفى • وأعجبنا أيضا ان محطة الممر قائمة وسط الطريق • وكانت سفراتنا فى الغالب بين ريباتشيه وسينتزيان • وفى الامكان أن استريح فى البيت قليلا فى طريق سفرى وان أبيت فيه • وكنت ألتقى بآسيل كل يوم تقريبا • واذا تأخرت فى طريقى فلا يهم • كنت أعود الى البيت فى أى وقت حتى فى منتصف الليل • وكانت آسيل دائما بانتظارى • تظل قلقة لا يغفو لها جفن حتى أعوده وأخذنا نشترى بعض اللوازم البيتية • وبكلمة واحدة انتظمت حياتنا شيئا فشيئا • وقررنا أن تبدأ آسيل بالعمل أيضا •• أصرت هى نفسها على ذلك • فقد نشأت فى القرية على حب العمل • الا انه ظهر انها ستكون أما • وكان ذلك لنا فرحا مباغتا •

... فى اليوم الذى وضعت فيه آسيل عدت من سفرتى الى الصين . جئت مسرعا قلقا ، لأن آسيل فى دار الولادة فى نارين. وحين وصلت كان لى ابن ! بالطبع لم يسمحوا لى بمقابلتها . فجلست فى سيارتى وانطلقت فى الجبال . كان الفصل شتاء . والثلج والأحجـــار فى كل مكان . توامض فى عينى الأبيض والأسود ... وصعدت الى قنة ممر دولون ، على علو شاهق . كانت السحب تمسح وجه الأرض . ولكن الجبال فى الأسفل تلوح كالأقزام . وخرجت من القمرة واستنشقت الهواء الطلق بملء رئتى ، وصحت للعالم كله :

ــ ايه ، أيتها الجبال ! لقد رزقت بولد !

وبدا لى كأن الجبال تهتز . رددت كلماتى . وظل الصدى وقتا طويلا متدحرجا من فج الى فج .

وسمينا ولدنا « سامات » . وأنا الذى أطلقت عليه هذا الاسم . كان كل أحاديثنا تدور حوله : سامات . ابننا سامات . سامات يبتسم ، سامات تنمو له أسنان . وعلى العموم شأن كل زوجين شابين .

عشـــنا فى مودة ، واغرم أحدنا بالآخر . ثم وقعت لى مصـــيبة ...

* * *

من الصعب أن أعرف من أين جاء النحس . تعقد كل شىء وتشـــابك ... الحقيقة اننى الآن قد فهمت الكثير . ولـــكن ما الفـــائدة ؟

افترقت عن هذا الشخص الذى قابلته فى الطريق مصادفة وأنا لا أدرى ان لقائنا هذا لن يكون اللقاء الأخير •

فى أواخر الخريف خرجت فى رحلة • كان الطقس مضجرا، والسماء تسح شيئا لا هو بالمطر ولا بالثلج ، شيئا بليلا صغيرا، والضباب تلبد على منحدرات الجبال متمطيا كالجلاتين • وطوال الطريق تقريبا كان عقربا تنظيف الزجاجة يعملان ، فقد كانت تتضبب • وتوغلت فى الجبال الى مشارف ممر دولون ، نعم دولون • وهو طود جبار فى تيان شان • كم أنا مشدود اليه!•• انه أصعب وأخطر قطاع فى الخط • الطريق يتلوى كالحلزون، شربكة فى شربكة ، ويرقى صعدا ، وينفذ الى السماء ، فتدوس السحب تحت عجلات سيارتك تارة ، وتضغطك على المقعد فلا تستطيع أن تستلقى تارة أخرى • وتارة تتهاوى الى الأسفل بقوة وتستند على يديك لكى ترتفع عن عجلة القيادة • والطقس فى الممر مثل جمل خبيث : لا فرق بين شتاء وصيف ، برفة عين يتغير دولون فيسح وابل أو يصب هاطل ، أو عاصمة ثلجية لايرى فيها شيئا • تلك هى أطوار ممرنا دولون ! •• ولكننا ، نحن سكان تيان شان قد ألفناه ، وليس من النادر أن نعبره ليلا ••• أنا الآن أتذكر كل المصاعب والمخاطر ، ولكن حين كنت أعمل هناك ، من يوم الى آخر ، لا يحدث أن أفكر خصيصا بذلك •

وهكذا لحقت بسيارة شحن فى مضيق بالقرب من دولون• أذكر تماما أنها كانت من نوع « غاز ــ ٥١ » • وبالأحرى اننى

لم ألحق بها بل كانت واقفة هناك . وكان ثمة شخصان منكبين على المحرك . وقد خرج أحدهما على مهل الى عرض الطريق ، ورفع يده . وفرملت . اقترب منى رجل يلبس مشمعا مبللا من الخيش . تدلت قلنوسته عليه . وكان فى نحو الأربعين من العمر له شاربان أشهبان عسكريان كالفرشاة ، ووجه عبوس ، وعينان تنظران فى هدوء .

وقال لى :

ـ احملنى يا فارس الى نقطة طريق دولون . أريد أن أجلب تراكتورا فقد تعطل المحرك .

ـ اجلس وسأوصلك . أو لعلنا نهتدى الى شىء بأنفسنا ؟

ـ قلت مقترحا وغادرت القمرة .

ـ لا شىء نهتدى اليه ! .. لا تفعل ـ أجاب السائق فى جزع بعد أن أعاد غطاء المحرك . وكان المسكين مزرقا متثلجا منكمشا . والظاهر انه ليس من أهل تيان شان ، بل من العاصمة يتلفت فيما حوله بحيرة . وكانا يحملان من فرونزه حمولة الى نقطة الطريق . قلت لنفسى : ما العمل ؟ وطرأت على ذهنى فكرة حمقاء . ونظرت أولا الى الممر . كانت السماء دهماء متلبدة ، والسحب تسير على انخفاض . ومع ذلك عزمت . لم تكن الفكرة من دهاة الفكر ، ولكنها كانت بالنسبة لى آنذاك بمثابة الاندفاع فى هجوم مجازف .

سألت السائق :

ـ هل فراملك بحالة جيدة ؟

ــ حسنا .. ماذا تحسب ؟ .. أسير بلا فرامل ! .
قلنا لك المحرك لا يعمل .
ــ هل عندك حبل سلكى ؟
ــ يوجد .
ــ تعال الى هنا ، وأمسك .
حدقا بى فى غير ثقة . ولم يتحركا من مكانهما .
وقال السائق فى هدوء :
ــ هل ذهب عقلك ؟
ولى طبع لا أعرف أهو طيب أم سيىء ، وهو : حين يدور فى رأسى شىء فالمنية دونه .
ــ قلت لك يا صديقى ، اربط سيارتك بى . سأوصلك شرفا . ــ ألححت على السائق .
ولكن السائق هز يده رفضا .
ــ خل عنك ! أحقا لا تعرف ان السحب هنا غير ممكن ؟
وتأذيت كثيرا ، وكأنه رفض لى رجاء حارا .
قلت :
ــ آه يا لك من برذون جبان !
وناديت على صاحبه أخصائى الطريق . عرفت انه أخصائى الطريق فيما بعد . ونظر أخصائى الطريق الى وقال للسائق :
ــ أخرج الحبل السلكى .
وذهل هذا .
ــ أنت المسئول يا بايتيمر ــ اكه .

أجاب باقتضاب :

ـ سنكون سواء فى المسئولية .

وقد أعجبنى ذلك منه . فمثل هذا الرجل تبدأ باحترامه فى الحال .

وسرنا . سيارتان مربوطتان بحبل سلكى . وفى البدء سارت الأمور سيرا طيبا . ولكن طريق دولون يسير دائما فى صعود وانحدار . وأخذ المحرك يئن ، ويزعق ، وامتلأت آذاننا طنينا . قلت فى سرى : صه ! .. سأعتصرك الى آخر قطرة ! ومن قبل لاحظت أن طريق دولون مهما يكن صعبا فستبقى فضلة من قوة فى السيارة للسحب . وكانوا يشحنوننا دائما فى حذر ما، حمولة لا تزيد عن ٧٠ بالمائة من الحمولة الأصلية . وبالطبع اننى لم أفكر ساعتئذ بهذا . لقد تملكتنى قوة وحشية مثل حماس الرياضى : سأحقق ما عزمت عليه ، وأساعد الرجلين على ايصال سيارتهما الى مكانها . ولكن بلوغ هذا لم يكن بالأمر الهين كما ظهر . واهتزت السيارة ، وأجهدت نفسها وتناثر المطر على الزجاج، وبالكاد كانت الفرشتان تمسحانه . وانخفضت السحب، وانبسطت تحت العجلات تماما ، وزحفت على الطريق . وصارت المنعطفات حادة الانحراف عمودية . ورحت أقرع نفسى سرا شاعرا بالندم : لم سحبت السيارة ؟ .. فقد يهلك الناس . وكنت أتعذب أكثر مما تتعذب سيارتى . وخلعت عنى كل شىء : القبعة، والسترة اللبادية ، والسترة الداخلية والكنزة . وبقيت فى القميص وحده ، والبخار يتصاعد من جسمى ، وكأننى فى حمام.

ولم يكن فى المسألة مزاح : أنا أسحب سيارة وزنها لا بأس به ، تحمل هى الأخرى حمولة • ولطيف ان بايتيمير كان واقفا على مرقاة السيارة ينسق حركاتنا : كان يأمر لى بصوته ، وللجالس فى السيارة المسحوبة بحركات يده • وحين أخذنا نتسلق الطريق كالحلزون قلت لنفسى انه لن يصـمد ويقفز من المرقاة ، فى مكان ما ، تفاديا لمصيبة • الا انه لم يتحرك • بل جمع قواه كالنسر الذهبى فى أثر فريسة ، وظل واقفا ممسكا بالقمرة • نظرت الى وجهه فكان رصينا ، وكأنما قد حفر من حجر • وقد تحدرت قطرات من الماء على خديه ، وشاربيه ، فشعرت بشىء من الارتياح •

بقى أمامنا مرتفع آخر طويل • وحين نرقاه سيكون النصر حليفنا • فى تلك اللحظة انحنى بايتيمير نحو الشباك :

ـ احترس • أمامنا سيارة • التزم الجهة اليمنى •

والتزمت الجهة اليمنى • ومن الجبل انحدرت سيارة شحن • كانت سيارة جانتاى • وقلت لنفسى : سيذهب ويفتن على عند مهندس السلامة • فذلك سهل على جانتاى مثل شرب الماء • وراح يقترب • ثبت بيديه على عجلة القيادة وهبط ناظرا فى خزر • وتقاربنا على قيد أذرع ! وحين صرنا فى صف واحد تراجع جانتاى عن الشباك وهز ، فى ادانة ، رأسه المعتمر فى قبعة حمراء من فراء الثعالب • قلت لنفسى : « الى الشيطان • حرك لسانك قدر ما تشتهى » •

وصعدنا على المرتفع ، فى الأسفل منحدر صبب • ثم طريق

قليل الانحدار ، ومنعطف يؤدى الى عزبة نقطة الطريق • وقد استدرت فيه • وصلت على أية حال ! وأطفأت المحرك • ولم أسمع شيئا • خيل الى ان سمعى سليم ولكن الطبيعة خدرت • لا صوت ولا نأمة ! خرجت من القمرة وجلست على المرقاة مختنقا منهوك القوى • والهواء خفيف فى الممر • هرع بايتيمير ، ووضع على سترة اللباد ، وأنزل القبعة على جبينى • وجاء سائق السيارة الأخرى مترنحا ممتقع الوجه صامتا • وجلس أمامى مقرفصا ، ومد الى علبة السكائر • وتناولت سيكارة بيد مرتجفة • ودخنا جميعا حتى أفقنا على أنفسنا • وشعت فى نفسى تلك القوة الوحشية • صحت :

— ضخ ! أرأيت ! — وضربته على كتفه فاقعى • ثم قفزنا نحن الثلاثة • وراح أحدنا يضرب الآخر على ظهره وكتفه ونضحك ، ونهتف بما يعن لنا فرحا •••

وهدأنا فى آخر الأمر • ودخنا سيكارة ثانية • ولبست ونظرت الى الساعة • وأفقت قائلا :

— حان وقت ذهابى !

قطب بايتيمير حاجبيه :

— لا • تعال الى البيت وستكون ضيفا •

ولم تكن عندى دقيقة واحدة أضيعها •

شكرته قائلا :

— شكرا • لا أستطيع • أريد أن آمر بالبيت فان زوجتى فى انتظارى •

ـ ألا تمكث عندنا ؟ •• لنحتسى زجاجة صغيرة • ـ راح صديقى الجديد السائق يغرينى •

وقاطعه بايتيمير قائلا :

ـ اتركه • زوجته بانتظاره • باى اسم تسمونك ؟

ـ الياس •

ـ اذهب يا الياس • شكرا لك • لقد اسعفتنا •

وأوصلنى بايتيمير ، وهو واقف على المرقاة ، الى الطريق وصافحنى صامتا وقفز •

ولما صعدت الى الجبل تطلعت من القمرة • كان بايتيمير واقفا لما يزل فى الطريق • وقد عصر قبعته بيده ، وفكر بشىء مطرقا برأسه •

هذه هى الحكاية كلها •

ولم أقصها على آسيل بالتفاصيل • واكتفيت بأن شرحت لها كيف ساعدت بعض الناس فى الطريق ، ولهذا السبب تأخرت• ولم أكن أخفى شيئا عن زوجتى • الا أننى لم أرد أن أحدث بما وقع • فهى بدون حديثى قلقة على دائما • ثم عزمت كليا على أن لا أفعل شيئا من هذا القبيل • فقد حدث مرة فى الحياة ان تنازلت مع دولون ، وهذا يكفى ! وكنت أنسى الحكاية فى اليوم التالى ، لولا أن مرضت لدى عودتى • والظاهر أننى قد أصبت آنذاك ببرد • وبمشقة عدت الى بيتى ووقعت طريح الفراش فى الحال • ولا أذكر ماذا حصل • فقد كان يتراءى لى وكأننى أجر سيارة ورائى فى طريق دولون • والعاصفة الحارة

تلسع وجهى ، وحالتى صعبة ، وأنفاسى تضيق على ، وصارت عجلة القيادة وكأنها من قطن ، أديرها فتلتوى فى يدى • وأمامى الممر لا نهاية له ، والسيارة ترفع بوزها الى السماء ، تصعد الى فوق ، وتهدر ، وتسقط من المنحدر ••• والظاهر أن ذلك كان « القمة » فى المرض • وقد تغلبت عليها فى اليوم الثالث ، وانتقلت الى دور النقاهة • ولزمت الفراش يومين شعرت بعدهما بتحسن فى حالتى ، وأردت أن أغادر الفراش الا أن آسيل قد أصرت على أن الازمه • ونظرت اليها بانتباه وقلت فى نفسى : هل أنا المريض أم هى ؟ تغيرت كثيرا ، وتعذبت ، وظهرت دوائر زرق حول عينيها ، ونحلت • والنسمة اذا هبت قد توقعها • ثم ان لها ابنا تعنى به • وقررت : وجوب انهاء هذه الحال • ليس لى الحق فى أن أهمل الأمر • عليها أن تستريح • ونهضت من الفراش وأخذت أرتدى ملابسى •

ــ آسيل ــ ناديتها فى خفوت وقد نام الطفل ــ تحدثى مع الجيران ليعتنوا بسامات ، ولنذهب نحن الى السينما •

جاءت راكضة الى السرير ، واضجعتنى على الوسادة ، ونظرت الى وكأنها تبصر بى لأول مرة ، وجاهدت لتحبس دموعها • الا أنها كانت تلمع فى رموشها ، وارتجفت شفتاها • ودفنت آسيل وجهها فى صدرى وبكت • قلت فى حيرة :

ــ ماذا بك يا آسيل ؟ ماذا بك ؟

ــ أنا مسرورة لأنك شفيت •

ــ وأنا أيضا • ولكن لماذا تقلقين ؟ •• مرضت قليلا •

وبالمقابل مكثت معك ، ولعبت مع سامات قدر ما اشتهى • — وابننا أخذ يحبو ، وأوشك على المشى ، وهو الآن فى عمر مسل جدا • — واعلمى أننى لا أعترض على أن أمرض ثانية هكذا — ختمت قولى مداعبا •

— أوه • يا لك ! •• لا أريد ! — صاحت آسيل •

وهنا استيقظ ابننا • وحملت من دفء النوم • وتخابطنا ثلاثتنا مستلقين على السرير متعابثين • وقام سامات بدور الدب الصغير يحوم هنا وهناك ويدوس علينا •

قلت :

— أنظرى ! ما أروع هذا • أما أنت ؟ •• لنذهب قريبا الى والديك فى القرية• وبالتأكيد سيعفوان • سيريان طفلنا سامات، ويحبانه وينسيان كل شىء •

وهكذا نوينا الذهاب الى القرية مستغفرين ذنوبنا كما ينبغى فى مثل هذه الأحوال • وقد علمنا آن والديها قد تكدر كثيرا من جرائنا • بل حتى انهما قالا على لسان رجل من أهل القرية جاء الى نارين أنهما لن يغفرا للابنة فعلتها ، وأنهما لايريدان أن يعرفا شيئا عن حياتنا • ولكننا كنا نأمل فى أن يصفو كل شىء حين نذهب الى العجوزين نطلب منهما الصفح •

وعلى أية حال كان على أن أحصل على اجازة أولا ، ونستعد للسفر : نشترى الهدايا لكل قريب بالتأكيد • فلم أرد أن أذهب خالى اليدين •

وخلال ذلك جاء الشتء • وشتاء تيان شان قاس تشتد فيه

العواصف ، وينزل الثلج ، وينهار الجليد فى الجبال • ويجلب الشتاء الهموم الينا نحن السواق ، والى رجال النقطة متاعب أكثر • فيقومون بمراقبة الثلوج المتهاوية ، وفى الأماكن الخطرة حيث من الممكن أن يحدث انهيار جليدى ينسفون الثلج قبل أوانه وينظفون الطريق • حقا ان ذلك الشتاء كان هادئا نسبيا أو ربما اننى لم ألاحظ شيئا ، فان للسائق دائما عملا يلهيه • وفضلا عن ذلك فقد أوكل للحظيرة فجأة عمل اضافى • وبالأحرى أننا ، نحن السواق ، قد تعهدنا بأنفسنا على انجازه • وكنت أنا أول المتطوعين • ولست على ذلك بنادم حتى الآن • الا أن كل مصاعبى قد أنبثقت من هذا على ما أحسب • والقضية كانت على هذا النحو •

عدت ذات مساء الى حظيرة السيارات • وقد أعطتنى آسيل صرة صغيرة لزوجة على بك جانتورين • فعرجت على بيتها ، وصفرت فخرجت زوجة على بك • وقد عرفت منها أن عمالا صينيين قد أرسلوا برقية الى الحظيرة يطلبون الاسراع فى ارسال معدات معمل •

فسألت مستفسرا :

ـ وأين على بك ؟

ـ كيف أين ؟ •• فى محطة التفريغ ، وكل الناس هناك• ويقال ان قطارات المعدات قد وصلت •

واتجهت الى هناك • وقلت لنفسى : ينبغى أن أتبين كل شىء بوضوح • انطلقت • وكانت محطة التفريغ عندنا تقع فى

المضيق المؤدى الى البحيرة • وكانت محطة أخيرة للخط الحديدى• وهناك كان يخيم غبش رجراج قلق ، والريح تهب من المضيق في خفقات ، وتؤرجح المصابيح على أعمـدتها ، وتثـير الريح الأرضية عبر عوارض الخط الخشبية • والقطارات تروح وتجىء لتصف العربات • وفى خط جانبى تهز رافعة خرطومها ، وتحمل من العربات الصناديق المغلفة بصفائح القصـدير والأسـلاك ــ بضائع معينة لسنتزيان ، الى مصنع بناء الآلات • والبناء الذى كان يجرى هناك واسع ، وقد نقلنا اليه من قبل شيئا من معدات •

تجمعت سيارات كثيرة ، ولكن لم تشحن واحدة منها ، وكأن السواق ينتظرون شيئا • وجلس بعضهم فى القمرات ، أو على المراقى واتكأ آخرون على الصناديق محتمين من الريح • ولم يرد أحد منهم على تحيتى كما ينبغى • صمتوا ينفثـون دخان سيكائرهم •

وكان على بك منتحيا جانبا فتقدمت منه •

ــ ماذا عندكم هنا ؟ •• تسلمتم برقية ؟

ــ نعم يريدون أن يشغلوا مصنعا قبل موعده •

ــ الأمر يتوقف علينا • أنظر كيف تكومت الحمولات على

ــ ثم ماذا ؟

طول الطريق ، وستزداد فمتى سـنوصلها ؟ والناس ينتظرون ويعتمدون علينا ! •• وكل يوم محسوب عندهم •

ــ وما غرضك منى ؟ •• ما شأنى بهذا !

ــ ما معنى ما شأنك بهذا ! • هل أنت غريب عن أمرنا

المشترك ؟ أى أنت لا تفهم أى عمل بين أيدينا ؟

ـ خرجت عن صوابك . يا لله ! ـ قلت ذلك مدهوشا وابتعدت عنه . وخلال هـذا تقـدم امانجولوف رئيس حظيرة السيارات ، وأشعل فى صمت سيكارته من رجل محتميا من الريح بذيل معطفه . ونظر الى الجميع وقال :

ـ الأمر على هذا النحو أيها الرفاق . سـأتصل بالوزارة تلفونيا فربما يقدمون مساعدة . ولكن يجب أن لا نتكل على ذلك . ما العمل الآن ؟ لا أعرف ...

رد صوت :

ـ أجل . مهمة صعبة يا رفيق أمانجولوف . الحمولة من القطع الكبير . وحوض اللورى لا يسع أكثر من قطعتين أو ثلاثا منها . وحتى لو نظمنا شحنا متواصلا ليلا ونهارا لما فرغنا من نقلها فى الربيع !

أجاب امانجولوف :

ـ هذه هى المهمة . ولكن ينبغى أن ننجزها . والآن وداعا، ليذهب الجميع الى بيوتهم ، وليفكروا .

وأقل سيارة « غازيك » ومضى . ولم يتحرك أحد منا من مكانه . ومن زاوية فى الظلمة قال شخص بصوت أجش غـير مخاطب أحـدا :

ـ يا للشيطان ! من فروة واحدة لا يمكن أن تفصل جبتين! كان ينبغى التفكير من قبل . ونهض وأطفأ عقب سيكارته ، واتجه نحو السيارة .

وقال الآخر : نحن دائما هكذا نملأ زكيبتنا الى الحافة • حتى يتعذر شدها • ثم تعالوا يا سواق !

وتناوشـــوه :

ـ هذا عمل أخوى ، وأنت يا اسماعيل تهذر مثل عجــوز فى سوق •

ولم أتدخل فى الجدال • ولكننى تذكرت فجأة كيف سحبت السيارة فى الممر ، وانفعلت كالعادة•

قفزت الى الوسط وقلت :

ولم التفكير ؟ اقطروا المقطورات وراء السيارة •

ولم يثر أحد • بل ان بعضهم لم يرفع بصره الى • ان مثل هذا الكلام لا يقوله الا الحمقى البائسون •

صفر جانتاى بخفوت :

ـ ما رأيكم فى هذا ـ لقد عرفته من صوته •

وأقف ، وأنظر فيما حولى ، وأريد أن أقص لهم ماذا وقع لى • الا أن شخصا ضخما نزل من صندوق ، وأعطى قفــازه الى جاره ، وتقدم نحوى وأمسك بتلابيبى ، وأنفه قرب أنفى:

ـ ازفر !

ـ فف ! ـ وزفرت فى وجهه •

ـ صاح ! ـ قال الرجل العملاق مندهشا تاركا تلابيبى •

ـ يعنى أحمق ـ قال صاحبه وكلاهما سار نحو ســيارته ومضيا • ونهض الآخرون فى صمت مزمعين على الذهاب • ولم أكن قط أضحوكة كهذه ! والتهب وجهى كله من العار •

ـ قفوا • الى أين ! ـ واندفعت بين السواق ـ أقـول بجـد • يمكن جر مقطورات الى الخلف •••

أقبل على أحد السواق القدامى ، مرتبكا •

ـ عندما بدأت أعمل سائقا هنا ، كنت طفلا تسير بلا سروال يا صاحبى • ليس تيان شان ساحة رقص • أنا أشفق عليـك ، فلا تضحك الناس •••

ضحك السواق وتفرقوا نحو سياراتهم • حينئذ صرخت ليسـمع كل فى المحطـة :

ـ أنتم نسوان ولستم سواقين !

عبثا ما فعلت ، ونكدى •

توقف الجميع ، ثم اندفعوا نحوى دفعة واحدة •

ـ كيف ؟ •• تريد أن تلعب بحياة الآخرين ؟

وأيد جانتاى :

ـ مبتكر ! •• يريد أن يحصل على جائزة •

واختلطت الأصوات ، وحصرونى على الصناديق • وقلت فى نفسى أنهم سيهبشوننى بقبضـاتهم • فتنـاولت لوحة من الأرض •

ـ تفرقوا ! ـ صفر أحدهم ، وفرق الجميع • كان ذلك على بك • وصاح :

ـ صمتا ! وأنت يا الياس تكلم بوضوح • تكلم بسرعة •

قلت وصعدت زفرة :

ـ ماذا أتكلم ! قطعتم كل الأزرار • لقد جررت سيارة

فى الممر الى نقطة الطريق • سحبتها مع حمولتها • هذا كل ما فى الأمر •

صمت السواق غير مصدقين •

ــ وهل وصلت بها ؟ ــ سأل أحدهم فى ريبة •

ــ نعم • على طول دولون كله • حتى نقطة طريق •

قال صوت فى عجب :

ــ بخ • بخ •

واعترض ثان :

ــ كذاب !

ــ كلب من يكذب • لقد رآنى جانتاى بعينيه • أين أنت يا جانتاى ؟ •• أخبرهم • أنت تذكر كيف التقينا •••

الا أن جانتاى لم يجب • وكأنما انشقت الأرض وابتلعته• ولكن ذلك لم يكن يهمنى ساعتئذ • وحدث نقاش • وانحاز بعضهم الى جانبى • الا أن أحد الشكوكيين هز ثقتهم فى الحال• قال فى اكتئاب :

ــ تهذرون عبثا • قد يأتى امرؤ شيئا لمرة واحدة • وما أكثر المصادفات ! ولسنا أطفالا • وسحب المقطورات فى خطنا ممنوع • لا يسمح به أحد • جرب وقل لمهندس السلامة ، وسترى ماذا يفعل لك • انه لا يريد أن يقدم للمحكمة بسبب عملكم • هذا هو فصل الكلام •

وقال آخر معترضا:

ــ كفاك • كفاك !•• ما معنى لا يسمح ! فى الثلاثينيات

كان ايفان ستيبانوفتش أول من سار فى الممر فى سيارة شحن• ولم يسمح له أحد بذلك • ذهب بنفسه • وها هو حى يرزق حتى الآن •••

قال ايفان ستيبانوفتش مؤكدا :

ـ نعم ، كان ذلك • ولكننى أشك : هنا فى الصيف لم يخرج أحد من مقطورات • أما الآن ففى الشتاء •••

كان على بك معتصما بالصمت طوال الوقت • الا أنه قال هنا :

ـ كفى نقاشا • ينبغى التروى ، ولو كانت القضية غير مسبوقة بنظير • ولكن ليس على النحو الذى فعله الياس : هاتو المقطورات وهيا ، بطريقة غير متروية • ينبغى الاعداد لذلك والتروى كما ينبغى التشاور ، واجراء التجارب • بالكلمات وحدها لا يمكن البرهان على شئ •

أجبت :

ـ أبرهن • بينما أنتم تفكرون وتحزرون سأبرهن أنا ، وعندئذ ستوقنون •

وكان لكل امرىء خلقه الخاص • وكان ينبغى بالطبع ايقافه عند حده • ولكن ، ليس هذا بناجح دائما • جلست وراء عجلة القيادة وأنا لا أشعر فى السيارة ولا فى الطريق • كان يحز فى نفسى الألم والغضب والمرارة والانفعال • وزاد تأجج كبريائى الجريحة كلما تطاول الوقت • لا • سأبرهن لكم • أبرهن كيف أنكم لا تؤمنون بالانسان ، أبرهن كيف تضحكون منه ، ابرهن

كيف تبالغون فى الحذر ، وتتلفتون فيما حولكم ! ثم ان على بك مصيب : ينبغى التروى والاستعداد والتجربة : انه رجل ذو احتراس وذكاء • أما أنا فلم أحفل به • وببساطة سأريهم أى فتى أنا •

بعد أن وضعت السيارة فى الكراج انشغلت طويلا عندها• كان كل شيء متوترا فى نفسى توترا شديدا • ولم أفكر الا بشيء واحد : أن أجر عربة ورائى فى الممر • يجدر بى أن أفعل ذلك مهما كلف الأمر • ولكن من يعطينى مقطورة !

طوفت فى الفناء وفى رأسى هذه الأفكار • وكان الوقت متأخرا وشباك مأمورية السير وحده المضاء • وتوقفت : مأمور السير ! يستطيع مأمور السير أن يرتب كل شيء • والنوبة اليوم لكاديتشا على ما أظن • وهذا أفضل • وهى لا ترفض ولا يخلق بها أن ترفض • واذا دار الحديث عن هذا فأنا لا أنوى القيام بجريمة ، بالعكس ، انها لا تفعل الا لتساعدنى فى القيام بما هو نافع وضرورى للجميع •

فى طريقى الى مأمورية السير بدرت على فكرة : اننى منذ وقت طويل لم أدخل من هذا الباب كما تعودت أن أفعل فى الماضى ، بل كنت أتكلم من الشباك • وارتبكت وفتح الباب وظهرت كاديتشا على عتبته •

ـ أنا قادم اليك يا كاديتشا • ولطيف أن أجدك •

ـ ولكننى ذاهبة •

حسنا لأوصلك الى بيتك •

رفعت كاديتشا حاجبيها في اندهاش ، ونظرت الى غير مصدقة ثم ابتسمت :

ــ هيـــا .

وخرجنا من الفناء . وكان الشارع مظلما . ومن البحيرة يتطاير رذاذ صاخب . كـانت ريح باردة تعصـــف . وتأبطت كاديتشا يدى ، والتصقت بى محتمية من عصف الريح .

سألت :

ــ أتشعرين بالبرد ؟

قالت مازحة :

ــ معك لا اتثـلج .

قبــل دقيقة كنت فى قلق قائظ . أما الآن فهدأت لسبب لا أدريه .

ــ متى ستبدأ نوبتك غدا يا كاديتشا ؟

ــ اننى فى النوبة الثانية . ولماذا ؟

ــ لى شأن ، مهم جدا . وكل شىء متوقف عليك ...

فى البدء لم ترد أن تصغى . ولكننى واصلت اقناعها . وتوقفنا قرب المصباح فى زاوية .

ــ آه يا الياس ــ قالت كاديتشا وهى تنظر فى عينى بقلق ــ من العبث أن تفعل ذلك .

ولكننى فهمت الآن أنها ستفعل ما أطلب منها . أمسـكت بيــدها وقلت :

ــ ثقى بى ! كل شىء سيكون على ما يرام . هل اتفقنا ؟

تنهـــدت :

ـ ماذا أفعل بك ! ـ وهزت رأسها •

وضعت يدى على كتفها دون ارادتى :

ـ آه لو كنت رجلا يا كاديتشا • الى الغد ـ وشـــددت على يدها بحرارة ـ لتكن جميع الأوراق مهيئة فى المســاء • فهمت ؟

ـ على مهلك ـ قالت وظلت ممسكة بيدى • ثم استدارت فجأة وقالت : ـ اذهب ••• هل أنت ذاهب اليوم الى النزل ؟

ـ نعم يا كاديتشا •

ـ ليلة سـعيدة •

فى اليوم التالى عندنا فحص تكنيكى • وثارت أعصاب الذين فى حظيرة السيارات • والفاحصون دائما يأتون فى الوقت غير المناسب ، ويدققون دائما فى كل شىء ، ويكتبون البيانات • وما أكثر ما يثيرون من جلبة وطنين • ولكنهم هادئو الأعصاب •

كنت مطمئنا الى سيارتى ومع ذلك فقد تأخرت قليلا متظاهرا بأننى مشغول بالتصليح • كان على أن أطيل الوقت حتى موعد نوبةكاديتشا • ولم يتحدث أحد معى ، ولا أحد ذكر الأمس • وعرفت أن الناس منصرفون الى شىء آخر : الجميع مسرعون فى الخلاص من الفحص التكنيكى ، والخروج الى الخط ، والقيام بالعمل الذى لم يقوموا به فى الزمن الضـــائع • ومع ذلك فالاساءة لم تمح من نفسى •

وجاء دورى فى الفحص فى النصف الثانى من النهار •

وانصرف الفاحصون ، وهدأت الجلبة ، وفرغ المكان • كانت المقطورات تقف فى قلب الفناء مكشوفة • وكانت تستخدم أحيانا فى الطرق المنبسطة للنقليات الداخلية • واخترت لنفسى واحدة ـ مقطورة صغيرة اعتيادية تحمل حوضها أربع عجلات • هذه هى الحكمة بعينها • ولكن ما أشد قلقى ••• عندئذ لم أكن أعرف ما ينتظرنى • ذهبت الى النزل فى هدوء • يجب أن آكل جيدا وأغفو ساعة ـ فالطريق ستكون صعبة • غير أننى لم أتمكن من النوم • تقلبت من جنب الى جنب • وحين بدأ النور يخبو عدت الى الحظيرة •

كانت كاديتشا هناك ، وكل شىء مهيئا • أخذت ورقة السفر ، وأسرعت الى الكراج • « الآن سأبرهن لكم ! » واستدرت بالسيارة ، واقتربت من المقطورة ، وخففت من سرعة دوران المحرك ، وخرجت متلفتا فيما حولى • لا أحد • لم أسمع غير صوت الآلات فى ورشة التصليح وتلاطم الأمواج فى البحيرة• بدت السماء وكأنما قد صحت ، ولكنها بلا نجوم • وتردد الى جانبى صوت محرك بخفوت ، وانتفض قلبى • أردت أن أدخن ولكننى رميت السيكارة ، سأدخن فيما بعد •

أوقفنى البواب عند البوابة •

ـ قف ! الى أين ؟

قلت :

ـ الى الشحن يا صاحبى ـ وحاولت أن أكون بارد الأعصاب ـ هذا اذن الخروج •

وانحنى العجوز على الورقة ليتبين حروفها فى ضـــوء المصـــباح •

ووجدتنى أقـــول :

ــ لاتؤخرنى يا صاحبى فالعمل لا ينتظر •

وجرى الشحن بصورة طبيعية بحمولة تامة : قطعتان فى حوض السيارة ، وقطعتان فى المقطورة • ولم يقـل أحد كلمة احتجاج، وهذا ما أدهشنى جدا • وخرجت الى الجادة • وحينئذ فقط رحت أدخن • جلست فى وضع أروح ، وأضئت المصباحين، ودست على البنزين كليا • وبدأت الظلمة فى الطـــريق تهتز وتتراعش • وكان الطريق خاليا من السيارات ولم يعقنى شىء من زيادة السرعة الى آخرها • واندفعت السيارة خفيفة • لا أكاد أشعر بالمقطورة التى أسمع صوتها خلفى • حقا أننا كنـــا ننحرف جانبا فى المنعطفات ، وكان تدوير عجلة القيادة أصعب • وقلت لنفسى : ذلك لأننى لم أعتد على ذلك • واننى سأتعود بعد قليل• «سأعبر دولون ، وسأصل الى سنتزيان ! » ــ هتفت لنفسى وانحنيت على عجلة القيادة مثلما ينحنى الفارس الى غارب الفرس• ما دام الطريق سهلا منبسطا كان ينبغى أن أسرع وحسبت أننى سأنازل دولون عند منتصف الليل •

ولوقت قصير رأيتنى أتخطى حساباتى • ولكن حين جاءت الجبال كان على أن أسير بحذر أكثر • ولم يكن ذلك بسبب ضعف المحرك • لم تعقنى المرتفعات بقدر ما أعاقتنى المنحدرات• كانت المقطورة تتمايل فى المنحدرات ، وتهدر ، وتدفع السيارة

وتعيق النزول بهدوء • وكان على فى كل لحظـة أن أغير عتـاة السرعة ، وأن أفرمل، وأستدير • وفى البدء ثبت نفسى، وجاهدت أن لا أكترث • ولكن ذلك أخذ يضـــايقنى فيما بعد ، ويثير أعصابى • كم عدد مرتفعات الطريق ومنحدراته ؟ ألم يخطر على بال أحد أن يحسبها ؟ كل هذا وعزيمتى لم تهن ، ولم يهددنى شىء سوى أن قواى قد خارت • وقلت لنفسى مهدئا اياها : « لا يهم • سأستريح قليلا قبل أن أجوز الممر • أجوزه طبعا ! » ولم أفهم لم صارت الأمور على أصعب من تلك المرة فى الخريف الماضى حين سحبت السيارة ورائى •

ودنا دولون • كانت أشعة المصباحين تنزلق على جوانب المضيق الحجرية القاتمة والصخور المكللة هاماتها بالثلوج تتدلى فوق الطريق • وتدور قطع ثلج كبيرة • وقلت لنفسى : « لابد من أن الريح هى التى تحمل هذا الثلج من فوق » • الا أن قطع الثلج راحت تتساقط على الزجاجة ، وتنحدر الى الأسفل • يعنى أن الثلج يتساقط • ولم يكن كثيفا جدا ، ولعنت صاكا على أسنانى: « وكأننى بحاجة الى هذا الثـــلج ! » وأطلقت عقربى منظفة الزجـاج •

وجاء أول صعود فى الممر • وأطلق المحرك أغنيته المألوفة• وانبعث فى ظلمة الطريق هدير رتيب موحش • وفى آخر الأمر وصلت الى قمة المرتفع • والآن أمامى طريق طويل منحـدر • وأخذ المحرك يدمدم ، وانحدرت السيارة • وفى الحال ترنحت من جانب الى جانب • وشعرت من وراء ظهرى كيف تتواثب

المقطورة وترتطم وتصطدم بالسيارة ، وأصغى الى رعدتها والى صوت المعدن يحتك فى المؤخرة • ويضغط هذا الاصطكاك على ظهرى الى حد الانقصاف ، ويثير الوجع الحاد فى منكبى • ولم تخضع العجلات الى الفرامل ، فكانت تنزلق على القشرة الثلجية البليلة • وسارت السيارة منزلقة مهتزة بكل هيكلها نازعة عجلة القيادة من يدى ، منحدرة على الطريق فى انحراف • وأدرت العجلة ، وتوقفت • لا أستطيع أن أتقدم أبعد • فلم تبق قـوة فى • وأطفأت المصباحين ، وأسكت المحرك • كانت يداى خدرتين وكأنهما مشلولتان • واتكأت على ظهر المقعد ، وأصغيت الى أنفاسى المخربشة • ولبثت هكذا دقائق معدوداث • أسترد أنفاسى وادخن • وحولى حلكة وصمت وحشى • لا شىء غير الريح تصفر من بين خصاص القمرة • وخشيت أن أفكر فيما سأجد أمامى ، من هنا سأسير صاعدا طريقا ملتوية • وعذاب يدى وعذاب المحرك هما هذا التسلق اللانهائى فى مرتفع جبلى ملتو • ولكن لا مجال للتردد ، فان الثلج يتساقط بكثرة •

أدرت المحرك• وبدأت السيارة تصعد بهدير ثقيل• وكززت على أسنانى ، ودون امهال تسلقت العطفات الحلزونية عطفة وراء عطفة حتى تجاوزتها • والآن جاء منحدر صبب ، وطريق منبسط مستقيم حتى المنعطف المؤدى الى نقطة الطريق ثم آخر قطـاع للممر • وانحدرت بصعوبة • وفى الطريق المستقيم الممتد حوالى أربعة كيلو مترات زدت من سرعة السيارة ، وبدأت أصعد المرتقى مندفعا بنفس السرعة ، ومضيت فى التصعيد ولم يستمر الزخم

طويلا ، وراحت السيارة تبطىء سرعتها فى تهديد ، وبدلت جهاز التعشيق الى السرعة الثانية ، ثم الى الأولى • واستلقيت الى الوراء ، وقبضت على عجلة القيادة بقوة • ومن فرجة بين الغيوم تلألأت نجوم تخطف العين ، والمحرك لم يستطع أن يدفع السيارة من مكانها ، وصارت العجلات تدور فى أماكنها • ومالت جانبا • وضغطت على البنزين الى آخره •

وصحت بصوت غير صوتى :

ــ هيا ! ••• قليلا اصمدى لحظة أخرى !

وتحول أنين المحرك الموصول الى رعشة رنانة بلغت أقصى حد لها ثم تقطع وهمد • وانحدرت السيارة ببطء الى الوراء • ولم تسعف الفرامل فى شىء • انحدرت من الجبل مدفوعة بثقل المقطورة • ثم توقفت فجأة مرتطمة بصخرة • وهمد كل شىء • ودفعت الباب ، ونظرت خارج القمرة : هكذا اذن ! اللعنة ! وقعت المقطورة فى أخدود • والآن ما من قوة تستطيع اخراجها وبلا وعى أدرت المحرك ثانية ، واندفعت الى الأمام • ودارت العجلات بجنون ، واحتدت السيارة وجاهدت بكل كيانها • ولكنها لم تتزحزح من مكانها • قفزت الى الطريق ، وهرولت الى المقطورة• كانت عجلاتها غائصتين عميقا فى الأخدود • ما العمل ؟ ودون أن أعى شيئا كززت على أسنانى فى غيظ شديد ، وحططت ثقلى على المقطورة ورحت أدفع العجلتين بيدى • ثم أسندت كتفى على الحوض ، وصرخت كالحيوان ، وجاهدت حتى آلمنى رأسى ألما مبرحا محاولا أن أخرج المقطورة الى الطريق ولكن هيهات ! ولما

استنفذت قواى انكفأت على وجهى فى الطـــريق وبكيت من الغيظ وتخبطت فى الوحل المخلوط بالثلج • ثم نهضت ، وذهبت الى السيارة مرنحا ، وجلست على المرقاة •

ومن بعيد سمعت صوت محرك • ومن أعلى المنحدر نزل مصباحان الى الطريق الصبب • أنا لا أعرف من كان هـــذا السائق والى أين ولم دفعه حظه فى جنح الليل • الا أننى فزعت وكأن هذين النورين سيبلغاننى ويمســكان بى • وانطلقت ، كاللص ، الى المقطورة ملقيا على الأرض حبل التوصيلة ، وقفزت الى القمرة ، واندفعت صاعدا الطريق تاركا المقطورة فى الاخدود•

ولاحقنى ذعر شديد غير مفهوم • كنت أتصور طوال الوقت أن المقطورة وراء أعقابى تطاردنى وتكاد تلحق بى • اندفعت بسرعة لا نظير لها دون أن أتحطم ، وذلك فى أغلب الظن لمجرد أننى كنت أعرف الطريق عن ظهر قلب •

فى الفجر وصـــلت الى محطـــة المر ، ودون وعى منى وكالمجنون طرقت الباب بجمع يدى • وانفتح الباب ، ودخلت الدار دون أن أنظر الى آسيل فقد كنت ملطخا بالوحل من رأسى الى أخمص قدمى • وجلست على شيء رطب وأنا أتنفس بصعوبة• وكان ذلك كومة ملابس مغسولة موضوعة على مقعد • وضعت يدى فى جيبى أبحث عن سيكارة • فوقعت يدى على مفــاتيح السيارة • فألقيتها بقوة جانبا ، وطأطأت رأسى ، وسكنت متعبا قذرا متجمدا • راوحت آسيل بقدميها الحافيتين قرب الطاولة •

ولكن ماذا بوسعى أن أقول لها ؟ رفعت آسيل المفاتيح من الأرض ووضعتها على الطاولة •

قالت بصـــوت خفيض :

ـ أتغتسل ؟ لقد سخنت الماء منذ المساء •

رفعت رأسى ببطء • كانت آسيل متثلجة تقف أمامى فى قميص فقط ضاغطة بيديها النحيلتين الرقيقتين على صدرها • نظرت عيناها المذعورتان الى فى رعب وعطف •

قلت بصوت غريب لا رونق له :

ـ تركت المقطورة فى الممر •

قالت مستفسرة :

ـ أية مقطـورة ؟

قلت محتـــدما :

ـ حديدية خضراء رقم ٢ • ـ ٠٣٨ لا يهم أيا كانت • لقد سرقتها ••• أتفهمين ؟ •• سرقتها •

أهت آسيل فى خفوت ، وجلست على السرير :

ـ ولـــم ؟

أثارنى عدم فهمها :

ـ ماذا « ولم » • أردت أن أعبر الممر وأنا أجر مقطورة ! مفهوم ؟ •• لأبرهن على فكرتى • ففشلت •

مرة أخرى طمرت وجهى فى راحتى ، وصمت كلانا برهة ، وفجأة نهضت آسيل حازمة ، وشرعت تلبس ملابسها •

وقالت فى حـــدة :

ـ ولما أنت قاعد ؟
تمتمت :
ـ وماذا اعمل ؟
ـ عد الى حظيرة السيارات .
ـ كيف ؟ بلا مقطورة ؟
ـ اشرح كل شيء هناك .
قلت بغيظ ورحت أذرع الغرفة :
ـ كيف هذا ؟ بأى عينين أجر المقطورة الى هناك ؟ وأقول لهم : اسمحوا لى ، أعذرونى . لقد أخطأت . أزحف على بطنى، أتضرع ؟ .. لا أستطيع . فليفعلوا ما يروق لهم ، لا يهمنى هذا!

استيقظ ابنى فى سريره على صرخاتى . وانشأ يبكى . حملته آسيل فى يديها ، فانخرط يبكى أشد .

وفجأة قالت لى آسيل فى سكينة ولكن بثقة :

ـ أنت جبان !

ـ ماذا ؟ ـ ودون وعى اندفعت نحوها شادا جمعى يدى، وهويت بها دون أن اتجرأ على أن أضربها . أوقفتنى عيناها الدهشتان المفتوحتان على وسعهما ورأيت فى سواديهما وجهى المرعب المتلوى .

دفعتها بغلظة جانبا ، واتجهت نحو العتبة وخرجت صافقا الباب بقوة .

كان النور قد شف فى الفناء . وفى نور النهار الوليد بدا لعينى كل ما وقع البارحة أكثر حلكة وتعاسة وغير قابل للتصليح.

ولم أر فى اللحظة الراهنة غير حل واحد هو أن أوصل الحمولة التى كانت فى السيارة • ولا أعرف ماذا فى المستقبل •••

لم أذهب الى البيت فى طريق عودتى • لا لأننى تشاجرت مع آسيل • لم أرد أن يرانى أحد • ولا أعرف كيف يتصرف الآخرون ، ولكننى فى مثل هذه الأحوال أفضل الخلو الى نفسى، ولا أحب أن أظهر للناس غمى • فمن بحاجة اليه ؟ فتحمل اذا قدرت قبل أن تعانى كل شئ •••

قضيت ليلتى أثناء سفرى فى بيت المسافرين • وحلمت وكأننى أبحث عن المقطورة فى الممر • لم يكن حلما بل كابوسا صرفا • أرى آثار السيارة ولا أرى للمقطورة من أثر • وأتعذب وأسأل أين ذهبت المقطورة ومن سرقها ؟

وحين رجعت لم تكن فى الواقع فى ذلك المكان المنكود • ثم عرفت فيما بعد أن على بك قد عاد بها الى الحظيرة •

عدت فى الصباح فى أثر المقطورة • كان وجهى قد اسود خلال تلك الأيام • نظرت الى نفسى فى المرآة الصغيرة فى أعلى القمرة فأنكرتها •

كانت الحياة فى الحظيرة تسير سيرها الاعتيادى كما هى دائما ، الا أنا فكأننى لم أكن من العاملين هنا • أوصلت سيارتى الى البوابة بغير ثقة ودخلت الباحة فى سكون ، ووقفت فى زاوية بعيدة على مسافة من الكراج ولم أخرج من القمرة رأسا • قلبت بصرى فيما حولى • كف الناس عن أعمالهم ونظروا الى • آه • لو أستدير الآن ، واذهب الى حيث يمتد بصرى • ولكن لم يكن

لى ما أذهب اليه ، فاضطررت الى الخروج من القمرة • وجمعت جميع قوتى ، وعبرت الباحة الى مأمورية السير • حاولت أن أبدو هادئا ، ولكننى فى الحقيقة أسير مثل مذنب أمام صف الجنود وأعرف أن الجميع يتبعوننى بنظرات جهماء • لم ينادنى أحد ، ولم يحيى أحد • ولعلى سأتصرف مثل تصرفهم هذا ، لو كنت فى مكانهم •

تعثرت فى العتبة : وكأن قلبى انتفض أيضا : لقد نسيت كاديتشا ، وضعتها فى موضع حرج !

فى الممشى قابلتنى وجها لوجه لافتة حائطية اسمها «البرق» تصدر فى حالات استثنائية وقد كتب عليها بحـــروف كبيرة : « العار » وتحت هذه الكلمة رسمت المقطورة الملقاة فى الجبال•

واستدرت • والتهب وجهى وكأننى قد صفعت • ودخلت حجرة مأمورية السير • كانت كاديتشا تتحدث فى التلفون • ولما رأتنى وضعت السماعة •

ــ خذى ! ــ وألقيت على الطاولة ورقة السير الملعونة •

نظرت الى كاديتشا فى رثاء • وقلت فى نفسى : أرجو أن لا تصرخ وان لا تبكى • وتوسلت اليها فى فكرى : « فيما بعد • فى مكان آخر • وليس الآن » • وفهمت هى ولم تقل شيئا •

سألت فى خفوت :

ــ هل حدثت ضجة ؟

هزت كاديتشا رأسها بالايجاب •

قلت من خلال أسنان مصكوكة محاولا تشجيعها :

ـ لا بأس !
ـ قالت هي :
ـ اخرجوك من الرحلات •
سألت باسما بسمة ساخرة :
ـ أخرجوني ؟ •• نهائيا ؟
ـ أرادوا أن يخرجوك نهائيا• لتعمل في التصليح ••• ولكن الأولاد تدخلوا ، فحولوك الى السفرات الداخلية • اذهب الى الرئيس فقد استدعاك •
ـ لا أذهب • وليقرروا هم بأنفسهم بدوني • لن أشفق على هذا العمل •••
وخرجت • تمشيت في الممشى مطرق الرأس • واتجه شخص نحوي فاردت أن اتنحى عن طريقة ، الا أن علي بك سد الطريق•
ـ لا ! قف ! ـ حصرني في زاوية ونظر الى وجها لوجه وقال بهمس حانق صافر ـ علام برهنت يا بطل ؟ برهنت على أنك ابن كلب •
تمتمت :
ـ أردت الأحسن •
ـ كذب ! لم ترد الا أن تبرز نفسك • عملت لنفسك ، وخربت القضية التي تستحق العمل • اذهب الآن وحاول أن تبرهن بعد هذا أن في الامكان الخروج مع مقطورة ! يا اخرق ! يا غر!
من الممكن أن تحمل هذه الكلمات غيري من الناس على أن يغير رأيه • الا أن كل شيء سواء لدى الآن : لم أفهم شيئا ، ولم

أر غير اهانتى • هل أنا غر أحاول أن ابرز نفسى وانال مجدا ؟ هذا غير صحيح !

دفعت عليّ بك جانبا وقلت :

ـ تنح عن طريقى • حالتى ممرضة بدونك !

خرجت الى الطوار • كانت ريح باردة قارصة تثير فى الباحة سحابة من دقيق الثلج • والذين مروا بى نظروا الى من أطراف عيونهم صامتين • ماذا كان على أن أعمل ؟ حشرت فى جيبى قبضتى يدى ، واتجهت نحو باب الخروج • كان الجليد الـذى تكون فى حفر الأرض يتكسر فى قرقعة حين اطأه • وقعت علبة صفيح من الشحم تحت قدمى ، فركلتها بكل ما أملك من قوة فطارت عبر البوابة الى الشارع ، وخرجت فى أثرها •

تسكعت طوال النهار دون هدف فى شوارع البلدة مطوفا فى المرفأ الفارغ • كانت بحيرة ايسيك ـ كول غير هادئة ، وسفن النقل تتأرجح عند مراسيها •

ثم رأيتنى فى مشرب • وعلى الطـاولة أمامى زجـاجة « فودكا » قد شرب منها قليل وصحن من النواشف وخدرنى القدح الأول فنظرت فى بلاهة الى قدمى •

وفجأة سمعت على مقربة منى صوتا محتفيا فى شيء من السـخرية :

ـ لم أنت كسير الخاطر يا فارس ؟ ـ ورفعت رأسى بمشقة• وكانت كاديتشا ـ ألا تستطيع أنْ تشرب وحدك ؟ ـ قالتَ

باسمة وجلست على مقعد بالقرب منى • ثم قالت : تعال نشرب سـويـة •

صبت كاديتشا الفودكا فى قدحين • وقربت احـدهما نحوى وقالت :

ـ امسك ! ـ وغمزت فى حبور وكأننا قد جئنا الى هنا لمجرد الجلوس واحتساء الكؤوس •

سألتها فى غير ارتياح :

ـ لم أنت جذلى ؟

ـ ولم أحزن ؟ •• حين أكون معك لا أعبأ لكل شىء يا الياس • ولكننى حسبتك أمتن • ـ وضحكت ضحكة خافتة ، واقتربت أكثر ، وقرعت كأسها بكأسى ناظرة الى بعينين داكنتين مداعبتين •

وشربنا • أشعلت سيكارة • وكأنما قد سرى عنى قليلا • وابتسمت لأول مرة فى هذا اليـوم •

قلت لكاديتشا وضغطت على يدها :

ـ شاطرة أنت يا كاديتشا •

ثم خرجنا الى الشارع • وكان النهار قد ولى ، وريح حمقاء قادمة من البحيرة تهز الأشجار والمصابيح ، والارض تميد تحت الأقدام • قادتنى كاديتشا مسندة اياى من يدى ، رافعة ياقتى فى حنـان •

قلت لها مستشعرا الذنب والامتنان :

ـ أنا مذنب بحقك يا كاديتشا ولكن لن أدع أحـــدا يؤذيك ... أنا المسئول ...

أجـابت :

ـ أنس ذلك يا عزيزى . أنت مضطرب . أنت ترهق نفسك فيؤلمنى ذلك . وقد كنت أيضا هكذا . ساير الحياة وخـــذ ما بوسعك أن تأخذه . ولا تناكد القدر .

قلت معترضا :

ـ هذا يتوقف على الفهم ـ وفكرت قليلا ثم اضفت ـ أو لعلك على حق ...

وتوقفنا عند البيت الذى تعيش فيه كاديتشا . وكـانت تعيش وحدها هناك منذ أمد طويل . وقـد انفصلت عن زوجها لسبب ما .

قالت كاديتشا :

ـ حسنا . ها قد وصلت .

تباطأت ولم أذهب . كان شىء ما يشد أحدنا الى الآخر . ولم أرد فى تلك اللحظة أن أعود الى النزل . والحقيقة جميـلة، ولكنها ، فى أحايين ، مرة جدا فيسعى الانسان الى تجنبها دون ارادته .

سألت كاديتشا :

ـ ماذا تفكر يا عزيزى ؟ هل أنت تعب ؟ وطريقك طويل ؟

ـ لا بأس . سأصل ، على نحو ما . الى اللقاء .

أخذت يدى ، وقالت :

ـ أوه • يدك مثلجة ! •• وسأدفئك ـ وضمت يدى تحت معطفها ، وضغطتها على صدرها بقوة • ولم أجرؤ على سحبها ، لم أجرؤ على مقاومة هذه الرقة الحارة • كان قلبها ينبض تحت يدى ، يدق وكأنه يطالب بالشيء الذى انتظره طويلا • وكنت ثملا ولكن ليس بالدرجة التى لا أعى فيها شيئا • سحبت يدى بحذر •

قالت كاديتشا :

ـ أذاهب أنت ؟

ـ نعـم •

وداعا ! ـ وتنهدت كاديتشا وأسرعت الى الانصراف • وصفقت الباب فى الظلمة • وأخذت أنا طريقى أيضا • الا أننى توقفت بعد خطوات وأنا لا أعرف كيف حدث ذلك ، غير اننى كنت عند الباب مرة أخرى • وكانت كاديتشـا فى انتظارى • ارتمت على عاتقى ، وحضنتنى بقوة مقبلة اياى من شفتى • وهمست :

ـ عدت ! ـ ثم أمسكت بيدى وقادتنى الى بيتها •

استيقظت فى الليل ، ولبثت وقتا طويلا ، وأنا لا أعرف أين أنا • كان رأس يؤلمنى • كنا مستلقين جنبا الى جنب • كانت كاديتشا نصف عارية حارة ملتصقة بى ، متنفسـة على كتفى بهدوء • وعزمت على النهوض والخروج دون ابطاء • تحركت • فحضنتنى كاديتشا دون ان تفتح عينيها •

توسلت الى فى همس :

ـ لا تذهب ! ـ ثم رفعت رأسـها وفى الظلمة نظرت فى

عينى وقالت فى همس متقطع : ـ لا حياة لى الآن بدونك ••• أنت لى • كنت دائما لى ! •• ولا أريد أن أعرف أكثر من هذا• سوى انك تحبنى الياس • لا أريد شيئا آخر ••• ولن أتخلى عن ذلك • أتفهمنى ؟ لن أتخلى ـ وبكت كاديتشا • وتساقطت دموعها على وجهى •

لم أذهب • نمنا عند مطلع الفجر • وحين استيقظنا كان الصباح فى الفناء • لبست ثيابى بسرعة • وكانت تعصر قلبى برودة غير مريحة ورهبة • ولبست معطفى الفرائى وأنا أسير، وخرجت الى الفناء على عجل واندفعت الى الباب • وخرجت الى الشارع • وفجأة كنت وجها لوجه مع رجل يرتدى قبعة فضفاضة حمراء من فراء الثعلب • آه • كم وددت لو أطلقت عينى رصاصا فى تلك الساعة ! كان ذلك جانتاى خارجا الى العمل ، وكان يعيش على مقربة من هنا • وقد تجمد كلانا برهة • وتظاهرت بأننى لم أره • استدرت استدارة حادة ، وأسرعت فى سيرى الى حظيرة السيارات • وأخذ جانتاى يسعل ورائى سعال التلميح • وكنت أسمع صوت الثلج يتكسر تحت أقدامه على مسافة لا تزيد ولا تقصر • وهكذا سار أحدنا وراء الآخر الى حظيرة السيارات •

ذهبت الى الادارة دون أن أدخل الكراج • كانت الأصوات تتردد غير عالية فى غرفة رئيس المهندسين حيث تعقد دائما اجتماعات الصباح التى تستغرق خمس دقائق • كم كنت راغبا فى الدخول الى هناك ، وأن أجلس على طوار النافذة واضعا

ساقاً على ساق ، مدخنا ، مصغيا الى أقوال السواقين غير الحقودة ونقاشاتهم . ولم أتصور قط أن من الممكن ان تكون هذه لتعز على انسان . غير انني لم أعزم على الدخول . ولم يكن ذلك جبنا على ما أحسب . كان في نفسي هذا الخبث والعناد المثير المقنط المسلوب الارادة ، فضلا عن هذا الارتباك بعد الليلة التي قضيتها مع كاديتشا ... ثم ان الناس ، كما يبدو ، لم يريدوا قط نسيان خيبتي . وجرى الحديث خلف الأبواب عني بالضبط . صاح أحدهم :

ـ شناعة ! ينبغي تقديمه الى محكمة . أما انتم فتتحدثون عنه ! وكفى بكم وقاحة ان تقولوا ان اقتراحه كان صحيحا ! بينما هو قد ترك المقطورة في الممر !

قاطعه صوت :

ـ حقا . اننا رأينا الكثير من أمثاله . ياله من ذكاء . أراد مكافأة بالخفاء على انقاذ الحظيرة . ولكن لم تنطل الحيلة !

وتناقشوا وتحدثوا في ضجيج . وابتعدت ولم أرد أن أستمع خلسة عند الباب .

سمعت أصواتا ورائي . فحثثت خطاي . ما زال الأولاد يتصايحون . كان علي بك يبرهن لشخص بحرارة وهو يسير :

ـ ونصنع للمقطورات فرامل عندنا في الحظيرة . وليس بالأمر الصعب تماما ... أهذا الياس ؟ ـ وصاح علي ـ الياس انتظر !

لم أتوقف . وتوجهت نحو الكراج . ولحق بي علي بك وجذبني من كتفي .

ــ أوه يا للشيطان • فى آخر المطـاف أقنعتهم • تهيـأ يا الياس • هل تريد ان تعمل معى فى سيارة واحدة ؟ ها ؟ فى الرحلة التجريبية مع مقطورة !

وتملكنى الغيظ : فكر فى أن ينقذنى أنا ، ويسحبنى الصديق الفاشل وراءه كزميل له فى الرحلة • وألقيت يده عن كتفى :

ــ اذهب أنت مع مقطوراتك الى •••

ــ لم أنت تتهاوش ؟ أنت الملوم ••• ثم اننى نسيت ••• ألم يقل لك فولوديا شيريايف شيئا ؟

ــ لا ! لم أره • ماذا ؟

ــ كيف ماذا ؟ أين كنت ؟ كانت آسيل تنتظر فى الطريق وتسأل سواقنا • كانت تتعذب • وأنت !

وترنحت قدماى • وثقل على ، وتقززت نفسى بشـكل لا يطاق فتمنيت أن أموت فى مكانى • وأمسكنى على بك من يدى وراح يشرح لى ما سيلحق بالمقطورات من أعتدة اضافية ••• وكان جانتاى يقف جانبا يتسمع •

سحبت يدى وقلت :

ــ اتركنى ! أى شيطان جعلك وكيلا على ••• كفى! لااحتاج الى أية مقطورة • ولن أشترك معك فى عمل ••• أهذا واضح لك ؟

تجهم على بك ، وارتعص لغده •

ــ أنت أول من بدأ هذا العمل وفشلت والآن أنت أول من يهرب منه • أليس ذلك ؟

ـ افهم الأمر حسب ما تهوى •

واتجهت الى السيارة ويداى ترتجفان • ولم أقو على التفكير فى شىء • ولسبب لا أدريه قفزت الى الحفرة تحت السيارة ، وأسندت رأسى الى الجدار الآجرى ابترد •

همس صوت قرب أذنى :

ـ اسمع يا الياس •

رفعت رأسى • من هذا الآخر ؟ رأيت جانتاى فى قبعته الحمراء جالسا فوق الحفرة مثل فطرة ينظر الى بعينين ضيقتين ماكرتين •

ـ نعم ما فعلت معه يا الياس !

ـ مع من ؟

ـ مع على بك ، العامل النشيط ! كأن الحجارة وقعت بين أسنانه • وصمت ذلك المبتكر فى الحال •

ـ وأى شأن لك فى هذا ؟

ـ أى شأن ••• لا بد من انك فاهمه : نحن السواقين لا تهمنا المقطورات • تعرف كيف تجرى مثل هذه الأمور : يزيد معدل العمل وتقل المدة المخصصة للرحلة • وعلى الجميع ان يحذو حذوه ويقللون القيمة لكل كيلو متر من النقل • ولا أحد يريد الاضرار بجيبه • المجد ليوم واحد ثم ماذا ؟ •• لسنا لانميك، فتصرف فيما بعد نفس تصرفك •••

سألت فى أكثر ما يمكن من الهدوء :

ـ ومن تعنى باننا ؟ أتعنى أنت ؟

رمش جانتاى بعينيه :

ـ لست وحدى •

ـ أنت تكذب أيتها القملة القذرة ! سأجر المقطورة نكاية بك ••• أضحى بنفسى ولكننى أتوصل الى تنفيذ رغبتى • والآن اغرب عن وجهى ! وسأريك فيما بعد !

قال جانتاى بحقد :

ـ لا تخيفنى كثيرا • أنا أعرف درجة نقاوتك ••• أما مغازلاتك فأقول لك : واصل ما دام •••

صحت خارجا عن أطوارى :

ـ آه • انت ! ـ ودفعته بكل قوتى من تحت فكه •

ولما كان جالسا على حافة الحفرة انقلب على ظهـــره • وتدحرجت قبعته على الأرض • وخرجت من الحفرة ، واندفعت عليه • الا أنه تمكن من النهوض على قدميه ، وقفز جانبا • وراح يزعق فى الفناء كله :

ـ يا فاسق ، يا لص ! اتتعارك ؟ ستنال جزاءك ! تعربد وتنفث الحقد !

وتقاطر الناس من كل الجهات • وجاء على بك يهرول أيضا •

ـ ماذا فى الأمر ؟ على أى شىء ضربت جانتاى ؟

صاح جانتاى :

ـ على الحقيقة ! لاننى قلت له الحقيقة فى وجهه ! •• لقد سرق المقطورة بنفسه ، وألقاها فى الممر ، وقذر • وحين يريد

الآخرون باخلاص ان يصلحوا خطأه يتعارك معهم ! والآن لا ينفعه هذا . ضيع المجد ! ..

أقبل على بك على شاحب الوجه وقال متلعثما من الحنق دافعا اياى من صدرى :

ــ وغد ! ... تجاوزت الحد تريد أن تثأر لحادثة الممر . لا بأس سندبر الأمر بدونك . دون ابطال !

صمت . لم تكن لدى القوة على أن أقول شيئا : أصعقنى افتراء جانتاى الوقح ، فلم أستطع أن أتفوه بكلمة . ونظر الى رفاقى عابسين .

لاخرج من هنا ... لاخرج من هنا ... وقفزت الى السيارة وأخرجتها من الحظيرة .

فى الطريق شربت شيئا . انحرفت الى مخزن فى الطريق وشربت . ولم ينفع ، فتوقفت ثانية وشربت قدحا بكامله . ثم سرت بسرعة جنونية : الجسور ، وعلامات الطريق ، والسيارات القادمة من الجهة المعاكسة أخذت تمر أمام عينى خطفا . الظاهر ان حمياى قد دبت . وقلت لنفسى : « لا تكترث لشىء . فماذا يعوزك ! بين يديك مقود فدره . وكاديتشا ... ليست أسوأ من الاخريات . شابة جميلة تحبك وتذوب غراما بك . وتفعل كل شىء من أجلك . أحمق وناكر جميل ! »

وصلت الى البيت فى المساء . وقفت عند الباب وتمايلت . فروتى تتدلى ورائى على كتف واحدة . كنت أحيانا أطلق يدى اليمنى كيما أكون فى وضع أروح وأنا خلف عجلة القيادة . عادة

تحدرت الى من الطفولة أيام أرمى الحجارة وأنا طفل •
اندفعت آسيل نحوى وسألتنى :
ـ الياس • ماذا بك ؟ ـ ثم سألت وكأنها أدركت حقيقة الأمـر : ـ لمـاذا أنت واقف ؟ لعلك تعب ومثلج ؟ •• اخلع ملابسك •

أرادت أن تساعدنى فدفعتها فى صمت • وكان على أن أستر وراء الغلظة خجلى وسرت فى الغرفة متعثرا • قلبت شيئا مرسلا صوتا حادا • وألقيت بثقلى على المقعد •

ـ هل حدث شىء ما يا الياس ؟ ـ نظرت آسيل فى قلق بعينى الثملتين •

ـ ألا تعرفين ؟

أطرقت برأسى : الأفضل ان لا أنظر • جلست أنتظر أن تبدأ آسيل بتقريعها لى ، وشكواها من مصيرها ، وأن تصب اللعنات• وكنت مستعدا الى أن أسـمع كل شىء ، ولا أبرر نفسى لها • الا انها صمتت وكأنها لم تكن فى الغرفة • رفعت بصرى بتؤدة• كانت آسيل واقفة عند الشباك وظهرها الى • وعرفت ، رغم اننى لم أر وجهها ، انها تبكى • وعصرت قلبى شفقة حادة •

قلت فى تردد :

ـ أتعرفين يا آسيل اننى أريد أن أقول لك ••• أريد أن أقول ••• ـ وصمت • لم أتجرأ عى الاعتراف • لا • لم أقو على أن أسدد لها مثل تلك الضربة • أشفقت عليها وليس لى من حاجة الى ذلك • تابعت قولى محولا الحـديث الى جهة

أخرى : — أظن اننا لا نستطيع السفر قريبا الى والديك فى القرية • بل فى وقت أبعد • أما الآن فلا نستطيع •••

ردت آسيل وهى تمسح الدموع من عينيها وتتقدم نحوى:

— تؤجله فلسنا مستعجلين عليه • فلا تفكر بذلك الآن يا الياس • سيكون كل شىء حسنا • الأفضل أن تفكر بنفسك• لقد أصبحت غريب الأطوار حتى لا أعرفك ، الياس •

قاطعتها مستثارا بخور النفس :

— حسنا أنا تعب ، وأريد أن أنام •

بعد يوم التقيت بعلى بك فى طريق العودة فى الجهة الأخرى من الممر • كان يجر وراءه مقطورة • لقد قهر دولون •

حين رآنى وثب خارجا من القمرة ولوح بيده فقللت السرعة• كان على بك واقفا فى الطريق فرحا منصورا •

هتف :

— تحية يا الياس ! •• انزل لندخن قليلا •

فرملت • كان يجلس وراء عجلة القيادة فى سيارة على بك شاب هو السائق الثانى • وقد شددت على عجلات السيارة سلاسل محكمة بينما كانت المقطورة ذات فرامل تعمل بالضغط الهوائى • لاحظت ذلك على الفور • غير اننى لم أتوقف • لا • فاذا كان قد وفق فأمر لطيف • ولكن ليدعنى وشأنى •

هرول على بك ورائى قائلا :

— قف • قف • لى قضية معك • توقف اليـاس ! أوه يا شيطان ماذا بك ؟ حسنا •••

وزدت سرعة السيارة . وليصرخ ما شاء ان يصرخ . وليست لنا معك أية قضية . قضيتى ضاعت منذ زمن . ولم يكن تصرفى حسنا . فقدت فى شخص على بك صديقا حميما . وقد كان على حق ، على حق فى كل أمر . والآن أعى ذلك . ولكننى حينئذ لم أستطع أن أغفر له ان يستحوذ بشكل بسيط وسريع على ما كلفنى كثيرا من توتر الأعصاب والعناء والعمل .

كان على بك على الدوام رجلا جديا يطيل التفكير كثيرا. ولا يمكن أبدا أن يكون الأول فى الخروج الى الممر وهو غير مستعد مثلى . وكان على حق فى خروجه فى سيارة واحدة مع سائق آخر . ففى وسعهما أن يتبادلا السياقة فى الطريق ، والتصدى للممر بقوى لا تمس . والمحرك وارادة الانسان ويداه هى العوامل الحاسمة عند عبور الممر . ثم ان على بك وزميله سيختصران زمن الرحلة الى النصف تقريبا . وقد أخذ على بك كل هذا بعين الاعتبار ، ومن مكابس السيارة مد الفرامل العاملة الى المقطورة . ولم ينس حتى السلاسل العادية ، وشدها الى العجلتين القائدتين . وعلى الاجمال انه نازل الممر بكل الأسلحة، ولم يلق نفسه للمقادير .

وحذا الآخرون حذو على بك وراحوا يسوقون السيارات التى تجر وراءها مقطورات . والبداية هى الرئيسية فى كل أمر . وخلال ذلك زيد عدد السيارات ، وأرسلت المعونة من حظائر السيارات المجاورة وطوال أسبوع ونصف كانت عجلات السيارات تمسح طريق تيان شان ليل نهار . وخلاصة القول ان

طلب العمال الصينيين قد لبى فى ميعـاده بغض النظر من كل المصاعب ولم نخيب آمال الناس . وقد عملت أنا أيضا ...

والآن ترانى أقص عليك هذا فى هدوء . وقد انقضت سنون عديدة واستقر كل شيء . أما فى تلك الأيام الملتهبة فلم أبق على الصهوة . وأدرت فرس الحياة باتجاه آخر ...

فلاتابع قصتى فى طريقها الطبيعى .

وصلت الى حظيرة السيارات عند هبوط المساء بعد لقائى بعلى بك وذهبت الى النزل ، الا أننى عرجت فى الطريق الى مشرب أيضا . فى تلك الأيام كانت لى رغبة جموح غير انسانية فى السكر الى حد فقدان الوعى لأنسى كل شيء نسيانا تاما ، وأغرق فى نوم عميق . شربت كثيرا ، ولكن الفودكا لم تؤثر فى كثيرا ، فخرجت من المشرب أكثر ثائرا واضـطرابا وطوفت فى البلدة والليل مرخ سدوله ، وتحولت دون أى تفكير الى شارع بيريغوفايا حيث تسكن كاديتشا .

وهكذا سارت الأمور . وقعت بين نارين . فى النهار أعمل وراء عجلة القيادة ، وفى الأمسيات أذهب الى كاديتشا رأسا . وكنت معها أشعر بالراحةوالهدوء ، وكأننى أغيب عن نفسى وعن الناس وعن الحقيقة . وبدا لى أن كاديتشا وحدها تفهمنى وتحبنى. كنت أحاول أن أغادر بيتى سريعا . وآسيل ! ويلى عليها . آه لو عرفت انها كانت تطردنى من البيت بوداعتهـا ونقـائها الروحى . لم أكن قادرا على أن أخادع ، وأنا أعلم أننى غير أهل لها ، لا أستأهل ما فعلته لى . وقد عدت عدة مرات الى البيت

ثملا . ولكنها لم تؤنبني . وأنا حتى الآن لا أستطيع أن أفهم ماذا كان ذاك : شفقة وضعف ارادة أم بالعكس تماسكا وايمانا بانسان . ولكنها بالطبع كانت تنتظر ، وتؤمن بانني سامسك بزمام نفسي ، وأقومها ، أعود كما كنت من قبل . ولكن كان من الأفضل لو أنها أنبتني ، وألزمتني على أن أطرح عليها الحقيقة كلها بنزاهة . ولعلها كانت تطالبني بجواب لو انها عرفت ان ما يمزقني ليس فقط ما أصابني في عملي . انها لم تتصور ما وقع لي في تلك الأيام . وكنت أشفق عليها مؤجلا الحديث الى الغد ، الى المرة القادمة . وهكذا لم يتسن لي أن أفعل ما كنت ملزما على أن أقوم به من أجلها ، من أجل حبنا ، من أجل عائلتنا ...

في آخر مرة قابلتني آسيل فرحة مستبشرة . كانت موردة الخدين متألقة العينين . ودفعتني الى الحجرة ، وأنا ما أزال في الجبة الفرائية والحذاء الطويل .

ـ انظر يا الياس ان سامات واقف على رجليه .

ـ ها ! .. أين هو ؟

ـ هناك . تحت المنضدة .

ـ انه ما يزال يحبو على الأرض .

ـ سترى الآن ... وليدي ! .. أر أباك كيف تقف . امش أمش ، سامات .

وبطريقة ما فهم سامات ماذا يراد منه . نهض في مرح على يديه ورجليه ، وخرج من تحت المنضدة ، وأمسك بالسرير ،

وانتصب بصعوبة • وقف قليلا مبتسما فى شجاعة مترنحا على رجليه الغضتين • وبنفس تلك البسمة والشجاعة وقع على الأرض • وقفزت وأخذته بين ذراعى ، وضممته الى صدرى ، وشممت رائحة الطفل الحليبية العذبة • وما أعزها الى من رائحة عزة آسيل الى •

أخذت آسيل ابنها :

ـ ستخنقه يا الياس • على مهلك • ولكن ما رأيك ؟ اخلع ثيابك • سيصبح عن قريب كبيرا تماما ، حينذاك ستبدأ أمه بالعمل • وسيكون كل شيء حسنا ، سيكون كل شيء جميلا • أليس كذلك يا بنى ؟ ها ؟ وأنت ! ـ ونظرت الى آسيل نظرة متأملة حزينة • وجلست على مقعد • وفهمت انها تقول بهذه الكلمة القصيرة ، كل ما أرادت أن تقول ، كل ما تراكم فى نفسها فى تلك الأيام • وكان ذلك أيضا رجاء ، وتأنيبا وأملا • وكان على أن أقص عليها الساعة كل شيء ، أو ان أنصرف عنها حالا • والأفضل ان انصرف • كانت سعيدة جدا ولا ترتاب فى شيء • نهضت من المقعد •

ـ أنا ذاهب •

انتفضت وقالت :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ حتى هذا اليوم لا تبقى ؟ على الأقل اشرب الشاى •

غمغمت :

ـ لا أستطيع • ينبغى على • أنت نفسك تعرفين حالة العمل الآن •••

لا • لم يخرجنى العمل من البيت • كان على فقط أن أخرج فى الصباح الى العمل •

فى قمرة السيارة ألقيت بنفسى على المقعد بقوة ، ورحت أتوجع من الغم • وظللت طويلا دون أن تهتدى يدى الى مفتاح السيارة الى محله • ثم خرجت الى الطريق ولبثت ذاهبا فيه حتى اختفت أضواء النوافذ ورائى • وفى المضيق بعد القنطرة مباشرة انحرفت جانبا • ومشيت بالسيارة فى أجمة ، واطفأت المصابيح• هنا عزمت على أن أقضى ليلتى • وأخرجت علبة السكائر • وكان فى علبة الكبريت عود واحد • اشتعل لمحة ثم انطفأ • وقذفت بالعلبة مع السكائر خارج النافذة ، وبسطت الجبة الفرائية على رأسى ، وطويت قدمى تحتى وتكورت على المقعد •

كان القمر يطل فوق الجبال الباردة المعتمة • وكانت الريح فى المضيق تصفر بوحشية ، وتحرك باب القمرة نصف المفتوح • فكان يصر صريرا خافتا • فى حياتى كلها لم أشعر بهذا الشكل الحاد من الوحدانية التامة ، والانقطاع عن الناس وعن عائلتى وعن رفاقى فى حظيرة السيارات ••• والحياة لا يمكن أن تعاش على هذا النحو فى المستقبل • وقطعت عهدا على نفسى بأن أتحدث الى كاديتشا ما ان أصل الى الحظيرة ، وأطلب منها الصفح ، ونسيان كل ما كان بيننا • وسيكون هذا عملا كريما وصحيحا •

الا ان الحياة أرادت غير ذلك • أنا لم أتوقع ولم أفكر بأن

أمرا كهذا سيقع • بعد يوم واحد عدت فى الصباح الى محطة الممر • ولم يكن أحد فى البيت • وكان الباب مفتوحا • وفى البدء خمنت أن آسيل خرجت للماء أو للحطب • وقلبت بصرى فيما حولى • كانت الحجرة تعمل فيها الفوضى • وهبت على من الموقد الهامد الأسود رائحة باردة لا حياة فيها • واتجهت نحو سرير سامات ، فكان فارغا •

همست فى ذعر :

ـ آسيل ! ـ فرددت الجدران فى همس أيضا «آسيل» •

اندفعت عجلان الى الباب •

ـ آسيل !

لم يرد على أحد • هرعت الى الجيران ، الى محطة البنزين • لم يعرف أحد شيئا مفصلا عنها • قالوا انها يوم أمس خرجت طوال النهار بعد أن أودعت الطفل عند معارفها وعادت فى المساء • « عرفت وذهبت ! » وارتعشت من الظنون المخيفة •

لم يدر فى خلدى اننى سأسوق السيارة فى وقت ما فى طريق تيان شان الجبلى على النحو الذى سقتها فيه فى ذلك اليوم التعيس على • طوال الوقت أتوهم اننى سألحق بها ما ان أجتاز هذا المنعطف ، أو هـذا المضيق ، أو فى موضع ما فى الطريق • وكالنسر كنت ألحق بالسيارات التى كانت تسير أمامى، وأفرمل وأسير جنبا الى جنب ، والتهم بنظرى القمرة ، والحوض، وانطلق قدما تحت وابل من شتائم السواقين • وعلى هذا النحو سرت منطلقا ثلاث ساعات دون تمهل حتى غلى الماء فى براد

السيارة . فقفزت من القمرة ، وألقمت البراد ثلجا وجلبت الماء، وتصاعد البخار من البراد وشهق مثل فرس مبهور الأنفاس . ولما هممت بالجلوس وراء عجلة القيادة رأيت سيارة على بك ذات العربة تسير لمقابلتى . وغمرنى فرح . لو كانت آسيل مع عائلته فسيقول لى ، رغم ان أحدنا لا يحادث الآخر ولا يسلم عليه . خرجت الى الطريق مهرولا ورفعت يدى .

ــ قف . قف . على بك ! قف .

نظر البديل الجالس وراء دفة القيادة الى على بك فى تساؤل . فالتفت هذا عابسا . ومرقت السيارة مارة بى ، بينما ظللت أنا واقفا فى الطريق يغطينى دقيق الثلج رافعا يدى طويلا. ثم مسحت وجهى . هذا رد لدين سابق . ولكن لم أغضب على على بك حينذاك . يعنى ان آسيل لم تذهب اليه . وهذا أسوأ. يبدو انها ذهبت الى بيتها فى القرية . وليس لها من مكان آخر تذهب اليه . كيف عبرت عتبة بيت والديها وماذا قالت ؟ وماذا سيقولون هنا عن عودتها المعيبة ؟ وحيدة وبين ذراعيها طفلها !

ينبغى أن أذهب الى القرية دون ابطاء .

وأفرغت حمولتى بسرعة ، وبعد أن تركت السيارة فى الشارع ذهبت مهرولا الى مأمورية السير أسلم الأوراق . وفى الممر اصطدمت بجانتاى . أوه هذه بسمته الساخرة الوقحة الحقودة !

نظرت كاديتشا الى بغرابة حين حشرت رأسى فى شباك

مأمورية السير ، وألقيت ورقة السير على الطاولة • ومض فى عينيها وميض قلق مذنب •

قلت :

ــ تسلمى بسرعة •

ــ هل حدث شيء ؟

ــ لم تكن آسيل فى البيت • خرجت •

شحبت ، ونهضت قليلا من المقعد :

ــ ماذا تقول ؟ ــ ثم عضت شفتيها وأضافت ــ اعذرنى ياالياس ! •• سامحنى • هذا أنا • أنا •••

ــ ماذا «أنا» ؟ قولى بصراحة • قولى كل شيء ــ واندفعت نحو الباب •

ــ أنا نفسى لا أعرف كيف حدث كل شيء • أقول لك بصدق يا الياس • بالأمس دق على الشباك بواب الفناء ، وقال ان هناك فتاة تريد أن تتحدث الى • وفى الحال عرفت آسيل• نظرت الى صامتة ثم قالت : « أهذه حقيقة ؟ » فقلت فجأة دون ان أعى نفسى : « نعم • هذه حقيقة • كل شيء صحيح • انه يعاشرنى » • وتراجعت عن الشباك • أما أنا فارتميت على الطاولة ورحت أبكى مرددة كالمجنونة : « لى • هو لى ! » • ولم أرها بعد ذلك ••• سامحنى •

ــ قفى ! من أين عرفت ؟

ــ جانتاى • هذا هو قد هددنى أنا أيضا • أيمكن أن لا تعرف انه نذل ! اذهب اليها يا الياس وفتش عنها • لن أقف

فى طريقكما بعد الآن . سأسافر الى مكان ما ...

حملتنى السيارة الى سهب الشتاء . أرض ذات لون يمامى متجمدة . وقد موجت الريح سطح أكوام الثلج ، وحملت من السواقى ساقط العشب السائب تقاذفته بعيدا . وفى المدى القصى تلوح الاسيجة الطينية التى عصفت بها الريح ، وبساتين القرية الجرداء .

وصلت الى القرية عند المساء . وتوقفت قرب الحوش الذى أعرفه ، وأسرعت فى التدخين تهدئة لأعصابى . واطفأت عقب السيكارة . وأرسلت اشارة . ولكن ، بدلا من أن تخرج آسيل خرجت أمها وعلى كتفها فروة . وقفت على المرقاة وقلت فى صوت خفيض :

ــ مرحبا ، يا آبا .

أجابت فى جهامة :

ــ اذن فهذا أنت ؟ بعد كل هذا تتجرأ على تسميتى آبا ؟ اذهب ، أغرب عن عينى ! سائب ومحتال ! سرقت ابنتى العزيزة. والآن أتيت . عيناك وقحتان . نغصت علينا كل حياتنا ...

لم تدعنى العجوز أفتح فمى . مضت تصب الشتائم ، وتقذفنى بأشنع الألفاظ . وجاء على صوتها الناس ، والأطفال من البيوت المجاورة .

ــ ابتعد قبل أن أجمع الخلق عليك . عليك اللعنة حتى لا أراك أبدا ــ وهجمت على المرأة الغاضبة بعد أن ألقت جبتها أرضا .

لم يبق لى الا أن أجلس وراء عجلة القيادة . كان على أن أنصرف . ما دامت آسيل لم ترد ان ترانى . وانثالت الحجارة والعصى على السيارة . وهكذا طردنى الأطفال من القرية ...

فى تلك الليلة همت طويلا على شاطىء بحيرة ايسيك ـ كول . كانت البحيرة تترامى مستضاءة بالقمر . يا ايسيك ـ كول ! أيتها البحيرة الحارة أبدا ! كنت فى تلك الليلة باردة قارسة وعبوسة . جلست فى قاع قارب مقلوب . كانت الأمواج تدفع الى الجرف اثباجها الغضبى ، وتضرب رأس حذائى الطويل، ثم تتراجع فى زفير عميق ...

... واقترب منى شخص ، وألقى برقة يده على كتفى . تلك كاديتشا .

★ ★ ★

بعد أيام سافرنا الى فرونزه، واشتغلنا فى بعثة تنقيب لاستثمار مروج سهب « أنارخاى » . عملت سائقا وصارت كاديتشا عاملة. وهكذا بدأت الحياة الجديدة .

كنا نتوغل مع البعثة فى أعماق أنارخاى الى منطقة بالخاش. فما دمت قد قطعت صلتك مع الماضى ، فاقطعها الى الأبد ..

فى البداية غطى العمل على حنينى . وكانت الأشغال غير قليلة . وخلال أكثر من ثلاث سنوات نقبنا رحاب أنارخاى طولا وعرضا ، حفرنا الآبار ، ومددنا الطرق ، وبنينا قواعد للعبور . وبكلمة أخرى أن أنارخاى لم يعد الآن مكانا وحشيا يمكن أن يضل الانسان طريقه فى النهار ، ويظل شهرا كاملا يضرب فى

سهبه الذى تكثر فيه التلال والشيح • فقد أصبح الآن منطقة لتربية المواشى ذات مراكز ثقافية ، وبيوت وافرة المرافق ••• وفيه يزرع القمح ، بل ويعد فيه تبن العلف • والأعمال فى أنارخاى كثيرة حتى الآن لا سيما لاخواننا السواقين • الا اننى رجعت عائدا ، لا لان العيش فى أماكن غير مأهولة صعب للغاية ، فان ذلك رهن بالزمن • ولم أكن أنا وكاديتشا نخاف المصاعب ، ويجدر بى أن أقول اننا عشنا عيشة راضية يحترم أحدنا الآخر• ولكن الاحترام شيء ، والحب شيء آخر • وحتى اذا كان الحب غير متبادل فان الحياة معه غير حقيقية على ما أرى • وسواء أكان الانسان قد خلق هكذا أو ان طبيعتى على هذا النحو ، فاننى كنت أحس دائما بان شيئا ما ينقصنى • ولم يسد هذا النقص لا العمل ولا الصداقة ولا الطيبة ولا رعاية امرأة مغرمة • وفى قرارة نفسى كنت قد ندمت منذ زمن بعيد على خروجى بهذا الشكل المتهور دون أن أحاول مرة أخرى استرجاع آسيل • وخلال الأشهر الستة الأخيرة حننت اليها والى ابنى حنينا ليس بالهين • لم أنم فى الليل • أتصور سامات يبتسم ، ويتحامل على رجليه الهشتين غير واثق • وكأنما شممت رائحته الطفولية العذبة لتلازمنى الحياة كلها • واشتقت الى جبلى الحبيب تيان شان، والى بحيرتى ايسيك ــ كول الزرقاء ، والى السهب عند سفح الجبل حيث التقيت بحبى الأول والأخير • وقد عرفت كاديتشا ذلك • ولكنها لم تلمنى فى شيء • وفى آخر المطاف فهمنا اننا لا نستطيع أن نعيش معا •

وهل الربيع على أنارخاى مبكرا فى تلك السنة • وشف الثلج سريعا ، وظهرت التلال • واخضوضرت • وامرع السهب جامعا فى نفســه الدفء والرطوبة • وفى الليــالى بات الهواء شفافا ، والسماء منجمة •

أقمنا فى خيمة عند برج الحفر • وجفانى النوم • وفجأة ترامى فى الصمت السهوبى صفير قطار بعيد لا يكاد يسمع قادما من مدى لا يدرك • وعسير أن نقول كيف وصل الينا • فان خط السكة الحديدية يبعد عنا نصف نهار ضربا فى السهب • أم ذلك مجرد رؤيا • لست أدرى • الا ان قلبى انتفض يدعونى الى السفر • وقلت :

ــ أنا ذاهب يا كاديتشا •

اجابت :

ــ نعم ، الياس • علينا أن نفترق •

وافترقنا • سافرت كاديتشا الى كازاخستان الشمالية الى الأراضى البكر •

تمنيت لها السعادة من كل قلبى ، آملا بانها ستجد على أية حال ذلك الشخص الذى يبحث عنها ، ربما دون أن يدرى بذلك • انها لم تسعد حظا مع زوجها الأول ولم توفق معى • لعلى سأظل معها لو لم أكن أعرف ما يعنى الحب الحقيقى ، وأن تعشق وتكون معشوقا أمر يعسر على شرحه •

أوصلت كاديتشا الى محطة القطار الصغيرة ، وأجلستها فى القطار وجريت قرب العربة حتى ابتعدت • وهمست لآخر مرة :

« تصحبك السلامة يا كاديتشا • لا تحقدى على » •

كانت طيــور الغرانيق فوق أنارخاى تطير ميممة صــوب الجنوب ، بينما سرت أنا نحو الشمال متجها الى تيان شان •••

★ ★ ★

وصلت ، واتجهت من توى الى القرية دون أن أتوقف فى أى مكان • وجلست فى حوض سيارة مارة محاولا أن لا أفكر فى شيء ــ كنت أشعر برهبة وفرحة • سرنا فى السهب المحاذى المجبل ، فى نفس الطريق التى التقيت فيه بآسيل • ولكنه لم يعد طريقا ريفيا بدا طريقا مرصوفا بالحصباء ذا قناطر من الأسمنت وصوى • وتآسفت على ذلك الطريق السهبى القديم • ولم أتعرف على قنطرة الجدول الذى توحلت بالقرب منه سيارتى فى تلك المرة ، ولم أعثر على تلك الصخرة التى جلست عليها آسيل • نقرت على سطح القمرة ولم تبلغ السيارة بعد طرف القرية •

أطل السائق :

ــ ماذا بك ؟

ــ قف لأنزل •

ــ فى العراء ؟ •• سنصل حالا •

ــ شكرا • لم تبق الا مسافة قصيرة ــ وقفزت الى الأرض وقلت ــ سأذهب مشيا ــ وقدمت له نقودا •

قال :

ــ عند حدك ! نحن لا نأخذ من السواق •

ــ خذ • ليس مكتوبا على الجبين اننى سائق •

ـ بل أرى هذا بتصرفك •

ـ حسنا • ليكن ذاك • مع السلامة •

وابتعدت السيارة • ووقفت أنا فى الطريق غير قادر على لم شعاع نفسى • وأخذت أدخن متنكبا عن الريح • كانت أصابعى ترتجف حين رفعت سيكارتى الى شفتى • وسحبت عدة أنفاس، ثم دست العقب وسرت • وغمغمت « ها قد وصلت » • كان قلبى ينبض بحيث يدق فى أذنى كأن مطرقة تطرق فى رأسى •

كانت القرية قد تغيرت بصورة ملحوظة ، توسعت وظهرت بيوت جديدة كثيرة ذات سقوف أجرية • وقد مدت الأسلاك الكهربائية فى الشوارع ، ومكبر الصوت على الأعمدة قرب ادارة الكولخوز تنقل ما يذيعه الراديو • والأطفال فى طريقهم الى المدرسة ، والناشئة الأكبر سنا ذاهبون جماعة مع معلم شاب يحدثهم عن شيء • ربما كان بينهم أولئك الذين قذفونى بالحجارة والعصى ••• والوقت يسير ويسير ولا يتوقف •

وحثثت خطاى • ها هو الحوش ذو الصفصاف والاسيجة الطينية • وتوقفت ، واستنشقت نفسا • واتجهت نحو الباب فى تردد يثلجنى الذعر والقلق • وطرقته • وخرجت صبية تحمل حقيبة مدرسية فى يدها • نفس الصبية التى أخرجت لى لسانها أصبحت الآن تروح الى المدرسة • أسرعت الصبية الى دراستها• نظرت الى فى ارتباك وقالت :

ـ لا أحد فى البيت •

ـ لا أحد ؟

ـ نعم • ذهبت آبا فى زيارة فى استثمارة الغابة • وأبى ينقل الماء الى الجرارات •

ـ وآسيل • أين هى ؟ ـ سألتها فى وجل وشعرت فى الحال بغصة فى حلقى •

قالت الصبية مندهشة :

ـ آسيل ؟ سافرت منذ زمن بعيد •••

ـ ولم تأت قط ؟

فى كل عام تأتى مع زوجها • وآبا تقول انه رجل طيب جدا !

كففت عن الاستجواب • ولم أسأل عن شىء آخر • وهرعت الصبية الى المدرسة • واستدرت أنا عائدا •

وأذهلنى النبأ حتى لم أحفل بأى رجل تزوجت ومتى وأين• ولماذا أعرف ؟ ولسبب لا أعرفه ، لم يدر بخلدى قط ان آسيل يمكن أن تجد رجلا آخر • وقد حدث هذا لا محالة • فلا داعى لأن تقعد لانتظارى سنوات حتى أعود •

وسرت فى الطريق دون أن أنتظر سيارة عابرة •

نعم • لقد تغير الطريق الذى سرت فيه فصار ممهدا مرصوفا بحصباء صلبة • الا السهب فقد بقى على حاله بتربته المنفوشة السوداء ، وبقايا السيقان الفاتحة اللون • كان السهب يتماوج فى انحدار وانبساط من سفح الجبل حتى الأفق • تقتطعه حافة وضاءة عند شواطىء بحيرة ايسـيك ـ كول البعيدة • كانت

الأرض عارية رطبة بعد الثلج . وفى مكان ما ينبعث صوت جرارة خارجة لحراثة ربيعية .

وصلت في الليل الى مركز المنطقة . وفى الصباح أزمعت على الذهاب الى حظيرة السيارات . كل شيء انتهى وضاع . ولكن على أن أعيش وأعمل. ومن يدرى ماذا يخبىء المستقبل...

كان طريق تيان شان حافلا بالحركة على سابق عهده . كانت السيارات تسير فى طوابير . غير اننى كنت أترصد سيارات حظيرتى للسيارات . وفى آخر الأمر رفعت يدى .

مرت السيارة بى خطفا ثم فرملت بشدة . واختطفت حقيبتى . وخرج السائق من القمرة . فاذا هو أرميك رفيق الجندية الذى تتلمذ على يدى فى الجيش . ويومذاك كان شابا . وقف ارميك صامتا مبتسما فى تردد :

ــ ألا تعرفنى ؟

وتذكر فى النهاية :

ــ العريف ... الياس . الياس عليبايف !

ــ بالضبط ! ــ قلت باسما بينما فى دخيلة نفسى تألمت كثيرا : يعنى اننى تغيرت كثيرا اذا كان الناس يتعرفون على بصعوبة .

وانطلقنا نتحدث أحاديث شتى ، ونسترجع ذكريات الجندية . وكنت طوال الوقت خائفا من أن يبدأ بالسؤال عن حياتى . ولكن أرميك كما يبدو لم يعرف شيئا عنى . وهدأت .

ــ متى عدت الى بلدتك ؟

ـ ها قد مضى عامان وأنا أعمل •
ـ وأين على بك جانتورين ؟
ـ لا أعرف • لم أجده • يقال انه الآن رئيس الميكانيكيين في حظيرة للسيارات في بامير •••

وفرحت في نفسي : « يا لك من شاطر يا على بك • شاطر يا صديقي • أنت فارس متين » • يعني انه نال مبتغاه • وحتى حين كان في الجيش كان يتعلم في المراسلة في مدرسة ثانوية لاختصاصيي السيارات وعزم على التخرج من المعهد بالمراسلة أيضا •

ـ هل الرئيس عمانجولوف ؟
ـ لا • جديد لقد رقي عمانجولوف الى منصب في الوزارة •
ـ ماذا رأيك : هل يشغلونني ؟
ـ لم لا ؟ يشغلونك بالطبع • سائق من الدرجة الأولى •
وفي الجيش كنت جنديا جيدا •

غمغمت :
ـ كان ذاك ! وهل تعرف جانتاي ؟
ـ ليس عندنا شخص بهذا الاسم • ولم أسمع قط به •
وفكرت : « نعم ! لقد تغيرت أشياء كثيرة في الحظيرة » •
ثم سألت :
ـ وماذا عن المقطورات ؟ هل تجرونها في عبوركم الممر ؟
قال أرميك ببساطة :

— بصورة اعتيادية ، حسب الحمولة • فاذا اقتضت الحاجة جهزوك بمقطورة وسحبت • والسيارات الآن جبارة •

لم يعرف كم كلفتنى تلك المقطورات •

وعلى العموم عدت الى حظيرتى العزيزة • وقد دعانى أرميك الى بيته وضيفنى ، واقترح أن نشرب بمناسبة لقائنا • الا اننى امتنعت • فأنا لم أحتس خمرة منذ زمن طويل •

وقوبلت فى الحظيرة مقابلة طيبة أيضا • وكنت ممتنا جدا لرفاقى الذين يعرفوننى على عدم مضايقتهم لى بالأسئلة • رأوا رجلا طوف قليلا ، ثم عاد يعمل فى نقاء سريرة وبصورة طيبة • فلماذا يثار الماضى ؟ أنا نفسى حاولت أن أنسى كل شىء ، أنساه الى الأبد • ومررت بمحطة الممر ، وهو المكان الذى قضيت فيه وقتا مع عائلتى ، مررت بسرعة دون أن أتلفت ، بل ولم أتزود بالوقود من محطة البنزين • ومع ذلك لم ينقذنى شىء • ولم يكن فى وسعى خداع نفسى •

عملت زمنا ليس بالقصير، واستأنست قليلا، وألفت السيارة وجربت المحرك على جميع درجات السرعة والمرتفعات • ومجمل القول اننى عرفت عملى •••

فى ذلك اليوم كنت عائدا من الصين • سرت بهدوء لا تشغل بالى فكرة ، أدير عجلة القيادة ، وأنظر يمنة ويسرة • كان الربيع مزدهرا فيما حولى • وعلى مدى منى نصبت خيام : وقد خرج رعاة قطعان الماشية الى المرعى • وتصاعد من الخيام دخان يمامى، وحملت الريح صهيل خيل ثائرة ، بينما كانت الأغنام تسرح قرب

الطريق• وتذكرت طفولتى المبكرة، وشجانى اذكارها ••• وفجأة، لدى طلوعى على البحيرة ، انتابتنى رعشة ــ كان هناك بجع !

وأتيح لى أن أرى للمرة الثانية فى حياتى بجعا ربيعيا على بحيرة ايسيك ــ كول • كانت تلك الطيور البيضاء تحوم فوق بحيرة ايسيك ــ كول الزرقاء • ولسبب لا أعرفه انحرفت عن الطريق رأسا ، وسرت بالسيارة عبر أرض غير محروثة مثلما فعلت فى المرة الفائتة •

ايسيك ــ كول ، يا ايسيك ــ كول ، يا أغنيتى التى لم تتم ! •• لم تذكرت ذلك اليوم الذى توقفت فيه أنا وآسيل على هذه التلة نفسها فوق نفس الماء ؟ نعم كان كل شىء كما كان فى المرة الماضية : الأمواج الزرقاء البيضاء التى يخيل اليك انها تمسك باليد تتلاطم واحدة بعد الأخرى على الشاطىء الأصفر • والشمس تأفل وراء الجبال ، وانبساط الماء يبدو ورديا فى المدى البعيد ، والبجع ينطلق بزعيق ظافر راعب ، مصعدا الى حالق، مسفا بأجنحة مبسوطة وكأنه يرسل صفيرا ، نافضا الماء ، مثيرا الدورات الفوارة الواسعة • نعم كان كل شىء ، كما كان فى المرة الماضية ، سوى ان آسيل ليست معى • فأين أنت الآن يا شجيرتى فى منديل أحمر ؟

أطلت الوقوف على الشاطىء • ثم عدت الى حظيرة السيارات ولم أطق صبرا فهمت على وجهى ••• ومرة أخرى ذهبت الى خمـــارة أطفىء ألمى المؤجج فى جوانحى • وخرجت فى ساعة متأخرة • كانت السماء داكنة غائمة ، والريح تهب من المضيق

وكأنها خارجة من ماسورة ، تهز الأشجار بضراوة ، وتصفر في الأسلاك ، وتضرب الوجه بالحصباء الكبيرة • ورددت البحيرة رجع الصدى وأنت • وعدت الى النزل في مشقة ، وألقيت نفسي في السرير دون أن أخلع ملابسي •

في الصباح لم أستطع أن أرفع رأسي ، كان يوجعني من خمار البارحة • خارج الشباك كان يسح مطر مزعج يتخلله ثلج واستلقيت زهاء ثلاث ساعات لا أريد الخروج الى العمل • هذه أول مرة يحدث لي فيها مثل هذه الحال ، ان أفقد السرور في العمل ثم خجلت من نفسي وخرجت •

سارت السيارة بفتور همة ، وبالأحرى كنت نفسي فاتر الهمة ـ وكان الطقس سيئا • وكان الثلج يغطي السيارات التي أقابلها • يعني ان الثلج تساقط في الممر • فليكن ، لست مكترثا حتى ولو هبت عاصفة ثلجية • لا تعنيني قلامة ظفر ، ولا أخاف شيئا، فالنهاية واحدة •••

كان مزاجي متعكرا • نظرت في المرآة فاعتراني غثيان من نفسي : غير حليق ووجهي منتفخ غير صاف الأديم ، وكأنني خارج من سقم • آه لو أصبت قليلا من الطعام في طريقي، فأنا لم أذق طعاما منذ الصباح • ولكن لم تكن لي رغبة في الطعام ، وكانت لي شهوة الى الشرب • ومعـــــروف انك لو استسلمت مرة الى شيء صعب عليك أن تنصرف عنه فيما بعد • وتوقفت عند محل لبيع المأكولات الباردة • وانشرحت نفسي قليلا بعد القدح الأول، واعتدل مزاجي • سارت السيارة أمرح • ثم انني نزلت مرة أخرى

في الطريق وشربت مائة غرام فودكا ، ثم اشفعتها بمقدار آخر • كان الطريق يعدو، وفرشتا التنظيف تروحان وتجيئان أمام عيني، وانحنيت وعضضت على سيكارتي بأسناني • لم أكن أرى غير السيارات الآتية منطلقة ناثرة على الزجاج نثار برك الماء • كما انني دست على البنزين مزيدا السرعة فقد كان الوقت متأخرا • وهبط على الليل وأنا في الجبال ، ليل موحش حالك • وهنا ظهر مفعول الفودكا وأعياني • صرت منهوكا متعبا • تراءت أمام عيني نقاط سود ، وشعرت باحتباس الأنفاس وأنا في القمرة ، والجو فيها حار • لم أكن قط في مثل هذه الدرجة من السكر • تصبب العرق على وجهي ، وخيل الى أنني لا أسير في سيارة بل أترنح على غمامتين منطلقتين الى أمام مندفعتين على ضوء المصباحين الأماميين • تارة أهوى الى الأسفل مع الغمامتين هويا حادا في مهواة عميقة مضاءة ، وتارة أصعد الى الأعلى على نيران مرتعشة، منزلقة على الصخور ، وتارة أبدأ بالسير في خط منكسر في أثر الغمامتين من جانب الى جانب • كانت قواى تزايلني في كل دقيقة • ولكني لم أتوقف ، عارفا ان توقفي ينتزع عجلة القيادة من يدي لا غير • أنا لا أستطيع أن أسوق السيارة • ولا أعرف بالضبط أين أنا ، في مكان ما من الممر • أوه يا دولون • دولون يا عملاق تيان شان ! ما أصعبك ! لا سيما في الليل وعلى الأخص لسائق ثمل •

صعدت السيارة في جهد الى مرتفع ، وهبطت متمايلة الى أسفل الجبل • ودار الليل وانقلب أمام عيني • ولم تعد يداى

تطيعانني . كانت سرعة السيارة تزداد بأطراد ، فانحدرت الى الأسفل . ثم صدر صوت صدمة شديدة ، واصطكاك ، وتوهج المصباحان توهجا ، ثم غشيت الظلمة عيني . وفي مكان ما من أعماق وعي وخزتني فكرة : « ارتطام ! » .

لا أذكر كم بقيت راقدا هكذا . سوى انني سمعت صوتا فجأة ، وكأنه صادر من قرار سحيق كأنما ينفذ الى أذني من خلال قطن : « نور ! » . وتحسست يدان رأسي وكتفي وصدري . وقال الصوت : « حي ولكنه سكران » . فأجاب آخر : « يجب تنحيته عن الطريق » .

ــ حاول يا صديقي أن تتحرك قليلا . لندفع السيارة جانبا ــ دفعتني يدان من كتفي بلطف .

تأوهت ورفعت رأسي بصعوبة . تقاطر الدم من جبيني على وجهي . وكان ثمة شيء في صدري يمنعني من رفع قامتي . وأشعل الرجل عود ثقاب ، ونظر الي . ثم أشعل ثانية ونظر الي مرة أخرى ، وكأنما لا يريد أن يصدق عينيه ...

وقال في الظلمة بأسف :

ــ ماذا حصل لك يا صاحبي ؟ كيف حدث ؟

سألت وبصقت دما :

ــ السيارة . هل تحطمت كثيرا ؟

ــ ليس كثيرا . الا انها ملقاة في عرض الطريق .

ــ حسنا . سأذهب الآن . اتركاني ــ حاولت بيدي

المرتجفتين غير المطيعتين أن أدير مفتاح السيارة ، وضغطت على جهاز التشغيل .

أمسكنى الرجل بقوة قائلا :

ـ كفى ، انتظر ! هيا ، أخرج . ونم الليلة . وفى الصباح سيتبين الأمر ...

أخرجانى من القمرة .

ـ ادفع السيارة الى الرصيف يا كميل . وهناك ندبر الأمر .

ألقى يدى حول كتفه وجرنى فى الظلام الى جانب الطريق . سرنا طويلا حتى وصلنا الى بيت . وساعدنى الرجل على الدخول الى البيت . فى الغرفة الأمامية كان يشتعل مصباح كيروسين . أجلسنى الرجل على مقعد ، وأخذ يخلع جبتى الفرائية . حينئذ نظرت اليه . وتذكرت : كان ذلك اخصائى الطرق بايتيمير الذى جررت معه سيارة ذات مرة فى الممر . شعرت بالخجل ، ولكننى فرحت . وأردت أن أعتذر وأشكره ولكن صوت وقوع أخشاب على الأرض حملنى على الالتفات . نظرت ورفعت جسمى ببطء وجهد ، وكأن ثقلا باهظا ينهد على كتفى . عند الباب قرب الحطب المبعثر كانت تقف آسيل . كانت تقف منتصبة بشكل غير طبيعى ، وتنظر الى وكأن الحياة قد فارقتها .

همست بخفوت :

ـ ما هذا ؟

كدت أصيح «آسيل» ، الا أن نظرتها النافره المترفعة لم

تدعنى أنبس بكلمة • أطرقت برأسى يلهبنى العار • وساد الصمت لحظة فى الغرفة الى حد الرهبة • ولا أعرف بأى شىء كان ينتهى كل هذا لو لم يكن بايتيمير أعادنى الى موضعى وكأن شيئا لم يحدث •

وقال بسكون :

ـ لا بأس يا آسيل • أصيب السائق قليلا ، سيشفى ••• والأفضل لو أعطيتنا شيئا من اليود •

ـ يود ؟ ـ وقد دفىء صوتها قليلا واضطربت فقالت :

ـ الجيران أخذوا اليود ••• الآن سأجابه ! ـ وخرجت من الباب •

جلست دون حراك أعض على شفتى • وكأن السكر قد تبخر من رأسى • صحوت فى لمحة عين • الا ان الدم كان يدق فى صدغى •

ـ يجب أن تغتسل أولا ـ قال بايتيمير وهو ينظر فى الخدوش على جبينى • وتناول جردلا وخرج •

أطل من الغرفة المجاورة طفل فى نحو الخامسة من العمر حافى القدمين عليه ثوب فقط • نظر الى بعينين واسعتين متطلعتين• وعرفته فى الحال • لا أدرى كيف ، ولكننى عرفته • عرفه قلبى •

همست بصوت مكبوت « سامات ! » رفعت جسمى نحو ولدى • فى تلك اللحظة ظهر بايتيمير على الباب ، وخفت لسبب لا أدريه • يبدو أنه سمعنى أنادى ابنى باسمه • وكنت فى

حراجة ، وكأننى لص أمسك متلبسا بجريمة . ولكى أخفف ارتباكى سألت فجأة ، وأنا أغطى الخدش فوق عينى بيدى :

ــ هل هذا ولدك ؟ــ ولكن أية حاجة لى فى هذا السؤال؟ حتى الآن لست قادرا على العفو عن نفسى .

ــ ابنى ! ــ قال بايتيمير فى ثقة رب المنزل ، ووضع الجردل على الأرض وحمل سامات بيديه وقال : ــ ابنى بالطبع . ملكى. أليس كذلك يا سامات ؟ ــ وقبل الطفل واخزا عنقه بشاربه . ولم يكن فى صوت بايتيمير ولا فى تصرفه أى ظل للرياء . ثم قال له : ــ لماذا لا تنام ؟ يا فلوى . عليك أن تعرف كل شىء . والآن اركض الى السرير .

وسأل سامات :

ــ وأين أمى ؟

ــ ستعود الآن . ها هى آتية . اذهب يا ولدى .

دخلت آسيل الحجرة ، ونظرت الينا نظرات سريعة محترسة. وأعطت بايتيمير قارورة اليود ، وقادت ابنها لينام .

بلل بايتيمير فوطة ، ومسح الدم من وجهى .
وقال مازحا لاسعا الخدوش باليود :

ــ اصبر ! ــ ثم قال بصرامة : ــ وددت أن أكويك على هذه الفعلة بصورة أقوى . ولكن لا بأس . أنت ضيف ... وكل شىء على ما يرام ، وستندمل . والآن يا آسيل أعدى لنا الشاى .

ــ طيب

فرش بايتيمير على البساط اللبادى لحافا قطنيا ، ووضع مخدة . وقال :

ـ غير مكانك الى هنا ، واسترخ قليلا .

تمتمت :

ـ لا حاجة .شكرا .

فألح قائلا :

أجلس . أقم وكأنك فى بيتك .

فعلت كل شيء وكأننى فى حلم . وكأن يدا كانت تعصر قلبى فى صدرى . وكل ما فى داخلى عانى توتر القلق والانتظار . آه لم ولدتنى أمى الى الدنيا ؟!

دخلت آسيل وحاولت أن تتحاشى النظر الينا تناولت السماور وخرجت الى الفناء .

وقال بايتيمير فى أثرها :

ـ سآتى الى مساعدتك يا آسيل ـ وهم فى اللحاق بها الا ان سامات عاد ثانية . ولم يرد أن ينام البتة .

هز بايتيمير رأسه فى طيبة وقال :

ـ ماذا تريد يا سامات ؟

وسألنى ابنى فى جد واقترب :

ـ جئت من السينما رأسا يا عم ؟

وفهمت المغزى . وقهقه بايتيمير . وضحك مقرفصا بالقرب من الولد :

ـ آه يا أحيمقى ... أنت تضحكنى . ذهبنا الى المنجم

لنرى السينما ــ والتفت نحوى ــ وكان معنا أيضا •••

وسايرت أنا المرح الشــائع فقلت :

ــ نعم جئت من السينما •

الا ان سامات عبس • وقال :

ــ غير صحيح •

ــ لماذا غير صحيح ؟

ــ أين السيف الذى حــاربت به ؟

ــ تركتــه فى البيت •••

ــ هل سترينى اياه ؟ غدا ؟

ــ سأريك اياه ، ولكن تعال الى هنا • ما اسمك ؟ سامات ؟

ــ سامات • وأنت يا عم ؟

ــ أنا ••• ــ وصمت ــ اسمى العم الياس ــ قلت ذلك بعسر •

وتدخل بايتيمير فى حــديثنا :

ــ اذهب يا سامات ، ونم فالوقت متأخر •

فطلب سامات :

ــ ممكن أن أسهر قليلا يابابا ؟

قال بايتيمير موافقــا :

ــ حسنا • وسنجلب الآن الشاى •

تقدم سامات نحوى • ومسدت على يده • وكان يشبهنى كثيرا حتى يديه كانت مثل يدى ، وضحكته تشبه ضحكتى •

قلت رغبة فى أن أبدأ الحديث مع ابنى :

ـ ماذا ستكون حين تكبر ؟

ـ سائقا .

ـ أتحب ركوب السيارة ؟

ـ جدا ، جدا ... ولكن لا أحد يحملنى حين أرفع يدى...

ـ سأحملك أنا غدا . أتريد ؟

ـ أريد وسأعطيك زهور اللعب ـ وهرع ليجلب الزهور.

ومن وراء الشباك تصاعد من مدخنة السماور لسان من اللهب وكان آسيل وبايتيمير يتحدثان عن شيء .

جلب سامات الى الزهور فى كيس من أدم شاة برية .

ـ اختر يا عم ! ـ ودلق أمامى أشياءه الملونة بألوان شتى.

أردت أن آخذ زهرة واحدة للذكرى . ولكن لم تسعفنى الجرأة . ففتح الباب ودخل بايتيمير يحمل السماور المغلى بيديه. وجاءت فى أثره آسيل . وشرعت تعد الشاى ، بينما وضع بايتيمير على البساط اللبادى منضدة صغيرة مستديرة ذات قوائم قصيرة ، وفرش عليها مفرشا . وجمعت مع سامات الزهور ، ووضعناها فى الكيس .

قال بايتيمير مداعبا اذن سامات برقة :

ـ أظهرت له ثروتك . يا لك من متباه صغير .

بعد دقيقة كنا جالسين ازاء السماور . وتظاهرت أنا وآسيل وكأن أحدنا لا يعرف الآخر . جاهدنا ان نكون هادئين ، ولعل هذا هو السبب فى صمتنا أكثر الوقت .

كان سامات جالسا على ركبة بايتيمير فكان يلتصق به ويدور رأسه :

ـ اوه . دائما شاربك يوخز يا بابا ـ ولكنه التصق به واضعا خـده على شـاربه .

لم يكن بالأمر الهين جلوسى قرب ابنى ، وأنا غير قادر أن أسميه بهذا الاسم ، بينما أسمعه ينادى شخصا بـ « بابا » . لم يكن بالسـهل على أن أعرف ان آسيل ، محبوبتى آسيل ، جالسة بالقرب منى ، وليس لى الحـق فى أن أنظر فى عينيها رأسا . ما الذى جاء بها الى هنا ؟ هل أحبت وتزوجت ؟ وانى لى أن أعرف ما دامت هى تبدو وكأنها لا تعرفنى ، كأننى شخص غريب تماما لاتعرفه ؟ أمن المعقول انها صارت تكرهنى على هذا النحو ؟ وبايتيمير ؟ أحقا انه لم يحزر حقيقة وضعى ؟ أحقا انه لم يلاحظ تشابه سامات لى ؟ لماذا لم يذكر لقاءنا فى الممر حين جررنا السيارة وراءنا ، أم انه نسى حقا ؟

وعظمت حسرتى حين أوينا الى مضاجعنا . كان فراشى على هذا البساط اللبادى استلقيت وأدرت وجهى الى الحائط . وكان المصباح مخفض الفتيلة بينما جمعت آسيل الأوانى .

ـ آسيل ! ـ ناداها بايتيمير بخفوت عبر الباب المـوارب للغرفة الملاصقة .

وأقبلت آسيل .

ـ لو غسلته .

تناولت آسيل قميصى ذا المربعات الملطخ بالدم كله وشرعت

تغسله . الا انها قطعت الغسيل فى نفس اللحظة وتقدمت نحو بايتيمير . وسمعتها تسأل :

ــ وهل سكبتم الماء من البراد ؟ فقد يصيبه التجمد فجأة ...

أجاب بايتيمير بنفس الهدوء :

ــ سكبناه . سكبه كميل . والسيارة سالمة تقريبا ... فى الصباح سنساعده ...

أنا نفسى قد نسيت : لم تخطر ببالى برادات ولا محركات .

أتمت آسيل غسيل القميص ، ونشرته فوق الموقد ، وتنهدت عميقا . وأطفأت المصباح وخرجت .

وعم الظلام . أعرف اننا جميعا لم ننم . خلا كل واحد منا مع أفكاره الخاصة . اضطجع بايتيمير مع ابنى فى سرير واحد . همس بشىء رقيق وكان بين الحين والآخر يغطى سامات حين كان هذا يتقلب مضطربا فى نومه . كانت آسيل بين آونة وأخرى تتنهد تنهيدة مكتومة ، وبدا لى ، وكأننى أرى عينيها فى الظلام، تلمعان نيرتين . أغلب الظن أنهما كانتا مغرورقتين بالدموع . بم فكرت وبمن ؟ أصبحنا اها الآن ثلاثة ... ربما كانت تقلب فكرها ــ مثلما أفعل أنا ــ بكل الأشياء الرائعة والحزينة التى تربطنا معنا . ولكنها الآن تعز عن المنال ، وكذلك أفكارها . لقد تغيرت فى تلك السنوات ، وتغيرت عيناها ... لم تكن تينك العينين الوادعتين المشعتين بالنقاء وبساطة النفس . أصبحنا أحد . ولكن آسيل ظلت بالنسبة الى نفس الفتاة ، نفس شجيرتى فى

منديل أحمر كما كانت من قبل • فى كل امارة لها ، فى كل حركة حدست شيئا مألوفا عزيزا • وهذا ما يزيد مرارة نفسى ، يزيد تكدرى وتعذيبى • ومن قنوطى عضضت بأسنانى رأس المخدة ، واستلقيت دون أن أغمض عينى حتى الصباح •

كان القمر وراء الشباك يغوص ويطلع من وراء السحب المتحركة •

وفى الصباح الباكر حين خرجت آسيل وبايتيمير الى الفناء لشؤون المنزل نهضت أنا أيضا • كان على أن أغادر ، ومشيت بحذر وتقدمت نحو سامات وقبلته ، وخرجت من الغرفة مسرعا •

كانت آسيل تسخن الماء فى الفناء بقدر كبير موضوع على أثاف من الحجارة • وكان بايتيمير يكسر الحطب • وتوجهت معه الى السيارة • سرنا صامتين ندخن •

وتبين أن السيارة اصطدمت يوم أمس بصوى من صوى الطريق ، وقد انطرحت صوتان منها مرتميتين مع أساسيهما السمنتيين • بينما تهشم من السيارة أحد مصباحيها ، وانعوج رفرف والدعامة ، وانشق اطار • وقد أصلحنا كل هذه الأشياء بالمخل والمطرقة • ثم بدأنا بعمل طويل مرهق اذ أصيب المحرك بالصقيع وتجمد • سخنا المحرك بحرق القطن • وقد أدرنا الهندل بكلتا اليدين • واحتكت اكتافنا ، والتهبت أكفنا على هندل واحد وزفر أحدنا بوجه الآخر • كنا نفعل شيئا واحدا ، وربما كنا نفكر بشىء واحد أيضا •

واستسلم المحرك فى حدة • ولهثت أنفاسنا • خلال ذلك جاءت آسيل بجردلين من الماء الحار ووضعتهما أمامى صامتة ، وانتبذت جانبا • سكبت الماء فى البراد • وأدرت الهندل مع بايتيمير مرة ثم أخرى ، وأخيرا اشتغل المحرك • جلست فى القمرة • وكان المحرك لا يشتغل على نسق واحد ، بل فى تقطع • ورفع بايتيمير غطاء المحرك، وحشر رأسه فيه مع مطرقة يتأكد من سلامة الشرر • فى تلك اللحظة جاء سامات راكضا لاهثا فى معطف غير مزرر • وهرول حول السيارة يريد أن يركب فيها مسافة • أمسكت آسيل ابنها ووقفت قرب القمرة لا تدعه يفلت • ونظرت الى فى تبكيت وألم وشفقة حتى كنت فى تلك اللحظة مستعدا لأن أفعل ما تريد لو أنها فقط تغفر ذنبى وتعود الى مع ابنى • ملت نحوها من خلال الباب المفتوح وقلت متوسلا وسط ضجيج المحرك :

ـ آسيل ! خذى ابنك واجلسى الى جانبى • وسأحملك كما فعلت من ذى قبل ، الى الأبد • اجلسى !

لم تقل آسيل شيئا ، بل حولت عينيها اللتين أظلمتا بالدموع ، وهزت رأسها رفضا •

فجرها سامات من يدها قائلا :

ـ لنذهب يا ماما • نركب قليلا !

الا أنها ذهبت دون أن تلتفت مطرقة برأسها الى الأسفل • وتراجع سامات غير راغب فى الابتعاد •

وصاح بايتيمير :

انتهى ! — وأعاد الغطاء ، وقدم الى الاداة وأنا فى القمرة.

وأقلعت . وعجلة القيادة بين يدى مرة أخرى . والطريق والجبل مرة أخرى . وحملتنى السيارة دون تأثر بما حدث ... هكذا عثرت على آسيل وابنى فى الممر ، وهكذا التقينا وافترقنا. وقد فكرت طوال الطريق الى الحدود والعـودة منها دون أن أظفر بمخرج . وتعبت من الأفكار التى لا نهاية لها ... والآن ينبغى على أن أرحل ، أرحل الى حيث يمتد البصر ، وما ينبغى على أن أبقى هنا .

عزمت على ذلك بقوة . وعدت بهـــذه الأفكار . وعند مرورى فى نقطة الطريق رأيت سامات . كان يلعب فى ناحية مع طفل وصبية كانا أكبر منه بقليل — وقد بنوا حوشا من الحجارة، وحظائر للمواشى . ولعلى قد لاحظتهم قرب الطريق من قبـل أيضا ... يعنى أننى فى كل يوم تقريبا ، كنت أمر غـير بعيـد من ابنى دون أن أحزر ذلك . أوقفت السيارة وناديت :

— ســامات !

أردت أن ألقى عليه نظرة . وهرع الأطفال نحوى .

وجاء سامات يهـــرول :

— هل جئت يا عم لتركبنا الســيارة ؟

قلت :

— نعم . أصعدوا لأسير بكم قليلا .

وصعد الأطفال الى القمرة فى وداد .

وقال سامات متباهيا على تربيه :

ـ هذا عمنا الذى نعرفه .

سرت بهم مسافة قصيرة ، ولكن ما أعظم السعادة والفرح اللذين أحسست بهما . أحسب أنهما كانا أكثر من سعادة الأطفال وفرحهم . ثم أنزلتهم .

ـ الآن اذهبوا الى البيت .

وهرع الأطفال فأوقفت ولدى :

ـ انتظر قليلا يا سامات . أريد أن أحدثك بشيء! وأخذته بيدى ورفعته فوق رأسى عاليا . ونظرت الى وجهه مليـا ، ثم حضنته فى صدرى ، وقبلته ، وأنزلته على الأرض .

وتذكر سامات :

ـ وأين السيف ؟ هل جلبته يا عم ؟

ـ أوه ، لقد نسيت يا ولدى . سأجلبه فى المرة القادمة ـ قلت له واعدا .

ـ والآن لا تنسى يا عم . ها ؟ سنلعب فى نفس المكان .

ـ حسنا . والآن هرول بسرعة .

فى ورشة النجارة فى الحظيرة صنعت ثلاثة سيوف للعب ، وأخذتها معى .

كان الأولاد بانتظارى حقا . حملتهم مرة أخرى فى السيارة . وهـــكذا نشأت صـــداقتى مع ابنى وتربيه . وتعـودا على سريعا . وكانوا يجرون فى الطريق متسابقين نحوى وأنا ما أزال على مســافة بعيدة .

ـ السيارة . جاءت ســيارتنا !

وردت لى الحياة ، وصرت انسانا • أخرج الى الرحلة وروحى نشوى ، يخامرنى شعور لذيذ • وأعرف أن ابنى ينتظرنى فى الطريق • وأجلس بالقرب منه فى القمرة ولو دقيقتين • كل همومى وأفكارى محصورة فى شيء واحد ، هو الوصول الى ابنى فى وقت مناسب • وكنت أحسب حسابى لأصل الى الممر نهارا • وصارت الأيام دافئة وربيعية ، وكان الأطفال دائما يلعبون فى الشارع • فكنت أجدهم فى الطريق غالبا • كنت أتصور أننى أعيش وأعمل من أجل هذا فقط ، وبهذا كنت سعيدا • ولكن قلبى أحيانا كان ينعصر رعبا • فلربما عرف الناس فى نقطة الطريق أننى أركب الأطفال أو ربما لم يعرفوا ، ولكنهم قد يمنعون ابنى من الالتقاء بى ، ولا يسمحون له بالخروج الى الطريق • خفت كثيرا ، وتضرعت بينى وبين نفسى الى آسيل وبايتيمير ان لا يفعلان ذلك ، وان لا يحرماننى حتى من هذه اللقاءات القصيرة • ولكن ذلك ما حدث ذات مرة •••

اقترب عيد الأول من أيار • وعزمت على أن أقدم لابنى هدية بمناسبة العيد • اشتريت سيارة بنابض ، وعلى شكل لورى • وفى ذلك اليوم لبثت طويلا فى حظيرة السيارات وخرجت فى وقت متأخر ، وعلى استعجال شديد • وربما الى هذا السبب يعزى ما خامرنى من توقع شيء غير مريح، ومن قلق واضطراب لا أساس له • وحين اقتربت من نقطة الطريق أخرجت الحزمة ووضعتها الى جانبى راسما فى خيالى كيف سيفرح سامات بها • وقد كانت له لعب أحسن ، ولكن هذه هدية خاصة من سائق

الطريق الذى يعرفه الى طفل يحلم بأن يكون سائقا ، ولكن سامات لم يكن فى الطريق هذه المرة • هرول ترباه نحوى من دونه • وخرجت من القمرة :

ـ أين سامات ؟

أجاب الطفـل :

ـ فى البيت • مريض •

ـ مريض ؟

فقالت الصبية شارحة فى لهجة عرفان :

ـ لا • لم بمرض ولكن أمه لا تدعه يخرج الى هنا •

ـ لمـاذا ؟

ـ لا أدرى • تقول لا يجوز •

وتكدرت • تلك نهاية كل شىء •

ـ خذ • احملها اليه ـ أعطيت الطفل الحزمة • الا أننى غيرت فكرى قائلا ـ أو لا • ليس من اللازم ـ واسترجعتها • وذهبت الى السيارة مطرقا •

وسأل الطفل أخته :

ـ لماذا لا يحملنا العم ؟

فأجابت فى تقطيب :

ـ هو مريض •

نعم • لقد حزرت الصبية • لقد اعترانى شىء أسوأ من كل مرض • ورحت أفكر طوال الطريق كيف أمكن أن تكون آسيل قاسية على بهذا الشكل • أمن الممكن أن تنضب فيها كل قطرة

من الشفقة على مهما أكن سيئا . لا . لست موقنا من ذلك . ليس هذا من شمائلها . هناك شيء آخر . وما هو ؟ ليس لى أن أعرف ... وحاولت أن أقنع نفسى ان ابنى قد توعكت صحته حقا . ولم لا أصدق الطفل ؟ واقنعت نفسى حتى رحت أتخيل كيف أن ابنى يتقلب محموما هاذيا ... وربما تنبغى مساعدتهم فى شيء ما ، جلب الدواء أو ايصاله الى المستشفى ؟ فانهم يعيشون فى الممر . وليس فى شارع كبير من شوارع المدينة ! وتعذبت كثيرا . وعدت أدراجى فى عجل غير متصور فى ذهنى ما بوسعى أن أفعل وكيف أتصرف ، ودون أن أعرف غير شيء واحد : اننى أريد أن أرى ابنى بأسرع وقت . وكنت مؤمنا بأننى سألقاه . لقد أنبأنى قلبى بذلك . ومن سوء الحظ أن الوقود فى الخزان قد نفد وكان على أن أتوقف عند محطة بنزين فى محطة الممر...

★★★

صمت رفيقى فى السفر اليائس ، ومسح بباطن كفه وجهه الملتهب ، وتنهد تنهيدة ثقيلة وفتح الشباك الى آخره ، وكم من مرة سحب أنفاسا من لفافته .

وكان الليل قد انتصف منذ وقت طويل ، ولعل جميع ركاب القطار قد آووا الى مضاجعهم الا نحن . كانت العجلات تدق على السكة أغنية السفر اللانهائية . ومن وراء الشباك كان الليل المنير يغذ السير ، ومرقت أضواء المحطات الصغيرة ، كان القطار يصفر فى سيره صفيرا قويا .

ــ تلك هى المرة التى تقدمت فيها نحوى يا آغاى وامتنعت

أنا عن حملك . والآن هل وضح السبب ؟

وابتسم جارى فى استغراق فكرى . ــ وبقيت عند محطة البنزين ثم تجاوزتنى فى سيارة « بوبيدا » . لقد لاحظت ذلك ... نعم ذهبت وأنا قلق على نحو مرعب . ولم يخدعنى حدسى . فقد كان سامات فى انتظارى على الطريق . وحين رأى السيارة هرول معترضا طريقى .

ــ عمى ! عمى ! يا سائق !

طفلى معافى اذن ! آه ما أشد فرحى . كانت سعادتى تعز عن أن يحتويها حضن !

توقفت ، وقفزت من القمرة ، وهرولت للقاء ابنى .

ــ ماذا بك ؟ تمرضت ؟

قال سامات شاكيا :

ــ لا ! أمى لم تسمح لى . تقول : لا تركب فى سيارته. وبكيت أنا .

ــ وكيف خرجت الآن ؟

ــ يقول بابا : اذا كان الرجل يحب أن يركب الأطفال فى سيارته ، فليركب .

ــ هكذا !

ــ وقلت أننى سأصير سائقا ...

ــ ستصير سائقا وأى سائق ! هل تعرف ماذا جلبت لك؟

ــ وأخرجت السيارة اللعبة ــ أنظر اليها سيارة لورى تسير بمحرك . أحسن ما يناسب السواق الصغار !

وابتسم الطفـــل وفرح • وقال ناظـرا الى بعينين فيهما رجـاء :

ــ سأركب معك دائما دائما • ها يا عمى ؟

وعدته مطمئنا :

ــ بالطبع دائما • واذا أردت فنذهب الى المدينة فى عيـد أول أيار • سنزين السيارة بالأعلام ، ثم أعود بك •

يصعب على الآن أن أوضح السبب فى قولى هذا ، وأى حق كان لى ، ولماذا ، وهذا هو الرئيسى ، صدقت أنا بنفسى بذلك فجأة • وعلاوة على ذلك تماديت أكثر • فعرضت على ابنى بشـــكل جدى للغاية :

ــ واذا أعجبك ابق معى الى الأبد وسنعيش فى القمرة ، وسأحملك معى أنى أذهب • ولن أتركك ولن أفارقك • أتريد؟

قال سامات على الفـــور :

ــ أريد • وسنعيش فى السيارة • نذهب يا عمى • نذهب الآن !

وبحدث أن ينقلب الرجل الراشــــد طفلا • وجلسنا فى القمرة • وأدرت مفتاح السيارة بوجل ، ودست على المشـــغل• وسامات فرح يحضننى مداعبا ويقفز على المقعد • وســــارت السيارة ، وزادت فرحة سامات ، وضحك ، وقال لى شيئا مشيرا الى عجلة القيادة ، والى ازرار لوحة المقاييس وانشرحت أنا معه• ثم عدت الى صوابى ، والتهبت • ماذا أفعل ؟ وفرملت • ولكن سامات لم يرد ان أقف طالبا منى :

ـ أسرع . يا عمى . لنذهب أسرع .

وكيف لى أن أرفض رجاء عينين طفولتين سعيدتين ؟ضغطت على البنزين . وما أن سرنا بسرعة حتى ظهرت قدامنا حفـــارة كاشطة لاصلاح الطريق . استدارت وتقدمت نحونا ووراءها كان يقف بايتيمير يسوى الأرض فى المنعطف بمشـــط . وارتبكت وأردت أن أتوقف ، ولكن الفرصة فاتت ، فقد ابتعدت بالطفـــل كثيرا . انحنيت أكثر ، وضغطت على البنزين فى يأس . ولم يلاحظ بايتمير شيئا . كان يعمل دون أن يرفع رأسه . فما أكثر السيارات العابرة فى كل دقيقة . الا أن سامات رآه :

ـ هذا بابا ! عمى . نأخذ بابا معنا ؟ قف وأنا أناديه ؟

صمت وكان الوقوف الآن غير ممكن . ماذا أقول له ؟ وفجأة نظر سامات الى الخلف ، جفل وصاح وبكى :

ـ أريـــد أن أذهب الى بابا ! قف ! أريد بابا ! قف ! لا أريد ! ماما ! ..

وفرملت واتجهت بالسيارة وراء الصخور فى المنعطف . ورحت أهدىء ابنى :

ـ لا تبك . لالزوم ياسامات ... سأعيدك الآن . ولكن لا تبـــك !

ولكن الطفل المرتعب لم يرد أن يعرف شيئا . راح يضرب الباب ويقول :

ـ لا . لا أريد . الى بابا . افتح ! أريد أن أركض الى بابا ! افتـــح !

وهكذا وقع حـدث غير متوقع •

ــ قلت متوسلا :

ــ ولكن لا تبك • سأفتح الآن ولكن اهدأ ! سأقودك بنفسى الى بابا • هيا أخرج • لنذهب •

قفز سامات على الأرض ، ورجع راكضا باكيا • وأمسكت به :

ــ قف قليلا • امسح دموعك • لا لزوم للبكاء • أرجوك يا ولدى الحبيب لا تبك • وسيارتك هل نسيتها ؟ ايظـر ! ــ وتناولت السيارة وبرمت لولبها بيدين مرتجفتين ــ أنظر كيف تجرى نحوك • أمسكها ! ــ وسارت السـيارة فى الطريق ، واصطدمت بالحجارة ، وانكفأت منقلبة فى الأخدود •

انفجر سامات باكيا بكاء أشد من ذى قبل قائلا :

ــ لا أريد ! ــ وابتعد عنى دون أن يلتفت •

وشعرت بغصة حارة فى حلقى • وركضت ألحق بولدى:

ــ تريث • ولكن لا تبك يا سامات • قف ! أنا ••• أنا ••• أتعرف من أنا ••• ــ ولكنى لم أتجرأ على قول الحقيقة •

وجرى سـامات دون أن يلتفت ، واختفى فى العطفة •

وجريت الى الصخرة ، وتوقفت أنظر فى أثر ولدى •

رأيت سامات يقرب من بايتيمير الذى كان يعمل فى الطريق، ويرتمى عليه • فرفص بايتيمير واحتضنه ، وعانقه • وألقى الطفل يديه على رقبته أيضا ناظرا الى وجهتى فى ذعر •

ثم أمسكه بايتيمير من يده ، وألقى مشطه على كتفه وسارا

في الطريق : الكبير ، والصغير .

وقفت طويلا منزويا الى صخرة ، ثم رجعت وتوقفت عند السيارة اللعبة . كانت ترقد في المجرى وعجلاتها الى فوق . وتساقطت الدموع على وجهي . وقلت لسيارتي الكبيرة : «هذه النهاية !» . ومسحت غطاءها . وشعرت بدفء المحرك . والآن ثمة شيء عزيز حتى في السيارة التي شهدت آخر لقاء لي مع ابني .

★★★

ونهض الياس واتجه نحو الممر .

وقال وهو عند الباب :

ـــ أريد أن أستنشق هواء نقيا .

وبقيت في المقصورة . كانت سماء السحر تنطلق وراء النافذة بشكل خط أبيض ، وأعمدة التلغراف تمرق بصورة غير واضحة . وكان من الممكن اطفاء الضوء .

استلقيت على السرير وفكرت هل أقول لالياس ما صار معروفا لدي وما لم يكن يعرفه ؟ ولكنه لم يعد . ولم أقل له شيئا .

★★★

أتيح لي أن أتعرف على اخصائي الطريق بايتيمير في نفس الوقت الذي عرف فيه الياس أن آسيل وابنه يعيشان في الممر ..

وفي بامير كانوا ينتظرون وفد عمال الطرق من قرغيزيا .

وبهذه المناسبة كلفتنى جريدة الجمهورية التاجيكية بأن أكتب عن عمال الطرق الجبلية القرغيزيين •

كان بايتيمير كولوف من بين أعضاء الوفد • وكان من أحسن اخصائيى الطرق •

سافرت الى دولون لاتعرف على بايتيمير •

والتقينا بصورة غير متوقعة ، وموفقة بالنسبة لى فى البداية • أوقف باصنا عامل يحمل بيده علما أحمر فى مكان ما من الممر • وقد ظهر أن انهيارا جبليا قد حدث من توه ، وأن عمال تصليح الطريق عاكفون الآن على تنظيفه • خرجت من الباص وتوجهت نحو محل الانهيار • وكان بولدوزر يلقى التراب من على المنحدر • وفى الأماكن التى لم يستطع أن يستدير كان العمال المزودون بالمدكات والارفاش يفعلون ذلك • وتقدم رجل يلبس مشمعا وحذاء غليظا طويلا مع سيارة بولدوزر يعطى الأوامر لسائقها :

— الى اليسار ! سر مرة أخرى ! سر على هذا التراب • هكذا ! قف ! ارجع ! ••

وأعيد الطريق الى حالته السابقة • ودق السواقون بمنبهات سياراتهم فى شدة من كلا الجانبين ، وتصايحوا طالبين فتح الطريق • بينما كان الرجل صاحب المشمع يعطى الأوامر بهدوء غير ملتفت الى ذلك ، وجعل البولدوزر يمر على الطريق جيئة وذهوبا يسوى التربة • وقلت لنفسى : « احسب انه بايتمبير • سيد صنعته ! » ولم أكن على خطأ ، فقد كان بايتيمير

كولوف حقا . وفى آخر الأمر فتح الطريق ، وسارت السيارات فى الاتجاهين .

قال لى بايتيمير :

ــ لم أنت باق والباص قد ذهب ؟

ــ جئت اليك .

لم يبد بايتيمير دهشته . بل هز يدى فى عزة وبساطة .

ــ أنا سعيد بأن أضيفك .

قلت له مخاطبا اياه بصيغة التحبب المستعملة بين المعارف:

ــ لى شأن معك يا باكه . أنت تعرف ان عمال الطرق من أبناء جمهوريتنا يجب أن يسافروا الى تاجيكستان ؟

ــ سمعت بذلك .

ــ حسنا . أردت أن أتحدث اليك قبل سفركم الى بامير.

بينما كنت أشرح الغاية من مجيئى كان بايتيمير يزداد تقطيبا وهو يمسك شاربه الخشن الأسمر فى استغراق .

قال :

ــ ان وصولك شىء حسن . ولكننى لست ذاهبا الى بامير، فلا لزوم للكتابة عنى .

ــ ولكن لماذا ؟ اشغال ؟ أم قضايا بيتية ؟

ــ أشغالى هى الطريق . أنت ترى بنفسك . أما فى البيت ؟ ــ وصمت واخرج سيكارة ــ كما أن فى البيت أشغالا أيضا بالطبع كما هى للجميع وعائلة ... ولكن لست ذاهبا الى بامير .

أخذت أقنعـــه وأشرح له كيف من المهم أن يكون بين أعضاء الوفد أخصائيو طرق مثله • وقد أصغى بايتيمير تأدبا على الأكثر ولم أوفق فى اقناعه •

وغضبت كثيرا ، ومن نفسى قبل كل شيء • خانتنى حاستى المهنية فلم أجد وسيلة مناسبة للاقتراب من هذا الرجل • وكان على أن أعود خائبا دون أن أحقق مهمة الجريدة •

ـ ما العمل يا باكه ! أعذرنى • أنا ذاهب ••• ستأتى الآن أية سـيارة عابرة •••

نظر الى بايتيمير فى امعان بعينين هادئتين ذكيتين وتلاشت ابتسامته فى شاربه :

ـ القرغيزيون من أهل المدن ينسون العادة • عندى بيت وعائلة ومضيف ومبيت • وما دمت قد جئت الى فأخرج غـدا من البيت لا من الطريق • فتعال أوصلك الى زوجتى وابنى • ولا تتأثر • على أن أقوم بجولة فحص الطريق قبل هبـــوط الظلام • وسأعود حالا • هذه طبيعة عملى •••

فطلبت اليـــه قائلا :

ـ انتظر يا باكه • لاذهب معك فى دورتك •

قلص بايتيمير عينيه فى مكر ، ونظر الى بدلتى الحضرية •

ـ ولكن يبدو ليس من المريح لك أن تتجـول معى • المسافات طويلة والطرق متعرجة •

ـ لا بأس •

وذهبنا ، وتوقفنا عند كل قنطرة ومنعطف ، عند كـل

هوة وصخرة متدلية • وبالطبع كنا نتبادل بعض الحديث • وحتى الآن لا أدرى من أى شيء ، وبأية كلمة ، وبأية صورة اكتسبت ثقة وتجاوب بايتيمير • وقد حدثنى عن كل تاريخه وتاريخ أسرته •

قصة أخصائى الطرق

لقد سألتنى لم رفضت الذهاب الى بامير • أنا نفسى قرغيزى من بامير وقد وجدت نفسى هنا فى تيان شان • منذ أن كنت صبيا تقريبا الفيت نفسى فى بناء طريق بامير • اذ ذهبت استجابة لنداء الكومسومول • وعملنا بحرارة وفى شغف لا سيما الشبان منا • ومفهوم هذا لأن الطريق يستهدف جبل بامير المنيع • وصرت عاملا من عمال الصدام وحصلت على جوائز ومكافآت • وأنا أقول ذلك للمناسبة •

وفى موقع البناء التقيت بفتاة ، وأحببتها • أغرمت بها غراما شديدا • وكانت فتاة طيبة جميلة ذكية • خرجت من قريتها الى البناء • وكان هذا فى ذلك الزمان ليس بالأمر البسيط على فتاة قرغيزية • وحتى الآن ليس سهلا جدا طريق الفتيات فأنت تعرف بنفسك ان العادات ما تزال تعترضها • وانقضى نحو عام • وشارف بناء الطريق نهايته • وكان ينبغى ايجاد كادر لاستثمار الطريق • والبناء نصف القضية ، ويمكن أن تقيم به قوى مشتركة ، ثم ينبغى أن تتوفر الكفاية لرعاية الطريق • وكان بيننا مهندس شاب اسمه حسينوف ، وهو يعمل حتى الآن فى ميدان

الطرق وهو أخصائى ضليع . وقد نشأت صداقة بيننا . فأقترح على أن أذهب الى دورة دراسية . وفكرت أن غولبارا لن تنتظرنى وسيأخذونها الى القرية . ولكنها انتظرتنى . تزوجنا . وبقينا هناك فى نقطة الطريق . عشنا فى مودة وصفاء . ويجب القول ان الأسرة المتينة والزوجة تعنى الشيء الكثير على الأخص بالنسبة لعمال الطرق الذين يعيشون فى الجبال والممرات . وقد أحسست بذلك فيما بعد . واذا كنت قد أحببت عملى الى الأبد فان فضلا غير قليل فى هذا يعود الى زوجتى . ورزقنا بطفلة ، ثم بثانية . ونشبت الحرب فى هذا الوقت بالذات .

وصار طريق بامير وكأنه النهر فى المطر الغزير . وتدفق الناس الى الأسفل منخرطين فى الجيش .

وجاءت نوبتى أيضا . وفى الصباح خرجنا جميعا من بيتنا الى الطريق . وحملت ابنتى الصغرى بين يدى ، وسارت الكبرى بالقرب منى ملتصقة بى . مسكينة غولبارا الحبيبة ! تجلدت وحاولت أن تكون رابطة الجأش ، وحملت حقيبتى العسكرية . ولكننى كنت أعرف كيف سيصعب عليها أن تبقى فى الجبال الخالية من الناس ، فى نقطة الطريق مع طفلتين صغيرتين . واعتزمت نقلها الى أقربائى فى القرية . ولكن غولبارا لم ترد ذلك . وقالت : سنتحمل ، وسننتظرك . ثم لا يجوز ترك الطريق دون عناية ... آخر مرة وقفنا على الرصيف . ونظرت الى زوجتى والى طفلتى ، ودعتهن . كنت أنا وغولبارا فى ريعان صبانا حينئذ . وكانت حياتنا فى بدايتها ...

وانخرطت فى هندسة الميدان . وكم صنعنا فى أرض الحرب من طرق ومعابر وجسور ! بلا حساب . سرنا عبر الدون وعبر فيسلا وعبر الدانوب . وتعرضنا الى التجمد فى المياه الجليدية والى الاشتعال فى الدخان واللهيب ، وتفجرت القذائف فيما حولنا ، ودمرت المعابر ، وقتل الناس . ونفدت قواى . فلو اقتل فليكن موتى عاجلا . ولكن ما أن أتذكر الأسرة التى تنتظرنى فى الجبال حتى أمد بقوة . وقلت لنفسى : أنا لم أطلع من بامير لأقتل هنا تحت الجسر . وعضضت بأسنانى على السلك الذى يربط عوارض الجسر فلم استسلم ... ولم أمت . وتوغلت حتى برلين تقريبا .

كانت زوجتى تكتب لى غالبا ما دام البريد يمر ببيتنا فى الطريق . كتبت لى كل شىء بالتفصيل ، وعن الطريق أيضا ، فقد أصبحت مراقبة بدلا منى . وعرفت أن ذلك مرهق لها ، فالطريق ليس طريقا اعتياديا ، بل طريق جبل بامير .

ولم تنقطع الأخبار عنى الا فى ربيع عام ١٩٤٥ . وقد انقطعت فجأة . والمعروف ان كل شىء يمكن أن يحدث فى الجبهة ، وهدأت نفسى . وذات يوم استدعيت الى هيئة أركان الكتيبة . وبعد الديباجة شكرونى على مساهمتى فى القتال وقلدت رتبة عريف ونياشين وقالوا لى أيضا : انك عائد الى الوطن لأنهم الآن أحوج اليك هناك . وفرحت بالطبع . بل وأرسلت برقية الى العائلة ومن شدة فرحى لم أفكر لماذا سمحوا لى بالعودة قبل الميعاد ...

ووصلت الى مكانى ، ولم أذهب الى اللجنة العسكرية • ما يزال هناك متسع من الوقت ، سأذهب اليها مرة أخـــرى• فلأذهب الى البيت ! الى البيت ! سريعا ! والتقيت بسيارة لورى مارة • وصعدت فيها فى طريق بامير الى الجبل •

آه لو كان لى جناحان ! لقد تعودت على أن أســـافر فى سيارات ميدان • وصحت بالسائق فى قمرته :

ــ أسرع يا صاحبى • لا تشفق على سيارتك العجوز • أنا ذاهب الى البيت !

ودنت المسافة • ونقطة الطريق وراء المنعطف • فقد نفد صبرى • وقفزت والسيارة ســـائرة ، وحقيبتى على كتفى • وهرولت • وظللت أجرى ، وتجاوزت المنعطف ••• ولا أعرف شيئا • كأن كل شيء فى مكانه : الجبال فى أماكنها ، والطريق ذاته • ولكن لا بيت ! •• ولا أحد فيما حولى ••• لا شيء غير أكوام الحجارة • كان بيتنا قائما على انفراد تحت الجبل نفسه• والأماكن هناك ضيقة • وما أن نظرت الى الجبال حتى صعقت • وقع انهيار ثلجى من المنحدر ، وجرف معه فى طريقه كل شيء من على الأرض ، ولم يبق على شيء ، وكأن برثنا حادا انتزع أرضا من المنحدر وحفر خندقا هائلا فى الوادى الى الأســـفل• وقد كتبت زوجتى فى رسالتها الأخيرة أن سقوط الثلوج كان ضخما ، وقد هطلت الأمطـــار فجأة • وكان ينبغى نسف الكتلة الجليدية مقدما ، وانزالها الى أسفل • ولكن أهذا من عمـــل النســـاء ؟

هكذا اذن التقيت بأسرتى ! واجهت الموت ألف مرة ، وعدت من جهنم حيا . أما هن فكأنهن لم يكن هنا ... وقفت لا أستطيع حراكا . أريد أن أصرخ وأعول حتى تهتز الجبال ، فلا أستطيع. تحجر كل شىء فى ، وكأن الحياة فارقتنى. لا أسمع غير صوت انزلاق حقيبتى على كتفى ، وسقوطها قرب قدمى . وتركتها هناك . وكنت قد جلبت الهدايا لابنتى ولزوجتى ، اذ بادلت بعض اللباس بشىء من الحاوى فى طريقى ... وقفت طويلا وكأننى أنتظر معجزة تحدث . ثم استدرت وذهبت راجعا . وتوقفت مرة ونظرت : الجبال تميد من جانب الى آخر ، تتحرك وتنقض على . وصرخت وهرولت . بعيدا ! بعيدا عن هذا المكان الملعون! وبكيت حينذاك ...

لا أتذكر كيف والى أين ذهبت . وفى اليوم الثالث وجدت نفسى فى محطة سكة حديد أشق طريقى بين الناس كالمأخوذ . ونادانى ضابط باسمى . وأنظر فأرى حسينوف عائدا الى بيته بعد أن سرح . وقصصت عليه نكبتى . وسألنى : « الى أين أنت ذاهب الآن ؟ » . انا نفسى لا أعرف . قال : « لا . ان يسير الأمر هكذا ! تجلد . لا أدعك تهيم على وجهك وأنت وحيد . تعال الى تيان شان تشق طريقا . وهناك سينجلى الأمر ... »

وهكذا جئت الى هنا . فى السنوات الأولى انشئت الجسور على الطريق . وتقدم الزمن . وكان ينبغى ايجاد عمل استقر فيه بصورة دائمة . وفى ذلك الحين كان حسينوف يعمل

فى الوزارة • وكان يكثر التردد على فأشار على بالعودة الى عملى السابق كاخصائى طرق فى النقطة • ولم أعزم • كنت متخوفا • فى موقع البناء لم أكن وحيدا بل مع آخرين ، والأمر أسهل • أما هناك ، فمن يدرى فقد يستولى على الغم فأهلك وأنا حتى ذلك الحين لم أفق من هول الصدمة ، ولم يغب الماضى عن ذهنى • وكأنما الحياة قد انتهت عند هذا الحد ، ولا شىء فى المستقبل• ولم يكن الزواج يخطر ببالى • فقد أحببت غلبـــاراى وابنتى كثيرا • وبدا لى أن أحدا لن يشغل مكانهن أبدا • وأن أتزوج لمجرد أن أعيش ليس صوابا • والأفضل ان أظل وحيدا •

ولكننى عزمت بعد تفكير على العمل فى النقطة كاخصائى• عزمت على أن أحـــاول • واذا أخفقت ذهبت الى مكان ما • وأعطونى نقطة هنا فى المـــــر ذاته • ولا بأس تكيفت وألفت بالتدريج • ربما لأن النقطة كثيرة الحركة والعمل : ممر • وهذا أفضل لى وخفف عنى مع مرور الزمن • وهدأ الألم فى روحى، وفل حده • فى أحيان فقط كنت أحلم بأننى واقف متحجر أمام المكان الذى كان فيه البيت وأحس كيف انزلقت الحقيبة عن كتفى ••• فى تلك الأيام كنت أطلع منذ الصـــباح الى الطريق ولا أعود الى البيت الا فى ساعة متأخرة من المساء • وهكذا بقيت وحيدا • حقا كانت تنتابنى أحيانا فكرة حزينة : « لكن ربما انعم بالسعادة مرة أخرى ؟ » •

وجاءت السعادة صـــعبة مشقية حـــين كنت اقل ما أكون انتظـــارا لهـــا •

ذات يوم قبل زهاء أربع سنوات مرضت أم جاري • وكان جاري نفسه يجد عسرا فى الخروج من البيت • فقد كان له عمل وعائلة وأطفال ، وحال العجوز تتردى من يوم الى آخر • فقررت عرضها على الأطباء • وقد جاءت فى هذا الوقت بالذات سيارة الى النقطة من دائرة الطرق تحمل شيئا • فذهبنا فيها الى المدينة• وأراد الأطباء ادخال العجوز الى المستشفى • ولكنها لم تقبل وقالت : سأموت فى البيت ولا أريد أن أبقى • فعد بى والا صببت اللعنات • وهكذا اضطررت الى الرجوع بها • وكان الوقت متأخرا ، واجتزنا قاعدة الممر • وفجأة أوقف السائق السيارة ، وسمعته يسأل :

ـ الى أين ؟

وأجابه صوت نسائى بشىء • وسمعت وقع خطوات • وقال السائق :

ـ اجلسى • لماذا لا تجلسين ؟ ـ وتقدمت السيارة نحوها•

واقتربت منا امرأة شابة تحمل طفلا بين ذراعيها وصرة صغيرة • وساعدتها على الصعود الى حوض السيارة ، وهيأت مكانا لها عند القمرة حيث تهب الريح أضعف ، وانزويت أنا فى ركن •

سرنا • وكان القرس مرعبا ، والريح تعصف رطبة • وبكى الطفل فهدهدته ، ولكنه لم ينو السكوت • أية مصيبة ! لو كنت أجلستها فى القمرة ! ولكن العجوز هناك تكاد تموت • حينئذ لمست كتفها :

— أعطينه فربما يهدأ • واطوى ظهرك قليلا فتخف وطأة الريح •

أخفيت الطفل تحت جبتي ، وضغطته على • وهدأ وراح ينخر من أنفه • طفل لطيف فى نحو الشهر العاشر من عمره • حميته تحت جناحى الأيسر • وفجأة رف قلبى فى صدرى • لست أعرف لماذا خفق مثل طير جريح • وتنازعنى الحزن والفرح وقلت فى نفسى : « أحقا أننى لن أكون أبا أبدا ؟ » والطفل ملتصق بى غير مبال بشىء •

سألت :

— طفل ؟

هزت رأسها • ورأيتها متجمدة بردا ، فقد كان المعطف الذى عليها خفيفا • وكنت فى الشتاء ارتدى مشمع مطر فوق الجبة. اذ كان يتعذر علينا العمل بدونه • أمسكت بالطفل ، وبسطت لها ردن المشمع السائبة •

— اسحبى المشمع عنى • فقد تتجمدين وأنت على هذه الحال •

قالت ممتنعة :

— لا • لا تقلق •

قلت :

— اسحبيه • اسحبيه ، واحتمى من الريح •

وتدثرت فى المشمع ، وحشرت حاشيته تحت قدميها •

— هل تدفأت قليلا ؟

ـ تدفأت •

ـ ولم أنت فى هذا الوقت المتأخر ؟

أجابت بخفوت :

ـ هذا ما حـدث •••

خلال ذلك سرنا فى المضيق • وكانت هنا حاضرة لعمال المناجم • وقد هجع الجميع ، والنوافذ مظلمة • وركضت الكلاب خلف السيارة نابحة • وهنا قفز الى ذهنى : الى أين هى ذاهبة ؟ كنت أظن أنها ذاهبة الى المنجم ، وما من مكان آخر بعده غير الممر ونقطتنا فيه •

قلت لها وقرعت القمرة :

ـ أظنك قد وصلت • لم تبق الا مسافة قليلة الى الممر • والسيارة لا تذهب أبعد •

سألت :

ـ وماذا هنا ؟

ـ منجم • الست قاصدة اليه ؟

ـ أنا ••• أقصده ـ قالت فى تردد • الا أنها نهضت سريعا ، واعطتنى المشمع ، وحملت طفلها على ذراعيها • وفى الحال بدأ الطفل يشهق • لا بد انها واقعة فى مأزق • فهل تترك فى الليل وحدها ؟

قلت بصريح العبارة :

ـ ليس لك مكان تذهبين اليه • فلا تسيئى الظن • أعطينى الطفل ـ وانتزعته بالقوة تقريبا ـ لا ترفضى ، وأقضى الليل

عندنا فى النقطة • والأمر هناك متروك لك • هذا كل شيء !
ــ وصحت على السائق :
ــ لنذهب !

وسارت السيارة • وجلست صامتة تدفن وجهها فى كفها • لا أعرف ربما كانت تبكى •

قلت مهدئا :

ــ لا تخافى ! لن اسيىء لك ••• أنا أخصـــائى الطرق بايتيمير كولوف • وبوسعك أن تثقى بى •

وانزلتهما عندى • كانت عندنا حجرة صغيرة شاغرة فى ملحق الفناء • فاستلقيت هناك على سرير خشبى ولم أنم كثيرا• وأطلت التفكير • وكنت متأثرا • وليس من اللائق أن أستجوبها فأنا نفسى لا أحب ذلك • ولكن السؤال واجب على أية حال ، فقد يكون الانسان بحاجة الى مساعدة • أجابت مكرهة وبدون رغبة • ومع ذلك فقد حزرت ما لم تقله • وحين يصيب الانســان هم يخفى وراء كل كلمة تقال عشرا لم تقل • خرجت من البيت هاجرة زوجها • فلا بد انها ذات عزة • ولاحظت انها تقاسى وتشقى ولكنها غير منهارة • وكل انسان يتصرف حسب ما يشاء• وهى تعرف أمرها أحسن • ومع ذلك فقد رثيت لها • امرأة ماتزال فى ريعان صباها ، مثل فتاة هيفاء • أغلب الظن انها رقيقة وصافية القلب • فكيف تجرأ الانسان أن يوصلها الى حد بأنها ألقت كل شيء ، وخرجت ؟ ولكن هذا شأن يخصهم • سأضعها غدا فى سيارة عابرة ، ومع السلامة • تعبت فى ذلك اليوم •

ونست وخيل الى انني أسير في سيارة • وتحت جبتي طفل ادفأته وضممته الى صدري •

ونهضت عند الفجر • وخرجت في جولة ، ولكنني عدت سريعا • وفكرت كيف حال ضيفي هناك ؟ وأشعلت الموقد بحذر مخافة ان يستيقظا ، وأعددت السماور • ولكن تبين لي انها قد استيقظت من قبل وتهيأت للذهاب • وشكرتني • ولم أتركهما يذهبان دون أن يشربا الشاي ، وجعلتهما ينتظران قليلا • وظهر ان رفيق السفر الصغير طفل مسل • وكان اللهو معه متعة كبيرة •• وسألتها ونحن جالسون الى الشاي :

ــ الى أين تذهبين ؟

فكرت وأجابت :

ــ الى ريباتشيه •

ــ وهل أقاربك هناك ؟

ــ لا • أهلي في قرية وراء توسور •

ــ أوه يعني يجب ان تحولي واسطة النقل • هذا غير مريح •

فقالت لولدها ساهمة :

ــ وأنا لا أريد الذهاب الى القرية ولا يجوز لنا ان نذهب اليها • فنحن مذنبان •

حدست انها ، على الأغلب ، قد تزوجت بغير رضى والديها • وهذا ما ظهر فيما بعد •

استعدت للخروج الى الطريق • ولكنني أقنعتها بالتريث

قليلا ، وان تجلس الآن فى البيت فلا تقف مع الطفل فى الريح . وفى وسعى أنا أن أوقف سيارة .

وخرجت الى الطريق مثقل النفس . لا أعرف لم . ولكن التفكير بأنهما ذاهبان الآن ، وبأننى سأعود الى الوحدة ثانية قد أحزننى وأوحشنى .

فى البدء لم أقع على سيارة عابرة ، ثم تركت واحدة تذهب دون أن أرفع يدى . ثم فزعت من ذلك . لم أفعل هذا ؟ وهنا بدأت عذاباتى . تتابعت السيارات وأنا أتغافل عنها . وأقول لنفسى : سأوقف السيارة المقبلة ، ثم لا أرفع يدى مرة أخرى . وتوهجت حرارة . انها تنتظر هناك وتأمل . وشعرت بالنفور من نفسى ، ولكننى عاجز عن الاقدام . أتقدم فى الطريق ثم انكص عنه ، متعللا بهذا السبب أو ذاك . أقول : هذه القمرة باردة فالزجاج مكسور ، وتارة أقول : ليست هذه السيارة التى أبتغيها ، وتارة ثالثة : ليس السائق كما أحب ، متشيطن ، وربما لحيس خمرة . وحين أرى سيارات قمراتها مشغولة أفرح كالطفل . ليس الآن . ليبقيا قليلا فى البيت ، ولو خمس دقائق . ثم أقول لنفسى : « والى أين تذهب ؟ الذهاب الى القرية متعذ عليها . قالت ذلك بنفسها . والذهاب الى ريباتشيه ؟ أين تنزوى هناك مع طفلها ؟ سيهلك ، فالفصل شتاء . الأحسن أن تظل هنا . وتعيش ردحا ، وتتروى بالأمر . فقد تعود الى زوجها أو يعثر هو عليها ... »

أوه . أية عقوبة . كان الأولى بى أن أوصلها الى الطريق

رأسا وأبعثها ! قضيت زهاء ثلاث ساعات على هذا المنوال أراوح في مكاني . ومقت نفسي . وفكرت : لا ، لأوصلهـا الى هنا ، وبحضورها أوقف سيارة . والا فلن أصل الى نتيجة . وعدت الى البيت . فرأيتها خارجة من الباب وقد أضناها الانتظار . واستحيت . نظرت اليها مثل طفل ارتكب سوءا . وهممت :

ـ تعبت من الانتظار ؟ ما من سيارات عابرة ، أو بالأحرى مناسبة . أعذريني ... لا تفكرى بشيء ... بالله عليك . اذهبى الى البيت دقيقة . أرجوك جدا !

نظرت الى مندهشة حزينة . وعادت الى البيت صامتة . وسألت :

ـ أأنت ترثى لحـالى ؟

ـ لا . ليس لهذا السبب . أتفهمين ... أخشى عليك . ستلاقين صعوبة . كيف ستعيشين ؟

ـ سأشتغل فقد تعودت على العمل .

ـ أين ؟

ـ يمكن أن أجد عملا ما . ولكن لن أعود اليه ، ولن أذهب الى القرية . سأشتغل وأعيش .

لزمت الصمت . وماذا كان بوسعى ان اعترض ؟ انها لم تفكر بأى شيء الآن . نطق بلسانها الشقاء والكرامة . وكانت هذه المشاعر تدفعها الى قدر مجهول . ولكن من السهل أن تقول : سأشتغل وأعيش . ولا يحصل هـذا رأسا . ولكن لا يجوز اكراه انسان على شيء .

مال الطفل نحوى • وحملته على ذراعى وقبلته وفكرت « ما أحلاك من طفل ! علينا الآن أن نتفارق وقد أصبحت عزيزا على كأنك ابنى ••• » •

قلت فى هدوء :

ـ اذن • لنذهب !

ونهضنا وحملت الطفل • الا اننى توقفت فى الباب وقلت:

ـ ولكن ، يوجد عندنا عمل • يمكن أن تمكثى وتشتغلى• وهناك شقيقة صغيرة • حقا أمكثى • ولا تتعجلى ففى وسعك أن تسافرى فى أى وقت • فكرى •••

لم تقبل فى البداية • ولكننى أقنعتها بعد جهد •

وهكذا بقيت آسيل وابنها سامات عندنا فى نقطة الطريق•

وكانت الغرفة الملحقة بالبيت باردة ، وقد ألححت على آسيل بان تعيش مع ابنها فى بيتى • وانتقلت أنا الى تلك الغرفة • ولائمنى ذلك كثيرا •

منذ ذلك الحين صارت حياتى شيئا آخر • وكأن لم يتغير شىء • بقيت وحيدا كسابق عهدى ـ ولكن الانسان قد انتعش فى داخلى ـ دفئت نفسى بعد وحدانية طويلة • بالطبع كنت فى الماضى أعيش بين الناس ، ولكنك تستطيع أن تعيش معهم جنبا الى جنب ، وتعمل وتتصادق ، وتشاركهم فى قضية واحدة ، تساعد وتتلقى مساعدة ، ومع ذلك فان هناك جانبا من الحياة لا يعوض بشىء • وتعلقت بالطفل • فكنت حين أخرج فى دورة ادثره بدثار دافىء وآخذه معى ، وأحمله فى الطريق • وأقضى

معه كل أوقات فراغى • ولم أتصور كيف عشت من قبل • وكان جيرانى أناسا طيبين أحسنوا معاملة آسيل وسامات • ومن لا يحب الأطفال ؟ وآسيل فتاة رقيقة النفس ، صافيتها سرعان ما أحبها الناس فى النقطة • وبسببها اشتد تعلقى بالطفل • ولم أخفى هذا ؟ لم أخف هذا عن نفسى رغم محاولتى اخفاءه أحببتها • أحببتها على الفور وللحياة كلها ، ومن كل قلبى • واندمج فى هذا الحب كل ما عانيته فى سنوات الوحدانية ، كل أتراحى وعذاباتى ، كل ما فقدته • ولكن لم يكن الحق لى فى أن أبوح بذلك • فقد كانت تنتظره • انتظرته طويلا رغم انها لم تظهر ذلك • وكثيرا ما لاحظت ونحن نعمل فى الطريق انها كانت تستقبل وتودع كل سيارة عابرة بعينين مترقبتين • وذات مرة حملت ابنها ، وخرجت الى الطريق وقضت هناك ساعات ، ولكنه لم يظهر • لا أعرف من كان وكيف كان • لم أسأل عن ذلك • وهى لم تحدثنى قط •

وانقضى زمن • ونما سامات طفلا فطنا لامعا ! لا أعرف هل علمه أحد أم تعلم بنفسه كيف يدعونى « بابا » • ما ان يرانى حتى يرتمى على عنقى : « بابا ! بابا ! » وكانت آسيل تبتسم ناظرة اليه فى سهوم • وكنت أفرح وأتألم • كنت مسرورا لو أكون له أبا • ولكن ما بليد حيلة •••

فى صيف ذلك العام كنا نصلح الطريق وجاءت السيارات لتعبر • وفجأة صاحت آسيل على سائق :

ـــ جانتاى ! قف !

وسارت السيارة دون توقف ثم فرملت • وهرعت آسيل الى السائق • ولا أعرف ماذا تحـدثا هناك • ولكننى سمعت صياحها فجأة :

ـ أنت تكذب ! لا أصدق بك ! اذهب من هنا ! اذهب حالا !

وتابعت السـيارة سـيرها ، واندفعت آسيل عبر الطريق راكضة الى البيت • يبدو انها كانت تبكى •

وتعسر العمل علىّ • من هو ؟ وماذا قال لها ؟ وانتابتنى شتى الريب والظنون • ولم أتحمل فذهبت الى البيت ولكن آسيل لم تخرج • ومع ذلك فقد ذهبت اليها فى المساء •

ـ أين سامات ؟ لقـد أوحشنى •

أجابت فى اكتئـاب :

ـ ها هو !

مال سامات نحوى قائلا : «بابا» • ورفعته بيدى وتسليت • أما هى فكانت جالسة مهمومة صامتة •

سألت :

ـ ماذا حدث يا آسيل ؟

صعدت آسيل زفرة عميقة وأجابت :

ـ أنا راحلة يا باكه • لا لان حياتى هنا سيئة • أنا ممتنة لك جدا • ولكننى أريد الرحيل • الى أين أولى وجهى ••• لا أعـرف الى أين •••

أرى انها تستطيع أن ترحل حقا . ولم يكن أمامى بد من قول الحقيقة :

ـ لا حق لى يا آسيل فى أن أمنعك من الرحيل . ولكننى أنا الآخر لن أعيش هنا . على أن أرحل أيضا . وقد هجرت بالفعل مكانا فارغا ذات مرة . ولا حاجة الى الشرح . فأنت نفسك تعرفين القصة . ولو رحلت لتكررت نفس قصتى كما حدث فى بامير . ففكرى يا آسيل ... ولو يعود ويحن قلبك الى الماضى فلن أعترض سبيلك ، انت دائما حرة يا آسيل .

وبهذه الكلمات حملت سامات وخرجت الى الطريق . وسرت به طويلا . ولم يفهم طفلى الصغير شيئا .

ولم ترحل آسيل حينئذ . ولكن ماذا فكرت وماذا اعتزمت؟ لكم ذبلت فى تلك الأيام وأظلم وجهى .

وذات مرة أدخل الفناء فى الظهر فأرى سامات يسعى جاهدا ليمشى ، وآسيل تسنده . فتخاف أن يقع . فأتوقف .

ابتسمت آسيل فى حبور قائلة :

ـ أنظر يا باكه ان ابنك أخذ يمشى .

كيف قالت ؟ ابنك ! ألقيت الجاروف . وجلست القرفصاء ودعوت الطفل الى :

تعال . تعال . يا ربعى* الى ، الى . دس برجليك على الأرض . دس بجرأة !

---

* الربع : ابن الجمل الصغير . (المعرب) .

بسط سامات يديه .

ــ بابا ! ــ ضلع برجليه وتعجل . وسارعت بامساكه ورفعته فوق رأسى عاليا ثم ضممته الى صدرى بقوة .

قلت لآسيل :

ــ تعالى يا آسيل نحتفل غدا بعيد «فتح الطريق» للطفل . فاعدى خيطا من الصوف الأبيض والأسود .

قالت ضاحكة :

ــ حسنا يا باكه .

ــ نعم . نعم من الصوف الأبيض والأسود بالتأكيد ...

وجلست على فرس وخببت الى أصدقائى من مربى المواشى وجلبت اللبن المختر ، ولحما طازجا . وفى اليوم التالى دعونا جيراننا الى عيد طفلنا ، عيد « فتح الطريق » .

ووضعت سامات على الأرض . وشددت رجليه بالخيط الأسود والأبيض ، وكأننى أوثق عقاله . ووضعت بالقرب منه مقصا وأوعزت للأطفال الواقفين فى الطرف الآخر من الحوش :

ــ من يصل أولا ويقص الخيط ينل الهدية الأولى . والآخرون بالدور . انطلقوا يا أطفال ــ وهززت يدى .

وانطلق الأطفال يجرون فى صياح وكأنهم فى سباق .

وحين قص الخيط قلت لسامات :

ــ تعال يا ولدى . الآن اجر ! خذوه يا أطفال معكم .

أمسك الأطفال سامات من يديه ، وقلت أنا على الأثر غير مخاطب أحدا :

ـ أيها الناس هذا فلوى يجرى على الأرض • فليكن عداء خفيف القوائم !

هرول سامات وراء الأطفال ثم التفت : « بابا » ثم وقع • واندفعت أنا وآسيل اليه فى الحال • وحين رفعته عن الأرض قالت لى آسيل لأول مرة :

ـ يا عزيزى !

••• وهكذا صرنا زوجا وزوجة •

وفى الشـــتاء سافرنا مع ابننا الى والديها العجوزين فى القرية • وقد غضبا طويلا واضطررنا الى أن نجيب أنا وآسيل عن كل شىء • وقصصت عليهما الحقيقة كلها ، كل ما حدث • وصفحا عن آسيل ، صفحا من أجل الحفيد ، من أجل مستقبلنا •

وسار الزمن دون أن نحس به • والآن بلغ سامات الخامسة وأنا مع آسيل على وفاق فى كل شىء ما خلا موضوعا واحدا لا نتطرق اليه قط ، وشخصا واحدا لا نتذكره أبدا • وكأن بيننا اتفاقا صامتا : لا وجود لذلك الشخص بالنسبة لنا •

ولكن الحياة لا تسير أبدا بالشكل الذى تهواه ! فقد ظهر هنـــا منذ وقت وجيز جدا •••

وقع حادث فى الطريق • الوقت ليـــلا • وهـــرعت مـــع جارى ومساعدى لنعرف ماذا حدث • ووصلنا • واذا هى سيارة حمل اصطدمت بصوى • والسائق قد أصيب ، وكان فاقد الوعى تقريبا وسكران • وعرفته ولكننى لم أستطع تذكر اسمه • فقد أخرجنا من مأزق ذات مرة ، وجر سيارتنا الى الممر • وليس ذلك

بالأمر الهين فى طريق دولون • ولم يحدث هذا من قبل • وتبين انه الفتى الهمام المستميت الذى سحب سيارتنا فى نقطتنا • وقد أعجبنى كثيرا حينذاك ودخل قلبى • وبعد ذلك بوقت قصير وصل شخص الى الممر يجر مقطورة ولم تبق له الا مسافة قصيرة جدا • الا ان شيئا فى الظاهر قد أعاقه • وأوقع السائق المقطورة فى أخدود فتركها وذهب وقد سألت نفسى آنذاك : ليت شعرى أهو ذلك الفتى المستميت • تأسفت على أن هذا الجسور لم يصل الى ما يريد ولكن السيارات بعد ذلك أخذت تسحب وراءها مقطورات وتعبر الممر • فقد فكر الشبان فى القضية ، ونهضوا للأمر بصورة صحيحة •

وأقول صدقا اننى لم أعرف فى الوهلة الأولى انه كان الشخص الذى هجرته آسيل • ولكننى لو عرفت لما فعلت غير ذلك • وجرته الى البيت • وعلى الفور وضح كل شىء • فى تلك اللحظة دخلت آسيل تحمل الحطب • وما ان وقع بصرها عليه حتى تساقط الحطب على الأرض • ومع ذلك فقد تغافلنا جميعا ، وتظاهرنا وكأننا نلتقى لأول مرة • وعلى الأخص كان على أن أضبط نفسى • لكيلا أؤذيهما بأية كلمة غليظة أو تلميح حتى لا أعرقل ان يفهم أحدهما الآخر من جديد • لم أقرر شيئا فى هذا الصدد ، بل هما اللذان قررا : كان بينهما ماضيهما ، وكان بينهما ابنهما الذى نمت معه فى السرير ضاما اياه الى جانبيا •

لم ينم أحدنا فى تلك الليلة • وراح كل واحد منا يفكر

بما فى ذهنه وغرقت أنا فى أفكارى أيضا .

تستطيع أن تذهب آسـيل مع ابنها . ذلك حق لهما . فلينصرفا كما يمليه القلب والعقل . أما أنا ... فليس لى حاجة الى الكلام . ولا تتعلق هذه المسألة بى . وما ينبغى لى أن أقف معترضا ...

وهو حتى الآن هنا ، يسير فى طريقنا . فأين كان تلك السنوات وماذا اشتغل ؟ لا أهمية لذلك ... انه من شأنهما ...

★★★

عدت مع بايتيمير من جولته . دنا المساء وحل غروب ربيعى مدخن على السـماوات فوق قنن تيان شان الثلجية . كانت السيارات تنطلق فى جادة الطريق فى هدير .

وقال بايتيمير فى سهوم بعد أن سـاد صمت :

ــ تلك هى القصة . والآن ينبغى على ان لا أترك البيت . واذا ارتأت آسيل الرحيل ، فليكن ضميرها صافيا ، ولتحدثنى بذلك ، ولأقل لابنها آخر كلمات الوداع والنصيحة فهو أعز الأعزاء عندى . ولا أقدر على انتزاعه منهما ... ولهذا السبب ترانى لا أبرح هذا المكان أبدا لا سيما الى بامير . وأنا أقص عليك هذا لا لينشر فى الجريدة . مجرد حديث انسان لانسان ...

بدلا من الخاتمة

افترقت مع الياس فى أوش . ذهب هو الى بامير . وأنا الى مهمتى .

وقال الياس حالما :

ـ سأصل وأبحث عن على بك وأبدأ حياة جديدة • فلا تحسبنى رجلا ميئوسا منه • سيمر وقت وأتزوج وسيكون لى بيت وعائلة وأطفال ، وبكلمة أخرى كل ما للناس • وسأجد أصدقاء ورفاقا سوى شيء واحد لن يكون لى ، هو ما فقدته الى غير رجعة والى الأبد ••• وستظل فى ذاكرتى آسيل ، وكل ما كان جميلا بيننا ، سيظل فى ذاكرتى الى آخر أيامى ، وحتى آخر رمق •

وأطرق الياس مفكرا ، وبعد أن صمت قليلا استأنف يقول :

ـ فى يوم رحيلى ذهبت الى البحيرة ، ووقفت على ذلك التل الشديد الانحدار • وودعت جبال تيان شان وبحيرة ايسيك ـ كول : وداعا ايسيك ـ كول يا أغنيتى التى لم تتم ! وددت لو أحملك معى بزرقتك وشطئانك الصفر • ولكن هيهات ذلك، مثلما هيهات أن أحمل معى حب محبوبتى • وداعا يا آسيل • وداعا يا شجيرتى فى منديل أحمر • وداعا يا حبيبتى ولترافقك السعادة ! ••

محتويات

مقـدمة ٥
المعلم الأول ١٣
وداعا يا غولساري ٩٩
شجيرتي في منديل أحمر ٣٨٩

الى القراء

ان دار التقـدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حـول موضـوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، وأعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١

موسكو ـ الاتحاد السوفييتي

أعلام الأدب السوفييتى

• تصدر دار التقدم ابتداء من عام ١٩٧٣ سلسلة جديدة : « التقدم • أعلام الأدب السوفييتى » تضم أعمالا لأعظم رجال الأدب السوفييتى المتعدد القوميات • وسيطلع القارىء الأجنبى لأول مرة على صورة كثيرة الشمول وبمنهجية للطريق الذى قطعه الأدب السوفييتى خلال أكثر من نصف قرن ممثلا فى أنصع ظواهره الفنية وتعدد أساليبه وأشكاله الأدبية : الرواية ، القصة الطويلة ، القصة القصيرة ، الشعر ، الدراما •

ان السلسلة الجديدة هى سجل فنى حى لحياة الشعب السوفييتى وتاريخه وحاضره •

سيصدر فى عام ١٩٧٧ : « الطلقات الأخيرة » ليورى بونداريف ، و « الحدوة المكسورة » لعليم كيشوكوف ، و « ثلاث مسرحات عن الثورة » وغيرها •

تصويب

نرجو قراءة السطر ١٤ فى ص ٣٦٦ بعد السطر ١١ ،
والسطر ١٨ فى ص ٤٤٦ بعد السطر ١٦ .

منتديات مكتبة العرب

http://www.library4arab.com/vb

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٧/٣٣٦٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٣١ ٠

٦٠ قرشا

التقدم

أعلام الأدب السوفييتي

« أصحيح أن الكاتب القرغيزي المشهور تشينغيز ايتماتوف عمل سائقا على شاحنة في الطرق الجبلية ؟ هل كان اختصاصيا بتربية الدواجن حقا ؟ كيف أتيح له أن يبدأ بمثل هذا العنفوان والجرأة ، كاتبا في الثلاثين من عمره أول قصة كبيرة ، وفي الخامسة والثلاثين يحوز على جائزة لينين ، ثم بعد خمسة أعوام ـ جائزة الدولة ؟ .. »

هذه وغيرها الكثير من الأسئلة يوجهها القراء في رسائلهم الى ايتماتوف . يمكن الجواب على هذا ببساطة : نعم ، كله صحيح ! والى جانب ذلك يختفي تحت هذه البساطة العالم الروحي الابداعي الهائل للكاتب والانسان .

من غير شك تشينغيز ايتماتوف ظاهرة نادرة بقوته ونقاء موهبته . معه نبع في الأدب السوفييتي جدول رومانتيكي جديد خاص ، عنيف لكنه في نفس الوقت ناعم ، جد عال لكنه ايضا يجري بثبات في الأرض .

كل أعمال ايتماتوف تجمعها روح شعرية عميقة ووطنية . أو كما لاحظت الصحافة الأجنبية « يكمن ينبوع الأريج الشعري لأعمال ايتماتوف في التشابك المتين للعالم الروحي للانسان المعاصر بالحماسة العالية لشاعرية الشعب الشرقي القديم » .

منتديات مكتبة العرب
www.libraray4arab.com/vb